مقدمة الشارح

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشده أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد من الله تعالى علينا بشرح "العقيدة الواسطية" التي ألفها شيخ الإسلام ابن تيمية في عقيدة أهل السنة والجماعة تقريراً على الطلبة الذين درسوها علينا في المسجد، ومن أجل حرصهم على حفظ التقرير، قاموا بتسجيله ثم تفريغه كتابة من أشرطة التسجيل.

ومن المعلوم أن الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير، لأن الأول يعتريه من النقص والزيادة مالا يعتري الثاني.

وقد تقدمت عدة مكاتب نشر بطلب طباعته.

ولكن، لما كان الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير، لذا رأيت من المهم أن أقرأ الشرح بتمثل من أجل إخراج الشرح على الوجه المرضي، ففعلت ذلك ولله الحمد وحذفت مالا يحتاج إليه، وزدت ما يحتاج إليه.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره، إنه قريب مجيب.

المؤلف

محمد بن صالح العثيمين

27/3/1415هـ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإنه هذا الكتاب الـذي يسـمى "العقيـدة الواسـطية" ألفه حبر الأمـة في زمانـه: أبـو العبـاس، شـيخ الإسـلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميـة الحـراني، رحمه الله، المتوفى سنة 728هـ.

ولهذا الرجل من المقامات ـ التي يشكر عليها والتي نرجو من الله له المثوبـة عليهـا ــ في الـدفاع عن الحـق ومهاجمـة أهـل الباطـل مـا يعلمـه كـل من تتبـع كتبـه وسبرها، والحقيقة أنه من نعم الله على هذه الأمـة، لأن الله سبحانه وتعالى كف بـه أمـوراً عظيمـة خطـيرة على العقيدة الإسلامية.

وهــذا الكتــاب كتــاب مختصــر، يســمى "العقيــدة الواسطية"، ألفه شيخ الإسلام، لأنه حضر إليـه رجـل من قضـاة واسـط، شـكا إليـه مـا كـان النـاس يعانونـه من المـذاهب المنحرفـة فيمـا يتعلـق بأسـماء اللـه وصـفاته، فكتب هذه العقيدة الـتي تعـد زبـدة لعقيـدة أهـل السـنة والجماعة فيما يتعلـق بـالأمور الـتي خـاض النـاس فيهـا بالبدع وكثر فيها الكلام والقيل والقال.

وقبل أن نبدأ الكلام على هذه الرسالة العظيمة نحب أن نبين أن جميع رسالات الرسـل، من أولهم نـوح عليـه الصـلاة والسـلام، إلى آخـرهم محمـد ، كلهـا تـدعو إلى التوحيد.

قال الله تعالى:]وما أرسلنا من قبلك من رسـول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون[[الأنبياء: 25].

وقـال تعـالى:]ولقـد بعثنـا في كـل أمـة رسـولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت[[النحل: 36].

وذلـك أن الخلـق خلقـوا لواحـد وهـو اللـه عـز وجـل، خلقوا لعبادته، لتتعلق قلوبهم به تألهاً وتعظيماً، وخوفـاً ورجاء وتوكلاً ورغبة ورهبة، حتى ينسلخوا عن كل شـيء من الدنيا لا يكون معينـاً لهم على توحيـد اللـه عـز وجـل في هذه الأمور، لأنك أنت مخلوق، لابد أن تكون لخالقك، قلباً وقالباً في كل شيء.

ولهذا كانت دعوة الرسل عليهم الصلاة والسـلام إلى هذا الأمر الهام العظيم، عبادة الله وحده لا شريك له.

ولم يكن الرسل الذين أرسلهم الله عز وجل إلى البشر يدعون إلى توحيد الربوبية كدعوتهم إلى توحيد الألوهية، ذلك أن منكري توحيد الربوبية قليلون جداً وحتى الذين ينكرونه هم في قرارة نفوسهم لا يستطيعون أن ينكروه، اللهم إلا أن يكونوا قد سلبوا العقول المدركة أدنى إدراك، فإنهم قد ينكرون هذا من باب المكابرة.

وقد قسم العلماء رحمهم الله التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الربوبية:

وهو "إفراد الله سبحانه وتعالى في أمور ثلاثة، في الخلق والملك والتدبير".

دليل ذلك قوله تعالى:]ألا له الخلق والأمر[[الأعراف، 54] ووجه الدلالة من الآية: أنه قدم فيها الخبر الذي من حقه التأخير، والقاعدة البلاغية: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. ثم تأمل افتتاح هذه الآية بـ (ألا) الدالة على التنبيه والتوكيد:]ألا له الخلق والأمر[[الأعراف: 4]، لا لغيره، فالخلق هذا هو، والأمر هو التدبير.

أما الملك، فدليلة مثل قوله تعالى:]ولله ملك السموات والأرض[[الجاثية: 27]، فإن هذا يدل على انفراده سبحانه وتعالى بالملك، ووجه الدلالة من هذه الآية كما سبق تقديم ما حقه التأخير.

إذاً، فالرب عز وجل منفرد بالخلق والملك والتدبير.

فإن قلت: كيف تجمع بين ما قررت وبين إثبات الخلق لغير الله، مثل قوله تعالى:]فتبارك الله أحسن الخالقين[[المؤمنون: 14]، ومثل قوله في المصورين: "يقال لهم أحيوا ما خلقتم"[1] تعالى في الحديث القدسي: "ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي"[2]، فكيف تجمع بين قولك: أن الله منفرد بالخلق، وبين هذه النصوص؟.

---

[1] رواه البخاري كتاب اللباس/ باب من كره القعود عل الصورة، ومسلم/ كتاب الباس/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

[2] رواه البخاري كتاب اللباس/ باب نقض الصور، ومسلم/ كتاب اللباس/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

فالجواب أن يقال: إن الخلق هو الإيجاد، وهذا خاص بالله تعالى، أما تحويل الشيء من صورة إلى أخرى، فإنه ليس بخلق حقيقة، وإن سمي خلقاً باعتبار التكوين، لكنه في الواقع ليس بخلق تام، فمثلا: هذا النجار صنع من الخشب باباً، فيقال: خلق باباً لكن مادة هذه الصناعة الذي خلقها هو الله عز وجل، لا يستطيع الناس كلهم مهما بلغوا في القدرة أن يخلقوا عود أراك أبداً، ولا أن يخلقوا ذرة ولا أن يخلقوا ذباباً.

واستمع إلى قول الله عز وجل:]يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب[[الحج: 73].

]الذين[: اسم موصول يشمل كل ما يدعى من دون الله من شجر وحجر وبشر وملك وغيره، كل الذين يدعون من دون الله]لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له[[الحج: 73]، ولو انفرد كل واحد بذلك، لكان عجزه من باب أولى،]وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه[[الحج: 73]، حتى الذين يدعون من دون الله لو سلبهم الذباب شيئاً، ما استطاعوا أن يستنقذوه من هذا الذباب الضعيف، ولو وقع الذباب على أقوى ملك في الأرض، ومض من طيبه، لا يستطيع هذا الملك أن يستخرج الطيب من هذا الذباب، وكذلك لو وقع على طعامه، فإذاً الله عز وجل هو الخالق وحده.

فإن قلت: كيف تجمع بين قولك: إن الله منفرد بالملك وبين إثبات الملك للمخلوقين، مثل قوله تعالى:]أو ما ملكتم مفاتحه[[النور: 61]]إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم[[المؤمنون: 61]؟

فالجواب: أن الجمع بينهما من وجهين:

الأول: أن ملك الإنسان للشيء ليس عاماً شاملاً، لأنني أملك ما تحت يدي، ولا أملك ما تحت يدك والملك ملك الله عز وجل، فمن حيث الشمول: ملك الله عز وجل أشمل وأوسع، وهو ملك تام.

الثاني: أن ملكي لهذا الشيء ليس ملكاً حقيقياً أتصرف فيه كما أشاء، وإنما أتصرف فيه كما أمر الشرع،

وكما أذن المالك الحقيقي، وهو الله عز وجـل، ولـو بعت درهماً بدرهمين، لم أملـك ذلـك، ولا يحـل لي ذلـك، فـإذا ملكي قاصر وأيضاً لا أملك فيه شيئاً من الناحية القدرية، لأن التصرف لله، فلا أستطيع أن أقول لعبـدي المـريض: ابرأ فيبرأ، ولا أستطيع أن أقول لعبدي الصحيح الشحيح: امرض فيمـرض، لكن التصـرف الحقيقي للـه عـز وجـل، فلو قال له: ابرأ، برأ، ولـو قـال: امـرض. مـرض، فـإذا لا أملك التصرف المطلق شرعاً وقـدراً، فملكي هنـا قاصـر من حيث التصرف، وقاصـر من حيث الشـمول والعمـوم، وبذلك يتبين لنا كيف كان انفراد الله عز وجل بالملك.

وأمـا التـدبير، فللإنسـان تـدبير، ولكن نقـول: هـذا التدبير قاصر، كالوجهين السابقين في الملك، ليس كـل شيء أملك تدبيره إلا على وفق الشرع الذي أباح لي هذا التدبير.

وحينئـذ يتـبين أن قولنـا: "إن اللـه عـز وجـل منفـرد بالخلق والملك والتدبير": كلية عامة مطلقـة، لا يسـتثنى منها شيء، لأن كل ما أوردناه لا يعارض مـا ثبت للـه عـز وجل من ذلك.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة، بألا تكون عبداً لغير الله، لا تعبد ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا شيخاً ولا أماً ولا أباً، لا تعبد إلا الله وحده، فتفرد الله عز وجـل وحـده بالتألـه والتعبد، ولهذا يسمى: توحيد الألوهيـة، ويسـمى: توحيـد العبـادة، فباعتبـار إضـافته إلى اللـه هـو توحيـد ألوهيـة، وباعتبار إضافته إلى العابد هو توحيد عبادة.

والعبـادة مبنيـة على أمـرين عظيمين، همـا المحبـة والتعظيم، النــاتج عنهمــا:]إنهم كــانوا يســارعون في الخبيرات ويدعوننا رغبا ورهبا[[الأنبيـاء: 90]، فبالمحبـة تكون الرغبة، وبالتعظيم تكون الرهبة والخوف.

ولهذا كانت العبادة أوامر ونواهي: أوامر مبنيــة على الرغبـة وطلب الوصـول إلى الآمـر، ونـواهي مبنيـة على التعظيم والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله عز وجل، رغب فيما عنده ورغب في الوصـول إليـه، وطلبت الطريـق الموصـل إليـه، وقمت

بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته خفت منه، كلما هممت بمعصية، استشعرت عظمة الخالق عز وجل، فنفرت،]ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء[[يوسف: 24]، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية، وجدت الله أمامك، فهبت وخفت وتباعدت عن المعصية، لأنك تعبد الله رغبة ورهبة.

فما معنى العبادة؟

العبادة: تطلق على أمرين، على الفعل والمفعول.

تطل على الفعل الذي هو التعبد، فيقال: عبد الرجل ربه عبادة وتعبداً وإطلاقها على التعبد من باب إطلاق اسم المصدر، ونعرفها باعتبار إطلاقها على الفعل بأنها: "التذلل لله عز وجل حباً وتعظيماً، بفعل أوامره واجتناب نواهيه". وكل من ذل لله عز بالله،]ولله العزة ولرسوله[[المنافقون: 8].

وتطلق على المفعول، أي: المتعبد به وهي بهذا المعنى تعرف بما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال رحمه الله: "العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة"[1].

هذا الشيء الذي تعبدنا الله به يجب توحيد الله به، لا يصرف لغيره، كالصلاة والصيام والزكاة والحج والدعاء والنذر والخشية والتوكل.. إلى غير ذلك من العبادات.

فإن قلت: ما هو الدليل على أن الله منفرد بالألوهية؟

فالجواب: هناك أدلة كثيرة، منها:

قوله تعالى:]وما أرسلنا من قبلك من رسول إلى نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون[[الأنبياء: 25].

]ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت[[النحل: 36].

وأيضاً قوله تعالى:]شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم[[آل عمران: 18]، لو لم يكن من فضل العلم إلا هذه المنقبة، حيث إن الله ما أخبر أن أحداً شهد بألوهيته إلا أولو العلم، نسأل الله أن يجعلنا

---

[1] "رسالة العبودية" مجموع الفتاوى 10/149

منهم:]شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولــوا العلم قائماً بالقسط[، بالعدل، ثم قرر هذه الشهادة بقولـه:]لا إله إلا هو العزيز الحكيم[، فهـذا دليـل واضـح على أنـه لا إلـه إلا اللـه عـز وجـل، أشـهد أن لا إلـه إلا اللـه، وأنتم تشهدون أن لا إله إلا الله. هذه الشهادة الحق.

إذا قال قائل: كيف تقرونها مع أن اللـه تعـالى يثبت ألوهية غيره، مثل قوله تعالى:]ولا تدع مع الله إلهاً آخر[[القصص: 88]، ومثل قوله:]ومن يدع مع اللـه إلهـاً آخـر لا برهـان لـه به[[المؤمنـون: 117]، ومثـل قولـه:]فمـا أغنت عنهم آلهتهم الـــتي يــــدعون من دون اللــــه من شيء[[هود: 101]، ومثل قول إبراهيم:]أئفكاً آلهة دون الله تريدون[[الصافات: 86].. إلى غير ذلـك من الآيـات، كيف تجمع بين هذا وبين الشهادة بأن لا إله إلا الله؟

فالجواب: أن ألوهيـة مـا سـوى اللـه ألوهيـة باطلـة، مجرد تسمية،]إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبـاؤكم ما أنـزل اللـه بهـا من سـلطان[[النجم: 23]، فألوهيتهـا باطلة، وهي وإن عبدت وتأله إليها من ضل، فإنها ليست أهلا لأن تعبد، فهي آلهة معبودة، لكنها آلهة باطلة،]ذلـك بــأن اللــه هــو الحــق وأن مــا يــدعون من دونــه الباطل[[لقمان: 30].

وهــذا النوعــان من أنــواع التوحيــد لا يجحــدهما ولا ينكرهما أحد من أهل القبلة المنتسبين إلى الإسلام، لأن الله تعالى موحـد بالربوبيـة والألوهيـة، لكن حصـل فيمـا بعد أن من الناس من ادعى ألوهية أحد من البشر، كغلاة الرافضـة مثلاً، الـذين يقولـون: إن عليـاً إليـه، كمـا صـنع زعيمهم عبداللــه بن ســبأ، حيث جــاء إلى علي بن أبي طـالب رضـي اللـه عنـه، وقـال لـه: أنت اللـه حقـاً لكن عبداللـه بن سـبأ أصـله يهـودي دخـل في دين الإسـلام بـدعوى التشـيع لآل الـبيت، ليفسـد على أهـل الإسـلام دينهم، كمـا قـال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمـه اللـه، وقال: "إن هذا صنع كما صنع بـولص حين دخـل في دين النصارى ليفسد دين النصارى"[1]. هذا الرجل عبداللـه بن

---

[1] رواه اللالكـائي في "شـرح السـنة" (2823) عن الشـعبي، وقد أورده شـيخ الإسـلام ابن تيمية في "منهـاج السـنة" (1/29) وأشار إلى من رواه من العلماء. وحسنه الحافظ في "الفتح" (12/270).

سبأ قال لعلي بن أبي طـالب رضـي اللـه عنـه أنت اللـه حقاً وعلي ابن أبي طالب لا يرضى أن أحـداً ينزلـه فـوق منزلته هو حتى إنـه رضـي اللـه عنـه من إنصـافه وعدلـه وعلمه وخبرته كان يقول منزلته هو حتى إنه رضـي اللـه عنه من إنصافه وعدلـه وعلمـه وخبرتـه كـان يقـول على منـبر الكوفـة: "خـير هـذه الأمـة بعـد نبيهـا أبـو بكـر ثم عمر"[1]، يعلن ذلك في الخطبـة، وقـد تـواتر النقـل عنـه بذلك رضي الله عنه، والذي يقـول هكـذا ويقـر بالفضـل لأهله من البشر كيف يرضي أن يقول له قائل: إنــك أنت الله؟ ولهذا عزرهم أبشع تعزير، أمر بالأخاديد فخدت، ثم ملئت حطباً وأوقدت، ثم أتى بهـؤلاء فقـذفهم في النـار وأحـرقهم بهـا، لأن فـريتهم عظيمـة ــ والعيـاذ باللـه ـ وليسـت هينـة، ويقـال: إن عبداللـه بن سـبأ هـرب ولم يمسـكوه المهم أن علي بن أبي طـالب رضـي اللـه عنـه أحر السبئية بالنار، لأنهم ادعوا فيه الألوهية.

فنقول: كل من كان من أهل القبلة لا ينكرون هذين النـوعين من التوحيـد: وهمـا: توحيـد الربوبيـة، وتوحيـد الألوهية، وإن كـان يوجـد في بعض أهـل البـدع من يؤلـه أحداً من البشر.

لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو:

القسم الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات:

هذا هو الذي كثر فيه الخـوض، فانقسـم النـاس فيـه إلى ثلاثــة أقســام، وهم: ممثــل، ومعطــل، ومعتــدل، والمعطل: إما مكذب أو محرف.

وأول بدعة حدث في هذه الأمـة هي بدعـة الخـوارج، لأن زعيمهم خـرج على النـبي ﷺ وهـو ذو الخويصـرة من بني تميم، حين قسم النبي ﷺ ذهبية جـاءت فقسـمها بين الناس، فقال له هذا الرجل: يا محمد اعدل[2] فكـان هـذا أول خروج خرج بـه على الشـريعة الإسـلامية، ثم عظمت

---

(1) رواه الإمام أحمد في "المسند" (1/110)، وفي "فضائل الصحابة" (397)، وابن أبي عاصم في "السنة" (2/570)، وابن ماجه (106) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والحديث أصله في "صحيح البخاري" (3671) عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي النـاس خـير بعد رسـول الله ﷺ؟ قال أبو بكر. قال: قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر.

(2) رواه البخاري/ كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم، ومسلم: كتاب الزكاة.

فتنتهم في أواخر خلافة عثمان وفي الفتنة بين علي ومعاوية، فكفروا المسلمين واستحلوا دماءهم.

ثم حدثت بدعة القدرية مجوسي هذه الأمة الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالى لم يقدر أفعال العباد وليست داخلة تحت مشيئته وليست مخلوقة له، بل كان زعماؤهم وغلاتهم يقولون: إنها غير معلومة لله، ولا مكتوبة في اللوح المحفوظ، وأن الله لا يعلم بما يصنع الناس، إلا إذا وقع ذلك ويقولون: إن الأمر أنف، أي: مستأنف وهؤلاء أدركوا آخر عصر الصحابة، فقد أدركوا زمن عبدالله بن عمر رضي الله عنه وعبادة بن الصامت وجماعة من الصحابة، لكنه في أواخر عصر الصحابة.

ثم حدثت بدعة الإرجاء وأدركت زمن كثير من التابعين، والمرجئة هم الذين يقولون: إنه لا تضر المعصية مع الإيمان تزني وتسرق وتشرب الخمر، وتقتل ما دمت مؤمنا، فأنت مؤمن كامل الإيمان وإن فعلت كل معصية.

لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كلام القدرية والمرجئة حين رده بقايا الصحابة كان في الطاعة والمعصية والمؤمن والفاسق، لم يتكلموا في ربهم وصفاته.

فجاء قوم من الأذكياء ممن يدعون أن العقل مقدم على الوحي، فقالوا قولا بين القولين ــ قول المرجئة وقول الخوارج ـ قالوا: الذي يفعل الكبيرة ليس بمؤمن كما قاله المرجئة، وليس بكافر كما قاله الخوارج، بل هو في منزلة بين منزلتين، كرجل سافر من مدينة إلى أخرى فصار في أثناء الطريق، فلا هو في مدينته ولا في التي ساف إليها، بل في منزلة بين منزلتين، هذا في أحكام الدنيا، أما في الآخرة، فهو مخلد في النار، فهم يوافقون الخوارج في الآخرة، لكن في الدنيا يخالفونهم.

ظهرت هذه البدعة وانتشرت، ثم حدثت بدعة الظلمة والجهمة، وهي بدعة جهم بن صفوان وأتباعه، ويسمون الجهمية، حدثت هذه البدعة، وهي لا تتعلق بمسألة الأسماء، والأحكام، مؤمن أم كافر أم فاسق، ولم في

منزلة بين منزلتين، بل تتعلق بذات الخالق. انظر كيف تدرجت البدع في صدر الإسلام، حتى وصلوا إلى الخالق جل وعلا، وجعلوا الخالق بمنزلة المخلوق، يقولون كما شاؤوا، فيقولون: هذا ثابت لله، وهذا غير ثابت، هذا يقبل العقل أن يتصف الله به، وهذا لا يقبل العقل أن يتصف به، فحدثت بدعة الجهمية والمعتزلة، فانقسموا في أسماء الله وصفاته إلى أقسام متعددة:

1- 1- قسم قالوا: لا يجوز أبداً أن نصف الله لا بوجود ولا بعدم، لأنه إن وصف بالوجود، أشبه الموجودات، وإن وصف بالعدم، أشبه المعدومات، وعليه يجب نفي الوجود والعدم عنه، وما ذهبوا إليه، فهو تشبيه للخالق بالممتنعات والمستحيلات، لأن تقابل العدم والوجود تقابل نقيضين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، وكل عقول بني آدم تنكر هذا الشيء ولا تقبله، فانظر كيف فروا من شيء فوقعوا في اشر منه.

2- 2- وقسم آخر قالوا: نصفه بالنفي ولا نصفه بالإثبات، يعني: أنهم يجوزون أن تسلب عن الله سبحانه وتعالى الصفات لكن لا تثبت، يعني: لا نقول: هو حي، وإنما نقولك ليس بميت ولا نقولك عليم، بل نقول: ليس بجاهل... وهكذا. قالوا: لو أثبت له شيئاً شبهته بالموجودات، لأنه على زعمهم كل الأشياء الموجودة متشابهة، فأنت لا تثبت له شيئاً، وأما النفي، فهو عدم، مع أن الموجود في الكتاب والسنة في صفات الله من الإثبات أكثر من النفي بكثير.

قيل لهم: إن الله قال عن نفسه: (سميع بصير).

قالوا: هذا من باب الإضافات، بمعنى: نسب إليه السمع لا لأنه متصف به، ولكن لأن له مخلوقا يسمع، فهو من باب الإضافات، فـ(سميع)، يعني: ليس له سمع، لكن له مسموع.

وجاءت طائفة ثانية، قالوا: هذه الأوصاف لمخلوقاته، وليست له، أما هو، فلا يثبت له صفة.

3- 3- وقسم قالوا: يثبت له الأسماء دون الصفات، وهؤلاء هم المعتزلة أثبتوا أسماء الله، قالوا: إن الله سميع بصير قدير عليم حكيم... لكن قدير بل قدرة،

سـميع بلا سـمع بصـير بلا بصـر، عليم بلا علم، حكيم بلا حكمة.

4- 4- وقسم رابع قالوا: نثبت لـه الأسـماء حقيقـة، ونثبت له صفات معينـة دل عليهـا لعقـل وننكـر البـاقي، نثبت لـه سـبع صـفات فقـط والبـاقي ننكـره تحريفـاً لا تكـذيباً، لأنهم لـو أنكـروه تكـذيباً، كفـروا، لكن ينكرونـه تحريفاً وهو ما يدعون أنه "تأويل".

الصفات السبع هي مجموعة في قوله:

له الحياة والكلام والبصر سمع إرادة وعلم واقتدر

فهـذه الصـفات نثبتهـا لأن العقـل دل عليهـا وبقيـة الصفات ما دل عليها العقل، فنثبت ما دل عليـه العقـل، وننكر ما لم يدل عليه العقل وهؤلاء هم الأشاعرة، آمنوا بالبعض، وأنكروا البعض.

فهذه أقسام التعطيل في الأسماء والصـفات وكلهـا متفرعة من بدعـة الجهم، "ومن سـن في الإسـلام سـنة سـيئة، فعليـه وزرهـا ووزر من عمـل بهـا إلى يـوم القيامة"[1].

فالحاصـل أنكم أيهـا الإخـوة لـو طـالعتم في كتب القوم التي تعتني بجمـع أقاويـل النـاس في هـذا الأمـر، لرأيتم العجب العجاب، الذي تقولون: كيف يتفوه عاقل ـ فضلاً عن مؤمن ـ بمثل هـذا الكلام؟! ولكن من لم يجعـل الله له نوراً، فما لـه من نـور! الـذي أعمى اللـه بصـيرته كالذي أعمى الله بصره، فكما أن أعمى البصـر لـو وقـف أمام الشمس التي تكسر نور البصر لم يرها، فكـذلك من أعمى الله بصيرته لـو وقـف أمـام أنـوار الحـق مـا رآهـا والعياذ بالله.

ولهذا ينبغي لنـا دائمـاً أن نسـأل اللـه تعـالى الثبـات على الأمـر، وأن لا يزيـغ قلوبنـا بعـد إذ هـدانا لأن الأمـر خطـير، والشـيطان يـدخل على ابن آدم من كـل صـوب ومن كل وجه ويشككه في عقيدته وفي دينه وفي كتـاب الله وسنة رسوله فهذه في الحقيقة البدع التي انتشرت في الأمة الإسلامية.

---

[1] (جزء من حديث رواه مسلم/ كتاب الزكاة/ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.....

ولكن ولله الحمد ما ابتدع أحد بدعة، إلا قيض الله لـه بمنه وكرمه من يبين هذه البدعة ويدحضـها بـالحق وهـذا من تمام مدلول قول الله تبارك وتعـالى:]إنـا نحن نزلنـا الذكر وإنا له لحافظون[[الحجر: 9]، هـذا من حفـظ اللـه لهذا الذكر، وهذا أيضاً هو مقتضى حكمة اللـه عـز وجـل، لأن الله تعالى جعل محمداً خاتم النبيين، والرسالة لابد أن تبقى في الأرض، وإلا لكـان للنـاس حجـة على اللـه وإذا كـانت الرسـالة لابـد أن تبقى في الأرض، لـزم أن يقيض الله عز وجل بمقتضى حكمتـه عنـد كـل بدعـة من يبينها ويكشف عورها، وهـذا هـو الحاصـل، ولهـذا أقـول لكم دائماً: احرصـوا على العلم، لأننـا في هـذا البلـد في مسـتقبل إذا لم نتسـلح بـالعلم المبـني على الكتـاب والسنة، فيوشك أن يحل بنا ما حـل في غيرنـا من البلاد الإسلامية، وهـذا البلـد الآن هـو الـذي يركـز عليـه أعـداء الإسلام ويسـلطون عليـه سـهامهم، من أجـل أن يضـلوا أهلها، فذلك تسلحوا بالعلم، حـتى تكونـوا على بينـة من أمـر دينكم وحـتى تكونـوا مجاهـدين بألسـنتكم وأقلامكم لأعداء الله سبحانه وتعالى.

وكـل هـذه البـدع انتشـرت بعـد الصـحابة، فالصـحابة رضـي اللـه عنهم لم يكونـوا يبحثـون في هـذه الأمـور، لأنهم يتلقـون الكتـاب والسـنة على ظاهرهمـا وعلى مـا تقتضـيه الفطـرة، والفطـرة السـليمة سـليمة، لكن أتى هـؤلاء المبتـدعون، فابتـدعوا في دين اللـه تعـالى مـا ابتدعوا، إمـا لقلـة علمهم، أو لقصـور فهمهم، أو لسـوء قصـدهم، فأفسـدوا الـدنيا بهـذه البـدع الـتي ابتـدعوها، ولكن كمـا قلنـا: إن اللـه تعـالى بحكمتـه وحمـده ومنتـه وفضله مامن بدعة خرجت إلا قيض الله لها من يدحضـها ويبينها.

ومن جملـة الـذين بينـوا البـدع وقـاموا قيامـاً تامـاً بدحضها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأسـأل اللـه لي ولكم أن يجمعنا في جنات النعيم.

هذا الرجل الـذي نفـع اللـه بمـا آتـاه من فضـله ومن على الأمـة بمثلـه ألـف هـذه "العقيـدة" كمـا قلت إجابـة لطلب أحد قضاة واسط الذي شـكا إليـه مـا كـان النـاس

عليـه من البـدع وطلب منـه أن يؤلـف هـذه "العقيـدة" فألفها.

بســـــــــــــــــــــــــــــــــــم الله[1] ....

(1)* البـداءة بالبسـملة هي شـأن جميـع المـؤلفين، اقتداء بكتـاب اللـه، حيث أنـزل البسـملة في ابتـداء كـل سورة واستناداً إلى سنة الرسول ﷺ.

وإعـراب البسـملة ومعناهـا تكلم فيـه النـاس كثـيراً، وفي متعلقها، وأحسن ما يقـال في ذلـك: أنهـا متعلقـة بفعل محذوف متأخر مناسـب للمقـام، فـإذا قـدمتها بين يدي الأكل، فيكون التقـدير: بسـم اللـه آكـل، وبين يـدي القراءة يكون التقدير: بسم الله اقرأ.

نقـــدره فعلاً، لأن الأصـــل في العمـــل الأفعـــال لا الأسماء، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شـرط، والأسـماء لا تعمل إلا بشرط، لأن العمل أصل في الأفعال تعمل بلا شرط، والأسماء، ولهذا كـانت الأفعـال تعمـل بلا شـرط، والأسـماء لا تعمـل إلا بشـرط، لأن العمـل أصـل في الأفعال، فرع في الأسماء.

ونقدره متأخراً لفائدتين:

الأولى: الحصـر، لأن تقـديم المعمـول يفيـد الحصـر، فيكون: باسم الله أقرأ، بمنزلة: لا أقرأ إلا باسم الله.

الثانية: تيمناً بالبداءة باسم الله سبحانه وتعالى.

ونقـدره خاصـاً، لأن الخـاص أدل على المقصـود من العام، إذ من الممكن أن أقول: التقدير: باسم الله أبتدئ لكن (باسم الله أبتدئ) لا تدل على تعيين المقصود، لكن (باسم الله أقـرأ) خـاص، والخـاص أدل على المعـنى من العام.

* "الله" علم على نفس الله عز وجل، ولا يسمى بــه غيره ومعناه: المألوه، أي: المعبود محبـة وتعظيمـاً وهـو مشتق على القول الراجح لقولـه تعـالى:]وهـو اللـه في السـموات وفي الأرض يعلم سـركم وجهـركم[[الأنعـام: 3]، فإن]في السموات[متعلق بلفظ الجلالة، يعني: وهو المألوه في السموات وفي الأرض.

الرحمن[1] الرحيم[2]... الحمد لله الذي أرسل رسـوله[3] ....

(1)* "الــرحمن"، فهــو ذو الرحمــة الواســعة، لأن (فعلان) في اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء، كما يقال: رجل غضبان: إذا امتلأ غضباً.
(2)* "الـرحيم": اسـم يـدل على الفعـل، لأنـه فعيـل بمعنى فاعل فهو دال على الفعل.
فيجتمع من "الرحمن الرحيم": أن رحمة الله واسـعة وأنها واصلة إلى الخلق. وهذا هـو مـا أومـا إليـه بعضـهم بقولـه: الـرحمن رحمـة عامـة والـرحيم رحمـة خاصـة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم، لأنهم في الآخرة يقـول تعالى لهم إذا سألوا الله أن يخرجهم من النـار وتوسـلوا إلى الله تعالى بربوبيته واعترافهم على أنفسـهم:]ربنـا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظـالمون[[المؤمنـون: 107]، فلا تدركهم الرحمة، بل يدركهم العدل، فيقـول اللـه عـز وجل لهم:]اخسئوا فيها ولا تكلمون[[المؤمنون: 108].
(3)* اللـه تعـالى يحمـد على كمالـه عـز وجـل وعلى إنعامه، فنحن نحمد الله عز وجل لأنه كامل الصــفات من كل وجه، ونحمده أيضاً لأنه كامل الأنعام والإحسان:]وما بكم من نعمــة فمن اللــه ثم إذا مســكم الضــر فإليــه تجـأرون[[النحـل: 53]، وأكـبر نعمـة أنعم اللـه بهـا على الخلق إرسال الرسل الذي به هداية الخلق، ولهـذا يقـول المؤلف "الحمد لله الذي أرسـل رسـول رسـوله بالهـدى ودين الحق".
والمـراد بالرسـول هنـا الجنس، فـإن جميـع الرسـل أرسـلوا بالهـدى ودين الحـق، ولكن الـذي أكمـل اللـه بـه الرسالة محمد ، فإنـه قـد ختم اللـه بـه الأنبيـاء، وتم بـه البناء، كما وصف محمد نفسه بالنسـبة للرسـل، كرجـل بنى قصراً وأتمه، إلا موضع لبنة، فكان الناس يـأتون إلى هذا القصر ويتعجبون منه، إلا موضع هذه اللبنـة، يقـول: "فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"[1]، عليه الصلاة والسلام.
بالهــدى[1] ودين الحق[2] ليظهــره على الــدين كله[3] ....

---

[1] رواه البخاري/ كتاب المناقب/ باب خاتم النبيين ، ومسلم/ كتاب الفضائل/ باب ذكر كونه خاتم النبيين.

(1) "بالهدى": الباء هنا للمصاحبة والهـدى هـو العلم النافع ويحتمل أن تكون الباء للتعدية، أي: إن المرسل به هو الهدى ودين الحق.

(2) "ودين الحق" هو العمـل الصـالح، لأن الـدين هـو العمل أو الجزاء على العمـل، فمن إطلاقـه على العمـل: قوله تعـالى:]إن الـدين عنـد اللـه الإسـلام[[آل عمـران: 19]، ومن إطلاقه على الجزاء قولـه تعـالى:]ومـا أدراك ما يوم الدين[[الانفطار: 17]. والحق ضد الباطل، وهـو ـ أي الحق ــ المتضـمن لجلب المصـالح ودرء المفاسـد في الأحكام والأخبار.

(3) "ليظهره على الدين كله": اللام للتعليل ومعــنى "ليظهره"، أي: يعليه، لأن الظهور بمعـنى العلـو، ومنـه: ظهر الدابة أعلاها ومنه: ظهر الأرض سطحها، كمـا قـال تعالى:]ولو يؤاخـذ اللـه النـاس بمـا كسـبوا مـاترك على ظهرها من دابة[[فاطر: 45].

والهاء في "يظهره" هـل هـو عائـد على الرسـول أو على الـدين؟ إن كـان عائـداً على "دين الحـق"، فكـل من قاتل لـدين الحـق سـيكون هـو العـالي. لأن اللـه يقـول: "ليظهره"، يظهر هذا الدين على الدين كلـه، وعلى مـالا دين لــه فيظهــره عليهم من بــاب أولى، لأمن لا يــدين أخبث ممن يدين بباطـل، فـإذا: كـل الأديـان الـتي يـزعم أهلها أنهم على حق سـيكون دين الإسـلام عليـه ظـاهراً، ومن سواهم من باب أولى.

وإن كان عائداً إلى الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، فإنما يظهر الله رسوله لأن معه دين الحق.

وعلى كلا التقـديرين، فـإن من تمسـك بهـذا الـدين الحق، فهو الظاهر العالي، ومن ابتغى العـزة في غـيره، فقـد ابتغى الـذل، لأنـه لا ظهـور ولا عـزة ولا كرامـة إلا بالــدين الحــق، ولهــذا أنــا أدعــوكم معشــر الإخــوة إلى التمسك بدين الله ظاهراً أو باطناً في العبـادة والسـلوك والأخلاق، وفي الدعوة إليه، حتى تقوم الملـة وتسـتقيم الأمة.

وكفى باللـــــــــــه شـــــــــــــهيداً[1] ....

(1) قوله "وكفى بالله شهيداً" يقول أهـل اللغـة: إن الباء هنا زائدة، لتحسـين اللفـظ والمبالغـة في الكفايـة، وأصلها: "وكفى الله".

و"شـهيداً": تميـيز محـول عن الفاعـل لأن أصـلها "وكفت شهادة الله". المؤلف جاء بالآية؟ ولو قال قائل: ما مناسـبة "كفى باللـه شـهيداً"، لقولـه: "ليظهـره على الدين كله"؟

قيل: المناسبة ظاهرة، لأن هـذا النـبي عليـه الصـلاة والسـلام جـاء يـدعو النـاس ويقـول: من أطـاعني دخـل الجنة، ومن عصاني دخل النار[1]. ويقـول بلسـان الحـال: من أطاعني سالمته، ومن عصاني حاربته ويحارب الناس بهـذا الـدين، ويسـتبيح دمـاءهم وأمـوالهم ونسـاءهم وذريتهم، وهو في ذلك منصور مؤزر غالب غـير مغلـوب، فهذا التمكين له في الأرض، أي تمكين الله لرسـوله في الأرض: شهادة من الله عز وجـل فعليـة بأنـه صـادق وأن دينـه حـق، لأن كـل من افـترى على اللـه كـذباً فمالـه الخذلان والزوال والعدم، وانظر إلى الذين ادعـوا النبـوة ماذا كان مـالهم؟ أن نسـوا وأهلكـوا، كمسـيلمة الكـذاب، والأسـود العنسـي.... وغيرهمـا ممن ادعـوا النبـوة، لهم تلاشوا وبان بطلان قولهم وحرموا الصواب والسداد لكن هذا النبي محمـداً على العكس دعوتـه إلى الآن والحمـد لله باقية، ونسأل الله أن يثبتنا وإياكم عليها، دعوتـه إلى الآن باقية وإلى أن تقوم الساعة ثابتـة راسـخة، يسـتباح بدعوته إلى اليوم دماء من ناوأها من الكفـار وأمـوالهم، وتسبى نساؤهم وذريتهم، هذه الشهادة فعلية، مـا أخـذه الله ولا فضحه ولا كذبه، ولهذا جاءت بعد قوله: "ليظهره على الدين كله".

وأشهد[1] أن لا إله إلا الله[2]، وحده[3]، لا شـريك له[4]، إقراراً به[5]

(1) "أشهد"، بمعنى: أقر بقلـبي ناطقـاً بلسـاني، لأ، الشهادة نطق وإخبار عما في القلب، فأنت عند القاضي تشهد بحق فلان على فلان، تشهد باللسـان المعـبر عمـا في القلب واختيرت الشهادة دون الإقرار، لأن الشـهادة

---

[1] رواه البخاري، كتاب الاعتصام/ باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أصلها من شهود الشيء، أي: حضوره ورؤيته، فكأن هـذا المخبر عما في قلبه الناطق بلسانه، كأنـه يشـاهد الأمـر بعينه.

(2) "لا إله إلا الله"، أي: لا معبود حق إلا اللـه، وعلى هذا يكون خبر لا محذوفاً، ولفظ الجلالة بدلاً منه.

(3) "وحده" هي من حيث المعنى توكيد للإثبات.

(4) "لا شريك له": توكيد للنفي.

(5) "إقـراراً بـه": "إقـراراً" هـذه مصـدر، وإن شـئت، فقـل: إنـه مفعـول مطلـق، لأنـه مصـدر معنـوي لقولـه: "أشهد"، وأهل النحـو يقولـون: إذا كـان المصـدر بمعـنى الفعــل دون حروفــه، فهــو مصــدر معنــوي، أو مفعــول مطلق، وإذا كان بمعناه وحروفه، فهو مصـدر لفظي فــ: قمت قيامـــاً: مصـــدر لفظي، و: قمت وقوفـــاً: مصـــدر معنـوي، و: جلسـت جلوسـاً: لفظي، و: جلسـت قعـوداً: معنوي.

وتوحيـــــداً[1] وأشـــــهد[2] أن محمـــــداً عبـــــده[3] ....

(1) "وتوحيداً" مصدر مؤكد لقوله: "لا إله إلا الله".

(2)نقول في "أشهد" ما قلنا في "أشهد" الأولى.

(3) محمد: هو ابن عبدالله بن عبد المطلب القرشـي الهاشـمي الـذي هـو من سـلالة إسـماعيل بن إبـراهيم، أشرف الناس نسباً، عليه الصلاة والسلام.

هذا النبي الكريم عبدالله ورسوله، وهو أعبـد النـاس لله، وأشدهم تحقيقاً لعبادته، كان عليه الصـلاة والسـلام يقوم في الليل حتى تتورم قدماه ويقال له: كيف تصـنع هذا وقـد غفـر اللـه لـك مـا تقـدم من ذنبـك ومـا تـأخر؟ فيقول: "أفلا أكون عبداً شكوراً؟"[1].

لأن الله تعالى أثنى على العبد الشكور حتى قال عن نوح:]إنه كان عبداً شكوراً[[2].

لأن الله تعالى أثنى على العبد الشكور حين قال عن نوح:]إنه كـان عبـداً شـكوراً[[الإسـراء/ 3]، فـأراد النـبي

---

[1] البخاريك كتاب التهجد/ باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم/ كتاب المنافقين/ باب إكثار الأعمال والاجتهـاد في الطاعة.

[2] البخاري/ كتاب التهجد/ باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم/ كتاب المنافقين/ باب إكثار الأعمال والاجتهـاد في الطاعة.

عليه الصلاة والسلام أن يصل إلى هذه الغايـة، وأن يعبـد الله تعالى حق عبادته، ولهذا كان أتقى النـاس، وأخشـى الناس لله، وأشـدهم رغبـة فيمـا عنـد اللـه تعـالى، فهـو عبدلله، ومقتضى عبوديته أنه لا يملـك لنفسـه ولا لغـيره نفعاً ولا ضراً وليس له حـق ف الربوبيـة إطلاقـاً بـل هـو عبد محتاج إلى اللـه مفتقـر لـه يسـأله ويـدعوه ويرجـوه ويخافه، بل إن الله أمره أن يعلن وأن يبلـغ بلاغـاً خاصـاً بأنه لا يملك شـيئاً من هـذه الأمـور فقـال:]قـل لا أملـك لنفسـي نفعـاً ولا ضـراً إلا مـا شـاء اللـه ولـو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء[[الأعراف: 188] وأمره أن يقـول:]قـل لا أقـول لكم عنـدي خـزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يـوحي إلي[[الأنعـام: 50] وأمـره أن يقـول:]قـل إني لا أملك لكم ضـرا ولا رشـدا (21) قـل إني لن يجـيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحــداً (22) إلا بلاغا[[الجن: 21-23].]إلا[استثناء منقطع، أي: لكن أبلغ بلاغاً من الله ورسالاته.

فالحاصل أن محمداً صلوات اللـه وسـلامه عليـه عبـد لله ومقتضى هذه العبودية أنـه لا حـق لـه في شـيء من شؤون الربوبية إطلاقاً.

وإذا كان محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليـه بهذه المثابة، فما بالك بمن دونه من عباد اللــه؟! فـإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا لغيرهم أبداً وبهذا يتـبين سـفه أولئـك القـوم الـذين يـدعون من يـدعونهم أولياء من دون الله عز وجل.

ورسوله[1]...

(1) قوله: "ورسـوله": هـذا أيضـاً لا يكـون لأحـد بعـد رسول الله ﷺ، لأنه خاتم النبيين، فهـو رسـول اللـه الـذي بلغ مكاناً لم يبلغـه أحـد من البشـر، بـل ولا من الملائكـة فيمـا نعلم اللهم إلا حملـة العـرش، وصـل إلى مـا فـوق السـماء السـابعة، وصـل إلى موضـع سـمع فيـه صـريف أقلام القضاء[1] الذي يقضي به الله عز وجـل في خلقـه،

---

[1] لما رواه البخاري/ كتاب الصلاة/ باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء.

ما وصل أحد فيما نعلم إلى هـذا المسـتوى، وكلمـه اللـه عز وجل بدون واسطة، وأرسـله إلى الخلـق كافـة وأيـده بالآيات العظيمة التي لم تكن لأحد من البشـر أو الرسـل قبله، وهو هذا القرآن العظيم، فإن هذا القرآن لا نظـير لـه في آيـات الأنبيـاء السـابقين أبـداً، ولهـذا قـال اللـه تعالى:]وقـالوا لـولا أنـزل عليـه آيـات من ربـه قـل إنمـا الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين (50) أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم[[العنكبوت: 50-51]، هذا يكفي عن كـل شـيء، ولكن لمن كـان لـه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما المعرض، فسيقول كمـا قـال من سبقه: هذا أساطير الأولين!

الحاصل أن محمداً رسول الله وخـاتم النبـيين، ختم الله به النبوة والرسالة أيضاً، لأنه إذا انتفت النبوة، وهي أعم من الرسـالة، انتفت الرسـالة الـتي هي أخص، لأن انتفاء الأعم يستلزم انتفـاء الأخص، فرسـول اللـه عليـه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين.

صـلى اللـه عليه[1] وعلى آلـه وصـحبه[2] ....

(1) معنى "صلى الله عليه": أحسن مـا قيـل فيـه مـا قاله أبو العالية رحمه الله، قال: "صلاة الله على رسوله: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى".

وأمـا من فسـر صـلاة اللـه عليـه بالرحمـة، فقولـه ضعيف، لأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا أجمـع العلمـاء على أنك يجوز أن تقول: فلان رحمه الله، واختلفوا، هل يجوز أن تقولك فلان صلى الله عليه؟ وهذا يـدل على أن الصلاة غير الرحمة. وأيضاً، فقد قال الله تعـالى:]أولئـك عليهم صـلوات من ربهم ورحمة[[البقـرة: 157]، والعطـف يقتضـي المغـايرة، إذاً، فالصـلاة أخص من الرحمة، فصلاة اللـه على رسـوله ثنـاؤه عليـه في الملأ الأعلى.

(2) قوله: "وعلى آله"، و(آله) هنا: أتباعـه على دينـه هذا إذا ذكـرت الآل وحـدها أو مـع الصـحب، فإنهـا تكـون بمعنى أتباعه على دينه منذ بعث إلى يوم القيامـة ويـدل على أن الآل بمعنى الاتباع على الـدين قولـه تعـالى في

آل فرعـون:]النـار يعرضـون عليهـا غـدوا وعشـيا ويـوم تقوم السـاعة أدخلـوا آل فرعـون أشـد العـذاب[[غـافر: 46]، أي: أتباعه على دينه.

أما إذا قرنت بالأتباع، فقيل: آله وأتباعـه، فـالآل هم المؤمنون من آل البيت، أي: بيت الرسـول عليـه الصـلاة والسلام.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللـه لم يـذكر الأتبـاع هنـا، قـال: "آلـه وصـحبه"، فنقـول: آلـه هم أتباعـه على دينه، وصحبه كل من اجتمع بالنبي مؤمناً به ومات على ذلك.

وعطف الصحب هنا على الآل من باب عطف الخـاص على العام، لأن الصحبة أخص من مطلق الاتباع.

وسـلم[1] تسـليماً مزيـداً[2] ....

(1) قولـه: "وسـلم تسـليماً مزيـداً": (سـلم) فيهـا السلامة من الآفات، وفي الصلاة حصول الخيرات، فجمع المؤلف في هذه الصيغة بين سؤال الله تعالى أن يحقـق الخيرات، فجمع المؤلف في هذه الصيغة بين سؤال اللـه تعالى أن يحقق لنبيه الخيرات ـ وأخصها: الثناء عليـه في الملأ الأعلى ـ وأن يزيد عنه الآفات، وكذلك من اتبعه.

والجملة في قولـه: "صـلى" و "سـلم" خبريـة لفظـاً طلبية معنى، لأن المراد بها الدعاء.

(2) قوله: "مزيداً"، بمعـنى: زائـداً أو زيـادة، والمـراد تسليماً زائداً على الصلاة، فيكون دعاء آخر بالسـلام بعـد الصلاة.

والرسـول عنـد أهـل العلم: "من أوحي إليـه بشـرع وأمر بتبليغه".

وقد نبئ بـ]اقـرأ[وأرسـل بالمـدثر، فبقولـه تعـالى:]اقرأ باسم ربك الذي خلق[. إلى قوله:]علم الإنسـان مـا لم يعلم[[العلق: 1-5] كان نبياً، وبقوله:]يا أيها المدثر (1) قم فأنـذر[[المـدثر: 1،2] كـان رسـولا عليـه الصـلاة والسلام.

أمـا بعد[1]: فهـذا[2] ....

(1) "أما بعد": (أما) هذه نائبة عن اسم شرط وفعله، التقدير: مهما يكن من شيء، قال ابن مالك:

أما كمهايك من شيء وفا لتلو تلوها وجوباً ألفها

فقولهم: أما بعد: التقدير: مهما يكن من شيء بعد هذا، فهذا.

وعليه، فالفاء هنا رابطة للجواب والجملة بعدها في محل جزم جواب الشرط، ويحتمل عندي أن تكون: "أما بعد، فهذا"، أي أن (أما) حرف شرط وتفصيل أو حرف شرط فقط مجرد عن التفصيل، والتقدير: أما بعد ذكر هذا، فأنا أذكر كذا وكذا. ولا حاجة أن نقدر فعل شرط، ونقول: إن (أما) حرف ناب مناب الجملة.

(2) "فهذا": الإشارة لابد أن تكون إلى شيء موجود، أنا عندما أقول: هذا، فأنا أشير إلى شيء محسوس ظاهر، وهنا المؤلف كتب الخطبة قبل الكتاب وقبل أن يبرز الكتاب لعالم الشاهد، فكيف ذلك؟!

أقول: إن العلماء يقولون: إن كان المؤلف كتب الكتاب ثم كتب المقدمة والخطبة، فالمشار إليه موجود ومحسوس، ولا فيه إشكال، وإن لم يكن كتبه، فإن المؤلف يشير إلى ما قام في ذهنه عن المعاني التي سيكتبها في هذا الكتاب، وعندي فيه وجه ثالث، وهو أن المؤلف قال هذا باعتبار حال المخاطب، والمخاطب لم يخاطب بذلك إلا بعد أن برز الكتاب وصدر، فكأنه يقول: "فهذا الذي بين يديك كذا وكذا".

هذه إذاً ثلاثة أوجه.

اعتقـــــــــــــــــــــاد[1] الفرقة[2] الناجية[3] ....

(1) "اعتقاد": افتعال من العقد وهو الربط والشد هذا من حيث التصريف اللغوي، وأما في الاصطلاح عندهم، فهو حكم الذهن الجازم، يقال: اعتقدت كذا، يعنى: جزمت به في قلبي، فهو حكم الذهن الجازم، فإن طابق الواقع، فصحيح، وإن خالف الواقع، ففاسد، فاعتقادنا أن الله إله واحد صحيح، واعتقاد النصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل، لأنه مخالف للواقع ووجه ارتباطه

بالمعنى اللغوي ظاهر، لأن هذا الذي حكم في قلبه على شيء ما كأنه عقده عليه وشده عليه بحيث لا يتفلت منه.

(2) "الفرقة" بكسر الفاء، بمعنى: الطائفة، قال الله تعالى:]فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة[[التوبة: 122]، وأما الفرقة بالضم، فهي مأخوذة من الافتراق.

(3) "الناجية": اسم فاعل من نجا، إذا سلم، ناجية في الدنيا من البدع سالمة منها وناجية في الآخرة من النار.

ووجه ذلك أن النبي قال: "وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة" قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي"[1].

هذا الحديث يبين لنا معنى (الناجية)، فمن كان على مثل ما عليه النبي ، وأصحابه، فهو ناج من البدع. و"كلها في النار إلا واحدة": إذا هي ناجية من النار، فالنجاة هنا من البدع في الدنيا، ومن النار في الآخرة.

المنصورة[1] إلى قيام الساعة[2] ....

(1) "المنصورة" عبر المؤلف بذلك موافقة للحديث، حيث قال النبي : "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين"[1]، والظهور الانتصار، لقوله تعالى:]فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين[[الصف: 14]، والذي ينصرها هو الله وملائكته والمؤمنون، فهي منصورة إلى قيام الساعة، منصورة من الرب عز وجل، ومن الملائكة، ومن عباده المؤمنين، حتى قد ينصر الإنسان من الجن، ينصره الجن ويرهبون عدوه.

(2) "إلى قيام الساعة"، أي: إلى يوم القيامة، فهي منصورة إلى قيام الساعة.

وهنا يرد إشكال، وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الساعة تقوم على شرار الخلق[2]،

---

[1] رواه الترمذي/ كتاب الإيمان/ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة. واللالكائي في "شرح السنة" (147)، والحاكم (1/129).

[1] أخرجه البخاري/ كتاب المناقب/ باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، ومسلم/ كتاب الإمارة/ باب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة....".

[2] رواه مسلم/ كتاب الفتن، باب قرب الساعة.

وأنه لا تقوم حتى لا يقال: الله الله[3]، فكيف تجمع بين هذا وبين قوله: "إلى قيام الساعة"؟!

والجواب: أن يقال: إن المراد: إلى قرب قيام الساعة، لقوله في الحديث: "حتى يأتي أمر الله"[4]، أو: إلى قيام الساعة، أي: ساعتهم، وهو موتهم، لأن من مات فقد قامت قيامته، لكن الأول أقرب، فهم منصورون إلى قرب قيام الساعة، وإنما لجأنا إلى هذا التأويل لدليل، والتأويل بدليل جائز، لأن الكل من عند الله.

أهل السنة والجماعة[1]..

(1) "أهل السنة والجماعة": أضافهم إلى السنة، لأنهم متمسكون بها، والجماعة، لأنهم مجتمعون عليها.

فإن قلت: كيف يقول: "أهل السنة والجماعة"، لأنهم جماعة، فكيف يضاف الشيء إلى نفسه؟!

فالجواب: أن الأصل أن كلمة الجماعة بمعنى الاجتماع، فهي اسم مصدر، هذا في الأصل، ثم نقلت من هذا الأصل إلى القوم المجتمعين، وعليه، فيكون معنى أهل السنة والجماعة، أي: أهل السنة والاجتماع، سموا أهل السنة، لأنهم متمسكون بها، لأنهم مجتمعون عليها.

ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترق أهلا لبدع، نجد أهل البدع، كالجهمية متفرقين، والمعتزلة متفرقين، والروافض متفرقين، وغيرهم من أهل التعطيل متفرقين، لكن هذه الفرقة مجتمعة على الحق، وإن كان قد يحصل بينهم خلاف، لكنه خلاف لا يضر، وهو خلاف لا يضلل أحدهم الآخر به، أي: أن صدورهم تتسع له، وإلا، فقد اختلفوا في أشياء مما يتعلق بالعقيدة، مثل: هل رأى النبي ربه بعينه أم لم يره؟ ومثله: هل عذاب القبر على البدن والرواح أو الروح فقط؟ ومثل بعض الأمور يختلفون فيها، لكنها مسائل تعد فرعية

---

[3] رواه مسلم/ كتاب الإيمان/ باب ذهاب الإيمان في آخر الزمان.

[4] تقدم قريباً.

بالنسبة للأصول، وليست من الأصول. ثم هم مع ذلك إذا اختلفوا، لا يضلل بعضهم بعضاً، بخلاف أهل البدع.

إذاً فهم مجتمعــون على الســنة، فهم أهــل الســنة والجماعة.

وعلم من كلام المؤلف رحمه الله أنـه لا يـدخل فيهم من خالفهم في طريقتهم، فالأشـاعرة مثلا والماتريديـة لا يعدون من أهل السنة والجماعة في هذا البــاب، لأنهم مخـالفون لمـا كـان عليـه النـبي وأصـحابه في إجـراء صفات الله سبحانه وتعالى على حقيقتهـا، ولهـذا يخطئ من يقـول: إن أهـل السـنة والجماعـة ثالثـة: سـلفيون، وأشعريون، وما تريديون، فهذا خطأ، نقـول: كيـف يمكن الجميع أهل سـنة وهم مختلفـون؟! فمـاذا بعـد الحـق إلا الضلال؟! وكيف يكونون أهل سـنة وكـل واحـد يـرد على الآخـر؟! هـذا لا يمكن، إلا إذا أمكن الجمـع بين الضـدين، فنعم، وإلا، فلا شك أن أحدهم وحده هـو صـاحب السـنة، فمن هو؟ الأشعرية، أم الماتريدية، أم السـلفية؟ نقـول: من وافق السنة، فهو صاحب السـنة ومن خـالف السـنة، فليس صاحب سنة، فنحن نقول: السلف هم أهل السـنة والجماعة، ولا يصدق الوصف على غيرهم أبداً والكلمــات تعتبر معانيها لننظر كيف نسمى من خـالف السـنة أهـل سـنة؟ لا يمكن وكيـف يمكن أن نقـول عن ثلاث طوائـف مختلفة: إنهم مجتمعون؟ فـأين الاجتمـاع؟ فأهـل السـنة والجماعـة هم السـلف معتقـداً، حـتى المتـأخر إلى يـوم القيامـة إذا كـان على طريقـة النـبي وأصـحابه، فإنـه سلفي.

وهـــــــــــو الإيمـــــــــــــــــــان بالله

(1)..

(1) هذه العقيدة أصلها لنا النبي في جواب جبريــل حين سأل النبي : ما الإسلام؟ أما الإيمان؟ ما الإحسان؟ متى السـاعة؟ فالإيمـان ــ قـال لـه ــ: "أن تـؤمن باللـه، وملائكته، وكتبـه، ورسـله، واليـوم الآخـر، والقـدر خـيره وشره"[1].

---

[1] رواه مسلم/ كتاب الإيمان/ باب بيان أركان الإيمان والإسلام.

"الإيمان باللـه": الإيمـان في اللغـة: يقـول كثـير من الناس: إنه التصديق، فصدقت وآمنت معناهما لغة واحــد، وقد سـبق لنـا في التفسـير أن هـذا القـول لا يصـح بـل الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء عن تصديق به، بــدليل أنك تقول: آمنت بكـذا وأقــررت بكـذا وصـدقت فلانـا ولا تقول: آمنت فلاناً.

إذا فالإيمان يتضمن معنى زائداً على مجرد التصديق، وهــو الإقــرار والاعــتراف المســتلزم للقبــول للأخبــار والإذعان للأحكام، هذا الإيمان، أمـا مجـرد أن تـؤمن بـأن الله موجود، فهذا ليس بإيمان، حـتى يكـون هـذا الإيمـان مستلزما للقبول في الأخبار والإذعان في الأحكام، وإلا، فليس إيماناً.

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

1- 1- الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى.

2- 2- الإيمان بربوبيته، أي: الانفراد بالربوبية.

3- 3- الإيمان بانفراده بالألوهية.

4- 4- الإيمــان بأســمائه وصــفاته. لا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بذلك.

فمن لم يؤمن بوجود اللـه، فليس بمـؤمن، ومن آمن بوجـود اللـه لا بـانفراده بالربوبيـة، فليس بمـؤمن، ومن آمن بالله وانفـراده بالربوبيـة، فليس بمـؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية والألوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته، فليس بمؤمن، وإن كان الأخير فيــه من يســلب عنه الإيمان بالكلية وفيه من يسلب عنه كمال الإيمان.

الإيمان بوجوده:

إذا قال قائل: ما الدليل على وجود الله عز وجل؟

قلنــا: الــدليل على وجــود اللــه: العقــل، والحس، والشرع.

ثلاثـة كلهـا تـدل على وجـود اللـه، وإن شـئت، فـزد: الفطرة، فتكون الدلائل على وجـود اللـه أربعـة: العقـل، والحس، والفطـرة، والشـرع. وأخرنـا الشـرع، لا لأنـه لا يستحق التقديم، لكن لأننا نخاطب من لا يؤمن بالشرع.

ـ فأما دلالة العقل، فنقول: هل وجود هـذه الكائنـات بنفسها، أو وجدت هكذا صدفة؟

فإن قلت: وجدت بنفسها، فمستحيل عقلاً ما دامت هي معدومة؟ كيف تكون موجودة وهي معدومة؟! المعدوم ليس بشيء حتى يوجد، إذاً لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها وإن قلت: وجدت صدفة، فنقول: هذا يستحيل أيضاً، فأنت أيها الجاحد، هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها، هل وجد هذا صدفة؟! فيقول: لا يمكن أن يكون. فكذلك هذه الأطيار والجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والجمر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة أبداً.

ويقال: إن طائفة من السمنية جاؤوا إلى أبي حنيفة رحمه الله، وهم من أهل الهند، فناظروه في إثبات الخالق عز وجل، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين، فجاؤوا، قالوا: ماذا قلت؟ أنا أفكر في سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق جاءت تشق عباب الماء حتى أرسلت في الميناء ونزلت الحمولة وذهبت، وليس فيها قائد ولا حمالون.

قالوا: تفكر بهذا؟! قال: نعم. قالوا: إذاً ليس لك عقل! هل يعقل أن سفينة تأتي بدون قائد وتنزل وتنصرف؟! هذا ليس معقول! قال: كيف لا تعقلون هذا، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع؟ فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم، وعجزوا عن جوابه هذا أو معناه.

وقيل لأعرابي من البادية: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟

ولهذا قال الله عز وجل:]أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون[[الطور: 35].

فحينئذ يكون العقل دالاً دلالة قطعية على وجود الله.

- وأما دلالة الحس على وجود الله، فإن الإنسان يدعو الله عز وجل، يقول: يا رب! ويدعو بالشيء، ثم

يستجاب له فيه، وهذه دلالة حسه، هو نفسه لم يدع إلا الله، واستجاب الله له، رأى ذلك رأي العين. وكذلك نحن نسمع عمن سبق وعمن في عصرنا، أن الله استجاب الله.

فالأعرابي الذي دخل والرسول يخطب الناس يوم الجمعة قال: هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا قال أنس: والله، ما في السماء من سحاب ولا قزعة (أي: قطعة سحاب) وما بيننا وبين سلع (جبل في المدينة تأتي من جته السحب) من بيت ولا دار.. وبعد دعاء الرسول فوراً خرجت سحاباً مثل الترس، وارتفعت في السماء وانتشرت ورعدت، وبرقت، ونزل المطر، فما نزل الرسول إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام[1] وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسيية.

وفي القرآن كثير من هذا، مثل:]وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين (83) فاستجبنا له[[الأنبياء: 83-84] وغير ذلك من الآيات.

- وأما دلالة الفطرة، فإن كثيراً من الناس الذين لم تنحرف فطرهم يؤمنون بوجود الله، حتى البهائم العجم تؤمن بوود الله، وقصة النملة التي رويت عن سليمان عليه الصلاة والسلام، خرج يستسقي، فوجد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها نحو السماء، تقول: اللهم أنا خلق من خلقك، فلا تمنع عنا سقياك.

فقال: ارجعوا، فقد سقيتم بدعوة غيركم، فالفطر مجبولة على معرفة الله عز وجل وتوحيده.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله:]وإذ أخذ ربكم من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (172) أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم[[الأعراف: 172ـ 173]، فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على شهادته بوجود الله وربوبيته وسواء أقلنا:

([1] رواه البخاري/ كتاب الاستسقاء/ باب الاستسقاء في خطبة الجمعة، ومسلم/ كتاب صلاة الاستسقاء/ باب الدعاء في الاستسقاء.

إن الله استخرجهم من ظهر آدم واستشـهدهم، أو قلنـا: إن هذا هو ما ركب الله تعـالى في فطـرهم من الإقـرار به، فإن الآية تدل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته.

هذه أدلة أربعة تدل على وجود الله سبحانه وتعالى.

- وأما دلالـة الشـرع، فلأن مـا جـاءت بـه الرسـل من شرائع الله تعالى المتضمنة لجميع ما يصـلح الخلـق يـدل على أن الذي أرسل بهـا رب رحيم حكيم، ولا سـيما هـذا القرآن المجيد الذي أعجز البشر والجن أن يأتوا بمثله.

وملائكته[1]..

(1) الملائكة جمع: ملاك، وأصل ملاك: مألك، لأنه من الألوكة، والألوكة في اللغـة الرسـالة، قـال اللـه تعـالى:]جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى[[فاطر: 1].

فالملائكة عالم غيبي، خلقهم الله عز وجل من نــور، وعلهم طائعين له متذللين له، ولكل منهم وظائف خصـه الله بها، ونعلم من وظائفهم:

أولاً: جبريل: موكل بالوحي، ينزل به من اللـه تعـالى إلى الرسل.

ثانيـاً: إسـرافيل: موكـل بـالوحي، يـنزل بـه من اللـه تعالى إلى الرسل.

ثالثاً: ميكائيل: موكل بالقطر والنبات.

وهؤلاء الثلاثة كلهم موكلون بما فيـه حيـاة، فجبريـل موكـل بـالوحي وفيـه حيـاة القلـوب، وميكائيـل بـالقطر والنبات وفيه حياة الأرض، وإسرافيل بنفخ الصـور وفيـه حياة الأجساد يوم المعاد.

ولهذا كان النبي يتوسل بربوبية الله لهم في دعـاء الاستفتاح في صلاة الليل، فيقـول: "اللهم رب جبرائيـل وميكائيـل وإسـرافيل، فـاطر السـماوات والأرض، عـالم الغيب والشـهادة، أنت تحمـك بين عبـاد فيمـا كـانوا فيـه يختلفون، اهدني لما اختلـف فيـه من الحـق بإذنـك. إنـك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"[1]، هذا الدعاء الـذي كان يقوله في قيام الليل متوسلاً بربوبية الله لهم.

([1]) أخرجه مسلم/ كتاب صلاة المسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

كذلك نعلم أن منهم من وكـل بقبض أرواح بـني آدم، أو بقبض روح كل ذي روح وهم: ملك الموت وأعوانه ولا يسـمى عزرائيـل، لأنـه لم يثبت عن النـبي عليـه الصـلاة والسلام أن اسمه هذا.

قال تعالى:]حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسـلنا وهم لا يفرطــون[[الأنعــام: 61]. وقــال تعــالى:]قــل يتوفـاكم ملـك المـوت الـذي وكـل بكم[[السـجدة: 11]. وقال تعـالى:]اللـه يتـوفى الأنفس حين موتها[[الزمـر: 42].

ولا منافــاة بين هــذه الآيــات الثلاث، فــإن الملائكــة تقبض الـروح، فـإن ملـك المـوت إذا أخرجهـا من البـدن تكون عنده ملائكة، إن كان الرجل من أهل الجنة، فيكون معهم حنوط من الجنــة، وكفن من الجنــة، يأخــذون هـذه الروح الطيبة، ويجعلونها في هذا الكفن، ويصـعدون بهـا إلى الله عز وجل حتى تقف بين يدي اللـه عـز وجـل، ثم يقول اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فترجع الروح إلى الجسد من أجل الاختبار: من ربك؟ وما دينـك؟ ومن نبيـك؟ وإن كـان الميت غـير مـؤمن والعيـاذ بالله، فإنه ينزل ملائكة معهم كفن من النار وحنــوط من النــار، يأخــذون الــروح، ويجعلونهــا في هــذا الكفن، ثم يصعدون بهـا إلى السـماء، فتغلـق أبـواب السـماء دونهـا وتطرح إلى الأرض، قال الله تعـالى:]ومن يشـرك باللـه فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي بـه الـريح في مكان سحيق[[الحج: 31]، ثم يقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في سجين[2] العافية!.

هــؤلاء موكلــون بقبض الــروح من ملــك المــوت إذا قبضها، وملك الموت هو الذي يباشر قبضـها، فلا منافـاة إذن، والذي يأمر بذلك هو الله، فيكـون في الحقيقـة هـو المتوفي.

ومنهم ملائكـة سـياحون في الأرض، يلتمسـون حلـق الذكر، إذا وجدوا حلقة العلم والذكر، جلسوا[3].

---

[2] رواه أحمد (4/287)، وأبو داود/ كتاب السنة/ بـاب في المسـألة في القـبر، والحـاكم (1/93) وقـال: "صـحيح على شرط الشيخين" وأقره الذهبي، وقال الهيثمي: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح" 3/49.

[3] البخاري/ كتاب الدعوات/ باب فضل ذكر الله عز وجل، ومسلم/ كتاب الدعوات/ باب فضل مجالس الذكر.

وكذلك هناك ملائكة يكتبون أعمال الإنسان:]وإن عليكم لحافظين (10) كراما كاتبين (11) يعلمون ما تفعلون (12)[[الانفطار: 10-12].]ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[[ق: 18].

دخل أحد أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض رحمه الله فوجده يئن من المرض، فقال له: يا أبا عبد الله! تئن، وقد قال طاووس: إن الملك يكتب حتى أنين المريض، لأن الله يقول:]ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[[ق: 18]؟ فجعل أبو عبدالله يتصبر وترك الأنين، لأن كل شيء يكتب]ما يلفظ من قول[: من: زائدة لتوكيد العموم، أي قول تقوله، يكتب لكن قد تجازى عليه بخير أو بشر، هذا حسب القول الذي قيل.

ومنهم أيضاً ملائكة يتعاقبون على بني آدم في الليل والنهار،]له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله[[الرعد: 11].

ومنهم ملائكة ركع وسجد لله في السماء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "أطت السماء، وحق لها أن تئط" والأطيط: صرير الرحل، أي: إذا كان على البعير حمل ثقيل، تسمع له صرير من ثقل الحمل، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "أطت السماء، وحق لها أن تئط ما من موضع أربع أصابع منها، إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد"[1]، وعلى سعة السماء فيها هؤلاء الملائكة.

ولهذا قال الرسول في البيت المعمور الذي مر به في ليلة المعراج، قال: "يطوف به (أو قال: يدخله) سبعون ألف ملك كل يوم، ثم لا يعودون إلي آخر ما عليهم"[2]، والمعنى: كل يوم يأتي إليه سبعون ألف ملك غير الذين أتوه بالأمس، ولا يعودون له أبداً، يأتي ملائكة آخرون غير من سبق، وهذا يدل على كثرة الملائكة، ولهذا قال الله تعالى:]وما يعلم جنود ربك إلا هو[[المدثر: 31].

---

[1] رواه أحمد (5/173)، والترمذي/ كتاب الزهد/ باب قوله صلى الله عليه وسلم "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً"، وابن ماجه/ كتاب الزهد/ باب الحزن والبكاء.

[2] رواه مسلم/ كتاب الإيمان/ باب الإسراء.

ومنهم ملائكة موكلون بالجنة وموكلون بالنار، فخازن النار اسمه مالك يقول أهل النار:]يا مالك ليقض علينا ربك[[الزخرف: 77]، يعنى: ليهلكنا ويمتنا، فهم يدعون الله أن يميتهم، لأنهم في عذاب لا يصبر عليه، فيقول:]إنكم ماكثون[[الزخرف: 77]، ثم يقال لهم:]لقد جئناكم بالحق ولكن أكثر كم للحق كارهون[[الزخرف: 77].

المهم: أنه يجب علينا أن نؤمن بالملائكة.

وكيف الإيمان بالملائكة؟

نؤمن بأنهم عالم غيبي لا يشاهدون، وقد يشاهدون، إنما الأصل أنهم عالم غيبي مخلوقون من نور مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات وهم خاضعون لله عز وجل أتم الخضوع،]لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون[[التحريم: 6].

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما علمنا.

وهم أجساد، بدليل قوله تعالى:]جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة[[فاطر، 1]، ورأى النبي جبريل على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق[1]، خلافاً لمن قال: إنهم أرواح.

إذا قال قائل: هل لهم عقول؟ نقولك هل لك عقل؟ ما يسأل عن هذا إلا رجل مجنون، فقد قال الله تعالى:]لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون[[التحريم: 6]، فهل يثني عليهم هذا الثناء وليس لهم عقول؟!]يسبحون الليل والنهار لا يفترون[[الأنبياء: 20]، أنقول: هؤلاء ليس لهم عقول؟! يأتمرون بأمر الله، ويفعلون ما أمر الله به ويبلغون الوحي، ونقول: ليس لهم عقول؟! أحق من يوصف بعدم العقل من قال: إنه لا عقول له!!

وكتبه[1]...

(1) أي كتب الله التي أنزلها مع الرسل.

---

(1) رواه البخاري/ كتاب بدء الخلق/ باب إذا قال أحدكم "آمين" والملائكة في السماء فوافقت أحدهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه.

ولكل رسـول كتـاب، قـال اللـه تعـالى:]لقـد أرسـلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتـاب والمـيزان[[الحديـد: 25]، وهـذا يـدل على أن كـل رسـول معـه كتـاب، لكن لا نعرف كل الكتب، بل نعرف كل الكتب، بـل نعـرف منهـا: صـحف إبـراهيم وموسـى، التـوراة، الإنجيـل، الزبـور، القـرآن، سـتة، لأن صـحف موسـى بعضـهم يقـول: هي التوراة، وبعضهم يقول: غيرها، فإن كانت التوراة، فهي خمسة، وإن كانت غيرها، فهي ستة، ولكن مع ذلـك نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على الرسل، وإن لم نعلم به، نؤمن به إجمالاً.

ورسله(1)...

(1) أي: رسـل اللـه وهم الـذين أوحى اللـه اليسـهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ.

الدليل على أن أولهم نوح: قولـه تعـالى:]إنـا أوحينـا إليك كمـا أوحينـا إلى نـوح والنبـيين من بعـده[[النسـاء: 163]، يعني: وحياً، كإيحائنا إلى نوح والنبـيين من بعـده، وهو وحي الرسالة. وقوله:]ولقد أرسلنا نوحـاً وإبـراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتـاب[[الحديـد: 26]:ـ]في ذريتهما[، أي ذرية نوح وإبراهيم، والذي قبل نوح لا يكون من ذريته. وكذلك قوله تعالى:]وقوم نوح من قبـل إنهم كـانوا قومـاً فاسـقين[[الـذاريات: 46]، قـد نقـول: إن قوله:]من قبل[: يدل على ما سبق.

إذاً من القـرآن ثلاثـة أدلـة تـدل على أن نوحـا أول الرسل ومن السنة ما ثبت في حديث الشفاعة: "أن أهل الموقف يقولون لنـوح: أنت أول رسـول أسـله اللـه إلى أهل الأرض"[1]، وهذا صريح.

أمـا آدم عليـه الصـلاة والسـلام، فهـو نـبي، وليس برسول.

وأما إدريس، فـذهب كثـير من المـؤرخين أو أكـثرهم وبعض المفسـدين أيضـاً إلى أنـه قبـل نـوح، وأنـه من أجداده لكن هذا قول ضعيف جداً والقـرآن والسـنة تـرده والصواب ما ذكرنا.

---

[1] البخاري/ كتاب التوحيد/ باب كلاما لله مع الأنبياء يوم القيامة، ومسلم/ كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلاً

وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى:]ولكن رسول الله وخاتم النبيين[[الأحزاب: 40]، ولم يقل: وخاتم المرسلين، لأنه إذا ختم النبوة، ختم الرسالة من باب أولى.

فإن قلت: عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان[2] وهو رسول، فما الجواب؟.

نقول: هو لا ينزل بشريعة جديد، وإنما يحكم بشريعة النبي .

فإذا قال قائل: من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وعيسى يحكم بشريعة النبي ، فيكون من أتباعه، فكيف يصح قولنا: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر؟

فالجواب: أحد ثلاثة وجود:

أولها: أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول مستقل من أولي العزم ولا يخطر بالبال المقارنة بينه وبين الواحد من هذه الأمة، فكيف بالمفاضلة؟! وعلى هذا يسقط هذا الإيراد من أصله، لأنه من التنطع، وقد هلك المتنطعون، كما قال النبي [3].

الثاني: أن نقول: هو خير الأمة إلا عيسى.

الثالث: أن نقول: إن عيسى ليس من الأمة، ولا يصح أن نقول: إنه من أمته، وهو سابق عليه، لكنه من أتباعه إذا نزل، لأن شريعة النبي باقية إلى يوم القيامة.

فإن قال قائل: كيف يكون تابعاً، وهو يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل إلا الإسلام مع أن الإسلام يقر أهل الكتاب الجزية؟!.

قلنا: إخبار النبي بذلك إقرار له، فتكون من شرعه ويكون نسخاً لما سبق من حكم الإسلام الأول.

والبعث بعد الموت(1) ....

(1) البعث بمعنى الإخراج، يعني: إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم.

وهذا من معتقد أهل السنة والجماعة.

---

[2] لما رواه البخاري/ كتاب البيوع/ باب قتل الخنزير، ومسلم/ كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم.

[3] رواه مسلم/ كتاب العلم/ باب هلك المتنطعون.

وهذا ثابت بالكتـاب والسـنة وإجمـاع المسـلمين، بـل إجماع اليهـود والنصـارى، حيث يقـرون بـأن هنـاك يومـاً يبعث الناس فيه ويجازون:

- أمـا القـرآن، فيقـول اللـه عـز وجـل:]زعم الـذين كفروا أن لن يبعثوا قـل بلى وربي لتبعثن[[التغـابن: 7] وقال عز وجل:]ثم إنكم بعـد ذلـك لميتـون (15) ثم إنكم يوم القيامة تبعثون[[المؤمنون: 15-16].

- وأمـا في السـنة، فجـاءت الأحـاديث المتـواترة عن النبي في ذلك.

- وأجمـع المسـلمون على هـذا إجماعـاً قطعيـاً، وأن الناس سـيبعثون يـوم القيامـة ويلاقـون ربهم ويجـازون بأعمـالهم،]فمن يعمـل مثقـال ذرة خـيراً يـره (7) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[[الزلزلة: 7-8].

]يـــا أيهـــا الإنســـان إنـــك كـــادح إلى ربـــك كـــدحا فملاقيه[[الانشقاق: 6]، فتذكر هـذا اللقـاء حـتى تعمـل له، خوفاً من أن تقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة وليس عندك شيء من العمل الصـالح، انظـر مـاذا عملت ليوم النقلة؟ وماذا عملت ليوم اللقاء؟ فإن أكـثر النـاس اليوم ينظرون ماذا عملوا للدنيا، مع العلم بأن هذه الدنيا التي عملوا لها لا يدرون هل يدركونها أم لا؟ قـد يخطـط الإنسان لعمل دنيوي يفعله غداً أو بعد غد، ولكنه لا يدرك غداً ولا بعد غد، لكن الشيء المتيقن أن أكثر النـاس في غفلة من هذا، قال الله تعـالى:]بـل قلـوبهم في غمـرة من هـذا[[المؤمنـون: 63] وأعمـال الـدنيا يقـول:]ولهم أعمال من دون ذلـك هم لهـا عـاملون[[المؤمنـون: 63]، فـأتى بالجملـة الاسـمية المفيـدة للثبـوت والاسـتمرار: و]هم لها عاملون[، وقال تعالى:]قـد كنت في غفلـة من هذا[[ق: 22]: يعني: يوم القيامة وقال تعالى:]فكشـفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد[[ق: 22].

هذا البعث الذي اتفقت عليه الأديان السـماوية وكـل متـدين بـدين هـو أحـد أركـان الإيمـان السـتة وهـو من معتقـدات أهـل السـنة والجماعـة ولا ينكـره أحـد ممن ينتسب إلى ملة أبداً.

والإيمـــــــــــــان بالقـــــــــــــــدر[1]..

(1) هذا الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

القدر هو: "تقدير الله عز وجل للأشياء".

وقـد كتب اللـه مقـادير كـل شـيء قبـل أن يخلـق السماوات والأرض بخمسين ألف سـنة[1]، كمـا قـال اللـه تعالى:]ألم تعلم أن الله يعلم ما في السـماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير[[الحج: 70].

خـــــــــــــيره وشـــــــــــــره[1]..

(1) وقوله: "خيره وشره": أما وصـف القـدر بـالخير، فالأمر فيه ظاهر. وأما وصف القدر بالشـر، فـالمراد بـه شر المقدور لا شر القدر الذي هو فعل اللـه، فـإن فعـل الله عـز وجـل ليس فيـه شـر، كـل أفعالـه خـير وحكمـة، ولكن الشر في مفعولاته ومقدوراته، فالشر هنا باعتبـار المقدور والمفعول، أما باعتبار الفعـل، فلا، ولهـذا قـال النبي عليه الصلاة والسلام: "والشر ليس إليك"[2].

فمثلاً، نحن نجـد في المخلوقـات المقـدورات شـراً، ففيهـا الحيـات والعقـارب والسـباع والأمـراض والفقـر والجدب وما أشبه ذلك، وكل هذه بالنسبة للإنسـان شـر، لأنها لا تلائمه، وفيهـا أيضـاً المعاصـي والفجـور والكفـر والفسوق والقتل وغير ذلك، وكل هذه شر، لكن باعتبـار نسبتها غالى الله هي خير، لأن الله عز وجـل لم يقـدرها إلا لحكمة بالغة عظيمـة، عرفهـا من عرفهـا وجهلهـا من جهلها.

وعلى هذا يجب أن تعـرف أن الشـر الـذي وصـف بـه القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير الله وفعله.

ثم اعلم أيضاً أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شـراً في نفسـه، لكنـه خـير من جهـة أخـرى، قـال اللـه تعالى:]ظهر الفساد في الـبر والبحـر بمـا كسـبت أيـدي

---

[1] لما رواه مسلم /كتاب القدر/ باب ذكر حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

[2] مسلم/ كتاب صلاة المسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم: 41]، النتيجة طيبة، وعلى هذا، فيكون الشر في هذا المقدور شراً إضافياً يعنى: لا شراً حقيقياً، لأن هذا ستكون نتيجته خيراً.

ولنفض حد الزاني مثلاً إذا كان غير محصن أن يجلد مئة جلدة ويسفر عن البلد لمدة عام، هذا لا شك أنه شر بالنسبة إليه، لأنه لا يلائمه، لكنه خير من وجه آخر لأنه يكون كفارة له، فهذا خير، لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة، فهو خير له، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره، فإن غيره لو هم أن يزني وهو يعلم أنه سيفعل به مثل ما فعل بهذا، ارتدع، بل قد يكون خيراً له هو أيضاً، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذي سبب له هذا الشيء.

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية، فهناك شيء يكون شراً باعتباره مقدوراً، كالمرض مثلاً، فالإنسان إذا مرض، فلا شك أن المرض شر بالنسبة له، لكن فيه خير له في الواقع، وخيره تكفير الذنوب، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفرها الاستغفار والتوبة، لوجود مانع، مثلاً لعدم صدق نيته مع الله عز وجل فتأتي هذه الأمراض والعقوبات، فتكفر هذه الذنوب.

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه بالصحة، إلا إذا مرض، نحن الآن أصحاء ولا ندري ما قدر الصحة لكن إذا حصل المرض، عرفنا قدر الصحة فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى.. هذا أيضاً خير، وهو أنك تعرف قدر النعمة.

ومن خيره أنه قد يكون في هذا المرض أشياء تقتل جراثيم في البدن لا يقتلها إلا المرض، يقول الأطباء: بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التي في الجسد وأنك لا تدري.

فالحاصل أننا نقول:

أولاً: الشر الذي وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور الله، أما تقدير الله، فكله خير والدليل قول النبي ﷺ "والشر ليس إليك"[1].

---

(1) تقدم تخريجه ص48

ثانياً: أن الشر الذي في المقدور ليس شراً محضاً بل هذا الشر قد ينتج عنه أمور هي خير، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمراً إضافياً.

هذا، وسيتكلم المؤلف رحمه الله على القدر بكلام موسع يبين درجاته عند أهل السنة.

ومن الإيمان بالله[1]: الإيمان بما وصف به نفسه[2]..................................

(1) (من): هنا للتبعيض، لأننا ذكرنا أن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وانفراده بالربوبية، وبالألوهية، وبالأسماء والصفات، يعني: بعض الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه.

(2) قوله: "بما وصف به نفسه" ينبغي أن يقال: وسمى به نفسه لكن المؤلف رحمه الله ذكر الصفة فقط: إما لأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفة، أو لأن الخلاف في الأسماء خلاف ضعيف، لم ينكره إلى غلاة الجهمية والمعتزلة، فالمعتزلة يثبتون الأسماء، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الأسماء، لكن يخالفون أهل السنة في أكثر الصفات.

فنحن الآن نقول: لماذا اقتصر المؤلف على "ما وصف الله به نفسه"؟

نقول: لأحد أمرين: إما لأن كل اسم يتضمن صفة، وإما لأن الخلاف في الأسماء قليل بالنسبة للمنتسبين للإسلام.

في كتابه[1]..

(1) "في كتابه": (كتابه) يعني: القرآن، وسماه الله تعالى كتاباً لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة، ومكتوب كذلك بين الناس يكتبونه في المصاحف، فهو كتاب بمعنى مكتوب، وأضافه الله إليه، لأنه كلامه سبحانه وتعالى، فهذا القرآن كلام الله، تكلم به حقيقة، فكل حرف منه، فإن الله قد تكلم به وفي هذه الجملة مباحث:

المبحث الأول: أن من الإيمــان باللــه الإيمــان بمــا وصف به نفسه:

ووجه ذلـك أن الإيمـان باللـه ــ كمـا سـبق ــ يتضـمن الإيمان بأسمائه وصفاته، فإنه ذات اللـه تسـمى بأسـماء وتوصف بأوصاف، ووجود ذات مجردة عن الأوصـاف أمـر مسـتحيل، فلا يمكن أن توجـد ذات مجـردة عن الأوصـاف أبداً، وقد يفرض الذهن أن هناك ذاتاً مجردة من الصفات لكن الفرض ليس كالأمر الواقـع، أي أن المفـروض ليس كالمشــهود، فلا يوجــد في الخــارج ـــ أي: في الواقــع المشاهد ـ ذات ليس لها صفات أبداً.

فالذهن قد يفرض مثلاً شـيئاً لـه ألـف عين، في كـل ألف عين ألف سواد وألف بياض، وله ألف رجل، في كـل رجل ألف أصبع، في كـل أصـبع ألـف ظفـر، ولـه ملايين الشعر، في كل شـعرة ملايين الشـعر.... وهكـذا يفرضـه وإن لم يكن لــه واقــع، لكن الشــيء الواقــع لا يمكن أن يوجد شيء بدون صفة.

لهذا، كان الإيمان بصفات الله من الإيمـان باللـه، لـو لم يكن من صــفات اللــه إلا أنــه موجــود واجب الوجــود، وهذا باتفاق الناس، وعلى هذا، فلا بد أن يكون له صفة.

المبحث الثاني: أن صفات الله عـز وجـل من الأمـور الغيبية، والواجب على الإنسـان نحـو الأمـور الغيبيـة: أن يؤمن بها على ما جاءت دون أن يرجـع إلى شـيء سـوى النصوص.

قال الإمام أحمد: "لا يوصـف اللـه إلا بمـا وصـف بـه نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث".

يعني أننا لا نصف اللـه إلا بمـا وصـف بـه نفسـه في كتابه، أو على لسان رسوله .

ويدل لذلك القرآن والعقل:

ففي القرآن: يقول اللـه عـز وجـل:]قـل إنمـا حـرم ربي الفــواحش مــا ظهــر منهــا ومــا بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل بـه سـلطاناُ وأن تقولـوا على اللـه مـا لا تعلمـون[[الأعـراف، 33]، فـإذا وصفت الله بصفة لم يصـف اللـه بهـا نفسـه، فقـد قلت عليه مالا تعلم وهذا محرم بنص القرآن.

ويقول الله عز وجل:]ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً[[الإسراء: 36]، ولو وصفنا الله بما لم يصف به نفسه، لكنا قفونا ما ليس لنا به علم، فوقعنا فيما نهى الله عنه.

وأما الدليل العقلي، فلأن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية ولا يمكن في الأمور الغيبية أن يدركها العقل، وحينئذ لا نصف الله بما لم يصف به نفسه، ولا نكيف صفاته، لأن ذلك غير ممكن.

نحن الآن لا تدرك ما وصف الله به نعيم الجنة من حيث الحقيقة مع أنه مخلوق، في الجنة فاكهة ونخل ورمان وسرر وأكواب وحور ونحن لا ندرك حقيقة هذه الأشياء، ولو قيل: صفها لنا، لا نستطيع وصفها، لقوله تعالى:]فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون[[السجدة: 17]، ولقوله تعالى في الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"[1].

فإذا كان هذا في المخلوق الذي وصف بصفات معلومة المعنى ولا تعلم حقيقتها، فكيف بالخالق؟!

مثال آخر: الإنسان فيه روح، لا يحيا إلا بها، لولا أن الروح في بدنه ما حيي ولا يستطيع أن يصف الروح لو قيل له: ما هذه الروح التي بك؟ ما هي التي لو نزعت منك، صرت جثة، وإذا بقيت فأنت إنسان تعقل وتفهم وتدرك؟ لجلس ينظر ويفكر فلا يستطيع أن يصفها أبداً مع أنها قريبة، منه، في نفسه وبين جنبيه، ويعجز عن إدراكها مع أنها حقيقة، يعني: شيء يرى، كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بـ" أن الروح إذا قبض، تبعه البصر"[2]، فالإنسان يرى نفسه وهي مقبوضة، ولهذا تبقى العين مفتوحة عند الموت تشاهد الروح وهي قد خرجت، وتؤخذ هذه الروح وتجعل في كفن ويصعد بها إلى الله ومع ذلك ما يستطيع أن يصفها وهي بين

---

(1) رواه البخاري/ كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة، ومسلم/ كتاب الجنة.

(2) رواه مسلم/ كتاب الجنائز/ باب في إغماض الميت.

جنبيه، فكيف يحاول أن يصف الرب بأمر لم يصف به نفسه! ولا بد إذاً تحقق ثبوت الصفات لله.
المبحث الثالث: أننا لا نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه.
ودليل ذلك أيضاً من السمع والعقل:
ذكرنا من السمع آيتين.
وأما من العقل، فقلنا: إن هذا أمر غيبي، لا يمكن إدراكه بالعقل، وضربنا لذلك مثلين.
المبحث الرابع: وجوب إجراء النصوص الواردة في الكتاب والسنة على ظاهرها، لا نتعداها.
مثال ذلك: لما وصف الله نفسه بأن له عيناً، هل نقول: المراد بالعين الرؤية لا حقيقة العين؟ لو قلنا ذلك، ما وصفنا الله بما وصف به نفسه.
ولما وصف الله نفسه بأن له يدين:]بل يداه مبسوطتان[[المائدة: 64]، لو قلنا: إن الله تعالى ليس له يد حقيقة، بل المراد باليد ما يسبغه من النعم على عباده، فهل وصفنا الله بما وصف به نفسه؟ لا!
المبحث الخامس: عموم كلام المؤلف يشمل كل ما وصف الله به نفسه من الصفات الذاتية المعنوية والخبرية والصفات الفعلية.
فالصفات الذاتية هي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها وهي نوعان: معنوية وخبرية:
فالمعنوية، مثل: الحياة، والعلم، القدرة، والحكمة... وما أشبه ذلك، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر.
والخبرية، مثل: اليدين، والوجه، والعينين... وما أشبه ذلك مما سماه، نظيره أبعاض وأجزاء لنا.
فالله تعالى لم يزل له يدان ووجه وعينان لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن، ولن ينفك عن شيء منه، كما أن الله لم يزل حياً ولا يزال حياً، لم يزل عالماً ولا يزال عالماً، ولم يزل قادراً ولا يزال قادراً... وهكذا، يعنى ليس حياته تتجدد، ولا قدرته تتجدد، ولا سمعه يتجدد بل هو موصوف بهذا أزلاً وأبداً، وتجدد المسموع لا يستلزم تجدد السمع، فأنا مثلاً عندما أسمع الأذان الآن فهذا ليس معناه أنه حدث لي سمع جديد عند سماع

الأذان بل هو منذ خلقه الله في لكن المسموع يتجدد وهذا لا أثر له في الصفة.
واصطلح العلماء رحمهم الله على أن يسموها الصفات الذاتية، قالوا: لأنها ملازمة للذات، لا تنفك عنها.
والصفات الفعلية هي الصفات المتعلقة بمشيئته، وهي نوعان:
صفات لها سبب معلوم، مثل: الرضى، فالله عز وجل إذا وجد سبب الرضى، رضي، كما قال تعالى:]إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفار وإن تشكروا يرضه لكم[[الزمر: 7].
وصفات ليس لها سبب معلوم، مثل: النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر.
ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتباري، فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده لكن باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله لم يزل ولا يزال متكلماً لكنه يتكلم بما شاء متى شاء، كما سيأتي في بحث الكلام إن شاء الله تعال.
اصطلح العلماء رحمهم الله أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية، لأنها من فعله سبحانه وتعالى.
ولها أدلة كثيرة من القرآن، مثل:]وجاء ربك والملك صفاً صفا[[الفجر: 22]،]هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك[[الأنعام: 158]،]رضي الله عنهم ورضوا عنه[[المائدة: 119]،]ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم[[التوبة: 46]،]أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون[[المائدة: 80].
وليس في إثباتها لله تعالى نقص بوجه من الوجوه بل هذا من كماله أن يكون فاعلاً لما يريد.
وأولئك القوم المحرفون يقولون: إثباتها من النقص! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية، يقولون: لا يجيء ولا يرضى، ولا يسخط ولا يكره ولا يحب.. ينكرون كل هذه، بدعوى أن هذه حادثة والحادث لا يقوم إلا بحادث وهذا باطل، لأنه في مقابلة النص، وهو باطل بنفسه، فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل.

المبحث السادس: أن العقل لا مدخل له في باب الأسماء والصفات:

لأن مدار إثبات الأسماء والصفات أو نفيها على السمع، فعقولنا لا تحكم على الله أبداً، فالمدار إذاً على السمع، خلافاً للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل التعطيل، الذين جعلوا المدار في إثبات الصفات أو نفيها على العقل، فقالوا: ما اقتضى العقل إثباته، أثبتناه، سواء أثبته الله لنفسه أم لا! وما اقتضى نفيه، نفيناه، وإن أثبته الله! وما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه، فأكثرهم نفاه، وقال: إن دلالة العقل إيجابية، فإن أوجب الصفة، أثبتناها، وإن لم يوجبها، نفيناها! ومنها من توقف فيه، فلا يثبتها لأن العقل لا يثبتها لكن لا ينكرها، لأن العقل لا ينفيها، ويقول: نتوقف! لأن دلالة العقل عند هذا سلبية، إذا لم يوجب، يتوقف ولم ينف!

فصار هؤلاء يحكمون العقل فيما يجب أو يمتنع على الله عز وجل.

فيتفرغ على هذا: ما اقتضى العقل وصف الله به، وصف الله به وإن لم يكن في الكتاب والسنة، وما اقتضى العقل نفيه عن الله، نفوه، وإن كان في الكتاب والسنة.

ولهذا يقولون: ليس لله عين، ولا وجه، ولا له يد، ولا استوى على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا لكنهم يحرفون ويسمون تحريفهم تأويلاً ولو أنكروا إنكار جحد، لكفروا، لأنهم كذبوا لكنهم ينكرون إنكار ما يسمونه تأويلاً وهو عندنا تحريف.

والحاصل أن العقل لا مجال له في باب أسماء الله وصفاته فإن قلت: قولك هذا يناقض القرآن، لأن الله يقول:]ومن أحسن من الله حكماً[[المائدة: 50] والتفضيل بين شيء وآخر مرجعه إلى العقل وقال عز وجل]ولله المثل الأعلى[[النحل: 60] وقال:]أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون[[النحل: 17] وأشباه ذلك مما يحيل الله به على العقل فيما يثبته لنفسه وما ينفيه عن الآلهة المدعاة؟

فـالجواب أن نقـول: إن العقـل يـدرك مـا يجب للـه سبحانه وتعالى ويمتنع عليه على سبيل الإجمـال لا على سبيل التفصيل، فمثلاً: العقل يـدرك بـأن الـرب لا بـد أن يكون كامل الصـفات، لكن هـذا لا يعـني أن العقـل يثبت كل صفة بعينها أو ينفيها لكن يثبت أو ينفي على سـبيل العموم أن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات سـالماً من النقص.

فمثلاً: يدرك بأنه لابد أن يكون الـرب سـميعاً بصـيراً، قـــال إبـــراهيم:]يـــا أبت لم تعبـــد مـــا لا يســـمع ولا يبصر[[مريم: 42].

ولابـد أن يكـون خالقـاً، لأن اللـه قـال:]أفمن يخلـق كمن لا يخلق[[النحل: 17]ـ]والذين يدعون من دون اللـه لا يخلقون شيئاً[[النحل: 20].

يدرك هذا ويدرك بأن الله سـبحانه وتعـالى يمتنـع أن يكون حادثاً بعد العدم، لأنه نقص، ولقولـه تعـالى محتجـاً على هؤلاء الذين يعبـدون الأصـنام:]والـذين يـدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون[[النحل: 20]، إذاً يمتنع أن يكون الخالق حادثاً بالعقل.

العقل أيضاً يدرك بأن كـل صـفة نقص فهي ممتنعـة على الله، لأن الرب لابد أن يكون كاملاً فيدرك بـأن اللـه عز وجل مسلوب عنـه الحجـز، لأنـه صـفة نقص، إذا كـان الرب عاجزاً وعصـي وأراد أن يعاقبـل الـذي عصـاه وهـو عاجز، فلا يمكن!

إذاً، العقل يدرك بأن العجـز لا يمكن أن يوصـف اللـه به، والعمى كذلك والصم كذلك والجهل كـذلك...ـ وهكـذا على سبيل العموم ندرك ذلك، لكن على سبيل التفصـيل لا يمكن أن ندركه فنتوقف فيه على السمع.

سؤال: هل كل ما هو كمال فينا يكون كمالاً في حـق الله، وهل كل ما هو نقص فينا يكون نقصاً في حق الله؟

الجواب: لا، لأن المقيـاس في الكمـال والنقص ليس باعتبـار مـا يضـاف للإنسـان، لظهـور الفـق بين الخـالق والمخلوق، لكن باعتبار الصفة من حيث هي صفة، فكــل صفة كمال، فهي ثابته لله سبحانه وتعالى.

فالأكل والشرب بالنسبة للخالق نقص، لأن سببهما الحاجة، والله تعالى غني عما سواه، لكن هما بالنسبة للمخلوق كمال ولهذا، إذا كان الإنسان لا يأكل، فلا بد أن يكون عليلاً بمرض أو نحوه هذا نقص.

والنوم بالنسبة للخالق نقص، وللمخلوق كمال، فظهر الفرق.

التكبر كمال للخالق ونقص للمخلوق، لأنه لا يتم الجلال والعظمة إلا بالتكبر حتى تكون السيطرة كاملة ولا أحد ينازعه.. ولهذا توعد الله تعالى من ينازعه الكبرياء والعظمة، قال: "من نازعني واحداً منهما عذبته"[1].

فالمهم أنه ليس كل كمال في المخلوق يكون كمالاً في الخالق ولا كل نقص في المخلوق يكون نقصاً في الخالق إذا كان الكمال أو النقص اعتبارياً.

هذه ستة مباحث تحت قوله: "ما وصف به نفسه" وكلها مباحث هامة، وقدمناها بين يدي العقيدة، لأنه سينبني عليها ما يأتي إن شاء الله تعالى.

وبما وصف به رسوله(1) ....

(1) قوله: "وبما وصفه به رسوله": ووصف رسول الله ﷺ لربه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما بالقول، أو بالفعل، أو بالإقرار.

أ-أما القول ، مثل "ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك. أمرك في السماء والأرض"[2] وقوله في يمينه: "لا ومقلب القلوب"[3].

ب- وأما الفعل، فهو أقل من القول، مثل إشارته إلى السماء يستشهد الله على إقرار أمته بالبلاغ، وهذا في حجة الوداع في عرفة، خطب الناس، وقال: "ألا هل بلغت؟" قالوا: نعم ثلاث مرات. قال "اللهم! أشهد" يرفع

---

[1] رواه مسلم/ كتاب البر/ باب تحريم الكبر.

[2] رواه الإمام أحمد (6/20)، وأبو داود/ كتاب الطب/ باب كيف الرقى، والنسائي ص 299، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (1/164)، والدرامي في "الرد على الجهمية" ص 272، والحاكم (1/344)، قال شيخ الإسلام: "حديث حسن" وسيأتي ص 418".

[3] البخاري/ كتاب القدر/ باب "يحول بين المرء وقلبه".

إصبعه إلى السماء، وينكتها إلى النـاس[4]. فرفـع إصـبعه إلى السـماء، هـذا وصـف اللـه تعـالى بـالعلو عن طريـق الفعل.

وجاءه رجل وهو يخطب الناس يوم الجمعة، قـال: يـا رسـول اللـه! هلكت الأمـوال.. فرفـع يديه[5] وهـذا أيضـاً وصف لله بالعلو عن طريق الفعل.

وغير ذلك من الأحاديث التي فيهـا فعـل النـبي عليـه الصلاة والسلام إذا ذكر صفة من صفات الله.

وأحيانـاً يـذكر الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام من صـفات اللـه بـالقول ويؤكـدها بالفعـل، وذلـك حينمـا تلا قوله تعالى:]إن اللـه كـان سـميعاً بصـيراً[[النسـاء: 58] فوضـــــــــــــع إبهامــــــــــــــه على

أذنــه اليمــنى، والــتي تليهــا على عينــه وهــذا إثبــات للسمع والبصر بالقول والفعل[1].

وحينئــذ نقــول: إن إثبــات الرســول عليــه والســلام للصـــفات يكـــون بـــالقول ويكـــون بالفعـــل، مجتمعين ومنفردين.

جـ- أما الإقرار، فهو قليل بالنسـبة لمـا قبلـه، مثـل: إقــراره الجاريــة الــتي ســألها: "أين اللــه؟" قــالت: في السماء. فأقرها وقال: "أعتقها"[2].

وكإقراره الحبر من اليهود الذي جـاء وقـال للرسـول عليه الصلاة والسلام: إننا نجد أن اللـه يجعـل السـماوات على إصـبع، والأرضـين على إصـبع والـثرى على إصـبع.. آخــر الحــديث، فضــحك النــبي تصــديقاً لقوله[2]، وهــذا إقرار.

إذا قـال قائـل: مـا وجـه وجـوب الإيمـان بمـا وصـف الرسول به ربه أو: ما دليله؟

([4]) رواه مسلم/ كتاب الحج/ باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم.

([5]) رواه البخاري/ كتاب الاستسقاء، ومسلم/ كتاب صلاة الاستسقاء.

([1]) رواه أبو داود/ كتاب السنة/ باب في الجهمية.

([2]) قصة الجارية. رواها مسلم/ كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة.

([2]) رواه البخاري/ كتاب التفسير/ باب "وما قدروا الله حق قدره". ومسلم/ كتاب صفة القيامة.

نقول: دليله قوله تعالى:]يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل[[النساء: 136]، وكل آية فيها ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغ، فهي دالة على وجوب قبول ما أخبر به من صفات الله، لأنه أخبر بها وبلغها إلى الناس، وكل ما أخبر به، فهو تبليغ من الله، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله وأنصح الناس لعباد الله وأصدق الناس فيما قال، وأفصح الناس في التعبير، فاجتمع في حقه من صفات القبول أربع: العلم والنصح، والصدق، والبيان، فيجب علينا أن نقبل كل ما أخبر به عن ربه، وهو ـ والله ـ أفصح وأنصح وأعلم من أولئك القوم الذين تبعهم هؤلاء من المناطقة والفلاسفة، ومع هذا يقول: "سبحان لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"[4].

من غير تحريف[1] ....

(1) في هذه الجملة بيان صفة إيمان أهل السنة بصفات الله تعالى، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بها إيماناً خالياً من هذه الأمور الأربعة: التحريف والتعطيل، والتكييف، والتمثيل.

فالتحريف: التغيير وهو إما لفظي وإما معنوي، والغالب أن التحريف اللفظي لا يقع، وإذا وقع، فإنما يقع من جاهل، فالتحريف اللفظي يعني تغيير الشكل، فمثلاً: فلا تجد أحداً يقول: "الحمد لله رب العالمين" بفتح الدال، إلا إذا كان جاهلاً.. هذا الغالب!

لكن التحريف المعنوي هو الذي وقع فيه كثير من الناس.

فأهل السنة والجماعة إيمانهم بما وصف الله به نفسه خال من التحريف، يعني: تغيير اللفظ أو المعنى.

وتغيير المعنى يسميه القائلون به تأويلاً ويسمون أنفسهم بأهل التأويل، لأجل أن يصبغوا هذا الكلام صبغة القبول، لأن التأويل لا تنفر منه النفوس ولا تكرهه، لكن ما ذهبوا إليه في الحقيقة تحريف، لأنه ليس عليه دليل

---

(4) رواه مسلم/ كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود.

صحيح، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقولوا: تحريفاً! ولو قالوا: هذا تحريف، لأعلنوا على أنفسهم برفض كلامهم.

ولهذا عبر المؤلف رحمه الله بالتحريف دون التأويل مع أن كثيراً ممن يتكلمون في هذا الباب يعبرون بنفي التأويل، يقولون: من غير تأويل، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة:

الوجه الأول: أنه اللفظ الذي جاء به القرآن، فإن الله تعالى قال:]يحرفون الكلم عن مواضعه[[النساء: 46]، والتعبير الذي عبر به القرآن أولى من غيره، لأنه أدل على المعنى.

الوجه الثاني: أنه أدل على الحال، وأقرب إلى العدل، فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن تسميه مؤولاً، بل العدل أن نصفه بما يستحق وهو أن يكون محرفاً.

الوجه الثالث: أن التأويل بغير دليل باطل، يجب البعد عنه والتنفير منه، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيراً من التأويل، لأن التحريف لا يقبله أحمد، لكن التأويل لين، تقبله النفس، وتستفصل عن معناه، أما التحريف، بمجرد ما نقول: هذا تحريف. ينفر الإنسان منه، إذا كان كذلك، فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل.

الوجه الرابع: أن التأويل ليس مذموماً كله، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل"[1]، وقال الله تعالى:]وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم[[آل عمران: 7]، فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل.

والتأويل ليس بمعنى العاقبة والمال، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره.

(أ) يكون بمعنى التفسير، كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية، يقولون: تأويل قوله تعالى كذا وكذا. ثم يذكرون المعنى والسمي التفسير تأويلاً، لأننا أولنا الكلام، أي: جعلناه يؤول إلى معناه وسمي التفسير

---

[1] البخاري/ كتاب الوضوء/ باب وضع الماء عند الخلاء، ومسلم/ كتاب فضائل الصحابة/ باب فضل عبدالله بن عباس.

تـأويلاً، لأننـا أولنـا الكلام، أي: جعلنـاه يـؤول إلى معنـاه المراد به.

(ب) تأويل بمعنى: عاقبـة الشـيء، وهـذا إن ورد في طلب، فتأويله فعله إن كان أمراً وتركه إن كان نهياً، وإن ورد في خبر، فتأويله وقوعه.

مثاله في الخبر قوله تعالى]هـل ينظـرون إلا تأويلـه يوم يأتي تأويله يقول الـذين نسـوه من قبـل قـد جـاءت رسل ربنا بـالحق[[الأعـراف: 53]، فـالمعنى: مـا ينتظـر هؤلاء إلا عاقبة ومال ما أخبروا به، يوم يأتي ذلك المخبر به، يقول الـذين نسـوه من قبـل: قـد جـاءت رسـل ربنـا بالحق.

ومنه قول يوسف لما خر له أبواه وإخوته سجداً قال:]هذا تأويـل رءيـاي من قبل[[يوسـف: 100]: هـذا وقـوع رؤياي، لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له.

ومثاله في الطلب قول عائشة رضي الله عنها: كـان النبي يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده بعـد أن أنـزل عليه قوله تعالى:]إذا جاء نصر اللـه والفتح[[النصـر: 1]، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنـا وبحمدك، اللهم اغفـر لي"، يتـأول القـرآن[1]. أي: يعمـل به.

(جــ) المعـنى الثـالث للتأويـل: صـرف اللفـظ عن ظاهره وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم، فـإن دل عليه دليل، فهو محمود النوع ويكـون من القسـم الأول، وهـو التفسـير، وإن لم يـدل عليـه دليـل، فهـو مـذموم، ويكون من باب باب التحريف، وليس من باب التأويل.

وهذا الثاني هـو الـذي درج عليـه أهـل التحريـف في صفات الله عز وجل.

مثالـــه قولـــه تعـــالى:]الـــرحمن على العـــرش استوى[[طه: 5]: ظـاهر اللفـظ أن اللـه تعـالى اسـتوى على العرش: استقر عليه، وعلا عليـه، فـإذا قـال قائـل: معنى]استوى[: استولى على العرش، فنقول: هذا تأويل عندك لأنك صرفت اللفظ عن ظـاهره، لكن هـذا تحريـف

---

(1) رواه البخاري/ كتاب التفسير/ سورة النصر، ومسلم/ كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود.

في الحقيقـة، لأنـه مـا دل عليـه دليـل، بـل الـدليل على خلافه، كما سيأتي إن شاء الله.

فأمـــــا قولـــــه تعـــــالى]أتى أمـــــر اللـــــه فلا تســـتعجلوه[[النحـــل: 1]، فمعـــنى:]أتى أمـــر الله[، أي سيأتي أمر الله، فهـذا مخـالف لظـاهر اللفـظ لكن عليـه دليل وهو قوله:]فلا تستعجلوه[.

وكذلك قوله تعالى:] فإذا قرآن القرآن فاستعذ بالله من الشـــيطان الـــرجيم[[النحـــل: 98]، أي: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعني: إذا أكملت القراءة، قل: أعوذ باللـه من الشيطان الـرجيم، لأننـا علمنـا من السـنة أن النـبي عليه الصلاة والسـلام إذا أرد أن يقـرأ، اسـتعاذ باللـه من الشيطان الرجيم، لا إذا أكمل القراءة، فالتأويل صحيح.

وكـذلك قـول أنس بن مالـك: كـان النـبي إذا دخـل الخلاء، قال: "أعوذ بالله من الخبث والخبائث"[1]، فمعنى "إذا دخل": إذاً أراد أن يدخل، لأن ذكر الله لا يليـق داخـل هذا المكان، فلهـذا حملنـا قولـه "إذا دخـل" على: إذ أراد أن يدخل: هذا التأويل الـذي دل عليـه صـحيح، ولا يـدوا ، يكون تفسيراً.

ولذلك قلنا: إن التعبـير بـالتحريف عن التأويـل الـذي ليس عليه دليل صحيح أولى، لأنه الـذي جـاء بـه القـرآن، ولأنه ألصق بطريق المحرف، ولأنه أشد تنفـيراً عن هـذه الطريقة المخالفة لطريـق السـلف، ولأن التحريـف كلـه مـذموم، بخلاف التأويـل، فـإن منـه مـا يكـون مـذموماً ومحمـوداً، فيكـون التعبـير بـالتحريف أولى من التعبـير بالتأويل من أربعة أوجه.

ولا تعطيل[1]
....

(1) التعطيل بمعنى التخلية والـترك، كقولـه تعـالى:]وبئر معطلة[[الحج: 45]، أي: مخلاة متروكة.

والمـراد بالتعطيـل: إنكـار مـا أثبت اللـه لنفسـه من الأسماء والصفات، سواء كان كلياً أو جزئياً، وسـواء كـان ذلك بتحريف أو بجحود، هذا كله يسمى تعطيلاً.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الوضوء/ باب ما يقول عند الخلاء. ومسلم/ كتاب الحيض/ باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء.

فأهل السنة والجماعة لا يعطلون أي اسم من أسماء اللـه، أو أي صـفة من صـفات اللـه ولا يجحـدونها، بـل يقرون بها إقراراً كاملاً.

فإن قلت: ما الفرق بين التعطيل والتحريف؟

قلنا: التحريـف في الـدليل والتعطيـل في المـدلول، فمثلاً:

إذا قـال قائـل: معـنى قولـه تعـالى]بـل يـداه مبسـوطتان[[المائـدة: 64]، أي بـل قوتـاه هـذا محـرف للـدليل، ومعطـل للمـراد الصـحيح، لأن المـراد اليـد الحقيقية، فقد عطل المعـنى المـراد، وأثبت معـنى غـير المراد. وإذا قال: بل يـداه مبسـوطتان، لا أدري! أفـوض الأمر إلى الله، لا أثبت اليد الحقيقيـة، ولا اليـد المحـرف إليها اللفظ. نقول: هذا معطل، وليس بمحـرف، لأنـه لم يغير معنى اللفظ، ولم يفسـره بغـير مـراده، لكن عطـل معناه الذي يراد به، وهو إثبات اليد لله عز وجل.

أهـل السـنة والجماعـة يتـبرءون من الطريقـتين: الطريقة الأولى: التي هي تحريف اللفظ بتعطيل معنـاه الحقيقي المراد إلى معنى غير مراد. والطريقـة الثانيـة: وهي طريقـة أهـل التفـويض، فهم لا يفوضـون المعـنى كما يقول المفوضة بل يقولون: نحن نقـول:]بـل يـداه[، أي: يـداه الحقيقيتـان]مبسـوطتان[، وهمـا غـير القـوة والنعمة.

فعقيـدة أهـل السـنة والجماعـة بريئـة من التحريـف ومن التعطيل.

وبهـذا تعـرف ضـلال أو كـذب من قـالوا: إن طريقـة السـلف هي التفـويض، هـؤلاء ضـلوا إن قـالوا ذلـك عن جهل بطريقة السلف، وكذبوا إن قالوا ذلك عن عمـد، أو نقول: كذبوا على الوجهين على لغة الحجـاز، لأن الكـذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ.

وعلى كل حال، لا شك أن الذين يقولـون: إن مـذهب أهل السنة هو التفويض، أنهم أخطأوا، لأن مـذهب أهـل السنة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفية.

وليعلم أن القول بالتفويض ـ كما قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية ـ من شر أقوال أهل البدع والإلحاد!

عنـدما يسـمع الإنسـان التفـويض، يقـول: هـذا جيـد، أسـلم من هـؤلاء وهـؤلاء، لا أقـول بمـذهب السـلف، ولا أقول بمذهب أهل التأويل، أسـلك سـبيلاً وسـطاً وأسـلم من هذا كله، وأقول: الله أعلم ولا ندري ما معناهــا. لكن يقـول شـيخ الإسـلام: هـذا من شـر أقـوال أهـل البـدع والإلحاد

وصدق رحمه الله. وإذا تأملته وجدتـه تكـذيباً للقـرآن وتجهيلاً للرسول واستطالة للفلاسفة.

تكذيب للقرآن، لأن الله يقول:]ونزلنا عليـك الكتـاب تبياناً لكل شـيء[[النحـل: 89]، وأي بيـان في كلمـات لا يدرى ما معناها؟ وهي من أكثر ما يرد في القرآن، وأكثر ما ورد في القرآن أسماء الله وصـفاته، إذا كنـا لا نـدري مـا معناهـا، هـل يكـون القـرآن تبيانـاً لكـل شـيء؟ أين البيان؟

إن هؤلاء يقولون: إن الرسول لا يــدري عن معــاني القرآن فيما يتعلق بالأسماء والصفات وإذا كان الرسـول عليه الصلاة والسلام لا يدري، فغيره من باب أولى.

وأعجب من ذلـــك يقولـــون: الرســـول يتكلم في صفات الله، ولا يدري ما معنـاه يقـول: "ربنـا اللـه الـذي في السماء"[1]، وإذا سئل عن هذا؟ قال: لا أدري وكـذلك في قوله: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا"[2] وإذا سـئل مـا معنى "ينزل ربنا"؟ قال: لا أدري.... وعلى هذا، فقس.

وهل هناك قدح أعظم من هذا القدح بالرسـول بـل هذا من أكبر القدح رسول من عند الله ليبين للناس وهو لا يـدري مـا معـنى آيـات الصـفات وأحاديثهـا وهـو يتكلم بالكلام ولا يدري معنى ذلك كله.

فهذان وجهان: تكذيب بالقرآن وتجهيل الرسول.

وفيه فتح البـاب للزنادقـة الـذين تطـاولوا على أهـل التفويض، وقـال: أنتم لا تعرفـون شـيئاً، بـل نحن الـذين نعـرف، وأخـذوا يفسـرون القـرآن بغـير مـا أراد اللـه، وقالوا: كوننا نثبت معاني للنصوص خير من كوننا أمـيين

---

[1] تقدم تخريجه ص66.

[2] أخرجه البخاري/ كتا التوحي/ باب قوله تعالى:]يريدون أن يبدلوا كلام الله[ومسلم/ كتـاب صـلاة المسـافرين/ بـاب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل.

لا نعرف شيئاً وذهبوا يتكلمون بما يريدون من معنى كلام الله وصفاته!! ولا يستطيع أهل التفويض أن يردوا عليهم، لأنهم يقولون: نحن لا نعلم ماذا أراد الله، فجائز أن يكون الذي يريد الله هو ما قلتم! ففتحوا باب شرور عظيمة، ولهذا جاءت العبارة الكاذبة: "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم"!.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "هذه قالها بعض الأغبياء" وهو صحيح، أن القائل غبي.

هذه الكلمة من أكذب ما يكون نطقاً ومدلولاً، "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم"، كيف تكون أعلم وأحكم وتلك أسلم؟! لا يوجد سلامة بدون علم وحكمة أبداً! فالذي لا يدري عن الطريق، لا يسلم، لأنه ليس معه علم، لو كان معه علم وحكمة، لسلم، فلا سلامة إلا بعلم وحكمة.

إذا قلت: إن طريقة السلف أسلم، لزم أن تقول: هي أعلم وأحكم وإلا لكنت متناقضاً.

إذاً، فالعبارة الصحيحة: "طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم"، وهذا معلوم.

وطريقة الخلف ما قاله القائل:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرد إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

هذه الطريقة التي يقول عنها: إنه ما وجد إلا واضعاً كف حائر ذقن. وهذا ليس عنده علم، أو آخر: قارعاً سن نادم لأنه لم يسلك طريق السلامة أبداً.

والرازي وهو من كبرائهم يقول:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقـول: "لقـد تـأملت الطـرق الكلاميـة والمنـاهج الفلسـفية، فمـا رأيتهـا تشـفي عليلاً ولا تـروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقـرأ في الإثبـات:]الرحمن على العرش استوى[[طه: 5]،]إليه يصعد الكلم الطيب[[الشـورى: 11]،ـ]ولا يحيطـون بـه علما[[طـه: 110]، ومن جـرب مثـل تجربـتي، عـرف مثـل معرفـتي" أهؤلاء نقول: إن طريقتهم أعلم وأحكم؟!

الذي يقول: "إني أتمنى أن أموت على عقيدة عجائز نيسابور" والعجائز من عوام الناس، يتمنى أن يعـود إلى الأميات! هل يقال: إنه أعلم وأحكم؟!

أين العلم الذي عندهم؟!

فتـبين أن طريقـة التفـويض طريـق خـاطئ، لأنـه يتضمن ثلاث مفاسد: تكذيب القـرآن، وتجهيـل الرسـول، واسـتطالة الفلاسـفة! وأن الـذين قـالوا: إن طريقـة السلف هي التفويض كذبوا على السلف! أو الذين قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض كذبوا على السـلف، بـل هم يثبتون اللفظ والمعني ويقررونه، ويشرحونه بأوفى شرح.

أهـل السـنة والجماعـة لا يحرفـون ولا يعطلـون، ويقولون بمعنى النصوص كما أراد الله:]ثم استوى على العرش[[الأعراف: 54]، بمعـنى: علا عليـه وليس معنـاه: استولى.]بيده[: يد حقيقية وليست القـوة ولا نعمـة، فلا تحريف عندهم ولا تعطيل.

ومن غـير تكـييف[1]

..

(1) "تكييف": لم ترد في الكتاب والسنة، لكن ورد ما يدل على النهي عنها.

التكييف: هـو أن تـذكر كيفيـة الصـفة، ولهـذا تقـول: كيف يكيف تكييفاً، أي ذكر كيفية الصفة.

التكييف يسأل عنـه بــ(كيـف)، فـإذا قلت مثلاً: كيـف جـاء زيـدا؟ تقـول: راكبـاً. إذاً: كيفت مجيئـه. كيـف لـون السيارة؟ أبيض. فذكرت اللون.

أهـل السـنة والجماعـة لا يكيفـون صـفات اللـه، مستندين في ذلك إلى الدليل السمعي والدليل العقلي:

أما الدليل السـمعي، فمثـل قولـه تعـالى:]قـل إنمـا حرم ربي الفواحش ما ظهر منه وما بضن والإثم والبغي بغير حق وأن تشركوا بالله مـالم يـنزل بـه سـلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[[الأعراف: 33]، والشـاهد في قوله]وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[.

فإذا جاء رجل وقـال: إن اللـه اسـتوى على العـرش، على هذه الكيفية ووصف كيفية معينـة: نقـول: هـذا قـد قال على الله مـالا يعلم! هـل أخـبرك اللـه بأنـه اسـتوى على هـذه الكيفيـة؟! لا، أخبرنـا اللـه بأنـه اسـتوى ولم يخبرنا كيف استوى. فنقول: هذا تكييف وقول على اللـه بغير علم.

ولهذا قال بعض السلف إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلى السماء، فكيف ينزل؟ فقل: إن الله أخبرنا أنـه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل. وهذه قاعدة مفيدة.

دليل آخر من السمع: قال تعالى:]ولا تقـف مـا ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً[[الإسراء: 36]: لا تتبع ما ليس لك بـه علم،]إن السـمع والبصـر والفـؤاد كـل أولئـك كـان عنـه مسئولاً[[الإسراء: 36].

وأمـا الـدليل العقلي، فكيفيـة الشـيء لا تـدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة: مشـاهدته، أو مشـاهدة نظـيره، أو خبر الصادق عنه أي: إما أن تكـون شـاهدته أنت وعـرفت كيفيته. أو شاهدت نظيره، كما لـو قـال واحـد: إن فلانـاً اشترى سيارة داتسون موديل ثمان وثمانين رقم ألفين. فتعرف كيفيتها، لأن عندك مثلها أو خبر صادق عنه، أتاك رجـل صـادق وقـال: إن سـيارة فلا صـفتها كـذا وكـذا.. ووصفها تماماً، فتدرك الكيفية الآن.

ولهذا أيضاً قال بعض العلماء جواباً لطيفاً: إن معـنى قولنا: "بدون تكييف": ليس معناه ألا نعتقـد لهـا كيفيـة، بـل نعتقـد لهـا كيفيـة لكن المنفى علمنـا بالكيفيـة لأن اسـتواء اللـه على العـرش لا شـك أن لـه كيفيـة، لكن لا تعلم، نزولـه إلى السـماء الـدنيا لـه كيفيـة، لكن لا تعلم، لأن مامن موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكـون معلومـة، وقد تكون مجهولة.

سـئل الإمـام مالـك رحمـه اللـه عن قولـه تعـالى:]الرحمن على العرش اسـتوى[[طـه: 5]: كيـف اسـتوى؟ فأطرق مالـك برأسـه حـتى علاه العـرق، ثم رفـع رأسـه وقـال: "الاسـتواء غـير مجهـول"، أي: من حيث المعـنى معلوم، لأن اللغة العربية بين أيدينا، كـل المواضـع الـتي وردت فيها]استوى[معداة بـ(على) معناها العلـو فقـال: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقـول" لأن العقـل لا يدرك الكيف، فإذا انتفى الدليل السمعي والعقلي عن الكيفية، وجب الكف عنها، "والإيمان به واجب"، لأن الله أخـبر بـه عنـه نفسـه، فـوجب تصـديقه، "والسـؤال عن بدعة"[1]: السؤال عن الكيفية بدعـة، لأن من أهم أحـرص منا على العلم ما سألوا عنها وهم الصحابة لما قال الله:]استوى على العرش[[الأعراف: 54]، عرفوا عظمة اللـه عز وجل، ومعنى الاستواء على العرش، وأنـه لا يمكن أن تسأل: كيف استوى؟ لأنك لن تدرك ذلك فنحن إذا سئلنا، فنقول: هذا السؤال بدعة.

وكلام مالك رحمه الله مـيزان لجميـع الصـفات، فـإن قيـل لـك مثلاً: إن اللـه يـنزل إلى السـماء الـدنيا، كيـف يـنزل؟ فـالنزول غـير مجهـول، والكيـف غـير معقـول، والإيمان به واجب والسـؤال عن بدعـة والـذين يسـألون: كيف يمكن النزول وثلث الليل يتنقل؟! فنقول: السـؤال هذا بدعة كيف تسـأل عن شـيء مـا سـأل عنـه الصـحابة وهم أحرص منك على الخير وعلى العلم بما يجب لله عز وجل، ولسنا بأعلم من الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، فهو لم يعلمهم. فسؤالك هـذا بدعـة، ولـولا أننـا نحسـن الظن بك، لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع.

والإمام مالك رحمه اللـه قـال: "مـا أراك إلا مبتـدعاً" ثم أمـر بـه فـأخرج، لأن السـلف يكرهـون أهـل البـدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم.

فأنت يا أخي عليك هـذا البـاب بالتسـليم، فمن تمـام الإسلام للـه عـز وجـل ألا تبحث في هـذه الأمـور، ولهـذا

---

[1] رواه اللالكائي في "شرح السنة" (664)، والبيهقي في "الأسماء والصفات (867)، وأبو نعيم في الحلية (6/325)، ورواه الدارمي في "الرد على الجهمية" (104)، وابن عبد البرفي "التمهيـد" (7/151). قـال ابن حجر "إسـناده جيـد" (الفتح: 13/407). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد قول مالك: "وهذا الجواب ثـابت عن ربيعة شـيخ مالـك، وقد روي هذا الجـواب عن أم سـلمة رضي الله عنها موقوفـاً ومرفوعـاً، ولكن ليس في إسـناده مما يعتمد عليـه، وهكـذا سـائر قولهم يوافق مالك" "مجموع الفتاوى" (5/365).

أحذركم دائماً من البحث فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته على سبيل التعنت والتنطع والشيء الذي ما سأل الصحابة عنه، لأننا إذا فتحنا على أنفسنا هذه الأبواب، انفتحت علينا الأبواب، وتهدمت الأسوار، وعجزنا عن ضبط أنفسنا، فلذلك قل: سمعنا وأطعنا وآمنا وصدقنا، آمنا وصدقنا بالخبر وأطعنا الطلب وسمعنا القول، حتى تسلم!

وأي إنسان يسأل فيما يتعلق بصفات الله عن شيء ما سألعنه الصحابة، فقل كما قال الإمام مالك، فإن لك سلفاً: السؤال عن هذا بدعة. وإذا قلت ذلك، لن يلح عليك، وإذا ألح، فقل: يا مبتدع! السؤال عنه بدعة، اسأل عن الأحكام التي أنت مكلف بها، أما أن تسأل عن شيء يتعلق بالرب عز وجل وبأسمائه وصفاته، ولم يسأل عنه الصحابة، فهذا لا نقبله منك أبداً!

وهناك كلام للسلف يدل على أنهم يفهمون معاني ما أنزل الله على رسوله من الصفات، كما نقل عن الأوزاعي وغيره، نقل عنهم أنهم قالوا في آيات الصفات وأحاديثها: "أمروها كما جاءت بلا كيف"، وهذا يدل على أنهم يثبتون لها معنى من وجهين:

أولاً: أنهم قالوا: "أمروها كما جاءت" ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعاني ولم تأت عبثاً، فإذا أمر رناها كما جاءت، لزم من ذلك أن نثبت لها معنى.

ثانياً: قوله: "بلا كيف" لأن نفي الكيفية يدل على وجود أصل المعنى، لأن نفي الكيفية عن شيء لا يوجد لغو وعبث.

إذاً، فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل على أنهم يثبتون لهذه النصوص معنى.

ولا تمثيل[1]

....

(1) يعنى: ومن غير تمثيل، فأهل السنة يتبرؤون من تمثيل الله عز وجل بخلقه، لا في ذاته ولا في صفاته. والتمثيل: ذكر مماثل للشيء، وبينه وبين التكييف عموم وخصوص مطلق، لأن كل ممثل مكيف، وليس كل مكيف

ممثلا، لأن التكييف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل، مثل أن تقول: لي قلم كيفيته كذا وكذا. فإن قرنت بمماثل، صار تمثيلاً، مثل أن أقول: هذا القلم مثل هذا القلم، لأني ذكرت شيئاً مماثلا لشيء وعرفت هذا القلم بذكر مماثلة.

وأهل السنة والجماعة يثبتون لله عز وجل الصفات بدون مماثلة، يقولون: إن الله عز وجل له حياة وليست مثل حياتنا، له علم وليس مثل علمنا، له بصر، ليس مثل بصرنا، له وجه وليس مثل وجوهنا له يد وليست مثل أيدينا.... وهكذا جميع الصفات، يقولون: إن الله عز وجل لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبداً، ولهم على ذلك أدلة سمعية وأدلة عقلية:

أ- الأدلة السمعية:

تنقسم إلى قسمين: خبر، وطلب.

- فمن الخبر قوله تعالى:]ليس كمثله شيء[[الشورى: 11]، فالآية فيها نفي صريح للتمثيل وقوله:]هل تعلم له سمياً[[مريم: 65]، فإن هذا وإن كان إنشاء، لكنه بمعنى الخبر، لأنه استفهام بمعنى النفي وقوله:]ولم يكن له كفواً أحد[[الإخلاص: 4]، فهذه كلها تدل على نفي المماثلة، وهي كلها خبرية.

- وأما الطلب، فقال الله تعالى:]فلا تجعلوا لله أنداداً[[البقرة: 22] أي: نظراء مماثلين. وقال]فلا تضربوا لله الأمثال[[النحل: 74].

فمن مثل الله بخلقه، فقد كذب الخبر وعصى الأمر ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل الله بخلقه، فقال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رحمه الله: "من شبه الله بخلقه، فقد كفر"[1]، لأنه جمع بين التكذيب بالخبر وعصيان الطلب.

وأما الأدلة العقلية على انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق: فمن وجوه:

أولاً: أن نقولك لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأي حال من الأحوال لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود، لكان كافياً، وذلك أن وجود

([1]) رواه اللالكائي في "شرح السنة" (936). والذهبي في "العلو" ص116.

الخالق واجب، فهـو أزلي أبـدي، ووجـود المخلـوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقـه فنـاء، فمـا كانـا كـذلك لا يمكن أن يقال: إنهما متماثلان.

ثانياً: أنا نجـد التبـاين العظيم بين الخـالق والمخلـوق في صفاته وفي أفعاله، في صفاته يسمع عز وجـل كـل صوت مهما خفي ومهما بعد، لـو كـان في قعـار البحـار، لسمعه عز وجل.

وأنزل الله قولـه تعـالى:]قـد سـمع اللـه قـول الـتي تجادلــك في زوجهــا وتشــتكي إلى اللــه واللــه يســمع تحاوركمـا إن اللـه سـميع بصـير[[المجادلـة: 1]، تقـول عائشة: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصـوات، إني لفي الحجرة، وإنه ليخفى على بعض حديثها"[2]، واللـه تعـالى سمعها من على عرشه وبينه وبينهـا مـا لا يعلم مـداه إلا الله عز وجـل، ولا يمكن أن يقـول قائـل: إن سـمع اللـه مثل سمعنا.

ثالثاً: نقول: نحن نعلم أن اللـه تعـالى مبـاين للخلـق بذاته:]وسع كرسـيه السـموات والأرض[[البقـرة: 255]،]والأرض جميعاً قبضته[[الزمـر: 67]، ولا يمكن لأحـد من الخلق أن يكون هكذا، فـإذا كـان مباينـاً للخلـق في ذاتـه، فالصفات تابعـة للـذات، فيكـون أيضـاً مباينـاً للخلـق في صــفاته عـــز وجـــل، ولا يمكن التماثـــل بين الخـــالق والمخلوق.

رابعاً: نقول: إننا نشاهد في المخلوقات أشياء تتفـق في الأسماء وتختلف في المسميات، يختلـف النـاس في صـفاتهم: هـذا قـوي البصـر وهـذا ضـعيف، وهـذا قـوي السمع وهذا ضعيف، هذا قوي البدن وهـذا ضـعيف وهـذا ذكر وهذا أنـثى.... وهكـذا التبـاين في المخلوقـات الـتي من جنس واحـــد، فمـــا بالـــك بالمخلوقـــات المختلفـــة الأجناس؟ فالتباين بينها أظهـر ولهـذا، لا يمكن لأحـد أن يقول: إن لي يداً كيد الجمـل، أولي يـداً كيـد الـذرة، أول يداً كيد الهر، فعندنا الآن إنسـان وجمـل وذرة وهـر، كـل واحد له يد مختلفة عن الثاني، مع أنها متفقة في الاسم

---

(2) رواه البخاري معلقاً/ كتاب التوحيد/ باب]وكان الله سميعاً بصيراً[. وقد وصـله الإمـام أحمد في "المسـند" (6/46)، وابن كثير 4/286.

فنقول: إذا جاز التفاوت بين المسميات في المخلوقـات مع اتفـاق الاسـم، فجـوازه بين الخـالق والمخلـوق ليس جائزاً فقط، بـل هـو واجب، فعنـدنا أربعـة وجـوه عقليـة كلها تدل على أن الخالق لا يمكن أن يماثل المخلوق بأي حال من الأحوال.

ربمـا نقـول أيضـاً: هنـاك دليـل فطـري، وذلـك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يلقن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق ولولا هذه الفطرة، ما ذهب يدعو الخالق.

فتبين الآن أن التمثيل منتف سمعاً وعقلاً وفطرة.

فـإن قـال قائـل: إن النـبي حـدثنا بأحـاديث تشـتبه علينا، هل هي تمثيـل أو غـير تمثيـل؟ ونحن نضـعها بين أيديكم:

- قال النبي "إنكم سـترون ربكم كمـا تـرون القمـر ليل لبدر، لا تضامون في رؤيته"[1]، فقال: "كما" والكاف للتشبيه، وهذا رسول الله ، ونحن من قاعدتنا أن نـؤمن بما قال الرسول كما نـؤمن بمـا قـال اللـه، فـأجيبوا عن هذا الحديث؟

نقول: نجيب عن هـذا الحـديث وعن غـيره بجـوابين: الجواب الأول مجمل والثاني مفصل.

فـالأول المجمـل: أنـه لا يمكن أن يقـع تعـارض بين كلام الله وكلام رسوله الذي صح عنه أبداً، لأن الكل حق، والحـق لا يتعـارض، والكـل من عنـد اللـه، ومـا عنـد اللـه تعالى لا يتناقض]ولو كان من عند غير الله لوجـدوا فيـه اختلافاً كثيراً[[النساء: 82]، فإن وقع ما يوهم التعـارض في فهمــك، فــأعلم أن هــذا ليس بحســب النص، ولكن باعتبـار مـا عنـدك، فـأنت إذا وقـع التعـارض عنـدك في نصوص الكتاب والسـنة، فإمـا لقلـة العلم، وإمـا لقصـور الفهم، وإمــا للتقصــير في البحث والتــدبر، ولــو بحثت وتدبرت، لوجدت أن التعارض الـذي توهمتـه لا أصـل لـه، وإمـا لسـوء القصـد والنيـة، بحيث تسـتعرض مـا ظـاهره التعارض لطلب التعارض، فتحرم التوفيـق، كأهـل الزيـغ الذين يتبعون المتشابه.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب مواقيت الصلاة/ باب فضل صلاة العصر، ومسلم/ كتاب المساجد/ باب فضل صلاتي الصبح والعصر.

ويتفرع على هذا الجواب المجمل أنه يجب عليك عند الاشتباه أن ترد المشتبه إلى المحكم، لأن هذه الطريق الراسخين في العلم، قال الله تعالى:]هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا[[آل عمران: 7]، ويحملون المتشابه على المحكم حتى يبقى النص كله محكماً.

وأما الجواب المفصل، فأن نجيب عن كل نص بعينه فنقول:

إن قول النبي : "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته" ليس تشبيهاً للمرئي بالمرئي، ولكنه تشبيه للرؤية بالرؤية، "سترون... كما ترون"، فالكاف في: "كما ترون": داخله على مصدر مؤول، لأن (ما) مصدرية، وتقدير الكلام: كرؤيتكم القمر ليلة البدر وحينئذ يكون التشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، والمراد أنكم ترونه رؤية واضحة كما ترون القمر ليلة البدر ولهذا أعقبه بقوله: "لا تضامون في رؤيته" أو: "لا تضارون في رؤيته" فزال الإشكال الآن.

- قال النبي "إن الله خلق آدم على صورته"[1]، والصورة مماثلة للأخرى، ولا يعقل صورة إلا مماثلة للأخرى، ولهذا أكتب لك رسالة، ثم تدخلها الآلة الفوتوغرافية، وتخرج الرسالة، فيقال: هذه صورة هذه، ولا فرق بين الحروف والكلمات، فالصورة مطابقة للصورة، والقائل: "إن الله خلق آدم على صورته": الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم وأصدق وأنصح وأفصح الخلق.

والجواب المجمل أن نقول: لا يمكن أن يناقض هذا الحديث قوله تعالى]ليس كمثله شيء[[الشورى: 11]، فإن يسر الله لك الجمع، فاجمع، وإن لم يتيسر، فقل:

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الاستئذان/ باب بدء السلام، ومسلم/ كتاب البر/ باب النهي عن ضرب الوجه.

]آمنا به كـل من عنـد ربنا[[آل عمـران: 7]، وعقيـدتنا أن الله لا مثيل له، بهذا تسلم أما الله عز وجل.

هـذا كلام اللـه، وهـذا كلام رسـوله، والكـل حـق، ولا يمكن أن يكذب بعضه بعضـاً، لأنـه كلـه خـبر وليس حكمـاً كي ينسـخ، فـأقول: هـذا نفي للماثلـة، وهـذا إثبـات للصورة، فقل: إن الله ليس كمثله شيء، وإن اللـه خلـق آدم على صـورته، فهـذا كلام اللـه، وهـذا كلام رسـوله والكل حق نؤمن به، ونقول: كل من عنـد ربنـا، ونسـكت وهذا هو غاية ما نستطيع.

وأما الجواب المفصـل، فنقـول: إن الـذي قـال: "إن اللـه خلـق آدم على صـورته" رسـول الـذي قـال:]ليس كمثلـه شـيء[[الشـورى: 11] والرسـول لا يمكن أن ينطلق بما يكـذب المرسـل والـذي قـال: "خلـق آدم على صورته": هو الذي قال: "إن أول زمرة تدخل الجنـة على صورة القمر"[1]، فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه أو تعتقـد أنهم على صـورة البشـر لكن في الوضـاءة والحسـن والجمـل واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمـر، لا من كل وجه؟! فإن قلت بالأول، فمقتضاه أنهم دخلوا وليس لهم أعين وليس لهم آناف وليس لهم أفـواه! وإن شـئنا قلنا: دخلوا وهم أحجار وإن قلت بالثاني، زال الإشـكال، وتبين أنه لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلاً له من كل وجه.

فإن أبى فهمك، وتقاصر عن هذا، وقال: أنـا لا أفهم إلا أنه مماثل.

قلنا: هناك جواب آخر، وهو أن الإضافة هنـا من بـاب إضافة المخلوق إلى خالقه، فقوله: "على صورته"، مثـل قولـه عزوجـل في آدم:]ونفخت فيـه من روحي[[ص: 72]، ولا يمكن أن اللـه عـز وجـل أعطى آدم جـزءاً من روحه، بل المراد الروح التي خلقهـا الله عـز وجـل، لكن إضـافتها إلى اللـه بخصوصـها من بـاب التشـريف، كمـا نقـول: عبـاد اللـه، يشـمل الكـافر والمسـلم والمـؤمن

---

[1] رواه البخاري/ كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقـة، ومسـلم/ كتـاب الجنـة/ بـاب في صـفات الجنة وأهلها.

والشهيد والصديق والنبي لكننا لو قلنا: محمد عبـد اللـه، هذه إضافة خاصة ليست كالعبودية السابقة.

فقولـه: "خلـق آدم على صـورته"، يعـني: صـورة من الصور التي خلقها الله وصورها، كما قال تعـالى:]ولقـد خلقنـاكم ثم صـورناكم ثم قلنـا للملائكـة اسـجدوا لآدم[[الأعراف: 11]، والمصور أدم إذاً، فآدم على صورة الله، يعني: أن اللـه هـو الـذي صـوره على هـذه الصـورة الـتي تعـد أحسـن صـورة في المخلوقـات،]لقـد خلقنـا الإنسـان في أحسـن تقـويم[[الـتين: 4]، فإضـافة اللـه الصورة إليـه من بـاب التشـريف، كأنـه عـز وجـل اعتـنى بهذه الصـورة ومن أجـل ذلـك، لا تضـرب الوجـه، فتعيبـه حساً، ولا تقبحه فتقول: قبح الله وجهك ووجه من أشـبه وجهك، فتعيبه معنى، فمن أجل أنه الصورة التي صورها اللـه وأضـافها إلى نفسـه تشـريفاً وتكريمـاً، لا تقبحهـا بعيب حسي ولا بعيب معنوي.

ثم هل يعتبر هذا الجواب تحريفاً أم له نظير؟

نقـول: لـه نظـير، كمـا في: بيت اللـه، وناقـة اللـه، وعبداللـه، لأن هـذه الصـورة (أي: صـورة آدم) منفصـلة بائنة من اللـه وكـل شـيء أضـافه اللـه إلى نفسـه وهـو منفصل بائن عنـه، فهـو من المخلوقـات، فحينئـذ يـزول الإشكال.

ولكن إذا قـال لقائـل: أيمـا أسـلم المعـنى الأول أو الثاني؟ قلنا: المعنى الأول أسلم، ما دمنا نجد أن لظاهر اللفـظ مسـاغاً في اللغـة العربيـة وإمكانـاً في العقـل، فـالواجب حمـل الكلام عليـه ونحن وجـدنا أن الصـورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى، وحينئذ يكـون الأسـلم أن نحمله على ظاهره.

فإذا قلت: ما هي الصورة التي تكون لله ويكـون أدم عليها؟

قلنا: إن الله عز وجل له وجـه ولـه عين ولـه يـد ولـه رجل عـز وجـل، لكن لا يلـزم من أن تكـون هـذه الأشـياء مماثلة للإنسان، فهناك شيء من الشـبه لكنـه ليس على سـبيل المماثلـة، كمـا أن الزمـرة الأولى من أهـل الجنـة فيها شبه من القمر لكن بدون مماثلة، وبهـذا يصـدق مـا

ذهب إليه أهل السنة والجماعة، من أن جميع صفات الله سبحانه وتعالى ليست مماثلة لصفات المخلوقين، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

نسمع كثيراً من الكتب الني نقرأها يقولون: تشبيه، يعبرون بالتشبيه وهم يقصدون التمثيل، فأيما أولى: أنعبر بالتشبيه، أو نعبر بالتمثيل؟

نقول: بالتمثيل أولى.

أولاً: لأن القرآن عبر به:]ليس كمثله شيء[[الشورى: 11]،]فلا تجعلوا لله أنداداً[[البقرة: 22].. وما أشبه ذلك، وكل ما عبر به القرآن، فهو أولى من غيره، لأننا لا نجد أفصل من القرآن ولا أدل على المعنى المراد من القرآن، والله أعلم بما يريده من كلامه، فتكون موافقة القرآن هي الصواب، فنعبر بنفي التمثيل. وهكذا في كل مكان، فإ، موافقة النص في اللفظ أولى من ذكر لفظ مرادف أو مقارب.

ثانياً: أن التشبيه عند بعض الناس يعني إثبات الصفات ولهذا يسمون أهل السنة: مشبهة، فإن قلنا: من غير تشبيه. وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات، صار كأننا نقول له: من غير إثبات صفات! فصار معنى التشبيه. وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات، صار كأننا نقول له: من غير إثبات صفات! فصار معنى التشبيه يوهم معنى فاسداً فلهذا كان العدول عنه أولى.

ثالثاً: أن نفي التشبيه على الإطلاق غير صحيح، لأن ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه، والاشتراك نوع تشابه، فلو نفيت التشبيه مطلقاً، لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق في شيء ما.

مثلاً: الوجود، يشترك في أصله الخالق والمخلوق، هذا نوع اشتراك ونوع تشابه، لكن فرق بين الوجودين، وجود الخالق واجب ووجود المخلوق ممكن.

وكذلك السمع، فيه اشتراك، الإنسان له سمع، والخالق له سمع، لكن بينهما فرق، لكن اصل وجود السمع المشترك.

فإذا قلنا: من غير تشبيه. ونفينا مطلق التشبيه، صار في هذا إشكال.

وبهذا عرفنا أن التعبير بالتمثيل أولى من ثلاثة أوجه.

فإن قلت: ما الفرق بين التكييف والتمثيل؟

فالجواب: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل، فتقول يد فلان مثل يد فلان، والتكييف ذلك الصفة غير مقيدة بمماثل، مثل أن تقول: كيفية يد فلا كذا وكذا.

وعلى هذا نقول: كل ممثل مكيف، ولا عكس.

الثاني: أن الكيفية لا تكون إلا في الصفة والهيئة، والتمثيل يكون في ذلك وفي العدد، كما في قوله تعالى:]الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن[[الطلاق: 12]، أي: في العدد.

بل يؤمن بأن الله سبحانه]ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[(1)................

(1) أي: يقر أهل السنة والجماعة بذلك إقراراً وتصديقاً بأن الله ليس كمثله شيء، كما قال عن نفسه:]ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[[الشورى: 11]، فهنا نفى المماثلة، ثم أثبت السمع والبصر فنفى العيب، ثم أثبت الكمال، لأن نفي العيب قبل إثبات الكمال أحسن، ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية. فنفي العيوب يبدأ به أولاً، ثم يذكر إثبات الكمال.

وكلمة]شيء[نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء، ليس شيء مثله أبداً عز وجل أي مخلوق وإن عظم، فليس مماثلاً لله عز وجل، لأن مماثلة الناقص نقص، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكامل تجعله ناقصاً، كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فهنا لو قلنا: إن لله مثيلاً، لزم من ذلك تنقص الله عز وجل، فلهذا نقول: نفى الله عن نفسه مماثلة المخلوقين، لأن مماثلة المخلوقين نقص وعيب، لأن

المخلوق ناقص، وتمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصاً، بل ذكر المفاضلة بينهما يجعله ناقصاً، إلا إذا كان في مقام التحدي، كما في قوله تعالى:]الله خير أما يشركون[[النمل: 59]، وقوله:]قل أأنتم أعلم أم الله[[البقرة: 140].

وفي قوله:]ليس كمثله شيء[: رد صريح على الممثلة الذين يثبتون أن الله سبحانه وتعالى له مثيل.

وحجة هؤلاء يقولون: إن القرآن عربي، وإذا كان عربياً، فقد خاطبنا الله تعالى بما نفهم، ولا يمكن أن يخاطبنا بما لا نفهم، وقد خاطبنا الله تعالى، فقال: إن له وجهاً وإن له عيناً، وإن له يدين... وما أشبه ذلك ونحن لا نعقل بمقتضى اللغة العربية من هذه الأشياء إلا مثل ما تشاهد، وعلى هذا، فيجب أن يكون مدلول هذه الكلمات مماثلاً لمدلولها بالنسبة للمخلوقات: يد ويد، وعين وعين، ووجه ووجه... وهكذا، فنحن إنما قلنا بذلك لأن لدينا دليلاً.

ولا شك أن هذه الحجة واهية يوهيها ما سبق ما بيان أن الله ليس له مثيل ونقول: إن الله خاطبنا بما خاطبنا به من صفاته، لكننا نعلم علم اليقين أن الصفة بحسب الموصوف ودليل هذا في الشاهد، فإنه يقال للجمل يد وللذرة يد، ولا أحد يفهم من اليد التي أضفناها إلى الجمل أنها مثل اليد التي أضفناها إلى الذرة.

هذا وهو في المخلوقات، فكيف إذا كان ذلك من أوصاف الخالق؟ فإن التباين يكون أظهر وأجلى.

وعلى هذا، فيكون قول هؤلاء الممثلة مردوداً بالعقل كما أنه مردود بالسمع.

قال الله تعالى:]وهو السميع البصير[، فأثبت لنفسه سبحانه وتعالى السمع والبصر، لبيان كمال، ونقص الأصنام التي تعبد من دونه، فالأصنام التي تعبد من دون الله تعالى لا يسمعون، ولو سمعوا، ما استجابوا، ولا يبصرون، كما قال الله عز وجل:]والذين يدعون دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون (20) أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون[[النحل: 20-21]، فهم ليس لهم سمع ولا عقل ولا بصر ولو فرض أن لهم ذلك، ما

استجابوا:]ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون[[الأحقاف: 5].

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بانتفاء المماثلة عن الله، لأنها عيب ويثبتون له السمع والبصر، لقوله تعالى:]ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[[الشورى: 11].

وإيمان الإنسان بذلك يثمر للعبد أن يعظمه غاية التعظيم، لأنه ليس مثله أحد من المخلوقات، فتعظم هذا الرب العظيم الذي لا يماثله أحد، وإلا، لم يكن هناك فائدة من إيمانك بأنه]ليس كمثله شيء[.

إذا آمنت بأنه سميع، فإنك سوف تحترز عن كل قول يغضب الله، لأنك تؤمن بأنه سميع، وإذا لم يحدث لك هذا الإيمان هذا الشيء، فاعلم أن إيمانك بأن الله سميع إيمان ناقص بلا شك.

إذا آمنت بأن الله سميع، فلن تتكلم إلا بما يرضيه ولا سيما إذا كنت تتكلم معبراً عن شرعه، وهو المفتي والمعلم، فإن هذا أشد، والله سبحانه يقول]فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين[[الأنعام: 144]، فإن هذا من أظلم الظلم ولهذا قال]إن الله لا يهدي القوم الظالمين[[الأحقاف: 10] وهذا من عقوبه من يفتي بلا علم، أنه لا يهدى، لأنه ظالم.

فحذار يا أخي المسلم أن تقول قولاً لا يرضي الله، سواء قلته على الله، أو على غير هذا الوجه.

وثمرة الإيمان بأن الله بصير أن لا تفعل شيئاً يغضب الله، لأنك تعلم أنك لو تنظر نظرة محرمة لا يفهم الناس أنها نظرة محرمة، فإن الله تعالى يرى هذه النظرة، ويعلم ما في قلبك،]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[[غافر: 19].

إذا آمنت بهذا، لا يمكن أن تفعل فعلاً لا يرضاه أبداً.

استحي من الله كما تستحيي من أقرب الناس إليك وأشدهم تعظيماً منك.

إذاً، إذا آمنا بأن الله بصير، فسوف نتحاشى كل فعل يكون سبباً لغضب الله عز وجل، وإلا، فإن إيماننا بذلك

ناقص. لو أن أحداً أشر بأصبعه أو شفته أو بعينه أو برأسه لأمر محرم، فالناس الذين حوله لا يعلمون عنه، لكن الله تعالى يراه، فليحذر هذا من يؤمن به، ولو أننا نؤمن بما تقتضيه أسماء الله وصفاته، لوجدت الاستقامة كاملة فينا فالله المستعان.

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه(1) ....

(1)، أي: لا ينفي أهل السنة والجماعة عن الله ما وصف به نفسه، لأنهم متبعون للنص نفياً وإثباتاً، فكل ما وصف الله به نفسه يثبتونه على حقيقته، فلا ينفون عن الله ما وصف الله به نفسه، سواء كان من الصفات الذاتية أو الفعلية (أو الخبرية).

الصفات الذاتية، كالحياة والقدرة، والعلم... وما أشبه ذلك، وتنقسم إلى: ذاتية معنوية، وذاتية خبرية، وهي التي مسماها أبعاض لنا وأجزاء، كاليد والوجه، والعين، فهذه يسميها العلماء: ذاتية خبرية، ذاتية: لأنها لا تنفصل ولم يزل الله ولا يزال متصفاً بها. خبرية: لأنه متلقاة بالخبر، فالعقل لا يدل على ذلك، لولا أن الله أخبرنا أن له يداً، ما علمنا بذلك، لكنه أخبرنا بذلك، بخلاف العلم والسمع والبصر، فإن هذا ندركه بعقولنا مع دلالة السمع، لهذا نقول في مثل هذه الصفات اليد والوجه وما أشبهها: إنها ذاتية خبرية، ولا تقول: أجزاء وأبعاض، بل نتحاشى هذا اللفظ لكن مسماها لنا أجزاء وأبعاض، لأن الجزء والبعض ما جاز انفصاله عن الكل، فالرب عز وجل لا يتصور أن شيئاً من هذه الصفات التي وصف بها نفسه ـ كاليد ـ أن تزول أبداً، لأنه موصوف بها أزلاً وأبداً ولهذا لا نقول: إنه أبعاض وأجزاء.

والصفات الفعلية: هي المتعلقة بمشيئته إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وقد ذكرنا أن هذه الصفات الفعلية: منها ما يكون له سبب، ومنها ما ليس له سبب ومنها ما يكون ذاتياً فعلياً.

ولا يحرفون الكلم عن مواضعه(1) ....

(1) (الكلم): اسـم، جمـع كلمـة ويـراد بـه كلام اللـه وكلام رسوله.

لا يحرفونــه عن مواضــعه، أي: عن مدلولاتــه، فمثلاً قولــه تعــالى:]بــل يــداه مبســوطتان[[المائــدة: 64]، يقولون: هي يـد حقيقيـة ثابتـة للـه من غـير تكـييف ولا تمثيل. والمحرفـون يقولـون: قوتـه، أو نعمتـه أمـا أهـل السنة، فيقولون: القوة شيء واليد شيء آخـر، والنعمـة شــيء واليــد شــيء آخــر، فهم لا يحرفــون الكلم عن مواضعه، فإن التحريف من دأب اليهود،]من الذين هـادوا يحرفــون الكلم عن مواضــعه[[النســاء: 46]، فكــل من حـرف نصـوص الكتـاب والسـنة، ففيـه شـبه من اليهـود، فأحذر هذا، ولا تتشبه بالمغضوب عليهم الذين جعل اللـه منهم القردة والخنـازير وعبـد الطـاغوت، لا تحـرف، بـل فسر الكلام على ما أراد الله ورسوله.

ومن كلام الشافعي ما يذكر عنـه: "آمنت باللـه وبمـا جاء عن الله 7على مراد اللـه، وآمنت برسـول اللـه وبمـا جاء عن رسول الله على مراد رسول الله".

ولا يلحـــــــدون في أســـــــماء اللـــــــه وآياته[1] ....

(1) قوله: "ولا يلحدون" أي: أهل السنة والجماعة.

والإلحـاد في اللغـة: الميـل، ومنـه سـمي اللحـد في القــبر، لأنــه مائــل إلى جــانب منــه وليس متوســطاً والمتوسط يسمى شقاً واللحد أفضل من الشق.

فهم لا يلحدون في أسماء الله، ولا يلحدون أيضاً في آيات الله، فأفادنا المؤلـف رحمـه اللـه أن الإلحـاد يكـون في موضعين: في الأسماء وفي الآيات.

هذا الـذي يفيـده كلام المؤلـف قـد دل عليـه القـرآن قـال اللـه تعـالى:]وللـه الأسـماء الحسـنى فـادعوه بهـا وذروا الـذين يلحـدون في أسـمائه سـيجزون مـا كـانوا يعملــون[[الأعــراف: 180]، فــأثبت اللــه الإلحــاد في الأسـماء، وقـال تعـالى:]إن الـذين يلحـدون في آياتنـا لا يخفـون علينا[[فصـلت: 40]، فـأثبت اللـه الإلحـاد في الآيات.

- فالإلحاد في الأسماء هو الميل فيها عما يجب، وهو أنواع:

النوع الأول: أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، كم سماه الفلاسفة علة فاعلة وسماه النصارى: أباً، وعيسى: الابن، فهذا إلحاد في الأسماء الله وكذلك لو سمى الله بأي اسم لم يسم به نفسه، فهو ملحد في أسماء الله.

ووجه ذلك أن أسماء الله عز وجل توقيفية، فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص، فإذا سميت الله بما لم يسم به نفسه، فقد ألحدت وملت عن الواجب.

وتسمية الله بما لم يسم به نفسه سوء أدب مع الله وظلم وعدوان في حقة، لأنه لو أن أحداً دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك، لاعتبرته قد اعتدى عليك وظلمك هذا في المخلوق، فيكف بالخالق؟!

إذاً، ليس لك حق أن تسمي الله بما لم يسم به نفسه، فإن فعلت، فأنت ملحد في أسماء الله.

النوع الثاني: أن ينكر شيئاً من أسمائه، عكس الأول، فالأول سمى الله بما لم يسم به نفسه، وهذا جرد الله مما سمى به نفسه، فينكر الاسم، سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها التي تثبت لله، فإذا أنكرها، فقد ألحد فيها.

ووجه الإلحاد فيها: أنه لما أثبتها الله لنفسه، وجب علينا أن نثبتها له، فإذا نفيناها، كان إلحاداً وميلاً بها عما يجب فيها.

وهناك من الناس من أنكر الأسماء، كغلاة الجهمية، فقالوا: ليس لله اسم أبداً! قالوا: لأنك لو أثبت له اسماً، شبهته بالموجودات، وهذا معروف أنه باطل مردود.

النوع الثالث: أن ينكر ما دلت عليه من الصفات، فهو يثبت الاسم، لكن ينكر الصفة التي يتضمنها هذا الاسم، مثل أن يقول: إن الله سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وخالق بلا خلق، وقادر بلا قدرة... وهذا معروف عن المعتزلة، وهو غير معقول!

ثم هؤلاء يجعلون الأسماء أعلاماً محضة متغايرة، فيقولوا: السميع غير العلم، لكنها كلن ليس لها معنى!

السميع لا يدل على السمع! والعليم لا يدل على العلم! لكن مجرد أعلام!!

ومنهم آخرون يقولون: هذه الأسماء شيء واحد، فهي عليم وسميع وبصير كلها واحد، لا تختلف إلا بتركيب الحروف فقط، فيجعل الأسماء شيئاً واحداً!!

وكل هذا غير معقول، ولذلك نحن نقول: إنه لا يمكن الإيمان بالأسماء حتى تثبت ما تضمنته من الصفات.

ولعلنا من هنا نتكلم على دلالة الاسم، فالاسم له أنواع ثلاثة في الدلالة: دلالة مطابقة، ودلالة تضمن، ودلالة التزام:

1- فدلالة المطابقة: دلالة اللفظ على جميع مدلوله، وعلى هذا، فكل اسم دال على المسمى به، وهو الله، وعلى الصفة المشتق منها هذا الاسم.

2- ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على بعض مدلوله، وعلى هذا، فدلالة الاسم على الذات وحدها أو على الصفة وحدها من دلالة التضمن.

3- ودلالة الالتزام: دلالته على شيء يفهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه ولهذا سميناه: دلالة الالتزام.

مثل كلمة الخالق: اسم يدل على ذات الله ويدل على صفة الخلق.

إذاً، فباعتبار دلالته على الأمرين يسمى دلالة مطابقة، لأن اللفظ دل على جميع مدلوله، ولا شك أنك إذا قلت: الخالق، فإنك تفهم خالقاً وخلقاً.

- وباعتبار دلالته على الخالق وحده أو على الخلق وحده يسمى دلالة تضمن، لأنه دل على بعض معناه، وباعتبار دلالته على العلم والقدرة يسمى دلالة التزام، إذ لا يمكن خلق إلا بعلم وقدرة، فدلالته على القدرة والعلم دلالة التزام.

وحينئذ، يتبين أن الإنسان إذا أنكر واحداً من هذه الدلالة، فهو ملحد في الأسماء.

ولو قال: أنا أؤمن بدلالة الخالق على الذات، ولا أؤمن بدلالته على الصفة، فهو ملحد في الاسم.

لو قال: أنا أؤمن بأن (الخالق) تدل على ذات الله وعلى صفة الخلق، لكن لا تدل على صفة العلم والقدرة.

قلنا: هـذا إلحـاد أيضـاً، فلازم علينـا أن نثبت كـل مـا دل عليه هذا الاسم، فإنكـار شـيء ممـا دل على الاسـم من الصـفة إلحـاد في الاسـم سـواء كـانت دلالتـه على هـذه الصفة دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام.

ولنضرب مثلاً حسياً تتبين فيه أنواع هذه الدلالات: لو قلت: لي بيت. فكلمـــة (بيت) فيهـــا الـــدلالات الثلاث، فتفهم من (بيت) أنها تدل على كل البيت دلالة مطابقة. وتـــدل على مجلس الرجـــال وحـــده، وعلى الحمامـــات وحـدها، وعلى الصـالة وحـدها، دلالـة تضـمن، لأن هـذه الأشياء جـزء من الـبيت ودلالـة اللفـظ على جـزء معنـاه دلالة تضمن. وتدل على أن هناك بانياً بناه دلالـة الـتزام، لأنه ما من بيت، إلا وله بان.

النوع الرابع من أنواع الإلحـاد في الأسـماء: أن يثبت الأسماء لله والصفات، لكن يجعلها دالة على التمثيل، أي دالـــة على بصـــر كبصـــرنا وعلم كعلمنـــا، ومغفـــرة كمغفرتنا... وما أشبه ذلك، فهذا إلحاد، لأنه ميل بها عما يجب فيها، إذ الواجب إثباتها بلا تمثيل.

النوع الخامس: أن ينقلهـا إلى المعبـودات، أو يشـتق أسـماء منهـا للمعبـودات، مثـل أن يسـمي شـيئاً معبـوداً بالإله، فهذا إلحاد، أو يشتق منها أسماء للمعبودات مثـل: اللات من الإلــه، والعــزى والعزيــز، ومنــاة من المنــان، فنقـول: هـذا أيضـاً إلحـاد في أسـماء اللـه، لأن الـواجب عليك أن تجعل أسماء الله خاصة به، ولا تتعـدى وتتجـاوز فتشتق للمعبودات منهـا أسـماء. هـذه أنـواع الإلحـاد في أسماء الله.

فأهل السنة والجماعة لا يلحدون في أسماء الله أبداً بل يجرونها على ما أراد الله بها سبحانه وتعالى ويثبتون لها جميع أنواع الدلالات، لأنهم يرون أن مـا خـالف ذلـك، فهو إلحاد.

-0 - وأما الإلحاد في آيات الله تعالى، فالآيات جمـع آية، وهي العلامة الممـيزة للشـيء عن غـيره، واللـه عـز وجل بعث الرسل بالآيات لا بالمعجزات، لهذا كان التعبير بالآيات أحسن من التعبير بالمعجزات:

أولاً: لأن الآيـات هي الـتي يعـبر بهـا في الكتـاب والسنة.
ثانياً: أن المعجزات قد تقع من سـاحر ومشـعوذ ومـا أشبه ذلك تعجز غيره.
ثالثاً: أن كلمة (آيات) أدل على المعنى المقصـود من كلمة معجزات، فآيات الله عز وجل هي الدالـة على اللـه عز وجل، وحينئذ تكون خاصـة بـه ولـولا أنهـا خاصـة، مـا صارت آية له.
وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية:
فالآيات الكونية: مـا يتعلـق بـالخلق والتكـوين، مثـال ذلـك قولـه:]ومن آياتـه الليـل والنهـار والشـمس والقمر[[فصلت: 37].]ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشـر تنتشـرون[[الـروم: 20]ـ]ومن آياتـه خلـق السـموات والأرض واختلاف ألسـنتكم وألـوانكم إن في ذلـك لآيـات للعـالمين (22) ومن آياتـه منـامكم بالليـل والنهـار وابتغـاؤكم من فضـله إن في ذلـك لآيـات لقـوم يسـمعون (23) ومن آياتـه يـريكم الـبرق خوفـاً وطمعـاً وينزل من السماء مـاء فيحـيي بـه الأرض بعـد موتهـا إن في ذلك لآيـات لقـوم يعقلـون(24) ومن آياتـه أن تقـوم السماء والأرض بـأمره ثم إذ دعـاكم دعـوة من الأرض إذا أنتم تخرجون[[الروم: 22-25]، فهذه الآيـات كونيـة وإن شـئت، فقـل: كونيـة قدريـة، وكـانت آيـة للـه، لأنـه لا يستطيع الخلـق أن يفعلوهـا، فمثلاً: لا يسـتطيع أحـد أن يخلق مثل الشمس والقمر، ولا يستطيع أن يـأتي بالليـل إذا جاء النهـار، ولا بالنهـار إذا جـاء الليـل، فهـذه الآيـات كونية.
والإلحاد فيهـا أن ينسـبها إلى غـير اللـه اسـتقلالاً أو مشاركة أو إعانـة، فيقـول: هـذا من الـولي الفلاني، أو: من النـبي الفلاني، أو: شـارك فيـه النـبي الفلاني أو الولي الفلاني، أو: أعان الله فيه، قال الله تعـالى:]قـل ادعوا الذين زعمتم من دون اللـه لا يملكـون مثقـال ذرة في السموات ولا في الأرض ومـا لهم فيهمـا من شـرك ومـا لـه منهم من ظهـير[[سـبأ: 22]، فنفى كـل شـيء

يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئاً في السماوات والأرض استقلالاً أو مشاركة ولا معينة لله عز وجل، ثم بالرابع:]ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له[[سبأ: 23]، لما كان المشركون قد يقولون: نعم، هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك ولم تعاون، لكنها شفعاء، قال:]ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له[، فقطع كل سبب يتعلق به المشركون.

القسم الثاني من الآيات: الآيات الشرعية، وهي ما جاءت به الرسل من الوحي، كالقرآن العظيم وهو آيه، لقوله تعالى:]تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين[[البقرة: 252]ـ]وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين(50) أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم[[العنكبوت: 50-51]، فجعله آيات.

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها: فتكذيبها: أن يقول: ليست من عند الله، فيكذب بها أصلاً، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل، فيقول مثلاً: قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة والله لم يرسل عليهم طيراً أبابيل.

وأما التحريف، فهو تغيير لفظها، أو صرف معناها عما أراد الله بها ورسوله، مثل أن يقول: استوى على العرش، أي: استولى، أو: ينزل إلى السماء الدنيا، أي: ينزل أمره.

وأما مخالفتها، فبترك الأوامر أو فعل النواهي.

قال الله تعالى في المسجد الحرام:]ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم[[الحج: 25]، فكل المعاصي إلحاد في الآيات الشرعية، لأنه خروج بها عما يجب لها، إذ الواجب علينا أن نتمثل الأوامر وأن نجتنب النواهي، فإن لم نقم بذلك، فهذا إلحاد.

ولا يكيفون[1] ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه[2] لأنه سبحانه[3]....................

(1) أي: أهل السنة والجماعة، وسبق أن التكييف ذكر كيفية الصفة، سواء ذكرتها بلسانك أو بقلبك، فأهل

السنة والجماعة لا يكيفون أبداً، يعنى: لا يقولون: كيفية يده كذا وكذا، ولا: كيفية وجهه كذا وكذا، فلا يكيفون هذا باللسان ولا بالقلب أيضاً، يعني: نفس الإنسان لا يتصور كيف استوى الله عز وجل، أو كيف ينزل، أو كيف وجهه، أو كيف يده، ولا يجوز أن يحاول ذلك أيضاً، لأن هذا يؤدي إلى أحد أمرين: إما التمثيل، وإما التعطيل.

ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحاول معرفة كيفية استواء الله على العرش، أو يقوله بلسانه، بل ولا يسأل عن الكيفية، لأن الإمام مالكاً رحمه الله قال: "السؤال عن بدعة"، لا تقل: كيف استوى؟ كيف ينزل؟ كيف يأتي؟ كيف وجهه؟ إن فعلت ذلك، قلنا: إنك مبتدع.. وقد سبق ذكر الدليل على تحريم التكييف، وذكرنا الدليل على ذلك من السمع والعقل.

(2) "ولا يمثلون"، أي: أهل السنة والجماعة: "صفاته بصفات خلقه"، وهذا معنى قوله فيما سبق: "من غير تمثيل" وسبق لنا امتناع التمثيل سمعاً وعقلاً، وأن السمع ورد خبراً وطلباً في نفي التمثيل، فهم لا يكيفون ولا يمثلون.

(3) (سبحان): اسم مصدر سبح والمصدر تسبيح، فـ (سبحان) بمعنى تسبيح، لكنها بغير اللفظ، وكل ما دل على معنى المصدر وليس بلفظه، فهو اسم مصدر، كـ : سبحان من سبح، وكلام من كلم وسلام من سلم، وإعرابها مفعول مطلق منصوب على المفعولية المطلقة، وعاملها محذوف دائماً.

ومعنى (سبح)، قال العلماء: معناها: نزه، أصلها من السبح وهو البعد، كأنك تبعد صفات النقص عن الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص.

لا سمي له[1]، ولا كفء له[2]، ولا ند له[3]..

(1) دليل ذلك قوله تعالى:]رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً[[مريم: 65]:ـ]هل[استفهام، لكنه بمعنى النفي ويأتي النفي بصيغة الاستفهام لفائدة عظيمة، وهي التحدي، لأن هناك فرقاً بين أن أقول: لا سمي له، و:

]هل تعلم له سمياً[، لأن]هل تعلم له سمياً[متضمن للنفي وللتحدي أيضاً، مشرب معنى التحدي، وهذه قاعدة مهمة: كلما كان الاستفهام بمعنى النفي، فهو مشرب معنى التحدي، كأني أقول: إن كنت صادقاً، فأتني بسمي له وعلى هذا، فـ]هل تعلم له سمياً[: أبلغ من: "سمي له".

والسمي: هو المسامي، أي: المماثل.

(2) الدليل قوله تعالى:]ولم يكن له كفواً أحد[[الإخلاص: 4].

(3) الدليل قوله تعالى:]فلا تجعلوا لله أنداداً وأنت تعلمون[[البقرة: 22]، أي: تعلمون أنه لا ند له والند بمعنى النظيري.

وهذه الثلاثة ـ السمي والكفء والند ـ معناها متقارب جداً، لأن معنى الكفء: الذي يكافئه، ولا يكفائ الشيء الشيء إلا إذا كان مثله، فإن لم يكن مثله، لم يكن مكافئاً، إذاً: لا كفء له، أي: ليس له مثيل سبحانه وتعالى.

وهذا النفي المقصود منه كمال صفاته، لأنه لكما صفاته لا أحد يماثله.

ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى[1] ....

(1) القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قياس شمول، وقياس تمثيل، وقياس أولوية، فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول:

1-1- قياس الشمول: هو ما يعرف بالعام الشامل لجميع أفراده، بحيث يكون كل فرد منه داخلاً في مسمى ذلك اللفظ ومعناه، فمثلاً: إذا قلنا: الحياة، فإنه لا تقاس حياة الله تعالى بحياة الخلق من أجل أن الكل يشمله اسم (حي).

2-2- وقياس التمثيل: هو أن يلحق الشيء مثيله فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق.

3-3- وقياس الأولوية: هو أن يكون الفرع أولى بالحكم من الأصل، ولهذا يقول العلماء: إنه مستعمل في حق الله، لقوله تعالى]ولله المثل الأعلى[[النحل:

60]، بمعنى كل صفة كمال، فلله تعالى أعلاها، والسـمع والعلم والقدرة والحياة والحكمـة ومـا أشـبهها موجـودة في المخلوقات، لكن لله أعلاها وأكملها.

ولهـذا أحيانـاً نسـتدل بالدلالـة العقليـة من زاويـة القيـاس بـالأولى، فمثلاً: نقـول: العلـو صـفة كمـال في المخلوق، فإذا كان صفة كمال في المخلـوق، فـإذا كـان صفة كمال في المخلوق، فهو في الخالق من بـاب أولى وهذا دائماً نجده في كلام العلماء.

فقول المؤلف رحمه اللـه: "ولا يقـاس بخلقـه"، بعـد قوله: "لا سمي ولا كفء له، ولا نـد لـه"، يعـني القيـاس المقتضـي للمسـاواة وهـو قيـاس الشـمول وقيـاس التمثيل.

إذاً، يمتنـع القيـاس بين اللـه وبين الخلـق للتبـاين بينهمـا، وإذا كنـا في الأحكـام لا نقيس الـواجب على الجائز، أو الجـائز على الـواجب، ففي بـاب الصـفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

لو قـال لـك قائـل: اللـه موجـود، والإنسـان موجـود، ووجود الله كوجود الإنسان بالقياس.

فنقـول: لا يصـح، لأن وجـود الخـالق واجب، ووجـود الإنسان ممكن.

فلو قال: أقيس سمع الخالق على سمع المخلوق.

نقـول: لا يمكن، سـمع الخـالق واجب لـه، لا يعتريـه نقص، وهو شامل لكل شيء، وسـمع الإنسـان ممكن، إذ يجـوز أن يولـد الإنسـان أصـم، والمولـود سـميعاً يلحقـه نقص السمع، وسمعه محدود.

إذاً، لا يمكن أن يقاس الله بخلقه، فكـل صـفات اللـه لايمكن أن تقاس بصفات خلقه، لظهـور التبـاين العظيم بين الخالق وبين المخلوق.

فإنـه سـبحانه أعلم بنفسـه وبغـيره، وأصـدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه[1]............

(1) قال المؤلف هذا تمهيداً وتوطئـة لوجـوب قبـول ما دل عليه كلام الله تعالى من صفاته وغيرها، وذلك أنه يجب قبـول مـا دل عليـه كلام اللـه تعـالى من صـفاته

وغيرها، وذلك أنه يجب قبول ما دل عليه الخبر إذا اجتمعت فيه أوصاف أربعة:

الأول: أن يكون صادراً عن علم، وإليه الإشارة بقوله: "فإنه أعلم بنفسه وبغيره".

الثاني: الصدق، وأشار إليه بقوله: "وأصدق قيلاً".

الوصف الثالث: البيان والفصاحة، وأشار إليه بقوله: "وأحسن حديثاً".

الوصف الرابع: سلامة القصد والإرادة، بأن يريد المخبر هداية من أخبرهم.

فدليل الأول ـ وهو العلم ـ: قوله تعالى:]وربك أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فصلنا بعض النبيين على بعض[[الإسراء: 55]، فهو أعلم بنفسه وبغيره من غيره، فهو أعلم بك من نفسك، لأنه يعلم ما سيكون لك في المستقبل، وأنت لا تعلم ماذا تكسب غداً؟

وكلمة]أعلم[هنا اسم تفضيل، وهو يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه، وهذا لا يجوز بالنسبة لله، لكن (عالم) اسم فاعل وليس فيه مقارنة ولا تفضيل.

فنقول له: هذا غلط، فالله يعبر عن نفسه ويقول:]أعلم[وأنت تقولك عالم! وإذا فسرنا]أعلم[بـ(عالم)، فقد حططنا من قدر علم الله، لأن (عالم) يشترك فيه غير الله على سبيل المساواة، لكن]أعلم[مقتضاه أن لا يساويه أحد في هذا العلم، فهو أعلم من كل عالم، وهذا أكمل في الصفة بلا شك.

ونقول له: إن اللغة العربية بالنسبة لاسم الفاعل لا تمنع المساواة في الوصف، لكن بالنسبة لاسم التفضيل تمنع المشاركة فيما دل عليه.

ونقول أيضاً: في باب المقارنة لا بأس أن نقول: أعلم، بمعنى: أن تأتي باسم التفضيل، ولو فرض خلو المفضل عليه من ذلك المعنى، كما قال الله تعالى:]أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً[[الفرقان: 24]، فجاء باسم التفضيل، مع أن المفضل عليه ليس فيه خير، وقال يوسف:]أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار[ ]يوسف: 39[، والأرباب ليس فيها خير.

فالحاصل أن نقول: إن]أعلم[الواردة في كتاب اللـه يراد بها معناها الحقيقي، ومن فسـرها بــ(عـالم)، فقـد أخطأ من حيث المعنى ومن حيث اللغة العربية.

ودليل الوصف الثاني ـ الصدق ـ: قولـه تعـالى:]ومن أصـدق من اللـه قيلاً[، أي: لا أحـد أصـدق منـه، والصـدق مطابقـــة الكلام للواقـــع، ولا شـــيء من الكلام يطـــابق الواقع كما يطابقه كلام اللـه سـبحانه وتعـالى، فكـل مـا أخبر الله به، فهو صدق، بل أصدق من كل قول.

ودليل الوصـف الثـالث ــ البيـان والفصـاحة ــ: قولـه تعالى:]ومن أصدق من الله حديثاً[وحسن حديثه يتضمن الحسن اللفظي والمعنوي.

ودليل الوصف الرابع ـ سلامة القصد والإرادة ـ: قوله تعالى:

]يبين الله لكم أن تضلوا[[النساء: 176]،ـ]يريـد اللـه ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم[[النساء: 26].

فاجتمع في كلام الله الأوصاف الأربعـة الـتي تـوجب قبول الخبر.

وإذا كان كذلك، فإنه يجب أن نقبل كلامه على ما هو عليه، وأن لا يلحقنا شـك في مدلولـه، لأن اللـه لم يتكلم بهذا الكلام لأجل إضلال الخلق، بل ليـبين لهم ويهـديهم، وصـــدر كلام اللـــه عن نفســـه أو عن غـــيره من أعلم القائلين، ولا يمكن أن يعتريه خلاف الصدق، ولا يمكن أن يكون كلاماً عيياً غير فصيح، وكلام اللـه لـو اجتمعت هـذه الأمور الأربعـة في الكلام، وجب عـل المخـاطب القبـول بما دل عليه.

مثال ذلك: قوله تعالى مخاطباً إبليس:]مـا منعـك أن تسجد لما خلقت بيـدي[[ص: 75]، قـال قائـل: في هـذه الآيـة إثبـات يـدين للـه عـز وجـل يخلـق بهمـا من شـاء فنثبتهما، لأن كلام الله عزوجـل صـادر عن علم وصـدق، وكلامـه أحســن الكلام وأفصـحه وأبينـه، ولا يمكن أن لا يكون له يدان لكن أراد من الناس أن يعتقـدوا ذلـك فيـه، ولو فرض هذا، لكان مقتضاه أن القرآن ضلال، حيث جاء بوصف الله بما ليس فيه، وهذا ممتنع، فـإذا كـان كـذلك،

وجب عليك أن تؤمن بـأن لله تعـالى يـدين اثنـتين خلـق بهما آدم.

وإذا قلت: المراد بهما النعمة أو القدرة.

قلنا: لا يمكن أن يكون هذا هو المراد، إلا إذا اجـترأت على ربك ووصـفت كلامـه بضـد الأوصـاف الأربعـة الـتي قلنا، فنقول: هل الله عز وجل حينما قال:]بيدي[: عـالم بـأن لـه يـدين؟ فسـيقول: هـو عـالم. فنقـول: ÷ل هـو صـادق؟ فسـيقول: هـو صـادق بلا شـك. ولا يسـتطيع أن يقول: هو غير عالم، أو: غير صـادق، ولا أن يقـول: عـبر بهما وهو يريد غيرهما عياً وعجزاً، ولا أن يقول: أراد من خلقه أن يؤمنوا بما ليس فيـه من الصـفات إضـلالاً لهم! فنقـول لـه: إذاً، مـا الـذي يمنعـك أن تثبت للـه اليـدين؟! فاستغفر ربك وتب إليه، وقل: آمنت بما أخبر الله به عن نفسه، لأنه أعلم بنفسـه وبغـيره، وأصـدق قيلاً، وأحسـن حديثاً من غيره وأتم إرادة من غيره أيضاً.

ولهذا أتى المؤلف رحمه الله بهـذه الأوصـاف الثلاثـة ونحن زدنـا الوصـف الرابـع، وهـو: إرادة البيـان للخلـق وإرادة الهداية لهم، لقوله تعـالى:]يريـد اللـه ليـبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم[[النساء: 26].

هذا حكم ما أخبر الله به عن نفسه بكلامـه الـذي هـو جـامع للكمـالات الأربـع في الكلام، أمـا مـا أخـبرت بـه الرسـل فقـال المؤلـف: "ثم رسـله صـادقون مصدقون....".

ثم رسـله صـادقون[1] ....

(1) الصادق: المخبر بما طابق الواقـع، فكـل الرسـل صادقون فيما أخبروا بـه ولكن: لابـد أن يثبت السـند إلى الرسل عليهم السلام، فـإذا قـالت اليهـود: قـال موسـى كذا وكذا، فلا نقبل، حتى نعلم صحة سـنده إلى موسـى. وإذا قالت النصـارى: قـال عيسـى كـذا وكـذا، فلا نقبـل، حتى نعم صحة السند إلى عيسى. وإذا قـال قائـل: قـال محمد رسول الله كذا وكـذا، فلا نقبـل، حـتى نعلم صـحة السند إلى محمد.

فرسله صادقون فيما يقولون، فكل ما يخبرون به عن الله وعن غيره من مخلوقاته، فهم صادقون فيه، لا يكذبون أبداً.

ولهذا أجمع العلماء على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب.

مصدوقون(1)..

(1) "مصدقون" أو : "مصدقون": نسختان: أما على نسخة "مصدوقون"، فالمعنى أن ما أوحي إليهم، فهو صدق، والمصدوق: الذي أخبر بالصدق والصادق: الذي جاء بالصدق، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة حين قال له الشيطان: إنك إذا قرأت آية الكرسي، لم يزل عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى قال له: "صدقك وهو كذوب"[1]، يعني: أخبرك بالصدق. فالرسل مصدوقون، كل ما أوحي إليهم، فهو صدق، ما كذبهم الذي أرسلهم ولا كذبهم الذي أرسل إليهم، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام،]إنه لقول رسول كريم (19) ذي قوة عند ذي العرش مكين (20) مطاع ثم أمين[[التكوير: 19-21].

وأما على نسخة:]مصدقون[، فالمعنى أنه يجب على أممهم تصديقهم، وعلى هذا يكون معنى "مصدقون"، أي: شرعاً، يعني: يجب أن يصدقوا شرعاً، فمن كذب بالرسل أو كذبهم، فهو كافر، ويجوز أن يكون "مصدقون" له وجه آخر، أي: أن الله تعالى صدقهم، ومعلوم أن الله تعالى صدق الرسل، صدقهم بقوله وبفعله:

أما بقوله: فإن الله قال لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام:]لكن الله يشهد بما أنزل إليك[[النساء: 166]،]والله يعلم إنك لرسوله[[المنافقون: 1]، فهذا تصديق بالقول.

أما تصديقه بالفعل، فبالتمكين له، وإظهار الآيات، فهو يأتي للناس يدعوهم إلا الإسلام، فإن لم يقبلوا، فالجزية، فإن لم يقبلوا، استباح دمائهم ونساءهم

---

[1] علقه البخاري/ كتاب الوكالة إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل.

وأموالهم، والله تعالى يمكن له، ويفتح عليه الأرض أرضاً بعد أرض، وحتى بلغت رسالته مشارق الأرض ومغاربهــا، فهذا تصديق من الله بالفعل، كذلك أيضاً مـا يجريـه اللـه على يديه من الآيات هو تصـديق لـه سـواء كـانت الآيـات شرعية أم كونية، فالشرعية كان دائماً يسأل عن الشيء وهو لا يعلمه، فينزل الله الجواب:]ويسألونك عن الــروح قل الروح من أمر ربي[[الإسراء: 85][1]، إذاً هذا تصـديق بأنه رسول ولو كان غير رسول، ما أجاب اللـه]يسـألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحـرام وإخـراج أهلـه منـه أكبر عند الله[[البقرة: 217]. فالجواب:]قل قتال فيه[.. إلخ، فهذا تصديق من الله عز وجل.

والآيات الكونية ظاهرة جداً وما أكـثر الآيـات الكونيـة التي أيد اللـه بهـا رسـوله، سـواء جـاءت لسـبب أو لغـير سبب، وهذا معروف في السيرة.

ففهمنـا من كلمـة: "مصـدقون": أنهم مصـدقون من قبل الله بالآيات الكونية والشـرعية، مصـدقون من قبـل الخلــق، أي: يجب أن يصــدقوا وإنمــا حملنــا ذلــك على التصديق شرعاً، لأن من الناس من صدق ومن الناس من لم يصدق، لكن الواجب التصديق.

بخلاف الــذين يقولــون عليــه مــا لا يعلمــون[1] ....

(1) فهــؤلاء كــاذبون أو ضــالون، لأنهم قــالوا مــالا يعلمون.

وكـأن المؤلـف يشـير إلى أهـل التحريـف، لأن أهـل التحريف قالوا على الله مالا يعلمون من وجهين: قـالوا: إنه لم يرد كذا وأراد كـذا! فقـالوا في السـلب والإيجـاب لما لا يعلمون.

مثلاً: قالوا: لم يرد بالوجه الحقيقي! فهنا قالوا على اللـه مـالا يعلمـون بالسـلب، ثم قـالوا: والمـراد بالوجـه الثواب! فقالوا على الله ملا يعلمون في الإيجاب.

وهـؤلاء الـذين يقولـون على اللــه مــالا يعلمــون لا يكونون صادقين ولا مصـدوقين ولا مصـدقين بـل قـامت

([1]) لما رواه البخاري/ كتاب التفسير/ باب (ويسألونك عن الروح).

الأدلــة على أنهم كــاذبون مكــذوبون بمــا أوحى إليهم الشيطان.

ولهذا[1] قال سـبحانه وتعـالى:]سـبحان[2] ربك[3] رب العزة[4] عما يصفون[5] وسلام على المرسـلين[6] والحمـد لله رب العالمين[7][..

(1) أي: لأجل كمال كلامه وكلام رسله.

(2) سبق معنى التسبيح وهو تنزيه الله عن كل مـا لا يليق به.

(3) أضاف الربوبية إلى محمد وهي ربوبيـة خاصـة، من باب إضافة الخالق إلى المخلوق.

(4) من بــاب إضــافة الموصــوف إلى الصــفة، ومن المعروف أن كل مربوب مخلوق وهنـا قـال:]رب العـزة[، وعزه الله غير مخلوقة، لأنهـا من صـفاته، فنقـول: هـذه من باب إضافة الموصوف إلى الصفة وعلى هذا، فـ]رب العزة[هنا معناها: صـاحب العـزة، كمـا يقـال: رب الـدار، أي: صاحب الدار.

(5) يعــني: عمــا يصــفه المشــركون، كمــا ســيذكره المؤلف.

(6) أي: على الرسل.

(7) حمد الله نفسه عز وجل بعـد أن نزههـا، لأن في الحمد كمال الصفات، وفي التسـبيح تنزيـه عن العيـوب، فجمع في الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح، وإثبات الكمال بالحمد.

فســبح نفســه عمــا وصــفه بــه المخــالفون للرســل، وســلم على المرســلين لســلامة مــا قــالوه من النقص والعيب[1]. وهو سبحانه قد جمع فيمـا وصـف وسـمى بـه نفســـــــــــــه بين النفي والإثبـــــــــــــات[2] ....

(1) معنى هذه الجملة واضح، وبقي أن يقـال: وحمـد نفسه لكمال صـفاته بالنسـبة لنفسـه وبالنسـبة لرسـله، فإنـه سـبحانه محمـود على كمـال صـفاته وعلى إرسـال الرسل، لما في ذلك من رحمة الخلق والإحسان إليهم.

(2) بين المؤلف رحمه الله في هـذه الجملـة أن اللـه تعـالى جمـع فيمـا وصـف وسـمى بـه نفسـه بين النفي والإثبـات، وذلـك لأن تمـام الكمـال لا يكـون إلا بثبـوت صـفات الكمـال وانتفـاء مـا يضـادها من صـفات النقص، فأفادنا رحمه الله أن الصفات قسمان:

1- صفات مثبتة: وتسمى عندهم: الصفات الثبوتية.

2- وصفات منفية: ويسمونها: الصفات السـلبية، من السلب وهو النفي، ولا حرج من أن نسميها سـلبية، وإن كـان بعض النـاس توقـف وقـال: لا نسـميها سـلبية، بـل نقول: منفية.

فنقـول: مـا دام السـلب في اللغـة بمعـنى النفي، فالاختلاف في اللفظ ولا يضر.

فصفات الله عز وجل قسمان: ثبوتية وسـلبية، أو إن شئت، فقل: مثبتة ومنفية، والمعنى واحد.

فالمثبتة: كـل مـا أثبتـه اللـه لنفسـه، ولكهـا صـفات كمال، ليس فيهـا نقص بوجـه من الوجـوه، ومن كمالهـا أنـه لا يمكن أن يكـون مـا أثبتـه دالاً على التمثيـل، لأن المماثلة للمخلوق نقص.

وإذا فهمنا هذه القاعدة، عرفنا ضلال أهل التحريـف، الـذين زعمـوا أن الصـفات المثبتـة تسـتلزم التمثيـل، ثم أخذوا ينفونها فراراً من التمثيل.

ومثاله: قالوا: لو أثبتنا لله وجهاً، لزم أن يكون مماثلاً لأوجه المخلوقين، وحينئذ يجب تأويـل معنـاه إلى معـنى آخر لا إلى الوجه الحقيقي.

فنقول لهم: كل مـا أثبت اللـه لنفسـه من الصـفات، فهو صفة كمال ولا يمكن أبداً أن يكـون فيمـا أثبتـه اللـه لنفسه من الصفات نقص.

ولكن، إذا قال: هـل الصـفات توقيفيـة كالأسـماء، أو هي اجتهادية، لمعنى أن يصح لنا أن نصـف اللـه سـبحانه وتعالى بشيء لم يصف به نفسه؟.

فـــالجواب أن نقـــول: إن الصـــفات توقيفيـــة على المشهور عند أهل العلم، كالأسماء، فلا تصف الله إلا بما وصف به نفسه.

وحينئذ نقول: الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: صفة كمال مطلق، وصفة كمال مقيد، وصفة نقص مطلق.

أما صفة الكمال على الإطلاق، فهي ثابتة لله عز وجل، كالمتكلم، والفعال لما يريد، والقادر.. ونحو ذلك.

وأما صفة الكمال بقيد، فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق إلا مقيداً، مثل: المكر، والخداع، والاستهزاء.. وما أشبه ذلك، فهذه الصفات كمال بقيد، إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك، فهي كمال، وإن ذكرت مطلقة، فلا تصح بالنسبة لله عز وجل، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر أو المستهزئ أو الخادع، بل تقيد فنقول: ماكر بالماكرين، مستهزئ بالمنافقين، خادع للمنافقين، كائد للكافرين، فتقيدها لأنها لم تأت إلا مقيدة.

وأما صفة النقص على الإطلاق، فهذه لا يوصف الله بها بأي حال من الأحوال، كالعاجز والخائن والأعمى والأصم، لأنها نقص على الإطلاق، فلا يوصف الله بها وانظر إلى الفرق بين خادع وخائن، قال الله تعالى:]إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم[[النساء: 142]، فأثبت خداعه لمن خادعه لكن قال في الخيانة:]وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم[[الأنفال: 71] ولم يقل: فخانهم، لأن الخيانة خداع في مقام الائتمان، والخداع في مقام الائتمان نقص، وليس فيه مدح أبداً.

فإذاً، صفات النقص منفية عن الله مطلقاً.

والصفات المأخوذة من الأسماء هي كمال بكل حال ويكون الله عز وجل قد أتصف بمدلولها، فالسمع صفة كمال دل عليها اسمه السميع، فكل صفة دلت عليها الأسماء، فهي صفة كمال مثبته لله على سبيل الإطلاق، وهذه تجعلها قسماً منفصلاً، لأنه ليس فيها تفصيل، وغيرها تنقسم إلى الأقسام الثلاثة التي سلف ذكرها، ولهذا لم يسم الله نفسه بالمتكلم مع أنه يتكلم، لأن الكلام قد يكون خيراً، وقد يكون شراً، وقد لا يكون خيراً ولا شراً، فالشر لا ينسب إلى الله، واللغو كذلك لا ينسب إلى الله، لأنه سفه، والخير ينسب إليه، ولهذا لم يسم

نفسه بالمتكلم، لأن الأسماء كما وصفها الله عز وجل:]ولله الأسماء الحسنى[[الأعراف: 180]، ليس فيها أي شيء من النقص ولهذا جاءت باسم التفضيل المطلق.

إذا قال قائل: فهمنا الصفات وأقسامها، فما هو الطريق لإثبات الصفة مادمنا نقول: إن الصفات توقيفية؟

فنقول: هناك عدة طرق لإثبات الصفة:

الطريق الأول: دلالة الأسماء عليها، لأن كل اسم، فهو متضمن لصفة ولهذا قلنا فيما سبق: إن كل اسم من أسماء الله دال على ذاته وعلى الصفة التي اشتق منها.

الطريق الثاني: أن ينص على الصفة، مثل الوجه، واليدين، والعينين.. وما أشبه ذلك، فهذه بنص من الله عز وجل، ومثل الانتقام، فقال عنه تعالى:]إن الله عزيز ذو انتقام[[إبراهيم: 47]، ليس من أسماء الله المنتقم، خلافاً لما يوجد في بعض الكتب التي فيها عد أسماء الله، لأن الانتقام ما جاء إلا على سبيل الوصف أو اسم الفاعل مقيداً، كقوله:]إنا من المجرمين منتقمون[[السجدة: 22].

الطريق الثالث: أن تؤخذ من الفعل، مثل: المتكلم، فأخذها من]وكلم الله موسى تكليماً[[النساء: 164].

هذه هي الطرق التي تثبت بها الصفة وبناء على ذلك نقول: الصفات أعم من الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة متضمنة لاسم.

وأما الصفات المنفية عن الله عز وجل، فكثيرة ولكن الإثبات أكثر، لأن صفات الإثبات كلها صفات كمال، ولكما تعددت وتنوعت، ظهر من كمال الموصوف ما هو أكثر، وصفات النفي قليلة، ولهذا نجد أن صفات النفي تأتي كثيراً عامة، غير مخصصة بصفة معينة، والمخصص بصفة لا يكون إلا لسبب، مثل تكذيب المدعين بأن الله اتصف بهذه الصفة التي نفاها عن نفسه أو دفع توهم هذه الصفة التي نفاها.

فالقسم الأول العامة، كقوله تعالى]ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[[الشورى: 11]، قال]ليس

كمثله شيء[في علمه وقدرته وسمعه وبصره وعزته وحكمته ورحمته.. وغير ذلك من صفاته، فلم يفصل، بل قال:]ليس كمثله شيء[في كل كمال.

أما إذا كان مفصلاً، فلا تجده إلا لسبب، كقوله]ما اتخذ الله من ولد[[المؤمنون: 91]، رداً لقول من قال: إن لله ولداً وقوله:]لم يلد ولم يولد[[الإخلاص: 3] كذلك وقوله تعالى:]ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب[[ق: 38]، لأنه قد يفرض الذهن الذي لا يقدر الله حق قدره أن هذه السماوات العظيمة والأرض العظيمة إذا كان خلقها في ستة أيام، فسيلحقه التعب، فقال:]وما مسنا من لغوب[[ق: 38]، أي: من تعب وإعياء.

فتبين بهذا أن النفي لا يرد في صفات الله عز وجل إلا على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص لسبب، لأن صفات السلب لا تتضمن الكمال إلا إذا كانت متضمنة لإثبات، ولهذا نقول: الصفات السلبية التي نفاها الله عن نفسه متضمنة لثبوت كمال ضدها، فقوله]وما مسنا من لغوب[: متضمن كمال القوة والقدرة وقوله:]ولا يظلم ربك أحداً[[الكهف: 49]: متضمن لكمال العدل وقوله:]وما الله بغافل عما تعملون[[البقرة: 85]: متضمن لكمال العلم والإحاطة.. وهلم جراً، فلا بد أن تكون الصفة المنفية متضمنة لثبوت، وذلك الثبوت هو كمال ضد ذلك المنفي وإلا، لم تكن مدحاً.

لا يوجد في الصفات المنفية عن الله نفي مجرد لأن النفي المجرد عدم والعدم ليس بشيء، فلا يتضمن مدحاً ولا ثناء، ولأنه قد يكون للعجز عن تلك الصفة فيكون ذماً، وقد يكون لعدم القابلية، فلا يكون مدحاً ولا ذماً.

مثال الأول الذي للعجز قول الشاعر:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ومثال الثاني الذي لعدم القابلية: أن تقول: إن جدرانا لا يظلم أحداً. والواجب علينا نحو هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه والتي نفاها أن نقول: سمعنا وصدقنا وآمنا.

هـذه هي الصـفات فيهـا مثبت وفيهـا منفي، أمـا الأسماء فكلها مثبتة.

لكن أسـماء اللـه تعـالى المثبتـة منهـا مـا يـدل على معنى إيجابي، ومنها ما يدل على معني سلبي، وهذا هـو مورد التقسيم في النفي والإثبات بالنسبة لأسماء الله.

فمثال التي مدلولها إيجابي كثير.

ومثال التي مدلولها سلبي: السلام. ومعني السـلام، قال العلماء: معناه: السـالم من كـل عيب. إذاً، فمدلولـه سلبي، بمعنى: ليس فيه نقص ولا عيب، وكذلك القدوس قريب من معنى السلام، لأن معناه المنزه عن كـل نقص وعيب.

فصارت عبارة المؤلف سليمة وصحيحة وهـو لا يريـد بالنسـبة للأسـماء أن هنـاك أسـماء منفيـة، لأن الاسـم المنفي ليس باسم للـه، لكن مـراده أن مـدلولات أسـماء الله ثبوتية وسلبية.

فلا عـدول لأهـل السـنة والجماعة[1] عمـا جـاء بـه المرسلون[2].......................

(1) العـدول: معنـاه الانصـراف والانحـراف، فأهـل السنة والجماعة لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل.

وإنمـا جـاء المؤلـف بهـذا النفي، ليـبين أنهم لكمـال اتباعهم رضي الله عنهم لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل، فهم مستمسكون تماماً، وغير منحرفين إطلاقاً، عما جاءت به الرسل، بل طريقتهم أنهم يقولون: سمعنا وأطعنا في الأحكام وسمعنا وصدقنا في الأخبار.

(2) ما جاء به محمد عليـه الصـلاة والسـلام والواضـح أننا لا نعدل عنه، لأنـه خـاتم النبـيين، وواجب على جميـع العباد أن يتبعوه، لكن ما جاء عن غيره، هل لأهـل السـنة والجماعة عدول عنه؟ لا عدول لهم عنه، لأن مـا جـاء عن الرسل عليهم الصلاة والسلام في باب الأخبار لا يختلف، لأنهم صـادقون ولا يمكن أن ينسـخ، لأنـه خـبر، فكـل مـا أخبرت به الرسل عن الله عز وجل، فهو مقبـول وصـدق ويجب الإيمان به.

مثلاً: قال موسى لفرعون لما قال له:]قال فما بـال القرون الأولى (51) قـال علمهـا عنـد ربي في كتـاب لا

يضـــل ربي ولا ينسى[[طـــه: 51-52]، فنفى عن اللـــه الجهل والنسيان، فنحن يجب علينا أن نصدق بـذلك، لأنـه جاء به رسول من الله]قال فمن ربكما يـا موسـى (49) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[[طه: 49-50]، فلو سألنا سائل: من أين علمنا أن اللـه أعطى كـل شـيء خلقـه؟ فنقـول: من كلام موسـى، فنـؤمن بـذلك، ونقول: أعطى كل شيء خلقه اللائق به، فالإنسان على هذا الوجه، والبعـير على هـذا الوجـه، والبقـرة على هـذا الوجه، والضأن على هذا الوجه، ثم هدى كل مخلـوق إلى مصالحه ومنافعه، فكل شـيء يعـرف مصـالحه ومنافعـه، فالنملة في أيام الصيف تدخر قوتها في جحورهـا، ولكن لا تدخر الحب كما هو، بل تقطم رؤوسه، لئلا ينبت، لأنـــه لو نبت، لفسد عليها، وإذا جـاء المطـر وابتـل هـذا الحب الـذي وضـعته في الجحـور، فإنهـا لا تبقيـه يأكلـه العفن والرائحـــة، بـــل تنشـــره خـــارج جحرهـــا حـــتى ييبس من الشمس والريح، ثم تدخله!

لكن يجب التنبيه إلى أن ما نسـب للأنبيـاء السـابقين يحتـاج فيـه إلى صـحة النقـل، لاحتمـال أن يكـون كـذباً، كالذي نسب إلى رسول الله وأولى وقوله رحمـه اللـه: "عما جاء به المرسلون" هـل يشـمل هـذا الأحكـام أو أن الكلام الآن في باب الصفات، فيختص بالأخبار؟

إن نظرنـا إلى عمـوم اللفـظ، قلنـا: يشـمل الأخبـار والأحكام.

وإن نظرنـا إلى السـياق، قلنـا: القرينـة تقتضـي أن الكلام في باب العقائد وهي من باب الأخبار.

ولكن نقول: إن كان كلام شـيخ الإسـلام رحمـه اللـه خاصاً بالعقائد، فهو خاص، وليس لنا فيه كلام. وإن كـان عاماً، فهو يشمل الأحكام.

والأحكام التي للرسل السابقين اختلف فيها العلماء: هل هي أحكام لنا إذا لم يـرد شـرعنا بخلافهـا، أو ليسـت أحكاماً لنا؟

والصـحيح أنهـا أحكـام لنـا، وأن مـا ثبت عن الأنبيـاء الســابقين من الأحكــام، فهــو لنــا، إلا إذا ورد شــرعنا بخلافه، فإذا ورد شرعنا بخلافه، فهو على خلافه، فمثلاً:

السجود عند التحية جائز في شريعة يوسف ويعقوب وبنيه، لكن في شريعتنا محرم، كذلك الإبل حرام على اليهود:]وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر[[الأنعام: 146] ولكن هي في شريعتنا حلال.

فإذاً، يمكن أن نحمل كلام شيخ الإسلام رحمه الله على أنه عام في الأخبار والأحكام، وأن نقول: ما كان في شرع الأنبياء من الأحكام، فهو لنا، إلا بدليل.

ولكن يبقى النظر: كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السابقين؟

نقول: لنا في ذلك طريقان: الطريق الأول: الكتاب، والطريق الثاني: السنة. فما حكاه الله في كتابه عن الأمم السابقين، فهو ثابت وما حكاه النبي فيما صح عنه، فهو أيضاً ثابت.

والباقي لا نصدق ولا نكذب، إلا إذا ورد شرعنا بتصديق ما نقل أهل الكتاب، فإننا نصدقه، لا لنقلهم، ولكن لما جاء في شريعتنا. وإذا ورد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب، فإننا نكذبه، لأن شرعنا كذبه. فالنصارى يزعمون بأن المسيح ابن الله، فنقول: هذا كذب، واليهود يقولون: عزير ابن الله، فنقول: هذا كذب.

فإنه[1] الصراط المستقيم[2] ....

(1) (فإنه): الضمير يعود على ما جاءت به الرسل ويمكن أن يعود على طريق أهل السنة والجماعة وهو الاتباع وعدم العدول عنه، فما جاءت به الرسل وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وهو الاتباع وعدم العدول عنه، فما جاءت به الرسل وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة: هو الصراط المستقيم.

(2) (صراط): على وزن فعال، بمعنى: مصروط، مثل: فراش، بمعنى: مفروش، وغراس، بمعنى: مغروس، فهو بمعنى اسم المفعول. والصراط إنما يقال للطرق الواسع المستقيم مأخوذ من الزرط وهو بلع اللقمة بسرعة، لأن الطريق إذا كان واسعاً، لا يكون فيه ضيق يتعثر الناس فيه، فالصراط يقولون في تعريفه: كل طريق واسع ليس فيه صعود ولا نزول ولا اعوجاج.

إذاً، الطريـق الـذي جـاءت بـه الرسـل هـو الصـراط المستقيم، الذي ليس فيه عوج ولا أمت، طريق مستقيم ليس فيـه انحـراف يمينـاً ولا شـمالاً:]وأن هـذا صـراطي مستقيماً فاتبعوه[[الأنعام: 153].

وعليه، فيكون المستقيم صفة كاشفة على تفسـيرنا الصراط بأنه الطريق الواسـع الـذي لا اعوجـاج فيـه، لأن هذا هو المستقيم أو يقال: إنهـا صـفة مقيـدة، لأن بعض الصراط قد يكون غير مستقيم كما قال تعالى]فاهدوهم إلى صـراط الجحيم (23) وقفـوهم إنهم مسـئولون[[الصـافات: 23-24]، وهـذا الصـراط غـير مستقيم.

صـراط الـذين أنعم اللـه عليهم[1] ....

(1) "صـراط الـذين أنعم اللـه عليهم"، أي طـريقهم وأضافه إليهم لأنهم سـالكوه، فهم الـذين يمشـون فيـه، كمـا أضـافه اللـه إلى نفسـه أحيانـاً:]وإنـك لتهـدي إلى صـراط مسـتقيم (52) صـراط اللـه الـذي لـه مـا في السموات وما في الأرض[[الشورى: 52-53]، باعتبار أنه هو الذي شرعه ووضعه لعبـاده، وأنـه موصـل إليـه، فهـو صراط الله باعتبـارين وصـراط المؤمـنين باعتبـار واحـد، صراط الله باعتبارين هما: أنه وضعه لعباده، وأنه موصل إليـه وصـراط المؤمـنين، لأنهم هم الـذين يسـلكونه وحدهم.

وقوله: "الذين أنعم الله عليهم": النعمـة: كـل فضـل وإحسان من الله عز وجل على عباده، فهو نعمة وكل ما بنـا من نعمـة، فهـو من اللـه، ونعم اللـه قسـما: عامـة وخاصة، والخاصة أيضاً قسمان خاصة، وخاصة أعم.

فالعامة: هي التي تكـون للمؤمـنين وغـير المؤمـنين ولهذا، لو سألنا سائل: هل لله على الكافر نعمة؟

قلنا: نعم ، لكنها نعمة عامة وهي نعمة مـا تقـوم بـه الأبدان لا ما تصـلح بـه الأديـان، مثـل الطعـام والشـراب والكسوة والمسكن ومـا أشـبه ذلـك، فهـذه يـدخل فيهـا المؤمن والكافر.

والنعمة الخاصة: ما تصلح به الأديان من الإيمان والعلم والعمل الصالح، فهذه خاصة بالمؤمنين، وهي عامة للنبيين والصديقين، كالشهداء والصالحين.

ولكن نعمة الله على النبيين والرسل نعمة هي أخص النعم، واستمع إلى قوله تعالى]وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً[[النساء: 113]، فهذه النعمة التي هي أخص لا يلحق المؤمنين فيها النبيين، بل هم دونهم.

وقوله: "صراط الذين أنعم الله عليهم": هي كقوله تعالى:]اهدنا الصراط المستقيم (6) صراط الذين أنعمت عليهم[[الفاتحة: 6-7].

فمن هم الذين أنعم الله عليهم؟

فسرها تعالى بقوله:]ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[[النساء: 69]، فهؤلاء أربعة أصناف.

من النبيين[1]...

(1) النبيون: وهم كل من أوحى الله إليهم ونبأهم فهو داخل في هذه الآية: فيشمل الرسل، لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً وعلى هذا فيكون النبيون شاملاً للرسل أولي العزم وغيرهم شاملاً أيضاً للنبيين الذين لم يرسلوا وهؤلاء أعلى أصناف الخلق.

والصديقين[1]..

(1) الصديقون: جمع صديق على وزن فعيل صيغة مبالغة.

فمن هو الصديق؟

أحسن ما يفسر به الصديق قوله تعالى:]والذي جاء بالصدق وصدق به[[الزمر: 33]، وقال تعالى]والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون[[الحديد: 19]، فمن حقق الإيمان ـ ولا يتم تحقيق الإيمان إلا بالصدق والتصديق ـ فهو صديق:

الصدق في العقيدة: بالإخلاص، وهذا أصعب ما يكـون على المرء حتى قـال بعض السـلف: مـا جاهـدت نفسـي على شـيء مجاهـدتها على الإخلاص، فلا بـد من الصـدق في المقصد ـ وهو العقيدة ـ والإخلاص لله عز وجل.

الصـدق في المقـال: لا يقـول إلا مـا طـابق الواقـع، سواء على نفسه أو على غيره، فهو قائم بالقسـط على نفسه وعلى غيره، أبيه وأمه وأخيه وأخته.. وغيرهم.

الصدق في الفعـال: وهي أن تكـون أفعالـه مطابقـة لما جاء به النبي ومن صدق الفعال أن تكـون تابعـة عن إخلاص، فـإن لم تكن نابعــة عن إخلاص، لم تكن صــادقة لأن فعله يخالف قوله.

فالصديق إذاً من صدق في معتقده وإخلاصه وإرادته، وفي مقاله وفي فعاله.

وأفضل الصديقين على الإطلاق أبو بكـر رضـي اللـه عنه، لأن أفضل الأمم هذه الأمة، وأفضل هذه الأمـة بعـد نبيها أبو بكر رضي الله عنه.

والصديقية مرتبة تكـون للرجـال والنسـاء، قـال اللـه تعـالى في عيسـى ابن مـريم:]وأمـه صـديقة[[المائـدة: 75]، ويقال: الصـديقة بنت الصـديق عائشـة رضـي اللـه عنها، والله تعالى يمن على من يشاء من عباده.

والشـــــــــهداء[1] والصـــــــــــالحين[2] ....

(1) الشهداء قيل: هم الـذين قتلـوا في سـبيل اللـه، لقولـــه:]وليعلم اللـــه الـــذين أمنـــوا ويتخـــذ منكم شهداء[وقيل: العلماء، لقوله تعالى:]شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولـوا العلم[[آل عمـران: 18]، فجعـل أهل العلم شاهدين بمـا شـهد اللـه لنفسـه ولأن العلمـاء يشهدون للرسل بـالبلاغ وعلى الأمـة بـالتبليغ ولـو قـال قائــل: الآيــة عامــة لمن قتلــوا في ســبيل اللــه تعــالى وللعلمــاء، لأن اللفــظ صــالح للــوجهين، ولا يتنافيــان، فيكون شاملاً للذين قتلوا في سبيل الله وللعلماء الـذين شهدوا لله بالوحدانية وشـهدوا للنـبي بـالبلاغ وشـهدوا على الأمة بأنها بلغت.

(2) الصالحون يشمل كل الأنواع الثلاثة السابقة ومن دونهم في المرتبة، فالأنبياء صالحون، والصديقون صالحون، والشهداء صالحون، فعطفها من باب عطف العام على الخاص.

والصالحون هم الذين قاموا بحق الله وحق عباده، لكن لا على المرتبة السابقة ـ النبوة والصديقية والشهادة ـ، فهم دونهم في المرتبة.

هذا الصراط الذي جاءت به الرسل هو صراط هؤلاء الأصناف الأربعة، فغيرهم لا يمشون على ما جاءت به الرسل.

وقد دخل في هذه الجملة[1] ما وصف الله به نفسه في سورة[2] الإخلاص[3] التي تعدل ثلث القرآن[4]

....

(1) قوله: "دخل في هذه الجملة" يحتمل أنه يريد بها قوله: "وهو قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات" ويحتمل أن يريد ما سبق من أن أهل السنة والجماعة يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله، وأياً كان، فإن هذه السورة وما بعدها داخلة في ضمن ما سبق، من أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وأن أهل السنة يؤمنون بذلك.

(2): (السورة): هي عبارة عن آيات من كتاب الله مسورة، أي منفصلة عما قبلها وعما بعدها، كالبناء الذي أحاط به السور.

(3) إخلاص الشيء، بمعنى: تنقيته، يعني: التي نقيت ولم يشبهها شيء وسميت بذلك، قيل: لأنها تتضمن الإخلاص لله عز وجل، وأن من آمن بها، فهو مخلص فتكون بمعنى مخلصة لقارئها، أي أن الإنسان إذا قرأها مؤمناً بها، فقد أخلص لله عز وجل وقيل لأنها مخلصة ـ بفتح اللام ـ، لأن الله تعالى أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها شيئاً من الأحكام ولا شيئاً من الأخبار عن غيره، بل هي أخبار خاصة بالله والوجهان صحيحان، ولا منافاة بينهما.

(4) الدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه: "أيعجز أحدكم أن يقـرأ ثلث القـرآن في ليليـة؟". فشـق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقـال: "الله الواحد الصمد ثلث القرآن"[1].

فهـذه السـورة تعـدل ثلث القـرآن في الجـزاء لا في الإجزاء، وذلك كما ثبت عن النبي ﷺ أن: "من قـال: لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهـو على كل شيء قدير، عشر مرات فكأنما أعتق أربـع أنفس من بني إسماعيل"[2]، فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقـاب ممن وجب عليـه ذلـك وقـال هـذا الـذكر عشـر مـرات؟ فنقول: لا يجزئ. أما في الجزاء، فتعدل هـذا، كمـا قـال النبي عليه الصـلاة والسـلام، فلا يلـزم من المعادلـة في الجـزاء المعادلـة في الإجـزاء. ولهـذا، لـو قـرأ سـورة الإخلاص في الصـلاة ثلاث مـرات، لم تجزئـه عن قـراءة الفاتحة.

قـال العلمـاء: ووجـه كونهـا تعـدل ثلث القـرآن: أن مبـاحث القـرآن خـبر عن اللـه وخـبر عن المخلوقـات، وأحكام، فهذه ثلاثة:

1- خـبر عن اللـه: قـالوا: إن سـورة:]قـل هـو اللـه أحد[تتضمنه.

2- خبر عن المخلوقات، كالإخبار عن الأمم السـابقة، والإخبـــار عن الحـــوادث الحاضـــرة، وعن الحـــوادث المستقبلة.

3- والثالث: أحكام، مثـل: أقيمـوا، آتـوا، لا تشـركوا.. وما أشبه ذلك.

وهـذا هـو أ حسـمن مـا قيـل في كونهـا تعـدل ثلث القرآن.

حيث يقـــول]قل(1) هو(2) الله(3) أحد(4) اللـــه الصـــمد(5) ....

(1)]قل[: الخطاب لكل من يصح خطابه.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب فضائل القرآن/ باب فضل (قل هو الله أحد). ومسلم/ كتاب صلاة المسافرين/ باب فضل قراءة قل هو الله أحد.

[2] رواه البخاري/ كتاب الدعوات/ باب فضل التهليل. ومسلم/ كتاب الذكر والدعاء/ باب فضل التهليل.

وسبب نزول هذه السورة: أن المشركين قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: صف لنا ربك؟ فأنزل الله هذه السورة[1]، وقيل: بل اليهود هم الذين زعموا أن الله خلق من كذا ومن كذا مما يقولون من المواد، فأنزل الله هذه السورة[2]. سواء صح السبب أم لم يصح، فعلينا إذا سئلنا أي سؤال عن الله نقول:]الله أحد (1) الله الصمد[.

(2)]هو[: ضمير وأين مرجعه؟ قيل: إن مرجعه المسؤول عنه، كأنه يقول: الذي سألتم عنه الله وقيل: هو ضمير الشأن و]الله[: مبتدأ ثان و]أحد[: خبر المبتدأ الثاني، وعلى الوجه الأول تكون]هو[: مبتدأ،]الله[خبر المبتدأ،]أحد[: خبر ثان.

(3)]الله[: هو العلم على ذات الله، المختص بالله عز وجل، لا يتسمى به غيره وكل ما يأتي بعده من أسماء الله فو تابع له إلا نادراً، ومعنى]الله[: الإله، وإله بمعنى مألوه أي: معبود، لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، وكما في (الناس)، وأصلها: الأناس، وكما في: هذا خير من هذا، وأصله: أخير من هذا لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة، فالله عز وجل]أحد[.

(4)]أحد[: لا تأتي إلا في النفي غالباً أو في الإثبات في أيام الأسبوع، يقال: الأحد، الإثنين.. لكن تأتي في الإثبات موصوفاً بها الرب عز وجل لأنه سبحانه وتعالى أحد، أي: متوحد فيما يختص به في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله،]أحد[، لا ثاني له ولا نظير له ولا ند له.

(5)]الله الصمد[: هذه جملة مستأنفة بعد أن ذكر الأحدية ذكر الصمدية، وأتى بها بجملة معرفة في طرفيها، لإفادة الحصر، أي: الله وحده الصمد.

فما معنى الصمد؟

قيل: إن]الصمد[: هو الكامل، في علمه في قدرته، في حكمته، في عزته، في سؤدده، في كل صفاته. وقيل:]الصمد[: الذي لا جوف له، يعني لا أمعاء ولا بطن، ولهذا قيل: الملائكة صمد، لأنهم ليس لهم أجواف، لا

---

[1] رواه أحمد (5/133)، والواحدي في "أسباب النزول" (262).

[2] رواه الواحدي في "أسباب النزول" (262).

يـأكلون ولا يشـربون. هـذا المعـنى روي عن ابن عبـاس رضي اللـه عنهما[1] ولا ينـافي المعـنى الأول، لأنـه يـدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه، وقيل]الصمد[بمعــنى المفعول، أي: المصمود إليه، أي الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، بمعنى: تميل إليه وتنتهي إليه وترفـع إليـه حوائجها، فهو بمعنى الذي يحتاج إليه كل أحد.

هذه الأقاويل لا ينافي بعضها بعضاً فيما يتعلق باللــه عـز وجـل، ولهـذا نقـول: إن المعـاني كلهـا ثابتـة، لعـدم المنافاة فيما بينها.

ونفسره بتفسير جامع فنقول:]الصمد[: هـو الكامـل في صـفاته الـذي افتقـرت إليـه جميـع مخلوقاتـه، فهي صامدة إليه.

وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم في كلمـة]الصـمد[: أنه مستغن عن كل ما سواه، كامل في كل ما يوصف به، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه.

فلو قال لك قائل: إن الله استوى على العـرش، هـل اسـتواؤه على العـرش بمعـنى أنـه مفتقـر إلى العـرش بحيث لو أزيل لسقط؟ فـالجواب: لا، كلا، لأن اللـه صـمد كامل غير محتـاج إلى العـرش، بـل العـرش والسـماوات والكرسي والمخلوقات كلها محتاجة إلى الله، واللــه في غنى عنها فنأخذه من كلمة]الصمد[.

لو قال قائل: هل اللـه يأكـل أو يشـرب؟ أقـول: كلا، لأن الله صمد.

وبهذا نعرف أن]الصمد[كلمـة جامعـة لجميـع صـفات الكمال لله وجامعة لجميع صفات النقص في المخلوقات وأنها محتاجة إلى الله عز وجل.

لم يلـــــد ولم يولـــــد ولم يكن لـــــه كفـــــواً أحد[(1)..

(1) هـذا تأكيـد للصـمدية والوحدانيـة، وقلنـا: توكيـد، لأننا نفسهم هذا مما سبق فيكون ذكره توكيداً لمعنى ما سـبق وتقريـراً لـه، فهـو لأحديتـه وصـمديته لم يلـد، لأن الولـد يكـون على مثـل الوالـد في الخلقـة، في الصـفة وحتى الشبه.

---

(1) رواه ابن أبي عاصم في "السنة" (665).

لمـا جـاء مجـزز المـدلجي إلى زيـد بن حارثـة وابنـة أسامة، وهما ملتحفان ببرداء، قد بدت أقدامها، نظـــر إلى القـدمين. فقـال: إن هـذه الأقـدام بعضـها من بعض[2]. فعرف ذلك بالشبه.

فلكمال أحديته وكمال صمديته]لم يلد[والوالد محتاج إلى الولـد بالخدمـة والنفقـة ويعينـه عنـد العجـز ويبقي نسله.

]ولم يولد[، لأنه لو ولد، لكان مسـبوقاً بوالـد مـع أنـه جل وعلا هو الأول الذي ليس قبلـه شـيء، وهـو الخـالق وما سواه مخلوق، فكيف يولد؟

وإنكار أنه ولـد أبلـغ من العقـول من إنكـار أنـه والـد ولهذا لم يدع أحد أن لله ولداً.

وقد نفى الله هذا وهذا وبدأ ينفي الولد، لأهمية الرد على مدعيه بل قال:]ما اتخـذ اللـه من ولد[[المؤمنـون: 91]، حتى ولو بالتسمي، فهو لم يلد ولم يتخذ ولداً، بنـــو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولداً وهو لم يلـده بـالتبني أو بالولاية أو بغير ذلك، وإن كان التبـني غـير مشـروع، أمـا اللـه عـز وجـل، فلم يلـد ولم يولـد، ولمـا كـان يـرد على الذهن فرض أن يكـون الشـيء لا والـداً ولا مولـوداً لكنـه متولد، نفى هذا الوهم الذي قد يرد، فقال:]ولم يكن لـه كفواً أحد[، وإذا انتفى أن يكون له كفـواً أحـد، لـزم أن لا يكون متولداً]ولم يكن لـه كفـواً أحد[، أي: لا يكافئـه أحـد في جميع صفاته.

في هذه السورة: صفات ثبوتية وصفات سلبية:

الصـــفات الثبوتيـــة:]الله[الـــتي تتضـــمن الألوهيـــة،]أحد[تتضمن الأحدية]الصمد[تتضمن الصمدية.

والصفات السلبية:]لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن لـــه كفواً أحد[.

ثلاثـــة إثبـــات، وثلاث نفي وهـــذا النفي يتضـــمن من الإثبات كمال الأحدية والصمدية.

وما وصـف بـه نفسـه في أعظم آيـة في كتـاب الله[1] ....

---

[2] رواه البخاري/ كتاب الفرائض/ باب القائف. ومسلم/ كتاب الرضاع/ باب العمل بإلحاق القائف الولد.

(1) قوله:]وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب الله" وهذه الآية تسمى آية الكرسي، لأن فيها ذكر الكرسي:]وسع كرسيه السموات والأرض[[البقرة: 255]، وهي أعظم آية في كتاب الله.

والدليل على ذلك: أن النبي سأل أبي بن كعب، قال: "أي آية في كتاب الله أعظم؟" فقال له:]الله لا إله إلا هو الحي القيوم[فضرب على صدره، وقال: "ليهنك العلم أبا المنذر"[1].

يعني: أن النبي أقره بأن هذه أعظم آية في كتاب الله، وأن هذا دليل على علم أبي في كتاب الله عز وجل.

وفي هذا الحديث دليل على أن القرآن يتفاضل، كما دل عليه حديث سورة الإخلاص، وهذا موضع يجب فيه التفصيل، فإننا نقول: أما باعتبار المتكلم به، وهذا موضع يجب فيه التفصيل، فإننا نقول: أما باعتبار المتكلم به، فإنه لا يتفاضلن لأن المتكلم به واحد وهو الله عز وجل، وأما باعتبار مدلولاته وموضوعاته فإنه يتفاضل، فسورة الإخلاص التي فيها الثناء على الله عز وجل بما تضمنته من الأسماء والصفات ليست كسورة المسد التي فيها بيان حال أبي لهب من حيث الموضوع كذلك، يتفاضل من حيث التأثير والقوة في الأسلوب، فإن من الآيات ما تجدها آية قصيرة لكن فيها ردع قوي للقلب وموعظة، وتجد آية أخرى أطول منها بكثير لكن لا تشتمل على ما تشتمل عليه الأولى، فمثلاً قوله تعالى:]يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه[[البقرة: 282].. إلخ، هذه آية موضوعها سهل، والبحث فيها في معاملات تجري بين الناس وليس فيها ذاك التأثير الذي يؤثره مثل قوله تعالى:]كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[[آل عمران: 185]، فهذه تحمل معاني عظيمة، فيها زجر وموعظة وترغيب وترهيب، ليست كآية الدين مثلاً مع أن آية الدين أطول منها.

([1]) رواه مسلم/ كتاب صلاة المسافرين/ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

حيث يقــول:]اللــه لا إلــه إلا هو[1] الحي[2] القيــوم[3] ....

(1)]الله لا إله إلا هو[في هذه الآية يخـبر اللـه بأنـه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله:]لا إله إلا هو[، لأن هذه جملـة تفيـد الحصـر وطريقـة النفي والإثبـات هـذه من أقوى صيغ الحصر.

(2) أي: ذو الحياة الكاملـة المتضـمنة لجميـع صـفات الكمـال لم تسـبق بعـدم، ولا يلحقهـا زوال، ولا يعتريهـا نقص بوجه من الوجوه.

و]الحي[من أسماء الله، وقـد تطلـق على غـير اللـه، قال تعالى:]يخرج الحي من الميت[[الأنعـام: 95]، ولكن ليس الحي كـالحي، ولا يلـزم من الاشـتراك في الاسـم التماثل في المسمى.

(3)]القيــوم[على وزن فيعــول، وهــذه من صــيغ المبالغة، وهي مأخوذة من القيام.

ومعـنى]القيـوم[، أي: أنـه القـائم بنفسـه، فقيامـه بنفسـه يسـتلزم اسـتغناءه عن كـل شـيء، لا يحتـاج إلى أكل ولا شرب ولا غيرها، وغيره لا يقوم بنفسـه بـل هـو محتاج إلى الله عز وجل في إيجاده وإعداده وإمداده.

ومن معنى]القيوم[كذلك أنه قائم على غيره لقولـه تعالى]أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت[[الرعد: 33]، والمقابــل محــذوف تقــديره: كمن ليس كــذلك، والقـائم على كـل نفس بمـا كسـبت هـو اللـه عـز وجـل ولهذا يقول العلماء القيوم هو القائم على نفسه القائم على غـيره، وإذا كـان قائمـاً على غـيره، لـزم أن يكـون غيره قائمـاً بـه، قـال اللـه تعـالى:]ومن آياتـه أن تقـوم السـماء والأرض بــأمره[[الــروم: 25]، فهــو إذاً كامــل الصفات وكامل الملك والأفعال.

وهـذان الاسـمان همـا الاسـم الأعظم الـذي إذا دعي الله به أجاب ولهذا ينبغي للإنسان في دعائـه أن يتوسـل به، فيقول: يا حي! يا قيوم! وقد ذكرا في الكتاب العزيز في ثلاثـة مواضـع: هـذا أحـدها، والثـاني في سـورة آل عمران:]الله لا إله إلا هو الحي القيوم[[آل عمـران: 2]،

والثـالث سـورة طـه:]وعنت الوجـوه للحي القيـوم وقـد خاب من حمل ظلماً[[طه: 111].

هــذان الاســمان فيهمــا الكمــال الــذاتي والكمــال السلطاني، فالـذاتي في قولـه:]الحي[والسـلطاني في قوله:]القيوم[، لأنه يقوم على كل شيء ويقـوم بـه كـل شيء.

لا تأخـــــــــــذه ســـــــــــنة ولا نــــــــــوم[1] ....

(1) السنة النعـاس وهي مقدمـة النـوم ولم يقـل: لا ينام، لأن النوم يكون باختيار، والأخذ يكون بالقهر.

والنوم من صفات النقص، قـال النـبي عليـه الصـلاة والسلام:

"إن اللـه لا ينـام، ولا ينبغي لـه أن ينـام"[1] لنقصـها، لأنها تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب ســبق واستعادة القوة لعمـل مسـتقبل، ولمـا كـان أهـل الجنـة كاملي الحياة، كانوا لا ينامون، كما صحت بذلك الآثار.

لكن لو قال قائل: النوم في الإنسـان كمـال، ولهـذا، إذا لم ينم الإنســان، عــد مريضــاً. فنقــول: كالأكـل في الإنسان كمال ولو لم يأكل، عـد مريضـاً لكن هـو ك مـال من وجه ونقص من وجه آخـر، كمـال لدلالتـه على صـحة البدن واستقامته ونقص لأن البدن محتاج إليه، وهـو في الحقيقة نقص.

إذاً ليس كـل كمـال نسـبي بالنسـبة للمخلـوق يكـون كمالاً للخالق، كما أنه ليس كـل كمـال في الخـالق يكـون كمالاً في المخلوق، فالتكبر كمـال في الخـالق نقص في المخلـوق والأكـل والشـرب والنـوم كمـال في المخلـوق نقص في الخالق، ولهذا قال الله تعالى عن نفسه:]وهو يطعم ولا يطعم[[الأنعام: 14].

لــــه مــــا في الســــموات ومــــا في الأرض[1] ....

(1) قوله:]له ما في السموات وما في الأرض[:]له[: خــبر مقــدم.]وما[: مبتــدأ مــؤخر، ففي الجملــة حصــر، طريقة تقديم ما حقة التأخير وهو الخبر.]له[: اللام هـذه

---

(1) رواه مسلم/ كتاب الإيمان/ باب قوله عليه السلام: "إن الله لا ينام........".

للملك. ملك تام، بدون معارض.]ما في السموات[: من الملائكة والجنة وغير ذلك مما لا نعلمه]وما في الأرض[: من المخلوقات كلها الحيوان منها وغير الحيوان.

وقوله:]السموات[: تفيد أن السماوات عديدة، وهو كذلك وقد نص القرآن على أنها سبع]قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم[[المؤمنون: 86].

والأرضون أشار القرآن إلى أنها سبع بدون تصريح، وصرحت، بها السنة، قال الله تعالى]الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن[[الطلاق: 12]، مثلهن في العدد دون الصفة وفي السنة قال النبي عليه الصلاة والسلام: "من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً، طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين"[1].

من ذا[1] الذي يشفع[2] عنده[3] إلا بإذنه[4] ....

(1)]من ذا[اسم استفهام أو نقول:]من[اسم استفهام، و]ذا[: ملغاة، ولا يصح أن تكون]ذا[: اسماً موصولاً في مثل هذا التركيب، لأنه يكون معنى الجملة: من الذي الذي! وهذا لا يستقيم.

(2) الشفاعة في اللغة: جعل الوتر شفعاً، قال تعالى:]والشفع والوتر[[الفجر: 3]. وفي الاصطلاح: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، فمثلاً: شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم: هذه شفاعة بدفع مضرة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة.

(3) أي: عند الله.

(4) أي: إذنه له وهذه تفيد إثبات الشفاعة، لكن بشرط أن يأذن ووجه ذلك أنه لولا ثبوتها، لكان الاستثناء في قوله]إلا بإذنه[: لغواً لا فائدة فيه.

وذكرها بعد قوله:]له ما في السموات...[يفيد أن هذا الملك الذي هو خاص بالله عز وجل، أنه ملك تام السلطان، بمعنى أنه لا أحد يستطيع أن يتصرف، ولا

---

[1] رواه البخاري/ كتاب المظالم/ باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، ومسلم/ كتاب المساقاة/ باب تحريم الظلم وغصب الأرض.

بالشفاعة التي هي خـير، إلا بـإذن اللـه، وهـذا من تمـام ربوبيته وسلطانه عز وجل.

وتفيـد هـذه الجملـة أن لـه إذنـاً والإذن في الأصـل الإعلام، قـــال اللـــه تعـــالى:]وأذان من اللـــه ورسوله[[التوبة: 3]، أي إعلام من الله ورسوله، فمعنى]بإذنه[، أي: إعلامه بأنه راض بذلك.

وهناك شروط أخرى للشفاعة: منها: أن يكون راضياً عن الشـافع وعن المشـفوع لـه، قـال اللـه تعـالى:]ولا يشفعون إلا لمن ارتضى[[الأنبياء: 28]، وقال:]يومئـذ لا تنفــع الشــفاعة إلا من أذن لــه الــرحمن ورضــي لــه قولاً[[طه: 109].

وهناك آية تنتظم الشروط الثلاثة]وكم من ملــك في السموات لا تغـني شـفاعتهم شـيئاً إلا من بعـد أن يـأذن اللــه لمن يشــاء ويرضى[[النجم: 26]، أي: يرضــى عن الشـافع والمشـفوع لـه، لأن حـذف المعمـول يـدل على العموم.

إذا قال قائل: ما فائدة الشفاعة إذا كان اللـه تعـالى قد علم أن هذا المشفوع له ينجو؟

فالجواب: أن اللـه سـبحانه وتعـالى يـأذن بالشـفاعة لمن يشفع من أجل أن يكرمه وينال المقام المحمود.

يعلم مــا بين أيــديهم ومــا خلفهم[1] ولا يحيطــون بشيء[2] ....

(1) العلم هو إدراك الشيء على ما هـو عليـه إدراكـاً جازماً، والله عز وجل]يعلم مـا بين أيـديهم[المسـتقبل،]وما خلفهم[الماضي، وكلمة]ما[من صيغ العموم تشمل كل ماض وكل مستقبل، وتشمل أيضاً مـا كـان من فعلـه وما كان من أفعال الخلق.

(2) الضمير في]يحيطون[يعود على الخلق الـذي دل عليهم قوله:]له ما في السموات وما في الأرض[، يعـني لا يحيط من في السماوات والأرض بشـيء من علم اللـه إلا بما شاء.

من علمه[1] إلا بما شـاء[2] وسـع كرسـيه[3] السـموات والأرض[4]......................

(1) يحتمل من علم ذاته وصفاته، يعـني: أننـا لا نعلم شيئاً عن الله وذاته وصفاته إلا بما شـاء ممـا علمنـا إيـاه ويحتمل أن (علم) هنا بمعنى معلوم، يعـني: لا يحيطـون بشيء من معلومـه، أي: ممـا يعلمـه، إلا بمـا شـاءه، وكلا المعنيين صحيح وقد نقول: إن الثـاني أعم، لأن معلومـه يدخل فيه علمه بذاته وبصفاته وبما سوى ذلك.

(2) يعني إلا بما شاء مما علمهم إياه، وقد علمنا الله تعـالى أشـياء كثـيرة عن أسـمائه وصـفاته وعن أحكامـه الشرعية، ولكن هذا الكثير هـو بالنسـبة لمعلومـه قليـل، كما قال الله تعالى:]ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[[الإسراء: 85].

(3) بمعـــنى شـــمل، يعـــني: أن كرســـيه محيـــط بالسماوات والأرض، وأكبر منهـا، لأنـه لـولا أنـه أكـبر مـا وسعها.

(4) الكرسـي، قـال ابن عبـاس رضـي اللـه عنهما[1]: "إنه موضع قدمي الله عز وجل"، وليس هو العـرش، بـل العرش أكبر من الكرسي وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسـلام: "أن السـماوات والسـبع والأرضـين السـبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وأن فضـل العـرش على الكرسـي كفضـل الفلاة على هـذه الحلقة"[1].

هذا يدل على عظم هذه المخلوقات وعظم المخلـوق يدل على عظم الخالق.

ولا يـــــــــؤوده حفظهما[1] وهـــــــــو العلي[2] ....

(1) يعني: لا يثقله ويكرثه حفظ السماوات والأرض.

---

[1] رواه عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب "السنة" (586)، وابن أبي شيبة في كتاب "العرش" (61)، وابن خزيمة في "التوحيد" (248)، والحاكم في "المستدرك" (2/282) وقال: صحيح عن شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورواه الـدارقطني في كتـاب "الصـفات" (36) عن ابن عبـاس موقوفـاً عليـه، وعـزاه الهيثمي في "مجمع الزوائـد" (6/323) للطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في "مختصر العلـو" (45): إسـناده صـحيح، رجاله كلهم ثقات.

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب "العرش" رقم (58)، والبيهقي في "الأسـماء والصـفات" (862) من حـديث أبي ذر رضي الله عنه، وابن مردويه كما عند ابن كثير (1/309) والحديث صححه الألباني في السلسة الصحيحة بـرقم (109) وقال: إنه لا يصح حديث مرفوع عن النبي في صفة العرش إلا هذا الحديث.

وهذه من الصـفات المنفيـة، والصـفة الثبوتيـة الـتي يدل عليها هـذا النفي هي كمـال القـدرة والعلم والقـوة والرحمة.

(2)]العلي[على وزن فعيل، وهي صفة مشبهة، لأن علوه عز وجل لازم لذاته، والفـرق بين الصـفة المشـبهة واسم الفاعل أن اسم الفاعل طارئ حادث يمكن زواله، والصفة المشبهة لازمة لا ينفك عنها الموصوف.

وعلو الله عز وجل قسمان: علو ذات، وعلو صفات:

فأما علو الذات، فإن معناه أنه فوق كل شيء بذاتــه، ليس فوقه شيء ولا حذاءه شيء.

وأما علـو الصـفات، فهي مـا دل عليـه قولـه تعـالى:]ولله المثل الأعلى[[النحل: 60]، يعني: أن صـفاته كلهـا علياً، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه.

العظيم[1]...

(1)]العظيم[، أيضــاً صــفة مشــبهة، ومعناهــا: ذو العظمة، وهي القوة والكبريـاء ومـا أشـبه ذلـك ممـا هـو معروف من مدلول هذه الكلمة.

وهذه الآية تتضمن من أسماء الله خمسة وهي: الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم.

وتتضمن من صفات اللـه سـتاً وعشـرين صـفة منهـا خمس صفات تضمنتها هذه الأسماء.

السادسة: انفراده بالألوهية.

السابعة: انتفاء السنة والنوم في حقه، لكمال حياتـه وقيوميته.

الثامنة: عموم ملكه، لقوله:]له ما في السموات وما في الأرض[.

التاسعة: انفارد اللـه عـز وجـل بالملـك، ونأخـذه من تقديم الخبر.

العاشرة: قوة السلطان وكماله، لقوله:]من ذا الـذي يشفع عنده إلا بإذنه[.

الحادية عشـرة: إثبـات العنديـة، وهـذا يـدل على أنـه ليس في كل مكان، ففيه الرد على الحلولية.

الثانية عشرة: إثبات الإذن من قوله:]إلا بإذنه[.

الثالثة عشرة: عموم علم الله تعالى لقوله:]يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم[.
الرابعة عشرة والخامسة عشرة: أنه سبحانه وتعالى لا ينسى ما مضى، لقوله:]وما خلفهم[ولا يجهل ما يستقبل، لقوله]ما بين أيديهم[.
السادسة عشرة: كمال عظمة الله، لعجز الخلق عن الإحاطة به.
السابعة عشرة: إثبات الكرسي، وهو موضع القدمين.
التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون: إثبات العظمة والقوة والقدرة، لقوله:]وسع كرسيه السموات والأرض[، لأن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق.
الثانية والثالثة والرابعة والعشرون: كمال علمه ورحمته وحفظه، من قوله:]ولا يئوده حفظهما[.
الخامسة والعشرون: إثبات علو الله لقوله:]وهو العلي[ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى عال بذاته، وأن علوه من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية.
وخالف أهل السنة في ذلك طائفتان: طائفة قالوا: إن الله بذاته في كل مكان وطائفة قالوا: إن الله ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا في العالم ولا يمين ولا شمال ولا منفصل عن العالم ولا متصل.
والذين قالوا بأنه في كل مكان استدلوا بقول الله تعالى:]وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا[[المجادلة: 7]، واستدلوا بقوله تعالى:]هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير[[الحديد: 4]، وعلى هذا، فليس عالياً بذاته، بل العلو عندهم علو صفة.

أما الذين قالوا: إنه لا يوصف بجهة، فقالوا: لأننا لو وصفناه بذلك، لكان جسماً، والأجسام متماثلة، وهذا يستلزم التمثيل وعلى هذا، فننكر أن يكون في أي جهة.
ولكننا نرد على هؤلاء وهؤلاء من وجهين:
الوجه الأول: إبطال احتجاجهم.
والثاني: إثبات نقيض قولهم بالأدلة القاطعة.
1- أما الأول، فنقول لمن زعموا أن الله بذاته في كل مكان: دعواكم هذه دعوى باطلة يردها السمع والعقل:
- أما السمع، فإن الله تعالى أثبت لنفسه أنه العلي والآية التي استدللتم بها لا تدل على ذلك، لأن المعية لا تستلزم الحلول في المكان، ألا ترى إلى قول العرب: القمر معنا، ومحله في السماء؟ ويقول الرجل: زوجتي معي، وهو في المشرق وهي في المغرب؟ ويقول الضابط للجنود: اذهبوا إلى المعركة وأنا معكم، وهو في غرفة القيادة وهم في ساحة القتال؟ فلا يلزم من المعية أن يكون الصاحب في مكان المصاحب أبداً، والمعية يتحدد معناها بحسب ما تضاف إليه، فنقول أحياناً: هذا لبن معه ماء وهذه المعية اقتضت الاختلاط. ويقول الرجل متاعي معي، وهو في بيته غير متصل به، ويقول: إذا حمل متاعه معه: متاعي معي وهو متصل به. فهذه كلمة واحدة لكن يختلف معناها بحسب الإضافة، فبهذا نقول: معية الله عز وجل لخلقة تليق بجلاله سبحانه وتعالى، كسائر صفاته، فهي معية تامة حقيقية، لكن هو في السماء.
- وأما الدليل العقلي على بطلان قولهم، فنقول: إذا قلت: إن الله معك في كل مكان، فهذا يلزم عليه لوازم باطلة، فيلزم عليه:
أولاً: إما التعدد أو التجزؤ، وهذا لازم باطل بلا شك، وبطلان اللازم يدل على بطلان اللزوم.
ثانياً: نقول: إذا قلت: إنه معك في الأمكنه، لزم أن يزداد بزيادة الناس، وينقص بنقص الناس.

ثالثاً: يلزم على ذلك ألا تنزهه عن المواضع القذرة، فإذا قلت: إن الله معك وأنت في الخلاء فيكون هذا أعظم قدح في الله عز وجل.

فتبين بهذا أن قولهم مناف للسمع ومناف للعقل، وأن القرآن لا يدل عليه بأي وجه من الدلالات، لا دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام أبداً.

2- أما الآخرون، فنقول لهم:

أولاً: إن نفيكم للجهة يستلزم نفي الرب عز وجل، إذ لا نعلم شيئاً لا يكون فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال، ولا متصل ولا منفصل، إلا العدم، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا صفوا الله بالعدم ما وجدنا أصدق وصفاً للعدم من هذا الوصف.

ثانياً: قولكم: إثبات الجهة يستلزم التجسيم! نحن نناقشكم في كلمة الجسم:

ما هذا الجسم الذي تنفرون الناس عن إثبات صفات الله من أجله؟!

أتريدون بالجسم الشيء المكون من أشياء مفتقر بعضها إلى بعض لا يمكن أن يقوم إلى باجتماع هذه الأجزاء؟! فإن أردتم هذا، فنحن لا نقره، ونقول: إن الله ليس بجسم بهذا المعنى، ومن قال: إن إثبات علوه يستلزم هذا الجسم، فقوله مجرد دعوى ويكفينا أن نقول: لا قبول.

أما إن أردتم بالجسم الذات القائمة بنفسها المتصفة بما يليق بها، فنحن نثبت ذلك، ونقول: إن لله تعالى ذاتاً، وهو قائم بنفسه، متصف بصفات الكمال، وهذا هو الذي يعلم به كل إنسان.

وبهذا يتبين بطلان قول هؤلاء الذين أثبتوا أن الله بذاته في كل مكان، أو أن الله تعالى ليس فوق العالم ولا تحته ولا متصل ولا منفصل ونقولك هو على عرشه استوى عز وجل.

أما أدلة العلو التي يثبت بها نقيض قول هؤلاء وهؤلاء، والتي تثبت ما قاله أهل السنة والجماعة، فهي أدلة كثيرة لا تحصر أفرادها، وأما أنواعها، فهي خمسة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

- أما الكتاب، فتنوعت أدلته على علـو اللـه عـز وجـل منهـا التصـريح بـالعلو والفوقيـة وصـعود الأشـياء إليـه ونزولها منه وما أشبه ذلك.

- أما السنة، فكذلك، فتنوعت دلالتها، واتفقت السنة بأصنافها الثلاثة على علو الله بذاته، فقـد ثبت علـو اللـه بذاته في السنة من قول الرسول وفعله وإقراراه.

- أما الإجماع، فقد أجمع المسلمون قبل ظهور هـذه الطوائف المبتدعة على أن الله تعالى مستو على عرشه فوق خلقه.

قال شيخ الإسـلام: "ليس في كلام اللـه ولا رسـوله، ولا كلام الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ما يدل لا نصاً ولا ظاهراً على أن الله تعـالى ليس فـوق العـرش وليس في السماء، بل كل كلامهم متفق على أن الله فوق كـل شيء".

وأما العقـل، فإننـا نقـول: كـل يعلم أن العلـو صـفة كمال، وإذا كان صفة كمال، فإنه يجب أن يكون ثابتاً لله، لأن الله متصف بصـفات الكمـال، ولـذلك نقولـك إمـا أن يكــون اللــه في أعلى أو في أســف أو في المحــاذي، فالأســفل والمحــاذي ممتنــع، لأن الأســفل نقص في معناه، والمحاذي نقص لمشابهة المخلوق ومماثلته، فلم يبق إلا العلو، وهذا وجه آخر في الدليل العقلي.

- وأما الفطـرة، فإننـا نقـول: مـا من إنسـان يقـول: يارب! إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو.

فتطابقت الأدلة الخمسة.

وأما علو الصفات، فهو محل إجماع من كل من يدين أو يتسمى بالإسلام.

السادسة والعشرون: إثبـات العظمـة للـه عـز وجـل، لقوله:]العظيم[.

ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلـة، لم يـزل عليـه من الله حافظ ولا يقربه شـيطان حـتى يصـبح[1]، وقولـه سبحانه[2]..

(1) هــذا طــرف من حــديث رواه البخــاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في قصـة اسـتحفاظ النـبي إيـاه

على الصدقة، وأخذ الشيطان منها وقوله لأبي هريرة: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي]الله لا إله إلا هو الحي القيوم[حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فأخبر أبو هريرة النبي بذلك، فقال: "إنه صدقك، وهو كذوب"[1].

(2) هذا معطوف على (سورة) في قول المؤلف: "ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص".

]هو الأول والآخر والظاهر والباطن[1] ....

(1)]الأول والآخر والظاهر والباطن[: هذه أربعة أسماء كلها متقابلة في الزمان والمكان، تفيد إحاطة الله سبحانه وتعالى بكل شيء أولاً وآخراً وكذلك في المكان ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية.

]الأول[: فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "الذي ليس قبله شيء"[2].

وهنا فسر الإثبات بالنفي فجعل هذه الصفة الثبوتية صفة سلبية، وقد ذكرنا فيما سبق أن الصفات الثبوتية أكمل وأكثر، فلماذا؟

فنقول: فسرها النبي بذلك، لتوكيد الأولية، يعني أنها مطلقة، أولية ليست أولية إضافية، فيقال: هذا أول باعتبار ما بعده وفيه شيء آخر قبله، فصار تفسيرها بأمر سلبي أدل على العموم باعتبار التقدم الزمني.

]والآخر[: فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "الذي ليس بعده شيء"، ولا يتوهم أن هذا يدل على غاية لآخريته، لأن هناك أشياء أبدية وهي من المخلوقات، كالجنة والنار، وعليه فيكون معنى]الآخر[أنه محيط بكل شيء، فلا نهاية لآخريته.

]والظاهر[: من الظهور وهو العلو، كما قال تعالى:]هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله[[التوبة: 33]، أي: ليعليه، ومنه ظهر الدابة لأنه عال عليها، ومنه قوله تعالى:]فما اسطاعوا أن يظهروه[[الكهف: 97]، أي يعلوا عليه، وقال النبي عليه

---

[1] تقدم تخريجه ص 111.

[2] رواه مسلم/ كتاب الذكر والدعاء/ باب ما يقوم عند النوم.

الصلاة والسلام في تفسيرها: "الذي ليس فوقه شيء"، فهو عال على كل شيء.

]والباطن[: فسره النبي عليه الصلاة والسلام قال: "الذي ليس دونه شيء" وهذا كناية عن إحاطته بكل شيء، ولكن المعنى أنه مع علوه عز وجل، فهو باطن، فعلوه لا ينافي قربه عز وجل، فالباطن قريب من معنى القريب.

تأمل هذه الأسماء الأربعة، تجد أنها متقابله، وكلها خبر عن مبتدأ واحد لكن بواسطة حرف العطف والأخبار بواسطة حرف العطف أقوى من الأخبار بدون واسطة حرف العطف، فمثلاً:]وهو الغفور الودود (14) ذو العرش المجيد (15) فعال لما يريد[[البروج: 14-16]: هي أخبار متعددة بدون حرف العطف لكن أحياناً تأتي أسماء الله وصفاته مقترنة بواو العطف وفائدتها:

أولاً: توكيد السابق، لأنك إذا عطفت عليه، جعلته أصلاً، والأصل ثابت.

ثانياً: إفادة الجمع ولا يستلزم ذلك تعدد الموصوف، أرأيت قوله تعالى:]سبح اسم ربك الأعلى (1) الذي خلق فسوى (2) والذي قدر فهدى[[الأعلى: 1-3] فالأعلى الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى.

فإذا قلت: المعروف أن العطف يقتضي المغايرة.

فالجواب: نعم، لكن المغايرة تارة تكون بالأعيان، وتارة تكون بالأوصاف، وهذا تغاير أوصاف، على ان التغاير قد يكون لفظياً غير معنوي مثل قول الشاعر:

فألقى قولها كذباً ومينا

فالمين هو الكذب ومع ذلك عطفه عليه، لتغاير اللفظ والمعنى واحد، فالتغاير إما عيني أو معنوي أو لفظي وفلو قلت: جاء زيد وعمرو وبكر وخالد، لاتغاير عيني، لو قلت: جاء زيد الكريم والشجاع والعالم، فالتغاير معنوي، ولو قلت: هذا الحديث كذب مين، فالتغاير لفظي.

واستفدنا من هذه الآية الكريمة إثبات أربعة أسماء لله، وهي الأول والآخر والظاهر والباطن.

واستفدنا منها خمس صفات: الأولية، والآخرية، والظاهرية، والباطنية وعموم العلم.

واستفدنا من مجموع الأسماء: إحاطة الله تعالى بكل شيء زمناً ومكاناً، لأنه قد يحصل من اجتماع الأوصاف زيادة صفة.

فإذا قال قائل: هل هذه الأسماء متلازمة، بمعنى أنك إذا قلت: الأول، فلابد أن تقول: الآخر، أو: يجوز فصل بعضها عن بعض؟!

فالظاهر أن المتقابل منها متلازم، فإذا قلت: الأول، فقل: الآخر، وإذا قلت: الظاهر، فقل: الباطن، لئلا تفوت صفة المقابلة الدالة على الإحاطة.

]وهو بكل شيء عليم[(1) ....

(1) هذا إكمال لما سبق من الصفات الأربع، يعني: ومع ذلك، فهو بكل شيء عليم.

وهذه من صيغ العموم التي لم يدخلها تخصيص أبداً، وهذا العموم يشمل أفعاله وأفعال العباد الكليات والجزئيات، يعلم ما يقع وما سيقع ويشمل الواجب والممكن والمستحيل، فعلم الله تعالى واسع شامل محيط لا يستثنى منه شيء، فأما علمه باواجب، فكعلمه بنفسه وبما له من الصفات الكاملة، وأما علمه بالمستحيل، فمثل قوله تعالى:]لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[[الأنبياء: 22]، وقوله:]إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له[[الحج: 73]، وأما علمه بالممكن، فكل ما أخبر الله به عن المخلوقات، فهو من الممكن:]يعلم ما تسرون وما تعلنون[[النحل: 19].

إذاً، فعلم الله تعالى محيط بكل شيء.

والثمرة التي ينتجها الإيمان بأن الله بكل شيء عليم: كمال مراقبة الله عز وجل وخشيته، بحيث لا يفقده حيث أمره، ولا يراه حيث نهاه.

وقوله سبحانه:]وتوكل(1) ....

(1) التوكل: مأخوذ من وكـل الشـيء إلى غـيره، أي: فوضه إليه، فالتوكل على الغير، بمعنى: التفويض إليه.
وعـرف بعض العلمـاء التوكـل على اللـه بأنـه: صـدق الاعتماد على الله في جلب المنـافع ودفـع المضـار، مـع الثقة به سبحانه وتعالى، وفعل الأسباب الصحيحة.
وصدق الاعتماد: أن تعتمد على اللـه اعتمـاداً صـادقاً، بحيث لا تسأل إلا الله، ولا تستعين إلا بالله، ولا ترجـو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، تعتمـد على اللـه عـز وجـل بجلب المنافع ودفع المضار، ولا يكفي هذا الاعتماد دون الثقـة به وعل السبب الذي أذن به، بحيث إنك واثق بـدون تـردد مع فعل السبب الذي أذن فيه.
فمن لم يعتمـد على اللـه واعتمـد على قوتـه، فإنـه يخذل، ودليل ذلك ما وقع للصحابة مع نبيهم محمـد في غزوة حنين، حين قال الله عز وجـل:]لقـد نصـركم اللـه في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم[، حيث قــالوا: لن نغلب اليــوم من قلــة،]فلم تغن عنكم شــيئاً وضاقت عليكم الأرض بمـا رحبت ثم وليتم مـدبرين (25) ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها[[التوبة: 25-26].
ومن توكـل على اللـه، ولكن لم يفعـل السـبب الـذي أذن الله فيه، فهو غير صادق، بل إن عدم فعل الأســباب سفه في العقل ونقص في الدين، لأنه طعن واضــح في حكمة الله.
والتوكل على الله هو شطر الدين، كمـا قـال تعـالى:]إياك نعبد وإياك نستعين[[الفاتحة: 5]، والاستعانة باللـه تعـالى هي ثمـرة التوكـل،]فاعبـده وتوكـل عليه[[هـود: 123].
ولهذا، فإن من توكل على غير الله لا يخلو من ثلاثــة أقسام:
أولاً: أن يتوكل توكل اعتماد وتعبد، فهذا شرك أكــبر، كأن يعتقد بأن هذا المتوكل عليه هو الـذي يجلب لـه كـل خير ويدفع عنه كل شر، فيفوض أمره إليه تفويضاً كاملاً في جلب المنافع ودفع المضار، مع اقتران ذلك بالخشية

والرجاء، ولا فرق بين أن يكون المتوكل عليه حياً أو ميتاً، لأن هذا التفويض لا يصح إلا الله.

ثانياً: أن يتوكل على غير الله بشيء من الاعتماد لكن فيه إيمان بأنه سبب وأن الأمر إلى الله، كتوكل كثير من الناس على الملوك والأمراء في تحصيل معاشهم، فهذا نوع من الشرك الأصغر.

ثالثاً: أن يتوكل على شخص على أنه نائب عنه، وأن هذا المتوكل فوقه، كتوكل الإنسان على الوكيل في بيع وشراء ونحوهما مما تدخله النيابة، فهذا جائز، ولا ينافي التوكل على الله، وقد وكل النبي أصحابه في البيع والشراء ونحوهما.

على الحي الذي لا يموت[[1] وقوله:]وهو العليم[2] الحكيم[3][......................

(1) قوله:]على الحي الذي لا يموت[: يقولون: إن الحكم إذا علق بوصف، دل على عليه ذلك الوصف.

لو قال قائل: لماذا لم تكن الآية: وتوكل على القوي العزيز، لأن القوة والعزة أنسب فيما يبدو؟!

فالجواب: أنه لما كانت الأصنام التي يعتمد عليها هؤلاء بمنزلة الأموات: كما قال تعالى:]والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون (20) أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون[[النحل: 20-21]، فقال توكل على من ليس صفته كصفة هذه الأصنام وهو الحي الذي لا يموت، على أنه قال في آية أخرى]وتوكل على العزيز الرحيم[[الشعراء: 217]، لأن العزة أنسب في هذا السياق.

ووجه آخر: أن الحي اسم يتضمن جميع الصفات الكاملة في الحياة، ومن كمال حياته عز وجل أنه أهل لأن يعتمد عليه.

وقوله]لا يموت[، يعني لكمال حياته لا يموت فيكون تعلقها بما قبلها المقصود به إفادة أن هذه الحياة كاملة لا يحلقها فناء.

في هذه الآية من أسماء الله: الحي، وفيها من صفاته: الحياة، وانتفاء الموت المتضمن لكمال الحياة، ففيها صفتان واسم.

(2) سبق تعريف العلم، وسبق أن العلم صفة كمال وسبق أن علم الله محيط بكل شيء.

(3)]الحكيم[هذه المادة (ح ك م): تدل على حكم وإحكام، فعلى الأول يكون الحكيم بمعنى الحاكم، وعلى الثاني يكون الحكيم بمعنى المحكم، إذاً: يدل هذا الاسم الكريم على أن الحكم لله، ويدل على أن الله موصوف بالحكمة، لأن الإحكام هو الإتقان، والإتقان وضع الشيء في موضعه. ففي الآية إثبات حكم وإثبات حكمة:

فالله عز وجل وحده هو الحاكم، وحكم الله إما كوني وإما شرعي:

فحكم الله الشرعي ما جاءت به رسله ونزلت به كتبه من شرائع الدين.

وحكم الله الكوني: ما قضاه على عباده من الخلق والرزق والحياة والموت ونحو ذلك من معاني ربوبيته ومتقتضياتها.

دليل الحكم الشرعي: قوله تعالى في سورة الممتحنة:]ذلكم حكم الله يحكم بينكم[[الممتحنة: 10].

ودليل الحكم الكوني: قوله تعالى عن أحد أخوة يوسف:]فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين[[يوسف: 80].

وأما قوله تعالى:]أليس الله بأحكم الحاكمين[، فشامل للكوني والشرعي، فالله عز وجل حكيم بالحكم الكوني وبالحكم الشرعي، وهو أيضاً محكم لهما، فكل من الحكمين موافق للحكمة.

لكن من الحكمة ما نعلمه، ومن الحكمة مالا نعلمه، لأن الله تعالى يقول:]وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً[.

ثم الحكمة نوعان:

الأول: حكمة في كون الشيء على كيفيته وحاله التي هو عليها، كحال الصلاة، فهي عبادة كبيرة تسبق بطهارة من الحدث والخبث وتؤدى على هيئة معينة من قيام وقعود وركوع وسجود، وكالزكاة، فهي عبادة لله تعالى بأداء جزء من المال النامي غالباً لمن هم في حاجة إليها، أو في المسلمين حاجة إليهم كبعض المؤلفة قلوبهم.

النـوع الثـاني: حكمـة في الغايـة من الحكم، حيث إن جميع أحكام الله تعالى لها غايات حميدة وثمرات جليلة.

فانظر إلى حكمة الله في حكمه الكوني، حيث يصيب الناس المصائب العظيمة لغايـات حميـدة، كقولـه تعـالى]ظهر الفساد في الـبر والبحـر بمـا كسـبت أيـدي النـاس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون[[الـروم: 41]، ففيها رد لقول من يقول: إن أحكـام اللـه تعـالى ليسـت لحكمة، بل هي لمجرد مشيئته.

وفي هــذه الآيــة من أســماء اللــه: العليم، والحكيم. ومن صفاته: العلم والحكمة.

وفيهـا من الفوائـد المسـلكية: أن الإيمـان بعلم اللـه وحكمته يستلزم الطمأنينة التامة لما حكم بـه من أحكـام كونية وشرعية، لصدور ذلك عن علم وحكمة، فيزول عنه القلق النفسي وينشرح صدره.

وقولـــــــــه:]وهـــــــــو العليم[1] الخبـــــــــير[2] [..

(1) العليم: سبق الكلام فيه.

(2) الخبـير: هـو العليم ببـواطن الأمـور فيكـون هـذا وصـفاً أخص بعـد وصـف أعم، فنقـول: العليم بظـواهر الأمور، والخبير ببواطن الأمـور، فيكـون العلم بـالبواطن مـذكوراً مـرتين: مـرة بطريـق العمـوم، ومـرة بطريـق الخصوص، لئلا يظن أن علمه مختص بالظواهر.

وكمـا يكـون هـذا في المعـاني يكـون في الأعيـان، فمثلاً:]نـزل الملائكـة والـروح فيها[[القـدر: 4]: الـروح جبريــل، وهــو من الملائكــة فنقــول: الملائكــة ومنهم جبريـل، وخص جبريـل بالـذكر تشـريفاً لـه ويكـون النص عليه مرتين: مرة بالعموم، ومرة بالخصوص.

وفي هــذه الآيــة من أســماء اللــه تعــالى: العليم، والخبير ومن صفاته: العلم، والخبرة.

وفيها من الفوائد المسلكية: أن الإيمـان بـذلك يزيـد المرء خوفاً من الله وخشية، سراً وعلناً.

]يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما يـنزل من السماء وما يعرج فيها[[سبأ: 2].

]وعنده مفـاتح الغيب لا يعلمهـا إلا هـو ويعلم مـا في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمهـا ولا حبـة في ظلمـــات الأرض ولا رطب ولا يـــابس إلا في كتـــاب مبين[[الأنعام: 59].

وقولـــه:]ومـــا تحمـــل من أنـــثى ولا تضـــع إلا بعلمه[[فاطر: 11].

وقوله:]لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قـــد أحـــاط بكـــل شـــيء علمـــاً[[الطلاق: 12]"[1]

....

(1) هذه الآيات في تفصيل صفة العلم:

الآيــة الأولى: قولــه:]يعلم مــا يلج في الأرض ومــا يخرج منها وما ينزل من السـماء ومـا يعـرج فيها[[سـبأ: 2]:

هذه تفصيل لما سبق من عموم علمه تعالى.

]ما[: اسـم موصـول يفيـد العمـوم، كـل مـا يلج في الأرض مثــل المطــر والحب يبــذر في الأرض والمــوتى والدود والنمل وغيره]وما يخرج منها[، كالماء والـزروع.. ومـا أشـبه ذلـك]ومـا يـنزل من السـماء[، مثـل المطـر والوحي والملائكة وأمر الله عز وجـل،]ومـا يعـرج فيها[، كالأعمال الصالحة والملائكة والأرواح والدعاء.

وهنا قال]وما يعرج فيها[، فعدى الفعل بـ(في) وفي ســورة المعــارج قــال:]تعــرج الملائكــة والــروح إليه[[المعارج: 4]، فعداه بـ إلى، وهـذا هـو الأصـل، فمـا وجه ونه عدى بـ (في) في قوله:]يعرج فيها[؟

فالجواب: اختلف نحاة البصرة والكوفة في مثل هذا، فقال نحاة البصـرة: إن الفعـل يضـمن معـنى يتلائم مـع الحرف، وقـال نحـاة الكوفـة: بـل الحـرف يضـمن معـنى يتلائم مع الفعل.

فعلى الرأي الأول: يكون قوله:]يعـرج فيها[: مضـمناً معنى (يدخل)، فيصير المعنى: ومـا يعـرج فيـدخل فيهـا، وعليـه يكـون في الآيـة دلالـة على أمـرين: على عـروج ودخول.

أما على الرأي الثـاني، فنقـول: (في) بمعـنى (إلى) ويكون هذا من باب التناوب بين الحروف.
لكن على هذا القول لا تجد أن في الآية معنى جديـداً وليس فيها إلا اختلاف لفظ (إلى) لفظ (في) ولهذا كان القول الأول أصح وهو أن تضمن الفعـل معـنى يتناسـب مع الحرف.
ولهذا نظير في اللغة العربية، قال الله تعـالى:]عينـا يشرب بهـا عبـاد اللـه يفجرونهـا تفجـيراً[[الإنسـان: 6]، والعين يشرب منها والـذي يشـرب بـه الإنـاء، فعلى رأي أهل الكوفة نقـول:]يشـرب بها[البـاء بمعـنى (من)، أي: منها، وعى رأي أهل البصرة يضمن الفعل]يشرب[معنى يتلائم مع حرف الباء والـذي يتلائم معهـا يـروى ومعلـوم أنه لا ري إلا بعد شرب، فيكون هـذا الفعـل ضـمن معـنى غايته وهو الري.
وكـذلك نقـول في]ومـا يعـرج فيها[: لا دخـول في السماء إلا بعد العروج إليها، فيكون الفعـل ضـمن معـنى الغاية.
ففي الآية ذكر اللـه عـز وجـل عمـوم علمـه في كـل شيء بنوع من التفصيل، ثم فصل في آية أخرى تفصـيلاً آخر:
الآية الثانية: قوله:]وعنده مفاتح الغيب لا يعلمهـا إلا هو ويعلم ما في الـبر والبحـر ومـا تسـقط من ورقـة إلا يعلمهـا ولا حبـة في ظلمـات الأرض ولا رطب ولا يـابس إلى في كتاب مبين[[الأنعام: 59].
]عنده[: أي: عند الله وهـو خـبر مقـدم]مفـاتح[مبتـدأ مؤخر.
ويفيد هذا التركيب الحصر والاختصاص، عنـده لا عنـد غيره مفاتح الغيب وأكد هذا الحصر بقولـه:]لا يعلمهـا إلا هو[، ففي الجملة حصر بأن علم هـذه المفـاتح عنـد اللـه بطريقتين: إحداهما: بطريقة التقديم والتـأخير والثانيـة: طريقة النفي والإثبات.
كلمـة]مفـاتح[، قيـل: أنـه جمـع مفتح، بكسـر الميم وفتح التاء: المفتاح، أو أنها جمع مفتاح لكن حذفت منها اليـاء وهـو قليـل، ونحن نعـرف أن المفتـاح مـا يفتح بـه

الباب وقيل: جميع مفتح، بفتح الميم والكسر التـاء وهي الخزائن، فـ]مفاتح الغيب[خزانته، وقيل:]مفاتح الغيب[، أي: مبادئه، لأن مفتح كل شيء يكـون في أولـه، فيكـون على هـذا:]مفـاتح الغيب[، أي: مبـادئ الغيب، فـإن هـذه المذكورات مبادئ لما بعدها.

]الغيب[: مصـدر غـاب يغيب غيبـاً، والمـراد بـالغيب: ماكان غائباً والغيب أمر نسب، لكن الغيب المطلق علمـه خاص بالله.

هذه المفاتح سواء قلنا إن المفاتح: هي المبادئ، أو: هي الخزائن، أو: المفاتيح، لا يعلمهـا إلا اللـه عـز وجـل، فلا يعلمهـا ملـك، ولا يعلمهـا رسـول، حـتى إن أشـرف الرسل الملكي وهو جبريل ـ سأل أشرف الرسل ابشري ـ وهو محمد عليـه الصلاة والسـلام ــ قـال: أخـبرني عن الساعة؟ قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السـائل"[1]، والمعنى: كما أنه لا علم لك بهـا، فلا علم لي بهـا أيضـاً. فمن ادعى علم الساعة، فهو كـاذب كـافر، ومن صـدقه، فهو أيضاً كافر، لأنه مكذب للقرآن.

وهذه المفاتح؟ فسرها أعلم الخلق بكلام الله محمد حين قرأ:]إن الله عنده علم الساعة ويـنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بـأي أرض تمـوت إن اللـه عليم خبـير[[لقمـان: 34][2]، فهي خمسة أمور:

الأول علم الساعة: فعلم الساعة مبـدأ مفتـاح لحيـاة الآخرة، وسميت الساعة بهذا، لأنها ساعة عظيمـة، يهـدد بها جميع الناس، وهي الحاقة والواقعة، والساعة علمهـا عند الله لا يدري أحد متى تقوم إلا الله عز وجل.

الثاني: تنزيل الغيث: لقوله:]وينزل الغيث[:]الغيث[: مصـدر ومعنـاه: إزالـة الشـدة والمـراد بـه المطـر، لأنـه بالمطر نزول شدة القحـط والجـدب وإذا كـان هـو الـذي ينزل الغيث، كان هو الذي يعلم وقت نزوله.

---

(1) تقدم تخريجه ص 41

(2) رواه البخاري/ كتاب التفسير/ باب قوله تعالى "إن الله عنده علم الساعة".

والمطر نزوله مفتـاح لحيـاة الأرض بالنبـات، وبحيـاة النبات يكون الخير في المرعى وجميع ما يتعلق بمصـالح العباد.

وهنا نقطة: قـال:]ويـنزل الغيث[، ولم يقـل: ويـنزل المطر، لأن المطر أحياناً يـنزل ولا يكـون فيـه نبـات، فلا يكون غيثـاً، ولا تحيـا بـه الأرض، ولهـذا ثبت في "صـحيح مسلم": "ليست السنة إلا تمطروا، إنما السنة أ، تمطروا ولا تنبت الأرض شيئاً"[3]، والسنة القحط.

الثالث: علم مـا في الأرحـام: لقولـه:]ويعلم مـا في الأرحام[، أي: أرحام الإناث، فهـو عـز وجـل يعلم مـا في الأرحــام، أي: مـــا في بطـــون الأمهـــات من بـــني آدم وغيرهم، ومتعلق العلم عام بكل شـيء، فلا يعلم مـا في الأرحام إلا من خلقها عز وجل.

فإن قلت: يقال الآن: إنهم صاروا يعلمون الـذكر من الأنثى في الرحم، فهل هذا صحيح؟

نقول: إن هذا الأمـر وقـع ولا يمكن إنكـاره، لكنهم لا يعلمـون ذلـك إلا بعـد تكـوين الجـنين وظهـور ذكورتـه أو أنوثته، وللجـنين أحـوال أخـرى لا يعلمونهـا، فلا يعلمـون متى ينزل، ولا يعلمـون إذا نـزل إلى مـتى يبقى حيـاً ولا يعلمون هل يكون شقياً أو سعيداً، ولا يعلمون هل يكـون غنياً أم فقيراً.. إلى غير ذلك من أحواله المجهولة.

إذاً أكثر متعلقات العلم فيما يتعلـق بالأجنـة مجهـول للخلق، فصدق العموم في قوله:]ويعلم ما في الأرحام[.

الرابع: علم ما في الغد: وهو مـا بعـد يومـك: لقولـه:]وما تدري نفس ماذا تكسـب غـداً[وهـذا مفتـاح الكسـب في المسـتقبل، وإذا كـان الإنسـان لا يعلم مـا يكسـب لنفسه، فعدم علمه بما يكسبه غيره أولى.

لكن لو قال قائل: أنا أعلم ما في الغد، سـأذهب إلى المكان الفلاني، أو أقرأ، أو أزور أقاربي فنقول: قد يجز بأنه سيعمل ولكن يحول بينه وبين العمل مانع.

الخامس: علم مكان الموت: لقوله:]وما تـدري نفس بأي أرض تموت[، ما يدري أي أحد هـل يمـوت في أرضـه أو في أرض أخـــرى؟ في أرض إســلامية أو أرض كـــافر

---

(3) رواه مسلم/ كتاب الفتن/ باب في سكنى المدينة.

أهلها؟ ولا يدري هل يموت في البر أو في البحـــر أو في الجو؟ وهذا شيء مشاهد.

ولا يدري بأي ساعة يموت، لأنه إذا كـان لا يمكنــه أن يدري بأي أرض يموت وهو قد يتحكم في المكان، فكذلك لا يدري بأي زمن وساعة يموت.

فهذه الخمسـة هـل مفـاتح الغيب الـتي لا يعلمهـا إلا اللــه وســميت مفــاتح الغيب، لأن علم مــا في الأرحــام مفتـاح للحيـاة الـدنيا،]مـاذا تكسـب غـداً[مفتـاح للعمـل المستقبل]وما تدري نفس بأي أرض تموت[مفتاح لحياة الآخرة، لأن الإنسان إذا مات، دخل عـالم الآخـرة، وسـبق بيان علم الساعة وتنزيل الغيث، فتبين أن هـذه المفـاتح كلها مبادئ لكل ما وراءها،]إن الله عليم خبير[.

ثم قال عز وجل:]ويعلم ما في البر والبحر[[الأنعام: 59]: هذا إجمال، فمن يحصـي أجنـاس مـا في الـبر؟ كم فيهـا من عـالم الحيـوان والحشـرات والجبـال والأشـجار والأنهار أمور لا يعلمها إلا الله عز وجل والبحر كذلك فيه من العوالم مالا يعلمه إلا خالقـه عـز وجـل، يقولـون: إن البحـر يزيـد على الـبر ثلاثـة أضـعاف من الأجنـاس، لأن البحر أكثر من اليابس.

قال]وما تسقط من ورقة إلى يعلمها[:

هـذا تفصـيل، فـأي ورقـة في أي شـجرة صـغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة تسقط، فالله تعالى يعلمها، ولهــذا جاءت]ما تسقط[النافية و]من[الزائدة، ليكون ذلك نصــاً في العموم، والورقة التي تخلـق يعلمهـا من بـاب أولى، لأن عالم ما يسقط عالم بما يخلق عز وجل.

انظر إلى سعة علم الله تعالى كل شيء يكون، فهــو عالم به، حتى الذي لم يحص وسيحصل، فهو تعالى عالم به.

قـال:]ولا حبـة في ظلمـات الأرض[: حبـة صـغيرة لا يدركها الطرف في ظلمات الأرض يعلمها عز وجل.

]ظلمات[: جمع ظلمة ولنفرض أن حبة صغيرة غائصة في قاع البحر، في ليلة مظلمة مطيرة، فالظلمات: أولاً: طين البحــر. ثانيــاً: مــاء البحــر. ثالثــاً: المطــر. رابعــاً: السحاب. خامساً: الليل، فهذه خمس ظلمات من ظلمات

الأرض ومع ذلك هذه الحبة يعلمها الله سبحانه وتعالى ويبصرها عز وجل.

قال:]ولا رطب ولا يابس[: هذا عام، فما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس.

]إلا في كتاب مبين[:]كتاب[، بمعنى مكتوب.]مبين[أي: مظهر وبين، لأن (أبان) تستعمل متعدياً ولازماً فيقال: أبان الفجر، بمعنى ظهر الفجر ويقال: أبان الحق بمعنى أظهره والمراد بالكتاب هنا: اللوح المحفوظ.

كل هذه الأشياء معلومة عند الله سبحانه وتعالى ومكتوبة عنده في اللوح المحفوظ، لأن الله تعالى "لما خلق القلم، قال له: اكتب قال القلم: ماذا أكتب؟ قال: أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة"[1]، فكتب في تلك اللحظة ما هو كائن إلى يوم القيامة ثم جعل سبحانه في أيدي الملائكة كتباً تكتب ما يعمله الإنسان، لأن الذي في اللوح المحفوظ قد كتب فيه ما كان يريد الإنسان أن يفعل، والكتاب التي تكتبها الملائكة هي التي يجزى عليها الإنسان ولهذا يقول الله عز وجل:]ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين[[محمد: 31]، أما علمه بأن عبده فلاناً سيصبر أو لا يصبر، فهذا سابق من قبل، لكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب.

الآية الثالثة: قوله:]وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه[[فاطر: 11].

]ما[: نافية.

]أنثى[فاعل]تحمل[لكنه معرب بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وهنا إشكال: كيف تقول زائد وليس في القرآن زائد؟

فالجواب: أنه زائد من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى، فهو مفيد وليس في القرآن شيء زائد لا فائدة

([1] رواه أحمد (5/317)، وأبو داود (4700)، والترمذي (2155)، والحاكم (2/498) وصححه، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (804)، والآجري في "الشريعة" (178)، وابن أبي عاصم في "السنة" (105)، والحديث صححه الألباني في "الصحيحة" (133)، وفي "السنة" لابن أبي عاصم (1/48و49).

منه، ولهذا نقول: هو زائد، زائد بمعنى أنه لا يخل بالإعراب إذا حذف، زائد من حيث المعنى يزيد فيه.

وقوله:]من أنثى[: يشمل أي أنثى، سواء آدمية أو حيوانية أخرى الذي يحمل حيواناً واضح أنه داخل في الآية، كبقرة، وبعير، وشاة.. وما أشبه ذلك، ويدخل في ذلك الذي يحمل البيض، كالطيور، لأن البيض في جوف الطائر حمل.

]ولا تضع إلا بعلمه[، فابتداء الحمل بعلم الله، وانتهاؤه وخروج الجنين بعلم الله عز وجل.

الآية الرابعة: قوله:]لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً[[الطلاق: 12].

]لتعلموا[: اللام للتعليل، لأن الله قال:]الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير[[الطلاق: 12]، فقد خلق هذه السماوات السبع والأرضين السبع، وأعلمنا بذلك، لنعلم]أن الله على كل شيء قدير[.

القدرة وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز، فهو على كل شيء قدير، يقدر على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود، فالسماوات والأرض كانت معدومة، فخلقها الله عز وجل وأوجدها على هذا النظام البديع.

]وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً[: كل شيء، الصغير والكبير، والمتعلق بفعله أو بفعل عباده والماضي واللاحق والحاضر، كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علماً.

وذكر الله عز وجل العلم والقدرة بعد الخلق، لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة، ودلالة الخلق على العلم والقدرة من باب دلالة التلازم وقد سبق أن دلالات الأسماء على الصفات ثلاثة أنواع.

تنبيه: ذكر في "تفسير الجلالين" ـ عفا الله عنا وعنه ـ في آخر سورة المائدة ما نصه "وخص العقل ذاته، فليس عليها بقادر"!

ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية، ووظيفة العقل فيها التسليم التام، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالاً، ولهذا يقال: إن النصوص لا تـأتي بمحال، وإنما تأتي بمحـار، أي: بمـا يحـير العقـول، لأنهـا تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره.

والوجه الثاني: قوله: "فليس عليها بقادر": هذا خطأ عظيم، كيف لا يقدر على نفسـه وهـو قـادر على غـيره، فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقـدر أن يسـتوى ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا ولا يفعل شيئاً أبـداً وهـذا خطير جداً!!

لكن لـو قـال قائـل: لعلـه يريـد: "خص العقـل ذاتـه، فليس عليها بقادر"، يعني: لا يقدر عـل أن يلحـق نفسـه نقصاً قلنا: إن هذا لم يدخل في العموم حتى يحتـاج إلى إخـراج وتخصـيص، لأن القـدرة إنمـا تتعلـق بالأشـياء الممكنة، لأن غير الممكن ليس بشيء، لا في الخـارج ولا في الذهن" فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل، بخلاف العلم.

فينبغي للإنسـان أن يتـأدب فيمـا يتعلـق بجـانب الربوبية، لأن المقام مقـام عظيم، والـواجب على المـرء نحوه أن يستسلم ويسلم.

إذاً، نحن نطلق ما أطلقه اللـه، ونقـول إن اللـه على كل شيء قدير، بدون استثناء.

وفي هذه الآيات من صفات الله تعالى: إثبات عمـوم علم الله على وجه التفصـيل، وإثبـات عمـوم قـدرة اللـه تعالى.

والفائدة المسلكية من الإيمان بالعلم والقدرة: قـوة مراقبة الله والخوف منه.

وقولـــــه:]إن اللـــــه هـــــو الـــــرزاق[1] ....

(1) في هذه الآية إثبات صفة القوة لله عز وجل.

جاءت هذه الآية بعد قولـه:]ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون (56) مـا أريـد منهم من رزق ومـا أريـد أن يطمعون[[الذاريات: 56-57]، فالناس يحتاجون إلى رزق

اللـه، أمـا اللـه تعـالى، فإنـه لا يريـد منهم رزقـاً ولا أن يطعموه.

***]الرازق[: صـيغة مبالغـة من الـرزق، وهـو العطـاء، قال تعالى]وإذا حضر القسـمة أولـوا القـربى واليتـامى والمساكين فأرزقوهم منه[[النسـاء: 8]، أي: أعطـوهم، والإنسان يسـأل اللـه تعـالى في صـلاته، ويقـول: اللهم ارزقني.**

وينقسم إلى قسمين: عام وخاص.

فالعالم: كل ما ينتفع بـه البـدن، سـواء كـان حلالاً أو حراماً، وسواء كان المرزوق مسلماً أو كافراً، ولهذا قـال السفاريني:

والرزق ما ينفع من حلال أو ضده فحل عن المحال

لأنه رازق كل الخلــق وليس مخلوق بغير رزق

لأنك لو قلت: إن الرزق هو العطاء الحلال. لكـان كـل الذين يأكلون الحرام، لم يرزقوا، مع أن الله أعطاهم مــا تصلح به أبدانهم، لكن الرزق نوعان: طيب وخبيث، ولهذا قال الله تعالى:]قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق[[الأعراف: 32]، ولم يقل: والرزق، أما الخبائث من الرزق، فهي حرام.

أما الرزق الخاص، فهو ما يقـوم بـه الـدين من العلم النافع والعمل الصالح والرزق الحلال المعين على طاعـة اللـه، ولهـذا جـاءت الآيـة الكريمـة:]الـرزاق[ولم يقـل: الرازق، لكثره رزقه وكثرة من يرزقه، فالذي يرزقه اللـه عز وجـل لا يحصـى باعتبـار أجناسـه، فضـلاً عن أنواعـه، فضلاً عن آحاده، لأن الله تعالى يقول:]وما من دابـة في الأرض إلا على اللــــه رزقهــــا ويعلم مســـــتقرها ومســـتودعها[[هــود: 6]، ويعطي اللــه الــرزق بحســب الحال.

ولكن إذا قال قائل: إذا كـان اللـه هـو الـرزاق، فهـل أسعى لطلب الرزق: أو أبق في بيتي ويأتيني الرزق؟

فــالجواب نقـول: اسـع لطلب الـرزق، كمـا أن اللــه غفور، فليس معنى هذا أن لا تعمل وتتسبب للمغفرة.

أما قول الشاعر:

جنون من أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فهـذا القـول باطـل. وإمـا استشـهاده بـالجنين، فالجواب: أن يقـال الجـنين لا يمكن أن يوجـه إليـه طلب الرزق، لأنه غير قادر، بخلاف القادر.

ولهذا قـال اللـه تعـالى:]هـو الـذي جعـل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه[[الملـك: 15]، فلابـد من سـعي، وأن يكـون هـذا السـعي على وفـق الشرع.

ذو القـــــــــــــوة[1] المـــــــــــــــتين[2] ....

(1) القوة: صفة يتمكن الفاعل بها من الفعل بـدون ضعف، والدليل على قوله تعالى:]اللـه الـذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة[[الروم: 54]، وليسـت القوة هي القدرة، لقوله تعالى:]ومـا كـان اللـه ليعجـزه من شـيء من السـموات ولا في الأرض إنـه كـان عليمـاً قـديراً[[فـاطر: 44]، فالقـدر يقابلهـا العجـز، والقـوة يقابلها الضعف، والفرق بينهمـا: أن القـدرة يوصـف بهـا ذو الشعور، والقوة يقابلها الضعف، والفـرق بينهمـا: أن القدرة يوصـف بهـا ذو الشـعور، والقـوة يوصـف بهـا ذو الشعور وغيره. ثانياً: أن القوة أخص فكـل قـوي من ذي الشعور قادر، وتقول: الحديد قوي، ولا تقول: قادر، لكن ذو الشعور تقول: إنه قوي، وإنه قادر.

ولما قالت عاد:]من أشد منا قـوة[قـال اللـه تعـالى:]أو لم يـــروا أن اللـــه الـــذي خلقهم هـــو أشـــد منهم قوة[[فصلت: 15].

(2) المـتين قـال ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا: الشديد. أي الشديد في قوته، والشديد في عزته، الشديد في جميع صفات الجبروت، وهو من حيث المعـنى توكيـد للقوي.

ويجوز أن نخبر عن الله بأنـه شـديد، ولا نسـمي اللـه بالشديد، بل نسميه بالمتين، لأن الله سمى نفسه بذلك.

في هذه الآية إثبات اسمين من أسماء الله، هما: الرزاق، والمتين، وإثبات ثلاث صفات، وهي الرزق، والقوة، وما تضمنه اسم المتين.

والفائدة المسلكية في الإيمان بصفة القوة والرزق، أن لا نطلب القوة والرزق إلا من الله تعالى، وأن نؤمن بأن كل قوة مهما عظمت، فلن تقابل قوة الله تعالى.

وقوله:]ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[[1]................................

(1) هذه الآية ساقها المؤلف إثبات اسمين من أسماء الله وما تضمناه من صفة، وهما السميع والبصير، ففيها رد على المعطلة.

* قوله:]ليس كمثله شيء[: هذا نفي، فهو من الصفات السلبية، والمقصود به إثبات كماله، يعني لكماله لا يماثله شيء من مخلوقاته، وفي هذه الجملة رد على أهل التمثيل.

* قوله:]وهو السميع البصير[:]السميع[له معنيان أحدهما: بمعنى المجيب. والثاني: بمعنى السامع للصوت.

أما السميع بمعنى المجيب، فمثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم:]إن ربي لسميع الدعاء[[إبراهيم: 39]، أي: لمجيب الدعاء.

وأما السميع بمعنى إدراك الصوت، فإنهم قسموه إلى عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل، وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله.

الثاني: سمع يراد به النصر والتأييد.

الثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد.

مثال الأول: قوله تعالى:]قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله[[المجادلة: 1]، فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى على بعضه"[1].

---

[1] تقدم تخريجه.

ومثال الثاني: كما في قوله تعالى لموسى وهارون:]إنني معكما أسمع وأرى[[طه: 46].
ومثال الثالث: الذي يراد بـه التهديـد والوعيـد: قولـه تعالى:]أم يحسـبون أنـا لا نسـمع سـرهم ونجـواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون[[الزخرف: 80]، فإن هـذا يـراد بـه تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون مـا لا يرضـى من القول.
والسمع بمعنى إدراك المسموع من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثاً.
والسمع بمعنى النصر والتأييد من الصـفات الفعليـة، لأنه مقرون بسبب.
والسمع بمعنى الإجابة من الصفات الفعلية أيضاً.
*** وقوله:]البصير[، يعني: المدرك لجميـع المبصـرات، ويطلـق البصـير بمعـنى العليم، فاللـه سـبحانه وتعـالى بصـير، يـرى كـل شـيء وإن خفي، وهـو سـبحانه بصـير بمعنى: عليم بأفعال عباده، قال تعالى:]والله بصير بمـا تعملـون[[الحجـرات: 18]، والـذي نعمـل بعضـه مـرئي وبعضه غير مرئي، فبصـر اللـه إذاً ينقسـم إلى قسـمين، وكله داخل في قوله:]البصير[.**
في هذه الآيـة إثبـات اسـمين من أسـماء اللـه، همـا: السميع، والبصير. وثلاث صفات، هي: كمـال صـفاته من نفي المماثلة، والسمع، والبصر.
وفيهـا من الفوائـد المسـلكية: الكـف عن محاولـة تمثيل الله بخلقه، واستشعار عظمته وكماله، والحذر من أن يراك على معصيته أو يسمع منك مالا يرضاه.
واعلم أن النحـاة خاضـوا خوضـاً كثـيراً في قولـه:]كمثله[، حيث قالوا: الكاف داخلة على (المثل)، وظـاهره أن لله مثلاً ليس لـه مثـل، لأنـه لم يقـل: ليس كهـو، بـل قـال:]ليس كمثله[، فهـذا ظاهرهـا من حيث المعـنى، لكان ظاهر القرآن كفراً، وهذا مسـتحيل، ولهـذا اختلفت عبارات النحويين في تخريج هذه الآية على أقوال:
القول الأول: الكـاف زائـدة، وأن تقـدير الكلام: ليس مثلـه شـيء، وهـذا القـول مـريح، وزيـادة الحـروف في النفي كثـيرة، كمـا في قولـه: تعـالى]ومـا تحمـل من

أنـثى[[فـاطر: 11]، فيقولـون: إن زيـادة الحـروف في اللغة العربية للتوكيد أمر مطرد.

والقـول الثـاني: قـالوا العكس، قـالوا: إن الزائـد (مثـل)، ويكـون التقـدير: ليس كهـو شـيء، لكن هـذا ضعيف، يضعفه أن الزيادة في الأسماء في اللغة العربية قليلة جداً أو نـادرة، بخلاف الحـروف، فـإذا كنـا لا بـد أن نقول بالزيادة، فليكن الزائد الحرف، وهي الكاف.

والقول الثالث: أن (مثـل) بمعـنى: صـفة، والمعـنى: "ليس كصفته شيء"، وقالوا: إن المثل والشـبه والشـبه في اللغة العربيـة بمعـنى واحـد، وقـد قـال اللـه تعـالى:]مثل الجنة التي وعـد المتقـون[[محمـد: 15]، أي: صـفة الجنة، وهذا ليس ببعيد من الصواب.

القول الرابع: أنه ليس في الآية زيادة، لكن إذا قلت:]ليس كمثله شيء[، لـزم من ذلـك نفي المثـل، وإذا كـان ليس للمثل مثـل، صـار الموجـود واحـداً، وعلى هـذا، فلا حاجة إلى ان نقدر شيئاً. قالوا: وهذا قد وجـد في اللغـة العربية، مثل قوله: ليس كمثل الفتى زهير.

والحقيقة أن هـذه البحـوث لـو لم تعـرض لكم، لكـان معنى الآية واضحاً، ومعناها أن اللـه ليس لـه مثيـل، لكن هذا وجد في الكتب، والراجح: أن نقول، إن الكاف زائـدة لكن المعنى الأخير لمن تمكن من تصوره أجود.

وقوله:]إن الله نعما يعظكم به إن اللـه كـان سـمعياً بصيراً[(1)......................

(1) هذه الآية تكملة لقوله تعالى:]إن الله يأمركم أن تـؤدوا الأمانـات إلى أهلهـا وإذا حكمتم بين النـاس أن تحكموا بالعدل[[النساء: 57]، فأمر عز وجـل بـأن نـؤدي الأمانات إلى أهلها، ومنها الشهادة للإنسان لـه أو عليـه، وأن نحكم إذا حكمنـا بين النـاس بالعـدل، فـبين اللـه سبحانه وتعالى أنـه يأمرنـا بالقيـام بـالواجب في طريـق الحكم وفي الحكم نفسـه، وطريـق الحكم الـذي هـو الشهادة تدخل في عموم قوله:]أن تـؤدوا الأمانـات إلى أهلها[، والحكم:]وإذا حكمتم بين النـاس أن تحمكـوا بالعـدل[، ثم قـال سـبحانه:]إن اللـه نعمـا يعظكم به[، أصـلها: نعم مـا ولكن ادغمت الميم بـالميم من بـاب

الإدغام الكبير، لأن الإدغام لا يكون بين جنسين إلا إذا كان الأول ساكناً، وهنا صار الإدغام مع أن الأول مفتوح.

*** وقوله:]نعما يعظكم به[: جعل الله سبحانه الأمر بهذين الشيئين ـ أداء الأمانة والحكم بالعدل ـ موعظة، لأنه تصلح به القلوب، وكل ما يصلح القلوب، فهو موعظة، والقيام بهذه الأوامر لا شك أن يصلح القلب.**

*** ثم قال:]إن الله كان سميعاً بصيراً[، وقوله:]كان[: هذه فعل، لكنها مسلوبة الزمن، فالمراد به الدلالة على الوصف فقط، أي: أن الله متصف بالسمع والبصر، وإنما قلنا: إنها مسلوبة الزمن، لأننا لو أبقيناها على دلالتها الزمانية، فالمراد بها الدلالة على الوصف فقط، أي: أن الله متصف بالسمع والبصر، وإنما قلنا: إنها مسلوبة الزمن، لأننا لو أبقيناها على دلالاتها الزمانية، لكان هذا الوصف قد انتهى، كان في الأول سميعاً بصيراً، أما الآن فليس كذلك، ومعلوم أن هذا المعنى فاسد باطل، وإنما المارد أنه متصف بهذين الوصفين السمع والبصر على الدوام، و(كان) في مثل هذا السياق يراد به التحقيق.**

*** قوله:]سميعاً بصيراً[: نقول فيها كما قلنا في الآية التي قبلها: فيها إثبات السمع لله بقسميه، وإثبات البصر بقسميه.**

قرأ أبو هريرة هذه الآية، وقال: إن الرسول وضع إبهامه وسبابته على عينه وأذنه[1]. والمراد بهذا الوضع تحقيق السمع والبصر، لا إثبات العين والأذن، فإن ثبوت العين جاءت في أدلة أخرى، والأذن عند أهل السنة والجماعة لا تثبت لله ولا تنفى عنه لعدم ورود السمع بذلك.

فإن قلت: هل ليل أن أفعل كما فعل الرسول ؟

فالجواب: من العلماء من قال: نعم، افعل كما فعل الرسول، لست أهدى للخلق من رسول الله ، ولست أشد تحرزاً من أن يضاف إلى الله ما لا يليق من الرسول .

ومنهم من قال: لا حاجة إلى أن تفعل ما دمنا نعلم أن المقصود هو التحقيق فهذه الإشارة إذاً غير مقصودة

---

(1) تقدم تخريجه 66

بنفسها، إنما هي مقصودة لغيرها، وحينئـذ، لا حاجـة إلى أن تشير، لا سيما إذا كان يخشي من هذه الإشارة تـوهم الإنسان التمثيل، كما لو كـان أمامـك عامـة من الخلـق لا يفهمون الشيء على ما ينبغي، فهذا ينبغي التحرز منـه، ولكل مقام مقال.

وكذلك ما ورد في حديث ابن عمر كيف يحكي رسول الله قال: "يأخذ الله عز وجل سـماواته وأرضـيه بيديـه، فيقول: أنـا اللـه"، ويقبض أصـابعه ويبسـطها[1]. فيقـال فيه ما قيل في حديث أبي هريرة.

والفائــدة المســلكية من الإيمــان بصــفتي الســمع والبصر: أن نحذر مخالفة الله في أقوالنا وأفعالنا.

وفي الآيــة من أســماء اللــه إثبــات اســمين همــا: السميع، والبصير. ومن الصفات: إثبات السمع، والبصــر، والأمر، والموعظة.

وقوله:]ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله[(1)...................

(1) هذه آيات في إثبات صفتي المشيئة والإرادة:

فالآيــة الأولى: قولـه تعـالى:]ولـولا إذ دخلت جنتـك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله[[الكهف: 39].

***]ولولا[: بمعنى: هلا، فهي للتحضيض، والمـراد بهـا هنا التوبيخ، بمعنى أنه يوبخه على ترك هذا القول.**

***]إذ دخلت[: حين دخلت.**

•]جنتك[: الجنـــة، بفتح الجيم هي البســـتان الكثــير الأشــجار، ســميت بــذلك لأن من فيهــا مســتتر بأشجارها وغصـونها، فهـو مسـتجن فيهـا، وهـذه المـادة (الجيم والنون) تدل على الاستتار، ومنـه: الجنـة ـ بضـم الجيم ـ التي يتـترس بهـا الإنسـان عنـد القتـال، ومنهـا: الجنة ـ بكسر الجيم ـ، يعني، الجن، لأنهم مستترون.

*** وقوله:]جنتك[: هذه مفرد، والمعلوم من الآيات أن له جنتين، فمـا هـو الجـواب حيث كـانت هنـا مفـردة مـع أنهما جنتان؟**

الجواب: أن يقال: إن المفرد إذا أضيف يعم فيشــمل الجنــتين. أو أن هــذا القائــل أراد أن يقلــل من قيمــة

---

[1] رواه مسلم/ كتاب صفات المنافقين.

الجنتين، لأن المقام مقام وعظ وعدم إعجاب بما رزقه الله، كأنه يقول: هاتان الجنتان جنة واحدة، تقليلاً لشأنهما، والوجه الأول أقرب إلى قواعد اللغة العربية]قلت[: جواب]لولا[.

* وقوله:]ما شاء الله لا قوة إلى بالله[:]ما[: يحتمل أن تكون موصولة، ويحتمل أن تكون شرطية: فإن جعلتها موصولة، فهي خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ما شاء الله، أي: ليس هذا بإرادتي وحولي وقوتي، ولكنه بمشيئة الله، أي: هذا الذي شاءه الله. وإن جعلتها شرطية، ففعل الشرط]شاء[، وجوابه محذوف، والتقدير: ما شاء الله كان، كما نقول: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. والمراد: كان ينبغي لك أن تقول حين دخلت جنتك:]ما شاء الله[، لتتبرأ من حولك وقوتك لا تعجب بجنتك.

* وقوله:]لا قوة إلا بالله[:]لا[: نافية للجنس. و]قوة[: نكرة في سياق النفي، فتعم، والقوة صفة يتمكن بها الفاعل من فعل ما يريد بدون ضعف.

فإن قيل: ما الجمع بين عموم نفي القوة إلا باله، وبين قوله تعالى:]الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعض ضعف قوة[[الروم: 54]، وقال عن عاد:]وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة[[فصلت: 15]، ولم يقل: لا قوة فيهم، فأثبت للإنسان قوة.

فالجواب: أن الجمع بأحد الوجهين:

الأول: أن القوة التي في المخلوق كانت من الله عز وجل، فلولا أن الله أعطاه القوة، لم يكون قوياً، فالقوة التي عند الإنسان مخلوقة لله، فلا قوة في الحقيقة إلا بالله.

الثاني: أن المراد بقوله:]لا قوة[، أي: لا قوة كاملة إلا بالله عز وجل.

وعلى كل حال، فهذا الرجل الصالح أرشد صاحبه أن يتبرأ من حوله وقوته، ويقول: هذا بمشيئة الله وبقوة الله.

في هذه الآية: إثبات اسم من أسماء الله، وهو: الله، وإثبات ثلاث صفات: الألوهية، والقوة، والمشيئة.

ومشيئة الله: هي إرادته الكونية، وهي نافذة فيما يحبه وما لا يحبه، ونافذة على جميع العباد بدون تفصيل، ولابد من وجود ما شاءه بكل حال، فكل ما شاء الله وقع ولا بد، سواء كان فيما يحبه ويرضاه أم لا.

وقوله:]ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد[[1]........................

(1) الآية الثانية: قوله:]ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد[[البقرة: 253]:

]لو[: حرف امتناع لامتناع، وإذا كان جوابه منفياً بـ(ما)، فإن الأفصح حذف اللام، وإذا كان مثبتاً، فالأكثر ثبوت اللام، كما قال تعالى:]لو نشاء لجعلناه حطاما[[الواقعة: 65]. فنقول: الأكثر، ولا نقول: الأفصح، لأنه ورد إثبات اللام وحذفها في القرآن الكريم:]لو نشاء جعلناه أجاجا[[الواقعة: 70]. وقولنا: إن الأفصح حذف اللام في المنفي، لأن اللام تفيد التوكيد، والنفي ينافي التوكيد، ولهذا كان قول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

خلاف الأفصح، والأفصح: لو نعطى الخيار ما افترقنا

* قوله:]ولو شاء الله ما اقتتلوا[: الضمير يعود على المؤمنين والكافرين، لقوله تعالى:]ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا[[البقرة: 253].

وفي هذا رد واضح على القدرية الذي ينكرون تعلق فعل العبد بمشيئة الله، لأن الله قال:]ولو شاء الله ما اقتتلوا[، يعني: ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا. ثم قال:]ولكن الله يفعل ما يريد[، أي: يفعل الذي يريده، والإرادة هنا إرادة كونية.

* وقوله:]يفعل ما يريد[: الفعل باعتبار ما يفعله سبحانه وتعالى بنفسه فعل مباشر. وباعتبار ما يقدره على العباد فعل غير مباشر، لأنه من المعلوم أن

الإنسان إذا صام وصلى وزكى وحج وجاهد، فالفاعل الإنسان بلا شك، ومعلوم أن فعله هذا بإرادة الله.

ولا يصح أن ينسب فعل العبد إلى الله على سبيل المباشرة، لأن المباشر للفعل والإنسان، ولكن يصح أن ينسب إلى الله على سبيل التقدير والخلق.

أما ما يفعله الله بنفسه، كاستواءه على عرشه، وكلامه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وضحكه... وما أشبه ذلك، فهذا ينسب إلى الله تعالى فعلاً مباشرة.

في هذه الآية من الأسماء: الله. ومن الصفات: المشيئة، والفعل، والإرادة.

وقوله:]أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنت حرم إن الله يحكم ما يريد[(1)

....

(1) الآية الثالثة: قوله:]أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا منا يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد[[المائدة: 1].

*]أحلت لكم[: المحل هو الله عز وجل، وكذلك النبي عليه الصلاة والسلام يحل ويحرم، لكن بإذن من الله عز وجل، قال النبي ﷺ: "أحلت لنا ميتتان ودمان"[(1)]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: "إن الله يحرم عليكم"، كذا يخبر أنه حرم، وربما يحرم تحريماً يضفيه إلى نفسه، لكنه بإذن الله.

*]بهيمة الانعام[: هي الإبل والبقر والغنم، والأنعام جمع نعم، كأسباب جمع سبب.

*]إلا ما يتلى[: إلا الذي يتلى عليكم في هذه السورة، وهي المذكورة في قوله تعالى:]حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به[[المائدة، 3]، فالاستثناء هنا فيه منقطع وفيه متصل، فبالنسبة للميتة من بهيمة الأنعام متصل، وبالنسبة للحم الخنزير منقطع، لأنه ليس من بهيمة الأنعام.

* وقوله:]غير محلي الصيد وأنت حرم[:]غير[: حال من الكاف في]لكم[، يعني: حال كونكم لا تحلون الصيد

---

(1) رواه أحمد (2/97)، وابن ماجه (3314)

وأنتم حرم، وهذا الاستثناء منقطع أيضاً، لأن الصيد ليس من بهيمة الأنعام.

وقوله:]غير محلي الصيد[، يعني: قاتليه في الإحرام، لأن الذي يفعل الشيء يصير كالمحل له، و]الصيد[: هو الحيوان البري المتوحش المأكول، هذا هو الصيد الذي حرم في الإحرام.

*** وقوله:]إن الله يحكم ما يريد[: هذه الإرادة شرعية، لأن المقام مقام تشريع، ويجوز أن تكون إرادة شرعية كونية، ونحمل الحكم على الحكم الكوني والشرعي، فما أراده كوناً، حكم به وأوقعه، وما أراده شرعاً، حكم به وشرعه لعباده.**

في هذه الآية من الأسماء: الله. والمن الصفات: التحليل، والحكم، والإرادة.

وقوله:]فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء[(1)..

(1) الآية الرابعة: قوله]فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء[[الأنعام: 125].

*** قوله:]فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام[: المراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية، والمراد بالهداية هداية التوفيق، فتجده منشرح الصدر في شرائع الإسلام وشعائره، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق.**

فإذا عرف من نفسك هذا، فاعلم أن الله أراد بك خيراً وأراد لك هداية، أما من ضاق به ذرعاً والعياذ بالله فإن هذا علامة على الله لم يرد له هداية، وإلا لا نشرح صدره.

ولهذا تجدون الصلاة التي هي أثقل ما يكون على المنافقين قرة عيون المخلصين، قال النبي ﷺ: "حبب إلى ما دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة"[1]، ولا شك أن النبي ﷺ أكمل الناس إيماناً، فانشرح صدره بالصلاة وصارت قرة عينه.

---

[1] رواه أحمد (3/128)، والنسائي (7/61)، والحاكم (2/160).

فإذا قيل للشخص: إنه يجب عليك أن تصلي مع الجماعة في المسجد، فانشرح صدره، وقال الحمد لله الذي شرع لي ذلك، ولولا أن الله شرعه، لكان بدعة، وأقبل إليه، ورضي به، فهذا علامة على أن الله أراد أن يهديه وأراد به خيراً.

* قال:]يشرح صدره للإسلام[:]يشرح صدره[: بمعنى يوسع، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله إلى فرعون:]رب اشرح لي صدري[[طه: 25]، يعني: وسع لي صدري في مناجاة هذا الرجل ودعوته، لأن فرعون كان جباراً عنيداً.

وقوله:]للإسلام[: هذا عام لأصل الإسلام وفروعه وواجباته، وكلما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدراً، كان أدل على إرادة الله به الهداية.

* وقوله:]ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حجراً كأنما يصعد في السماء[: من يرد أن يضله:]كأنما يصعد في السماء[، يعني: كأنه حين يعرض عليه الإسلام يتكلف الصعود إلى السماء، ولهذا جاءت الآية:]يصعد[، بالتشديد، ولم يقل: يصعد، كأنه يتكلف الصعود بمشقة شديدة، وهذا الذي يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم.

ولنفرض أن هذا رجل طلب منه أن يصعد جبلاً رفيعاً وصعباً، فإذا قام يصعد هذا الجبل، سوف يتكلف، وسوف يضيق نفسه ويرتفع وينتهب، لأنه يجد من هذا ضيقاً.

وعلى ما وصل إليه المتأخرون الآن، يقولون: إن الذي يصعد في السماء كلما ارتفع وازداد ارتفاعه، كثر عليه الضغط، وصار أشد حرجاً وضيقاً، وسواء كان المعنى الأول أو المعنى الثاني، فإن هذا الرجل الذي يعرض عليه الإسلام وقد أراد الله أن يضله يجد الحرج والضيق كأنما يصعد في السماء.

ونأخذ من هذه الآية الكريمة إثبات إرادة الله عز وجل.

والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير، لأنه قال:]فمن يرد الله أن يهديه[،]ومن يرد أن يضله[، وهذا

التقسيم لا يكون إلا في الأمور الكونيات، أما الشرعية، فالله يريد من كل أحد أن يستسلم لشرع الله.

وفيها من السلوك والعبادة أنه يجب على الإنسان أن يتقبل الإسلام كله، أصله وفرعه، وما يتعلق بحق الله وما يتعلق بحق العباد، وأنه يجب عليه أن يشرح صدره لذلك، فإن لم يكن كذلك، فإنه من القسم الثاني الذين أراد الله إضلالهم.

قال النبي : "من يرد الله به خيراً، يفقهه في الدين"[1]، والفقه في الدين يقتضي قبول الدين، لأن كل من فقه في دين الله وعرفه، قبله وأحبه.

قال تعالى:]فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً[[النساء: 65]، فهذا إقسام مؤكد بـ(لا)، وإقسام بأخص ربوبية من الله عز وجل لعباده ـ وهي ربوبية الله للرسول ـ على نفي الإيمان عمن لم يقم بهذه الأمور:

الأول: تحكيم الرسول لقوله:]حتى يحكموك[، يعني: الرسول: فمن طلب التحاكم إلى غير الله ورسوله، فإنه ليس بمؤمن، فإما كافر كفراً مخرجاً عن الملة، وإما كافر كفراً دون ذلك.

الثاني: انشراح الصدر بحكمه، بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، بل يجدون القبول والانشراح لما قضاه النبي .

الثالث: أن يسلموا تسليماً، وأكد التسليم بمصدر، يعني: تسليماً كاملاً.

فاحذر أيها المسلم أن ينتفي عنك الإيمان.

ولنضرب لهذا مثلاً: تجادل رجلان في حكم مسألة شرعية، فاستدل أحدهما بالسنة، فوجد الثاني في ذلك حرجاً وضيقاً، كيف يريد أن يخرج عن متبوعه إلى ابتاع هذه السنة؟ فهذا الرجل ناقص بلا شك في إيمانه، لأن المؤمن حقاً هو الذي إذا ظفر بالنص من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فكأنما ظفر بأكبر غنيمة يفرح بها، ويقول: الحمد لله الذي هداني لهذا.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب العلم/ باب "من يرد الله به خيراً"، ومسلم/ كتاب الزكاة/ باب النهي عن المسألة.

وفلان الـذي يتعصـب لرأيـه ويحـاول أن يلـوي أعنـاق النصوص حتى تتجه إلى مـا يريـده هـو لا مـا يريـده اللـه ورسوله، فإن هذا على خطر عظيم.

أقسام الإرادة:

الإرادة تنقسم إلى قسمين:

القسـم الأول: إرادة كونيـة: وهـذه الإرادة مرادفـة تمامـاً للمشـيئة، فـ(أراد) فيهـا بمعـنى (شـاء)، وهـذه الإرادة:

أولاً: تتعلق فيما يحبه الله وفيما لا يحبه.

وعلى هذان فـإذا قـال قائـل: هـل أراد اللـه الكفـر؟ فقل: بالإرادة الكونيـة نعم أراده، ولـو لم يـرده اللـه عـز وجل، ما وقع.

ثانياً: يلزم فيها وقوع المراد، يعني: أن ما أراده اللـه فلا بد أن يقع، ولا يمكن أن يتخلف.

القسم الثاني: إرادة شـرعية: وهي مرادفـة للمحبـة، فـ(أراد) فيها بمعنى (أحب)، فهي:

أولاً: تختص بمـا يحبـه اللـه، فلا يريـد اللـه الكفـر بالإرادة الشرعية ولا الفسق.

ثانياً: أنه لا يلزم فيها وقوع المـراد، بمعـنى: أن اللـه يريـد شـيئاً ولا يقـع، فهـو سـبحانه يريـد من الخلـق أن يعبدوه، ولا يلزم وقوع هـذا المـراد، قـد يعبدونـه وقـد لا يعبدونه، بخلاف الإرادة الكونية.

فصار الفرق بين الإرادتين من وجهين:

1- الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم.

2- الإرادة الشرعية تختص فيما يحبـه اللـه، والكونيـة عامة فيما يحبه وما لا يحبه.

فإذا قال قائل: كيف يريد الله تعالى كوناً ما لا يحبه، بمعنى: كيف يريد الكفـر أو الفسـق أو العصـيان وهـو لا يحبه؟!

فالجواب: أن هذا محبـوب إلى اللـه من وجـه مكـروه إليـه من وجـه آخـر، فهـو محبـوب إليـه لمـا يتضـمنه من المصالح العظيمة، مكروه إليه لأنه معصية.

ولا مـــانع من أن يكــون الشـــيء محبوبـــاً مكروهـــا باعتبارين، فها هو الرجـل يقـدم طفلـه الـذي هـو فلـذة كبـده وثمـرة فـؤاده، يقدمـه إلى الطـبيب ليشـق جلـده ويخرج المادة المؤذية فيه ولو أتى أحـد من النـاس يريـد أن يشقه بظفره وليس بالمشرط، لقاتله، كل هو يـذهب إلى الطبيب ليشقه، وهو ينظر إليه، وهو فــرح مســرور، يـذهب بـه إلى الطـبيب ليحمي الحديـد على النـار حـتى تلتهب حمـراء، ثم يأخـذها ويكـوي بهـا ابنـه، وهـو راض بذلك، لماذا يرضى بذلك وهو ألم للابن؟ لأنه مراد لغــيره للمصلحة العظيمة التي تترتب على ذلك.

ونســتفيد بمعرفتنــا للإرادة من الناحيــة المســلكية أمرين:

الأمر الأول: أن نعلق رجاءنا وخوفنـا وجميـع أحوالنـا وأعمالنـا باللـه، لأن كـل شـيء بإرادتـه وهـذا يحقـق لنـا التوكل.

الأمر الثـاني: أن نفعـل مـا يريـده اللـه شـرعاً، فـإذا علمت أنه مراد لله شرعاً ومحبوب إليه، فإن ذلـك يقـوي عزمنا على فعله.

هذا من فوائد معرفتنا بالإرادة من الناحية المسلكية، فالأول باعتبار الإرادة الكونيـة، والثـاني: باعتبـار الإرادة الشرعية.

قولـــه:]وأحســـنوا إن اللـــه يحب المحســـنين[[1] ....

(1) هذه آيات في إثبات صفة المحبة:

الآيـــــة الأولى:]وأحســــــنوا إن اللـــــه يحب المحسنين[[البقرة: 195].

***]وأحسنوا[فعل أمر.**

والإحسان قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً منـدوباً إليه، فما كان يتوقف عليه أداء الواجب، فهو واجب، ومـا كان زائداً على ذلك فهو مستحب.

وبنــاء على ذلــك، نقــول:]وأحســنوا[: فعـل الأمــر مستعمل في الواجب والمستحب.

والإحسان يكون في عبادة اللـه، ويكـون في معاملـة الخلـق، فالإحسـان في عبـادة الله فسـره النـبي حين

سأله جبريل[1]، فقال: ما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه". وهذا أكمل من الذي بعده، لأن الذي يعبد الله كأنه يراه عبادة طلب ورغبة، "فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"، أي: فإن لم تصل إلى هذه الحال، فاعلم أنه يراك والذي يعبد الله على هذه المرتبة يعبده عبادة خوف وهرب، لأنه يخاف ممن يراه.

وأما الإحسان بالنسبة لمعاملة الخلق؟ فقيل في تفسيره: بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

بذل الندى: أي: المعروف، سواء كان مالياً أو بدنياً أم جاهياً.

كف الأذى: أن لا تؤذي الناس بقولك ولا بفعلك.

وطلاقة الوجه: أن لا تكون عبوساً عند الناس، لكن أحياناً الإنسان يغضب ويعبس، فنقول: هذا لسبب، وقد يكون من الإحسان إذا كان سبباً لصلاح الحال.

ولهذا، إذا رجمن الزاني أو جلدناه، فهو إحسان إليه.

ويدخل في ذلك إحسان المعاملة في البيع، والشراء، والإجارة، والنكاح... وغير ذلك، لأنك إذا عاملتهم بالطيب في هذه الأمور، صبرت على العسر، وأوفيت الحق بسرعة، هذا يعد بذل الندى، فإن اعتديت بالغش والكذب والتزوير، فأنت لم تكف الأذى، لأن هذا أذية. أحسن في عبادة لله وإلى عباد الله.

*** وقوله:]إن الله يحب المحسنين[: هذا تعليل للأمر، فهذا ثواب المحسن، أن الله يحبهن ومحبة الله مرتبة عالية عظيمة، ووالله إن محبة الله لتشترى بالدنيا كلها، وهي أعلى من أن تحب الله، فكون الله يحبك أعلى من أن تحبه أنت، ولهذا قال تعالى:]قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله[، ولم يقل: فاتبعوني، تصدقوا في محبتكم لله. مع أن الحال تقتضي هكذا، ولكن قال:]يحببكم الله[[آل عمران: 31].**

ولهذا قال بعض العلماء: الشأن كل الشأن في أن الله يحبك لا أنك تحب الله.

كل يدعي أنه يحب الله، لكن الشأن في الذي في السماء عز وجل، هل يحبك أم لا؟ إذا أحبك الله عز وجل،

---

[1] رواه مسلم/ كتاب الإيمان/ باب بيان أركان الإيمان والإسلام، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أحبتك الملائكـة في السـماء، ثم يوضـع لـك القبـول في الأرض، فيحبك أهل الأرض[2]، ويقبلونك، ويقبلون ما جاء منك وهذه من عاجل بشرى المؤمن.

وفي هـذه الآيـة من الأسـماء: اللـه. ومن الصـفات الألوهية، والمحبة.

]وأقســــــطوا إن اللـــــــه يحب المقســــــــطين[[1]...

(1) الآيــة الثانيــة: قولــه:]وأقســطوا إن اللــه يحب المقسطين[[الحجرات: 9].

***]وأقسطوا[: فعل أمر، والإقساط ليس هو القسط، بل هو من فعل رباعي، فالهمزة فيه همـزة النفي، هـذه الهمــزة هي همــزة النفي، إذا دخلت على الفعــل، نفت معناه، فالفعل (قسط)، بمعنى: جـار، فـإذا أدخلت عليـه همزة (أقسـط)، صـار بمعـنى: عـدل، أي: أزال القسـط، وهو الجور، فيسمون مثـل هـذه الهمـزة همـزة السـلب، مثل خطئ وأخطأ، خطئ، بمعنى ارتكب الخطأ عن عمـد، وأخطأ: ارتكبه عن غير عمد.**

*** فقولــه:]وأقســطوا[، أي: اعــدلوا، وهــذا واجب، فالعدل واجب في كل ما تجب فيه التسوية:**

يدخل في ذلك العدل في معاملة الله عز وجـل، ينعم الله عليك بالنعم، فمن العدل أن تقوم بشكره، يبين الله لك الحق، فمن العدل أن تتبع هذا الحق.

ويدخل ف ذلك العدل في معاملات الخلق: أن تعامــل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولهـذا قـال النـبي عليـه الصلاة والسلام: "من أحب أن يزحــزح عن النـار ويدخلـه الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليــأت إلى الناس ما يحب أن يؤتي إليه[[1].

عامل الناس بما تحب أن يعاملوك بــه، مثلاً: إذا أردت أن تعامل شخصاً معاملة، فاعرضها أولاً على نفسك: هل إذا عاملك إنسان بها، هل ترضـى أم لا؟ إن كنت ترضـى، فعامله، وإلا، فلا تدافعه.

---

[2] لما رواه البخاري /كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة، ومسلم/ كتاب البر/ باب "إذا أحب الله عبداً".

[1] رواه مسلم/ كتاب الإمارة/ باب وجوب الوفاء بيعة الخلفاء الأول فالأول.

ويدخل في ذلك العدل بين الأولاد في العطية، قال النبي ﷺ: "اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم"[2].

ويدخل في ذلك العدل بين الورثة في الميراث، فيعطى كل واحد نصيبه، ولا يوصى لأحد منهم بشيء.

ويدخل في ذلك العدل بين الزوجات، بأن تقسم لكل واحدة مثل ما تقسم للأخرى.

ويدخل في ذلك العدل في نفسك، فلا تكلفها ما لا تطيق من الأعمال، إن لربك عليك حقاً، لنفسك عليك حقاً.

وعلى هذا فقس.

وهنا يجب أن ننبه على أن من الناس من يستعمل بدل العدل: المساواة! وهذا خطأ، لا يقال: مساواة، لأن المساواة قد تقتضي التسوية بين شيئين الحكمة تقتضي التفريق بينهما.

ومن أجل هذه الدعوة الجائرة إلى التسوية صاروا يقولون: أي فرق بين الذكر والأنثى؟! سووا بين الذكور والإناث! حتى إن الشيوعية قالت: أي فرق بين الحاكم والمحكوم، لا يمكن أن يكون لأحد سلطة على أحد، حتى بين الوالد والوالد، ليس للوالد سلطة على الولد... وهلم جراً.

لكن إذا قلنا بالعدل، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه، زال هذا المحذور، وصارت العبارة سليمة.

ولهذا، لم يأت في القرآن أبداً: عن الله يأمر بالتسوية! لكن جاء:]إن الله يأمر بالعدل[[النحل: 90]،]وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل[[النساء: 58].

وأخطأ على الإسلام من قال: إن دين الإسلام دين المساواة! بل دين الإسلام دين العدل، وهو الجمع بين المتساويين، والتفريق بين المفترقين، إلا أن يريد بالمساواة: العدل، فيكون أصاب في المعنى وأخطأ في اللفظ.

ولهذا كان أكثر ما جاء في القرآن نفي المساواة:]قل هو يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[[الزمر: 9]،ـ]هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي

([2]) رواه البخاري/ كتاب الهبة/ باب الإشهاد في الهبة، ومسلم/ كتاب الهبات/ باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة.

الظلمات والنور[[الرعد: 16]،]لا يستوي منكم من أنفق من قبـل الفتح وقاتـل أولئـك أعظم درجـة من الـذين أنفقـوا من بعـد وقـاتلوا[[الحديـد: 10]،ـ]لا يسـتوي القاعدون من المؤمـنين غـير أولي الضـرر والمجاهـدون في سبيل الله[[النساء: 95].

ولم يأت حرف واحد في القرآن يأمر بالمساواة أبداً، إنما يأمر بالعدل.

وكلمة (العدل) أيضاً تجدونها مقبوله لدى النفوس.

وأحببت أن أنبه على هذا، لئلا نكون في كلامنا إمعـة، لإن بعض الناس يأخذ الكلام على عواهنـه، فلا يفكـر في مدلوله وفيمن وضعه وفي مغزاه عند من وضعه.

وفي الآية من الأسماء والصفات مـا سـبق في الـتي قبلها.

]فمـا اسـتقاموا لكم فاسـتقيموا لهم إن اللـه يحب المتقين[[1]...........................

(1) الآيـــة الثالثـــة: قولـــه:]فمـــا اســـتقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين[[التوبة: 7].

***]ما[: شرطية، وفعل الشرط:]استقاموا[، وجوابـه:]فاستقيموا[، أي: مهمـا اسـتقام لكم المعاهـدون الـذين عاهدتهم عند المسجد الحرام بالوفاء بالعهد، فاستقيموا لهم في ذلك.**

وهذه الجملة الشرطية تقتضـي بمنطوقهـا، أنهم إذا اســـتقاموا لنـــا، وجب أن نســـتقيم لهم، وأن نـــوفي بعهدهم. وتدل بمفهومها على أنهم إذا لم يسـتقيموا، لا نستقيم لهم.

والمعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم استقاموا على عهـدهم وأمنـاهم، فيجب علينـا أن نسـتقيم لهم، لقولـه تعـالى:]فمـا اسـتقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين[.

وقسـم خـانوا ونقضـوا العهـد، فهـؤلاء لا عهـد لهم، لقوله تعالى:]وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقـــاتلوا أئمـــة الكفـــر إنهم لا أيمـــان لهم[[التوبة: 12].

وقسم ثالث يظهرون الاستقامة لنا، لكننا نخـاف من خيانتهم، بمعنى أنه توجد قرائن تـدل على أنهم يريـدون الخيانة، فهؤلاء قـال اللـه فيهم:]وإمـا تخـافن من قـوم خيانـــة فانبـــذ إليهم على ســـواء إن اللـــه لا يحب الخائنين[[الأنفال: 58]، أي: انبذ إليهم عهدهم، فقل: لا عهد بيننا وبينكم.

فــإذا قــال قائــل: كيــف ينبــذ العهــد إليهم وهم معاهدون؟!

قلنا: لخـوف الخيانـة، فهـؤلاء لا نـأمنهم، لأنـه يمكن في يوم من الأيام أن يصـبحونا، فهـؤلاء ننبـذ إليهم على سـواء، ولا نخـونهم مـا دام العهـد قائمـاً، لأنـه لـو قـال المسلمون: نحن نخاف منهم الخيانة، سنبادرهم بالقتال. قلنا: هذا حرام، لا تقاتلوهم حتى تنبذوا إليهم العهد.

* وقوله:]المتقين[: المتقون هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعـل أوامـره واجتنـاب نواهيـه، هـذا من أحسن وأجمع ما يقال في تعريف التقوى.

وفي الآية من الأسماء والصفات كالتي قبلها.

]إن اللـــه يحب التـــوابين ويحب المتطهـــرين[(1)..

(1) الآيـــة الرابعـــة: قولـــه:]إن اللـــه يحب التوابين[[البقرة: 222].

* التواب: صيغة مبالغة من التوبة، وهو كثـير الرجـوع إلى الله، والتوبة هي الرجـوع إلى اللـه من معصـيته إلى طاعته.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله تعالى بأن يكون الحامـل لـه على التوبة مخافة الله ورجاء ثوابه.

الثاني: الندم على ما فعـل من الـذنب، وعلامـة ذلـك أن يتمنى أنه لم يقع منه.

الثالث: الإقلاع عن الذنب، بتركـه إن كـان محرمـاً، أو تداركه إن كان واجباً يمكن تداركه.

الرابع: العزم على أن لا يعود إليه.

الخامس: أن تكون في وقت تقبل فيـه التوبـة، وهـو ما كان قبل حضور الموت وطلـوع الشـمس من مغربهـا،

فإن كانت بعد حضور الموت أو بعد طلوع الشمس من مغربها، لم تقبل.

فالتواب: كثير التوبة.

ومعلوم أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذنب، ومن هنا نفهم بأن الإنسان مهما كثر ذنبه، إذا أحدث لكل ذنب توبة، فإن الله تعالى يحبه، والتائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوب إلى الله عز وجل من باب أولى، لأن من كثرت ذنوبه وكثرت توبته يحبه الله، فمن قلت ذنوبه، كانت محبة الله له بالتوبة من باب أولى.

* وقوله:]ويحب المتطهرين[: الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس في أبدانهم وما يجب تطهيرة.

وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن: طهارة الباطن بقوله:]التوابين[، والظاهر بقوله:]المتطهرين[.

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها.

وقوله:]قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله[(1)..........................

(1) الآية الخامسة: قوله:]قل إن كنتم تحبو الله فاتبعوني يحببكم الله[[آل عمران: 31].

يسمى علماء السلف هذه الآية: آية المحنة، يعني الامتحان، لأن قوماً ادعوا أنهم يحبون الله فأمر الله نبيه أن يقول لهم:]قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني[، وهذا تحد لكل من ادعى محبة الله، أن يقال له: إن كنت صادقاً في محبة الله، فاتبع الرسول ، فمن أحدث في دين رسول الله ما ليس منه، وقال: إنني أحب الله ورسوله بما أحدثته، قلنا له: هذا كذب لو كانت محبتك صادقة، لا تبعت الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم تتقدم بين يديه بإدخال شيء في شريعته ليس من دينه، فكل من كان أتبع لرسول الله ، كان لله أحب.

وإذا أحب الله وقام بعبادته، فإن الله تعلى يحبه، بل إن الله عز وجل يعطيه أكثر مما عمل، يقول تعالى في الحديث القدسي: "من ذكرني في نفسهن ذكرته في نفسي"، ونفس الله أعظم من نفوسنا. "ومن ذكرني

في ملأ، ذكرته ي ملأ خير منه". وفي الحديث أيضــاً: "أن من تقرب إليه شبراً تقرب الله إليه ذراعـاً، ومن تقـرب إليه ذراعاً، تقرب إليـه باعـاً، ومن أتى إلى اللـه يمشـي، أتاه الله هرولة"[1] .

إذا فعطاه الله عز وجل وثوابه أكثر من عملك.

وفي الآية من الأسماء والصفات مما سبق في الـتي قبلها.

وقولـه:]فسـوف يـأتي اللـه بقـوم يحبهم ويحبونه[[1]...............................

(1)* الآية السادسة: قوله:]فسوف يأتي اللـه بقـوم يحبهم ويحبونه[[المائدة: 54].

* الفاء واقعة في جواب الشرط في قولـه:]يـا أيهـا الذين ىمنوا من يرتـد منكم عن دينـه فسـوف يـأتي اللـه بقوم يحبهم ويحبونه[، أي: إذا ارتددتم عن دين الله، فإن ذلك لا يضر الله شـيئاً،]فسـوف يـأتي اللـه بقـوم يحبهم ويحبونه[، وهذا كقوله:]وإن تتولوا يستبدل قوماً غـيركم ثم لا يكونوا أمثالكم[[محمد: 38].

* فكل من ارتد عن دين الله، فإن الله لا يعبأ به، لأنه تعالى غني عنه، بل يزيله ويأتي بخير منه،]فسوف يأتي الله بقوم[بدل منهم]يحبهم ويحبونه[، وإذا كانوا يحبـون الله ويحبهم الله فسوف يقومون بطاعته.

* وتمــام الآيــة:]أذلــة على المؤمــنين أعــزة على الكــافرين[: أمــا المؤمــنين أذلــة، يخفضــون أجنحتهم للمؤمنين، ويلينون لهم، ويتطامنون، ومـع الكفـار أعـزة أقوياء، لا يظهرون الذل أمام الكافر أبداً.

وقـد علمنـا الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام: "وإذا لقيتموهم في طريق، فاضطروهم إلى أضـيقه"[1]، فـإذا لاقاكم اليهود والنصاري، ولـو كـانوا ألفـاً وأنتم عشـرة، نشق هذا الجمع، ولا نفسح لهم الطريق، بل نلجئهم إلى أضيقه، فنريهم العـز بـديننا لا بأنفسـنا، لأننـا نحن بشـر

---

[1] رواه البخاري/ كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى: "ويحذركم الله نفسه"، ومسلم/ كتاب الذكر والدعاء/ باب الحث على باب الحث على ذكر الله تعالى.

[1] رواه مسلم/ كتاب السلام/ باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام.

وهم بشر، حتى يتبين لهم أن دين الإسلام هو الظاهر، وأن المتمسك به هو العزيز.

*]يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم[: يجاهدون في سبيل الله، كل من قام ضد دين الله من كافر وفاسق وملحد ومارق يجاهدونه، وكل إنسان يقابلونه من السلام بما يليق به، فمن قاتلهم بالحديد والنار، قاتلوه بالحديد والنار، ومن قاتلهم بالجدال والخصام الكلامي، جادلوه بمثل ذلك، فهم يجاهدون في الله بكل نوع من أنواع الجهاد.

]ولا يخافون لومة لائم[لا يخافون نقد الناس عليهم، يقولون الحق ولو كان على أنفسهم.

لكنهم يستعملون الحكمة في هذا الجهاد ويرومون الوصول إلى الغاية، فإذا رأوا أن الدعوة تستوجب التأخر في بعض الأمور، تأخروا، وإذا رأوا أن الدعوة تقتضي اللين في بعض الأحوال، استعملوه، لأنهم يريدون الوصول إلى غاية معينة، والوسيلة حسب ما تقتضيه الحال.

* ثم قال الله تعالى:]ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم[.

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها، وزيادة أن الله تعالى يكون محبوباً.

وقوله:]إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص[[1]......

(1)* الآية السابعة: قوله:]إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص[[الصف: 4].

* هذه الآية في سورة الصف، وسورة الصف في الحقيقة هي سورة الجهاد، لأن الله تعالى بدأها بالثناء على المقاتلين في سبيله، ثم دعا إلى الجهاد في آخرها، ثم ذكر بين ذلك أن الله سيظهر دينه على كل الأديان ولو كره المشركون.

*]إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً[: لا يتقدم أحد على أحد ولا يتأخر، حتى في الجهاد.

والصلاة جهاد مصغر، فيها قائد يجب اتباعه، فإن لم تتبعه، بطلت صلاتك، قال النبي : "أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار، أو يجعل صورته صورة حمار"[1]، والصف في الصلاة نظير الصف في الجهاد، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصفهم في الجهاد كما يصفهم في الصلاة "كأنهم بنيان" والبنيان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "يشد بعضه بعضاً"[2]، يتماسك بعضه ببعض، ولهذا قال:]كأنهم بنيان مرصوص[، فليس كالمفرق: فالمرصوص أشد تماسكاً.

فهؤلاء الذين علق الله المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات:

أولاً: يقاتلون، فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكسل والجمود الذي يضعف الدين والدنيا.

ثانياً: الإخلاص، لقوله:]في سبيله[.

ثالثاً: يشد بعضهم بعضاً، لقوله:]صفاً[.

رابعاً: أنهم كالبنيان، والبنيان حصن منيع.

خامساً: لا يتخللهم ما يمزقهم، لقوله:]مرصوص[.

هذه خمس صفات علق الله المحبة لهؤلاء عليها.

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها.

وقوله:]وهو الغفور الودود[(1) ....

(1)* الآية الثامنة: قوله:]وهو الغفور الودود[[البروج: 14].

*]الغفور[: الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها.

*]الودود[مأخوذ من الود، وهو خالص المحبة، وهي بمعنى: واد، وبمعنى: مودود، لأنه عز وجل محب ومحبوب، كما قال تعالى:]فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه[[المائدة: 54]، فالله عز وجل واد ومودو، واد لأوليائه، وأولياؤه يودونه يحبونه، يحبون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الأذان/ باب أثم من رفع رأسه قبل الإمام، ومسلم/ كتاب الصلاة/ باب تحريم سبق الإمام.

[2] رواه البخاري/ كتاب الآداب/ باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً.، ومسلم كتاب البر والصلة/ باب تراحم المؤمنين.

وفي الآية اسمان من أسماء الله: الغفـور، والـودود. وصفتان: المغفرة، والود.

وأتمنى لو أن المؤلف أضاف آية تاسـعة في المحبـة، وهي الخلـــة، لقولـــه تعـــالى:]واتخـــذ اللـــه إبـــراهيم خليلاً[[النسـاء: 125]، والخليـل هـو من كـان في أعلى المحبة، فالخلة أعلى أنواع المحبة، لأن الخليل هـو الـذي وصـل حبـه إلى سـويداء القلب وتخلـل مجـاري عروقـه، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبداً.

يقول الشاعر لمعشوقته:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

فالنبي عليه الصلاة والسلام يحب أصحابه كلهم، لكن ما اتخذ واحداً منهم خليلاً أبداً، قـال النـبي عليـه الصـلاة وهــو يخطب النــاس: "لــو كنت متخــذاً خليلاً من أمــتي لاتخذت أبا بكر"[1]، إذاً، أبو بكر هو أحب الناس إليــه، لكن لم يصل إلى درجـة الخلـة، لأن الرسـول لم يتخـذ أحـداً خليلاً، لكن إخوة الإسلام ومودته، وأما الخلـة، فهي بينـه وبين ربه، قال النبي : "إن الله اتخـذني خليلاً كمـا اتخـذ إبراهيم خليلاً"[2].

والخلة لا نعلم أنها ثبتت لأحد من البشـر، إلا لاثـنين، هما إبراهيم محمد عليهما الصلاة والسلام، لقـول النـبي : "إن الله اتخذني خليلاً".

وهذه الخلـة صـفة من صـفات اللـه عـز وجـل، لأنهـا أعلى أنــواع المحبــة، وهي توقيفيــة، فلا يجــوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل إلا بـدليل، حـتى الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام، إلا هـذين الرسـولين الكـريمين، فهمـا خليلان لله عز وجل.

وهـذه الآيـة:]واتخـذ اللـه إبـراهيم خليلاً[هي الـتي استشــهد بهــا من قتــل الجعــد بن درهم رأس المعطلــة الجهمية، أول ما أنكر قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً فقتله خالد بن عبدالله القسـري رحمه الله، حيث خرج بـه موثقـاً في يـوم عيـد الأضـحى،

---

(1) رواه مسلم/ كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل أبي بكر الصديق.

(2) رواه مسلم (532) عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه.

وخطب النـاس، وقـال: أيهـا النـاس ضـحوا تقبـل اللـه ضحاياكم، فإن مضح بالجعد بن درهم، لأنـه زعم أن اللـه لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمـاً، ثم نـزل فذبحه.

ويقول ابن القيم في ذلك:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد القسري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني

شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربان

فلدينا الآن محبة وود وخلة، فالمحبة والـود مطلقـة، والخلة خاصة بإبراهيم ومحمد.

ويجب أن يكـون اعتمادنـا في الأمـور الغيبيـة على الأدلة السمعية، لكن لا مانع من أن نستدل بأدلة عقليـة، لإلزام من أنكـر أن تكـون المحبـة ثابتـة بالأدلـة العقليـة، مثـل الأشـاعرة، يقولـون: لا يمكن أن تثبت المحبـة بين الله وبين العبد أبداً، لأن العقل لا يدل عليها، وكـل مـا لا يدل عليه العقل، فإنه يجب أن ننزه الله عنه.

فنحن نقول: نثبت المحبة بالأدلـة العقليـة، كمـا هي ثابتة عندنا بالأدلة السمعية، احتجاجاً على من أنكر ثبوتها بالعقل، فنقول وبالله التوفيق:

إثابة الطائعين بالجنات والنصر والتأييـد وغـيره، هـذا يدل بلا شك على المحبـة، ونحن نشـاهد بأعيننـا ونسـمع بآذاننا عمن سبق وعمن لحق أن الله عز وجل أيد من أيد من عباده المؤمنين ونصرهم وأثابهم، وهل هذا إلا دليـل على المحبة لمن أيدهم ونصرهم وأثابهم عز وجل؟!

وهنا سؤالان:

الأول: بماذا ينال الإنسان محبة الله عز وجل؟ وهـذه هي الـتي يطلبهـا كـل إنسـان، والمحبـة عبـارة عن أمـر فطـري يكـون في الإنسـان ولا يملكـه، ولهـذا يـروى أن الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام قـال في العـدل بين

زوجاتـه: "هـذا قسـمي فيمـا أملـك، فلا تلمـني فيمـا لا أمرك"[1]؟

فالجواب: أن المحبة لها أسباب كثيرة:

منها: أن ينظر الإنسان: من الذي خلقـه؟ ومن الـذي أمده بـالنعم منـذ كـان في بطن أمـه؟ ومن الـذي أجـرى إليك الدم في عروقك قبـل أن تـنزل إلى الأرض إلا اللـه عــز وجــل؟ من الــذي دفــع عنــك النقم الــتي انعقــدت أسبابها، وكثيراً مـا تشـاهد بعينـك آفـات ونقمـاً تهلكـك، فيرفعها الله عنك؟

وهذا لا شك أنه يجلب المحبـة، ولهـذا ورد في الأثـر: "أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم"[2].

واعتقد لو أن أحداً أهـدى إليـك قلمـاً، لأحببتـه، فـإذا كان كذلك، فأنت انظـر نعمـة اللـه عليـك النعم العظيمـة الكثيرة التي لا تحصيها، تحب الله.

ولهذا إذا جاءت النعمة وأنت في حاجة شـديدة إليهـا، تجد قلبك ينشرح، وتحب الذي أسداها إليك، بخلاف النعم الدائمة، فأنت تذكر هذه النعم التي أعطـاك اللـه، وتـذكر أيضاً أن الله فضـلك على كثـير من عبـاده المؤمـنين، إن كــان اللــه من عليــك بــالعلم، فقــد فضــلك بــالعلم، أو بالعبادة، فقـد فضـلك بالعبـادة، أو بالمـال: فقـد فضـلك بالمال، أو بالأهل، فقد فضـلك بالأهـل، أو بـالقوت فقـد فضلك بالقوت، وما من نعمـة إلا وتحتهـا مـا هـو دونهـا، فــأنت إذا رأيت هــذه النعمــة العظيمــة، شــكرت اللــه وأحببته.

ومنهــا: محبــة مــا يحبــه اللــه من الأعمــال القوليــة والفعلية والقلبيـة، تحب الـذي يحبـه اللـه، فهـذا يجعلـك تحب الله، لأن الله يجازيك على هذا أن يضـع محبتـه في قلبـك، فتحب اللــه إذا قمت بمــا يحب، وكـذلك تحب من يحب، والفــرق بينهمــا ظــاهر، الأخــيرة من الأشــخاص، والأولى من الأعمال، لأننا أتينا بـ(ما) التي لغـير العاقـل من الأعمال والأماكن والأزمان، وهـذه (من) للعاقـل من الأشــخاص، تحب النــبي عليــه الصــلاة والســلام، تحب

---

[1] رواه أحمد (6/144).

[2] رواه الترمذي/ كتاب المناقب (3789)، والحاكم (2/150)

إبراهيم، تحب موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، تحب الصديقين، كأبي بكر، والشهداء، وغـير ذلـك ممن يحبهم الله، فهذا يجلب لك محبة الله، وهو أيضـاً من أثـار محبـة الله، فهو سبب وأثر.

ومنها: كثرة ذكر الله، بحيث يكـون دائمـاً على بالـك، حتى تكون كلمـا شـاهدت شـيئاً، استدللت بـه عليـه عـز وجل، حتى يكون قلبك دائماً مشغولاً بالله، معرضـاً عمـا سواه، فهذا يجلب لك محبة الله عز وجل.

وهذه الأسـباب الثلاثـة هي عنـدي من أقـوى أسـباب محبة الله عز وجل.

السـؤال الثـاني: مـا هي الآثـار المسـلكية الـتي يستلزمها ما ذكر؟

والجواب:

أولاً: قولـه:]وأحسـنوا إن اللـه يحب المحسـنين[[البقـرة: 195]: يقتضـي أن نحسـن، وأن نحرص على الإحسان، لأن اللـه يحبـه، وكـل شـيء يحبـه الله، فإننا نحرص عليه.

ثانيـاً: قولـه:]وأقسـطوا إن اللـه يحب المقسطين[[الحجـرات: 9]: يقتضـي أن نعـدل ونحـرص على العدل.

ثالثـاً: قولـه:]إن اللـه يحب المتقين[[التوبـة: 7]: يقتضي أن نتقي الله عزوجل، لا نتقي المخلوقين بحيث إذا كـان عنـدنا من نسـتحي منـه من النـاس، تركنـا المعاصي، وإذا لم يكن، عصـينا، فـالتقوى أن نتقي اللـه عز وجـل، ولا يهمـك النـاس. أصـلح مـا بينـك وبين اللـه، يصلحا لله ما بينك وبين الناس. أنظر يا أخي إلى الشيء الذي بينك وبين ربك، يصـلح اللـه مـا بينـك وبين النـاس. أنظر يا أخي إلى الشيء الذي بينك وبين ربك، ولا يهمك غير ذلك،]إن اللـه يـدافع عن الـذين آمنـوا[[الحج: 38]. افعل ما يقتضيه الشرع، وستكون لك العاقبة.

رابعـاً: يقـول اللـه تعـالى:]إن اللـه يحب التوابين[[البقرة: 222]، وهذه تستوجب أن أكـثر التوبـة إلى الله عز وجل، أكثر أن أرجع إلى الله بقلبي وقالبي، ومجرد قول الإنسان: أتـوب إلى اللـه. هـذا قـد لا ينفـع،

لكن تستحضر وأنت تقول: أتوب إلى الله: أن بين يـديك معاصي، ترجع إلى الله منهـا وتتـوب، حـتى تنـال بـذلك محبة الله.

]ويحب المتطهرين[[البقرة: 222]: إذا غسلت ثوبــك من النجاســة، تحس بــأن اللـــه أحبــك، لأن اللـــه يحب المتطهـرين. إذا توضـأت، تحس بـأن اللـه أحبـك، لأنـك تطهرت. إذا اغتسلت، تحس أن الله أحبك، لأن اللـه يحب المتطهرين....

ووالله، إننـا لغـافلون عن هـذه المعـاني، أكـثر مـا نسـتعمل الطهـارة من النجاسـة أو من الأحـداث، لأنهـا شـرط لصـحة الصـلاة، خوفـاً من أن تفسـد صـلاتنا، لكن يغيب عنا كثيراً أن نشعر بأن هذا قربة وسبب لمحبة الله لنا، لو كنا نستحضـر عنـدما يغسـل الإنسـان نقطـة بـول أصابت ثوبه أن ذلـك يجلب محبـة اللـه لـه، لحصـلنا خـيراً كثيراً، لكننا في غفلة.

خامسـاً: قولـه:]قـل إن كنتم تحبـون اللـه فـاتبعوني يحببكم الله ويغفـر لكم ذنـوبكم[[آل عمـران: 31]: هـذا أيضاً يستوجب أن نحرص غاية الحرص على اتباع النبي ، بحيث نترسم طريقـه، لا نخـرج منـه، وا نقصـر عنـه، ولا نزيد، ولا ننقص.

وشعورنا هذا يحمينا من البدع، ويحمينا من التقصير، ويحمينا من الزيادة والغلو، ولو أننا نشـعر بهـذه الأمـور، فانظر كيف يكون سلوكنا آدابنا وأخلاقنا وعباداتنا.

سادساً: قوله:]يا أيها الذين آمنوا من يرتـد منكم عن دينه فسوف يـأتي اللـه بقـوم يحبهم ويحبونه[[المائـدة: 54]، نحـذر بـه من الـردة عن الإسـلام، الـتي منهـا تـرك الصلاة مثلاً، فإذا علمنا أن الله يهددنا بأننا إن ارتددنا عن ديننا، أهلكنا الله، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه، ويقومــون بواجبهم نحو ربهم، فإننا نلازم طاعـة اللـه والابتعـاد عن كل ما يقرب للردة.

سابعاً: قوله:]إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص[[الصف: 4].

إذا آمنا بهذه المحبـة، فعلنـا هـذه الأسـباب الخمسـة الــتي تســتلزمها وتوجبهــا: القتــال، وعــدم التــواني،

والإخلاص، بأن يكون في سبيل الله، أن يشد بعضنا بعضاً كأننا بنيان، أن نحكم الرابطة بيننا إحكاماً قوياً كالبنيان المرصوص، أن نصف، وهذا يقتضي التساوي حساً، حتى لا تختلف القلوب، وهو مما يؤكد الألفة، والإنسان إذا رأى واحداً عن يمينه وواحداً عن يساره، يقوى على الإقدام، لكن لو يحيطون به من جميع الجوانب، فستشتد همته.

فصار في هذه الآيات ثلاثة مباحث:

1- إثبات المحبة بالأدلة السمعية.

2- أسبابها.

3- الآثار المسلكية في الإيمان بها.

أما أهل البدع الذين أنكروها، فليس عندهم إلا حجة واهية، يقولون:

أولاً: إن العقل لا يدل عليها.

ثانياً: إن المحبة إنما تكون بين اثنين متجانسين، لا تكون بين رب ومخلوق أبداً، ولا بأس أن تكون بين المخلوقات. ونحن نرد عليهم فنقول:

نجيبكم عن الأول ـ وهو أن العقل لا يدل عليها ـ بجوابين: أحدهما: بالتسليم، والثاني: بالمنع.

التسليم: نقول: سلمنا أن العقل لا يدل على المحبة، فالسمع دل عليها، وهو دليل قائم بنفسه، والله عز وجل يقول في القرآن:]ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء[[النحل: 89]، فإذا كان تبياناً، فهو دليل قائم بنفسه، "وانتفاء الدليل المعين، لا يلزم منه انتفاء المدلول"، لأن المدلول قد يكون له أدلة متعددة، سواء الحسيات أو المعنويات:

فالحسيات: مثل بلد له عدة طرق توصل إليه، فإذا انسد طريق، ذهبنا مع الطريق الثاني.

أما المعنويات، فكم من حكم واحد يكون له عدة أدلة وجوب الطهارة للصلاة مثلاً فيه أدلة متعددة.

فإذاً، إذا قلتم: إن العقل لا يدل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق، فإن السمع دل عليه بأجلى دليل وأوضح بيان.

الجواب الثاني: المنع: أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها، ونقول: بل العقل دل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق، كما سبق.

وأما قولكم: إن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين، فيكفي أن نقول: لا قبول لدعواكم، لأن المنع كاف في رد الحجة، إذ أن الأصل عدم الثبوت، فنقول: دعواكم أنها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوع، بل هي تكون بين غير المتجانسين، فالإنسان عنده ساعة قديمة ما أتعبته بالصيانة وما فسدت عليه قط فتجده يحبها، وعنده ساعة تأخذ نصف وقته في التصليح فتجده يبغضها. وأيضاً نجد أن البهائم تحب وتحب.

فنحن ـ ولله الحمد ـ نثبت لله المحب بينه وبين عباده.

صفة الرحمة

وقوله:]بسم الله الرحمن الرحيم[(1)

....

(1) (1) هذه آيات في إثبات صفة الرحمة:

الآية الأولى: قوله:]بسم الله الرحمن الرحيم[[النمل: 30].

هذه آية أتى بها المؤلف ليثبت حكماً، وليست مقدمة لما بعدها، وقد سبق لنا شرح البسملة، فلا حاجة إلى إعادته.

وفيها من أسماء الله ثلاثة: الله، الرحمن، الرحيم. ومن صفاته: الألوهية، والرحمة.

]ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما[(1)

....

(1) الآية الثانية: قوله:]ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما[[غافر: 7]. هذا يقوله الملائكة:]الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم[[غافر: 7].

ما أعظم الإيمان وأعظم فائدته

الملائكة حول العرش يحملونه، يدعون الله للمؤمن.

*** وقوله:]ربنا وسعت كل شيء رحمة[: يـدل على أن كل شيء وصله علم الله، وهو واصـل لكـل شـيء، فـإن رحمته وصلت إليه، لأن الله قرن بينهما في الحكم]ربنـــا وسعت كل شيء رحمة وعلما[.**

وهـــذه هي الرحمـــة العامـــة الـــتي تشـــمل جميـــع المخلوقات، حتى الكفار، لأن الله قرن الرحمة هـذه مـع العلم، فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شــيء، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضاً.

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصـرة غايـة القصـور بالنسـبة لرحمـة المـؤمن، فالـذي يـرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعـام والشـراب واللبـاس والمسكن والمنكح وغير ذلك.

أمـــا المؤمنـــون، فـــرحمتهم رحمـــة أخص من هـــذه وأعظم، لأنهار رحمة إيمانية دينية دنيوية.

ولهذا تجد المؤمن أحسن حالاً من الكـافر، حـتى في أمور الدنيا، لأن الله يقول:]من عمل صـالحاً من ذكـر أو أنـثى وهـو مـؤمن فلنحيينـه حيـاة طيبة[[النحـل: 97]: الحيـاة الطيبـة هـذه مفقـودة بالنسـبة للكفـار، حيـاتهم كحيـــاة البهـــائم، إذا شـــبع، روث، وإذا لم يشـــبع، جلس يصرخ هكذا هؤلاء الكفار إن شـبعوا، بطـروا وإلا جلسـوا يصـرخون ولا يسـتفيدون من دنيـاهم، لكن المـؤمن إن أصابته سـراء، شـكر، فهـو في خـير في هـذا وفي هـذا، وقلبه منشرح مطمئن متفق مع القضاء والقـدر، لا جـزع عند البلاء، ولا بطر عند النعماء، بل هو متوازن مسـتقيم معتدل.

فهذا فرق ما بين الرحمة هذه وهذه.

لكن مع الأسـف الشـديد أيهـا الأخـوة: إن منـا أناسـاً آلافاً يريدون أن يلحقـوا بـركب الكفـار في الـدنيا، حـتى جعلـــوا الـــدنيا هي همهم، إن أعطـــوا، رضـــوا، وإن لم يعطوا، إذا هم يسخطون هؤلاء مهما بلغوا في الرفاهيـة الدنيوية، فهم في جحيم، لم يذوقوا لذة الدنيا أبداً، إنمـا ذاقهـا من آمن باللـه وعمـل صـالحاً. ولهـذا قـال بعض السلف: والله، لو يعلم الملوك وأبناء لملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف. لأنه حال بينهم وبين هذا النعيم

ما هم عليه من الفسوق والعصيان والركون إلى الدنيا وأنها أكبر همهم ومبلغ علمهم.

قوله:]رحمة وعلما[:]رحمة[: تمييز محول عن الفاعل، وكذلك]وعلما[، لأن الأصل: ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء.

وفي الآية من صفات الله: الربوبية وعموم الرحمة، والعلم.

]وكان بالمؤمنين رحيماً[(1) ....

(1) الآية الثالثة: قوله:]وكان بالمؤمنين رحيماً[[الأحزاب: 43].

*]بالمؤمنين[: متعلق بـ(رحيم)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فيكون معنى الآية: وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيماً.

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها:]ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً[[غافر: 7]؟!

نقول: الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك. هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار، بخلاف الأولى. هذا هو الجمع بينهما، وإلا؛ بخلاف الأولى. هذا هو الجمع بينهما، وإلا، فكل مرحوم، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة.

وفي الآية من الصفات: الرحمة.

ومن الناحية المسلكية: الترغيب في الإيمان.

]ورحمتي وسعت كل شيء[(1).]كتب ربكم على نفسه الرحمة[(2)..................

(1) الآية الرابعة: قوله:]ورحمتي وسعت كل شيء[[الأعراف: 156] يقول جل جلاله ممتدحاً مثنياً على نفسه]ورحمتي وسعت كل شيء[، فأثنى على نفسه عز وجل بأن رحمته وسعت كل شيء من أهل السماء ومن أهل الأرض.

ونقول فيها ما قلنا في الآية الثانية، فليرجع إليه.

(2) الآية الخامسة: قوله:]كتب ربكم على نفسه الرحمة[[الأنعام: 54].

*]كتب[: بمعنى: أوجب على نفسه الرحمة، فالله عز وجل لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة، فالله عز وجل لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة، وجعل رحمته سابقه لغضبه،]ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة[[فاطر: 45]، لكن حلمه ورحمته أوجبت أن يبقى الخلق إلى أجل مسمى.

* ومن رحمته ما ذكره بقوله:]أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم[[الأنعام: 54] هذه من رحمته.

*]سوءا[: نكرة في سياق الشرط، فتعم كل سوء، حتى الشرك.

*]بجهالة[: يعني: بسفه، وليسالمراد بها عدم العلم، والسفه عدم الحكمة، لأن كل من عصى الله، فقد عصاه بجهالة وسفه وعدم حكمة.

]ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم[: فيغفر ذنبه ويرحمه.

ولم يختم الآية بهذا، إلا سينال التائب المغفرة والرحمة، هذا من رحمته التي كتبها على نفسه، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذه على ذنبه، ويجزيه على عمله الصالح.

فلو أن رجلاً أذنب خمسين يوماً، ثم تاب وأصلح خمسين يوماً، فالعدل أن نعذبه عن خمسين يوماً، ونجازيه بالثواب عن خمسين يوماً، لكن الله عز وجل كتب على نفسه الرحمة، فكل الخمسين يوماً، لكن الله عز وجل كتب على نفسه الرحمة، فكل الخمسين يوماً التي ذهبت من السوء تمحى وتزول بساعة، وزد على ذلك:]فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات[[الفرقان: 70]، السيئات الماضية تكون حسنات، لأن كل حسنة عنها توبة، وكل توبة فيها أجر.

فظهر بهذا أثر قوله تعالى:]كتب ربكم على نفسه الرحمة[.

وفي الآية من صفات الله: الربوبية، والإيجاب، والرحمة.

(1) الآيـــة السادســـة: قولـــه:]وهـــو الغفـــور الرحيم[[يونس: 107].
*** الله عز وجل هو الغفور الرحيم، جمع عز وجل بين هذين الاسـمين، لأن بـالمغفرة سـقوط عقوبـة الـذنوب، وبالرحمة حصول المطلـوب، والإنسـان مفقـتر إلى هـذا وهذا، ومفتقر إلى مغفرة ينجو بهـا من آثامـه، ومفتقـر إلى رحمة يسعد بها بحصول مطلوبة.**
*** فـ]الغفور[: صيغة مبالغة مـأخوذة من الغفـر، وهـو السـتر مـع الوقايـة، لأنـه مـأخوذ من المغفـر، والمغفـر شيء يوضـع على الـرأس في القتـال يقي من السـهام، وهـذا المغفـر تحصـل بـه فائـدتان همـا: سـتر الـرأس والوقاية. فـ]الغفور[: الذي يسـتر ذنـوب عبـاده، ويقيهم آثامها، بالعفو عنها.**
ويـدل على هـذا مـا ثبت في الصـحيح: "أن اللـه عـز وجل يخلو يـوم القيامـة بعبـده، ويقـرره بذنوبـه، يقـول: عملت كذا، وعملت كذا.. حتى يقر، فيقول الله عز وجـل لـه: قـد سـترتها عليـك في الـدنيا، وأنـا أغفرهـا لـك اليوم"[1].
]فاللـــه خـــير حافظـــاً وهـــو أرحم الـــراحمين[[1] ....
(1) الآيـة السـابعة: قولـه:]فاللـه خـير حافظـاً وهـو أرحم الـراحمين[[يوسـف: 64]، قالهـا عن يعقـوب حين أرسل مع أبنائه أخـا يوسـف الشـقيق، لأن يوسـف عليـه الصلاة والسلام قال: لا كيـل لكم إذا رجعتم، إلا إذا أتيتم بأخيكم، فبلغوا والدهم هذه الرسـالة، ومن أجـل الحاجـة أرسله معهم، وقال لهم عند وداعه:]هـل آمنكم عليـه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبـل فاللـه خـير حافظـاً وهـو أرحم الراحمين[[يوسف: 64]، يعـني: لن تحفظـوه، لكن الله هو الذي يحفظه.
***]خير حافظـاً[:]حافظـاً[: قـال العلمـاء: إنـا تميـيز، كقول العرب: لله دره فارساً. وقيل: إنها حال من فاعل]خير[في قوله:]فالله خير[، أي: حال كونه حافظاً.**

([1]) رواها لبخاري/ كتاب المظالم/ باب قوله تعالى: "ألا لعنة الله على الظالمين"، ومسلم/ كتاب التوبة/ باب قبـول توبة القاتل.

*** الشاهد من الآية هنا قوله:]وهـو أرحم الـراحمين[، حيث أثبت اللــه عــز وجــل الرحمــة، بــل بين أنــه أرحم الـراحمين، لـو جمعت رحمـة الخلـق كلهم، بـل رحمـات الخلق كلهم، لكانت رحمة الله أشد وأعظم.**

أرحم ما يكون من الخلـق بـالخلق رحمـة الأم ولـدها، فإن رحمة الأم ولدها لا يساويها شيء من رحمـة النـاس أبداً، حتى الأب لا يرحم أولاده مثل أمهم في الغالب.

جـاءت امـرأة في السـبي تطلب ولـدها وتبحث عنـه، فلما رأته، أخذته بشفقة وضمته إلى صدرها أمام النـاس وأمـام الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، فقـال النـبي : "أترون أن هذه المرأة طارحة ولدها في النـار؟". قـالوا: لا والله يا رسول الله. قـال: "للـه أرحم بعبـاده من هـذه بولدها"[1].

جل جلاله، عز ملكه وسلطانه.

كـل الـراحمين، إذا جمعت رحمـاتهم كلهم، فليسـت بشيء عند رحمة الله.

ويدلك على هذا أن اللـه عـز وجـل خلـق مئـة رحمـة، وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق في الدنيا[2].

كـل الخلائـق تـتراحم، البهـائم والعقلاء، ولهـذا تجـد البعير الجموح الرموح ترفع رجلهـا عن ولـدها مخافـة أن تصيبه عندما يرضع حتى يرضـع بسـهولة ويسـر، وكـذلك تجد السباع الشرسة تجـدها تحن على ولـدها وإذا جاءهـا أحد في جحرها مع أولادها، ترمي نفسها عليـه، فتـدافع عنهم، حتى ترده عن أولادها.

وقــد دل على ثبــوت رحمــة اللــه تعــالى: الكتــاب، والسنة، والإجماع، والعقل:

فأمـا الكتـاب، فجـاء بـه إثبـات الرحمـة على وجـوه متنوعـــة، تـــارة بالاســـم، كقولـــه:]وهـــو الغفـــور الـرحيم[[يـونس: 107]، وتـارة بالصـفة، قولـه:]وربـك الغفور ذو الرحمة[[الكهف: 58]، وتارة بالفعل، كقولـه:]يعذب من يشاء ويرحم من يشاء[[العنكبوت: 21]، وتارة

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الأدب/ باب رحمة الولد، ومسلم/ كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله.

[2] رواه البخاري/ كتاب الأدب/ باب جعل الله الرحمة في مائة جزء، ومسلم/ كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله.

باسم التفضيل، كقوله:]وهو أرحم الـراحمين[[يوسـف: 92].

ويمثل هذه الوجوه.. جاءت السنة.

وأما الأدلـة العقليـة على ثبـوت الرحمـة للـه تعـالى، فمنها ما نرى من الخيرات الكثيرة التي تحصل بأمر اللـه عز وجل، ومنها مـا نـرى من النقم الكثـيرة الـتي تنـدفع بأمر الله، كله دال على إثبات الرحمة عقلاً.

فالنـــاس في جـــدب وفي قحـــط، الأرض مجدبـــة، والسماء قاحطة، لا مطر، ولا نبات، فيـنزل اللـه المطـر، وتنبت الأرض، وتشـبع الأنعـام، ويسـقي النـاس.. حـتى العـامي الـذي لم يـدرس، لـو سـألته وقلت: هـذا من أي شيء؟ فسيقول: هذا من رحمـة اللـه ولا يشـك أحـد في هذا أبداً.

فرحمة الله عز وجل ثابتة بالدليل السـمعي والـدليل العقلي.

وأنكر الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيـل أن يكـون الله تعـالى متصـفاً بالرحمـة، قـالوا: لأن العقـل لم يـدل عليهـــا. وثانيـــاً: لأن الرحمـــة رقـــة وضـــعف وتطـــامن للمرحوم، وهذا لا يليـق باللـه عـز وجـل، لأن اللـه أعظم من أن يـرحم بـالمعنى الـذي هـو الرحمـة، ولا يمكن أن يكـــون للـــه رحمـــة!! وقـــالوا: المـــراد بالرحمـــة: إرادة الإحسـان، أو: الإحسـان نفسـه، أي: إمـا النعم، أو إرادة النعم.

فتأمل الآن كيف سلبوا هذه الصـفة العظيمـة، الـتي كل مؤمن يرجوها ويؤملها، كـل إنسـان لـو سـألته: مـاذا تريد؟ قـال: أريـد رحمـة اللـه]إن رجعت اللـه قـريب من المحسنين[[الأعراف: 56]. أنكـروا هـذا، قـالوا: لا يمكن أن يوصف الله بالرحمة!!

ونحن نـــرد عليهم قـــولهم من وجهين: بالتســـليم، والمنع:

التسليم أن نقول: هب أن العقل لا يدل عليها، ولكن السمع دل عليها، فثبتت بدليل آخر، والقاعدة العامة عند جميع العقلاء: أن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفـــاء المدلول، لأنه قـد يثبت بـدليل آخـر. فهب أن الرحمـة لم

تثبت بالعقـل، لكن ثبتت بالسـمع، وكم من أشـياء ثبتت بأدلة كثيرة.

أما المنع، فنقول: إن قولكم: إن العقل لا يـدل على الرحمة: قول باطل، بل العقل يدل على الرحمـة، فهـذه النعم المشهودة والمسموعة، وهذه النقم المدفوعة، مـا سببها؟ إن سببها الرحمة بلا شك، ولو كان الله لا يـرحم العباد، ما أعطاهم النعم، ولا دفع عنهم النقم!

وهذا أمر مشهود، يشهد بـه الخـاص والعـام، العـامي في دكانه أو سوقه يعرف أن هذه النعم من آثار الرحمة.

والعجيب أن هـؤلاء القـوم أثبتـوا صـفة الإرادة عن طريق التخصيص، قالوا: الإرادة ثابتة لله تعـالى بالسـمع والعقل: بالسمع: واضح. وبالعقـل: لأن التخصـيص، يـدل على الإرادة ومعنى التخصيص يعني تخصيص المخلوقات بما هي عليه يدل على الإرادة، كون هذه السـماء سـماء، وهذه الأرض أرضاً، وهذه النجوم وهـذه الشـمس... هـذه مختلفة بسبب الإرادة، أراد الله أن تكون السـماء سـماء، فكـانت، وأن تكـون الأرض أرضـاً، فكـانت، والنجم نجمـاً، فكان.... وهكذا.

قالوا: فالتخصيص يدل على الإرادة، لأنه لولا الإرادة، لكان الكل شيئاً واحداً!

نقول لهم: يا سبحان الله العظيم! هـذا الـدليل على الإرادة بالنسبة لدلالة النعم على الرحمة أضـعف وأخفى من دلالـــة النعم على الرحمـــة، لأن دلالـــة النعم على الرحمـة يسـتوي في علمهـا العـام والخـاص، ودلالـة التخصـيص على الإرادة لا يعرفهـا إلا الخـاص من طلبـة العلم، فكيـف تنكـرون مـا هـو أجلى وتثبتـون مـا هـو أخفى؟! وهل هذا إلا تناقض منكم؟!

ما نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآيات:

الأمر المسلكي: هو أن الإنسان ما دام يعرف أن الله تعالى رحيم، فسوف يتعلق برحمة اللـه، ويكـون منتظـراً لها، فيحمله هذا الاعتقاد على فعل كل سبب يوصل إلى الرحمة، مثل: الإحسان، قال الله تعالى فيـه:]إن رحمت اللـه قـريب من المحسـنين[[الأعـراف: 56]، والتقـوى، قـال تعـالى:]فسـأكتبها للـذين يتقـون ويؤتـون الزكـاة

والذين هم بآياتنا يؤمنون[[الأعراف: 156]، والإيمان، فإنه من أسباب رحمة الله، كما قال تعالى:]وكان بالمؤمنين رحيماً[[الأحزاب: 43]، ولكما كان الإيمان أقوى، كانت الرحمة إلى صاحبه أقرب بإذن الله عز وجل.

صفة الرضى

وقوله:]رضي الله عنهم ورضوا عنه[[1]..

(1) هذه من آيات الرضى، فالله سبحانه وتعالى موصوف بالرضى، وهو يرضى عن العمل، ويرضى عن العامل.

يعني: أن رضى الله متعلق بالعمل وبالعامل..

أما بالعمل، فمثل قوله تعالى:]وإن تشكروا يرضه لكم[[الزمر: 7]، أي: يرض الشكر لكم.

وكما في قوله تعالى:]ورضيت لكم الإسلام ديناً[[المائدة: 3]. وكما في الحديث الصحيح: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً..."[1].

فهذا الرضى متعلق بالعمل.

ويتعلق الرضى أيضاً بالعامل، مثل هذه الآية التي ساقها المؤلف:]رضي الله عنهم ورضوا عنه[[المائدة: 119].

فرضى الله صفة ثابتة لله عز وجل، وهي في نفسه، وليست شيئاً منفصلاً عنه: كما يدعيه أهل التعطيل.

ولو قال لك قائل: فسر لي الرضى. لم تتمكن من تفسيره، لأن الرضى صفة في الإنسان غريزية، والغرائز لا يمكن لإنسان أن يفسرها بأجلي وأوضح من لفظها.

فنقول: الرضى صفة في الله عز وجل، وهي صفة حقيقية، متعلقة بمشيئته، فهي من الصفات الفعلية، يرضى عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرينن ولا يرضى عن القوم الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يرضى عن المنافقين، فهو سبحانه وتعالى يرضى عن أناس ولا يرضى عن أناس، ويرضى أعمالاً ويكره أعمالاً.

---

[1] رواه مسلم/ كتاب الأقضية/ باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

ووصف الله تعالى بالرضى ثابت بالدليل السمعي، كما سبق، وبالدليل العقلي، فإن كونه عز وجل يثيب الطائعين ويجزيهم على أعمالهم وطاعاتهم يدل على الرضى.

فإن قلت: استدلالك بالمثوبة على رضى الله عز وجل قد ينازع فيه، لأن الله سبحانه قد يعطي الفاسق من النعم أكثر مما يعطي الشاكل. وهذا إيراد قوي.

ولكن الجواب عنه أن يقال: إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج، وليس عن رضى:

كما قال تعالى:]والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (182) وأملي لهم إن كيدي متين[[الأعراف: 182-183].

وقال النبي ﷺ: "إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه، لم يفلته"، وتلا قوله تعالى:]وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد[[هود: 102].[1].

وقال تعالى:]فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (44) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين[[الأنعام: 44-45].

أما إذا جاءت المثوبة والإنسان مقيم على طاعة الله، فإننا نعرف أن ذلك صادر عن رضى الله عنه.

آيات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض

ذكر المؤلف رحمه الله في هذه الصفات خمس آيات:

وقوله:]ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه[(1)

....

(1) الآية الأولى: قوله:]ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه[[النساء: 93].

*]ومن[: شرطية. و(من) الشرطية تفيد العموم.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب التفسير، ومسلم/ كتاب البر/ باب تحريم الظلم.

*]مؤمنــاً[: هــو من آمن باللــه ورســوله، فخــرج بــه الكافر والمنافق.
لكن من قتل كافراً له عهد أو ذمة أو أمان، فهو آثم، لكن لا يستحق الوعيد المذكور في الآية.
وأما المنافق، فهو معصوم الدم ظـاهراً، مـا لم يعلن بنفاقه.
* وقولــه]متعمــدا[: يــدل على إخــراج الصــغير وغــير العاقل، لأن هؤلاء ليس لهم قصد معتبر ولا عمــد، وعلى إخراجا لمخطئ، وقد سبق بيانه في الآية التي قبلها.
فالذي يقتل مؤمناً متعمداً جزاؤه هذا الجزاء العظيم.
*]جهنم[: اسم من أسماء النار.
*]خالداً فيها[، أي: ماكثاً فيها.
*]وغضب الله عليه[: الغضب صفة ثابتــة للــه تعـالى على الوجه اللائق به، وهي من صفاته الفعلية.
*]ولعنه[: اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.
* فهذه أربعة أنــواع من العقوبــة، والخـامس: قولـه:]وأعد له عذاباً عظيماً[.
خمس عقوبات، واحدة منها كافية في الردع والزجــر لمن كان له قلب.
ولكن يشكل على منهج أهل الســنة ذكــر الخلـود في النــار، حيث رتب على القتــل، والقتــل ليس بكفــر، ولا خلود في النار عند أهل السنة إلا بالكفر.
وأجيب عن ذلك بعدة أوجه:
الوجه الأول: أن هذه في الكافر إذا قتل المؤمن.
لكن هذا القول ليس بشيء، لأن الكافر جزاؤه جهنم خالداً فيها وإن لم يقتل المؤمن:]إن الله لعن الكــافرين وأعد لهم سعيراً (64) خالدين فيهـا أبـدا لا يجـدون وليـاً ولا نصيرا[[الأحزاب، 64-65].
الوجه الثاني: أن هذا فيمن استحل القتل، لأن الــذي يستحل قتل المؤمن كافر.
وعجب الإمــام أحمــد من هــذا الجــواب، قــال: كيــف هذا؟! إذا استحل قتلـه، فهـو كـافر وإن لم يقتلـه، وهـو مخلد في النار وإن لم يقتله.
ولا يستقيم هذا الجواب أيضاً.

الوجه الثالث: أن هذه الجملة على تقدير شـرط، أي: فجزاؤه جهنم خالداً فيها إن جازاه.

وفي هذا نظر، أي فائدة في قولـه:]فجـزاؤه جهنم[، ما دام المعنى إن جازاه؟! فنحن الآن نسـأل: إذا جـازاه، فهل هذا جزاؤه؟ فإذا قيل: نعم، فمعناه أنـه صـار خالـداً في النار، فتعود المشكلة مرة أخرى، ولا نتخلص.

فهذه ثلاثة أجوبة لا تسلم من الاعتراض.

الوجه الرابع: أن هذا سـبب، ولكن إذا وجـد مـانع، لم ينفذ السبب، كما نقول: القرابة سـبب للإرث، فـإذا كـان القريب رقيقاً، لم يرث، لوجود المانع وهو الرق.

ولكن يـرد علينـا الإشـكال من وجـه آخـر، وهـو: مـا الفائدة من هذا الوعيد؟

فنقول: الفائدة أن الإنسان الذي يقتل مؤمناً متعمداً قد فعل السبب الـذي يخلـد بـه في النـار، وحينئـذ يكـون وجود المانع محتملاً، قد يوجـد، وقـد لا يوجـد، فهـو على خطر جـداً، ولهـذا قـال النـبي : "لن يـزال المـؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً"[1]. فإذا أصاب دماً حراماً والعياذ بالله، فإنه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه.

وعلى هذا، فيكـون الوعيـد هنـا باعتبـار المـال، لأنـه يخشى أن يكون هذا القتل سـبباً لكفـره، وحينئـذ يمـوت على الكفر، فيخلد.

فيكون في هـذه الآيـة على هـذا التقـدير ذكـر سـبب السـبب، فالقتـل عمـداً سـبب لأن يمـوت الإنسـان على الكفر، والكفر سبب للتخليد في النار.

وأظن هـذا إذا تأملـه الإنسـان، يجـد أنـه ليس فيـه إشكال.

الوجه الخـامس: أن المـراد بـالخلود المكث الطويـل، وليس المراد به المكث الدائم، لأن اللغـة العربيـة يطلـق فيها الخلود على المكث الطويـل كمـا يقـال: فلان خالـد ف الحبس، والحبس ليس بـدائم. ويقولـون: فلا خالـد خلـود الجبـار، ومعلـوم أن الجبـال ينسـفها ربي نسـفاً فيذرها قاعاً صفصفاً.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الديات/ باب قوله تعالى: "ومن يقتل مؤمناً متعمداً".

وهذا أيضاً جـواب سـهل لا يحتـاج إلى تعب، فنقـول: إن الله عز وجل لم يذكر التأبيد، لم يقل: خالداً فيها أبداً بل قال:]خالداً فيها[، والمعنى: أنه ماكث مكثاً طويلاً.

الوجـه السـادس: أن يقـال إن هـذا من بـاب الوعيـد، والوعيد يجوز إخلافه، لأنه انتقال من العـدل إلى الكـرم، والانتقال من العدل إلى الكرم كرم وثناء وأنشدوا عليـه قول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إبعادي ومنجز موعدي

أوعدته بالعقوبـة، ووعدتـه بـالثواب، لمخلـف إبعـادي ومنجز موعدي.

وأنت إذا قلت لابنـك: واللـه، إن ذهبت إلى السـوق، لأضربنك بهـذا العصـا. ثم ذهب إلى السـوق، فلمـا رجـع، ضربته بيدك، فهذا العقاب أهـون على ابنـك، فـإذا توعـد الله عز وجل القاتل بهذا الوعيد، ثم عفا عنه، فهذا كرم.

ولكن هذا في الحقيقـة فيـه شـيء من النظـر، لأننـا نقول: إن نفذ الوعيد، فالإشكال بـاق، وإن لم ينفـذ، فلا فائدة منه.

هـذه سـتة أوجـه في الجـواب عن الآيـة، وأقربهـا الخامس، ثم الرابع.

مسألة: إذا تاب القاتل، هل يستحق الوعيد؟

الجـواب: لا يسـتحق الوعيـد بنص القـرآن، لقولـه تعالى:]والذين لا يدعون مـع اللـه إلهـاً آخـر ولا يقتلـون النفس التي حرم اللـه إلا بـالحق ولا يزنـون ومن يفعـل ذلك يلق أثاما (68) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيهـا مهانـاً (69) إلا من تـاب وآمن وعمـل عملاً صـالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسـنات[[الفرقـان: 68-70]، وهذا واضح، أن من تاب ــ حـتى من القتـل ــ، فـإن اللـه تعالى يبدل سيئاته حسنات.

والحديث الصحيح في قصة الرجل من بني إسـرائيل، الذي قتل تسعاً وتسعين نفسـاً، فـألقى اللـه في نفسـه التوبة، فجاء إلى عابد، فقال له: إن قتل تسـعاً وتسـعين نفساً، فهل له من توبة؟! فالعابد استعظم الأمر، وقـال: ليس لك توبة! فقتله، فأتم بـه المائـة. فـدل على عـالم،

فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ قـال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ولكن هـذه القريـة ظـالم أهلهـا، فـاذهب إلى القريـة الفلانيـة، فيهـا أهـل خـير وصلاة، فسافر الرجـل، وهـاجر من بلـده إلى بلـد الخـير والصلاة، فوافتـه المنيـة في أثنـاء الطريـق، فاختصـمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة الرحمة وملائكة العذاب، حتى أنزل الله بينهم حكماً، وقـال: قيسـوا مـا بين القريـتين، فإلى أيتهما كان أقرب، فهو من أهلها، فكان أقـرب إلى أهل القرية الصالحة فقبضته ملائكة الرحمة[1].

فأنظر كيف كان من بني إسرائيل فقبلت توبته، مـع أن الله جعل عليهم آصاراً وأغلالاً، وهذه الأمة رفع عنهـا الآصار والأغلال، فالتوبة في حقها أسهل، فإذا كان هـذا في بني إسرائيل، فكيف بهذه الأمة؟

فإن قلت: ماذا تقول فيما صح عن ابن عباس رضـي الله عنهما: أن القاتل ليس له توبة[2]؟

فالجواب: من أحد الوجهين:

1- إمـا أن ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا اسـتبعد أن يكون للقاتل عمداً توبة، ورأى أنـه لا يوفـق للتوبـة، وإذا لم يوفق للتوبة، فإنه لا يسقط عنه الإثم، بل يؤاخذ به.

2- وإمـا أن يقـال: إن مـراد ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا: أن لا توبـة لـه فيمـا يتعلـق بحـق المقتـول، لأن القاتـل عمـداً يتعلـق بـه ثلاثـة حقـوق: حـق اللـه، وحـق المقتول، والثالث لأولياء المقتول.

أ- أمـا حـق اللـه، فلا شـك أن التوبـة ترفـع، لقولـه تعـالى:]قـل يـا عبـادي الـذين أسـرفوا على أنفسـهم لا تقنطـوا من رحمـة اللـه إن اللـه يغفـر الـذنوب جميعاً[[الزمر: 53]، وهذه في التائبين.

ب- وأمـا حـق أوليـاء المقتـول، فيسـقط إذا سـلم الإنسان نفسه لهم، أتى إليهم وقال: أنا قتلت صاحبكم، واصنعوا ما شئتم فهم غما أن يقتصوا، أو يأخـذوا الديـة، أو يعفوا، والحق لهم.

([1]) رواه البخاري/ كتاب الأنبياء، ومسلم/ كتاب التوبة/ باب قبول توبة القاتل.

([2]) رواه البخاري/ كتاب التفسير/ باب قوله تعالى "يضاعف له العذاب يوم القيامة......".

جـ- وأمـا حج المقتـول، فلا سـبيل إلى التخلص منـه في الدنيا.

وعلى هذا يحمل قول ابن عباس أنه لا توبـة لـه، أي: بالنسبة لحق المقتول.

على أن الذي يظهر لي أنه إذا تاب توبة نصوحاً، فإنه حتى حق المقتول يسقط، لا إهداراً لحقه، ولكن الله عـز وجل بفضله يتحمل عن القاتـل ويعطي المقتـول رفعـة درجـات في الجنـة أو عفـواً عن السـيئات، لأن التوبـة الخالصة لا تبقي شيئاً، ويؤيـد هـذا عمـوم آيـة الفرقـان:]والذين لا يدعون مـع اللـه إلهـاً آخـر ولا يقتلـون النفس الـتي حـرم اللـه إلا بـالحق.....[إلى قولـه:]إلا من تـاب وآمن وعمـل عملاً صـالحاً فأولئـك يبـدل اللـه سـيئاتهم حسنات[[الفرقان: 70].

وفي هـذه الآيـة من صـفات اللـه: الغضـب، واللعن وإعداد العذاب.

وفيها من الناحية المسلكية التحذير من قتل المؤمن عمداً.

وقوله:]ذلـك بـأنهم اتبعـوا مـا أسـخط اللـه وكرهـوا رضوانه[[1]........................

(1)* الآية الثانية: قوله:]ذلك بأنهم اتبعوا ما أسـخط الله وكرهوا رضوانه[[محمد: 28].

*]ذلك[: المشار إليه ما سبق، والذي سبق هـو قولـه تعـالى:]فكيـف إذا تـوفتهم الملائكـة يضـربون وجـوههم وأدبارهم (27) ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط اللـه وكرهـوا رضوانه فأحبط أعمالهم[[محمد: 27-28]، يعـني: فكيـف تكـون حـالهم في تلـك اللحظـات إذا تـوفتهم الملائكـة يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت؟

*]ذلك[، أي: ضرب الوجوه والأدبار.

*]بأنهم [، أي: بسبب، فالباء للسببية.

*]اتبعـوا مـا أسـخط الله[، أي: الـذي أسـخط اللـه، فصاروا يفعلون كل ما به سخط الله عز وجل من عقيدة أو قول أو فعل.

* أما ما فيه رضي الله، فحالهم فيه قولـه:]وكرهـوا رضوانه[، أي كرهوا ما فيه رضاه، فصارت عـاقبتهم تلـك

العاقبة الوخيمة، أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم.

وفي هذه الآية من صفات الله: إثبات السخط والرضى.

وسبق الكلام على صفة الرضى، وأما السخط، فمعناه قريب من معنى الغضب.

وقوله:]لما آسفونا انتقمنا منهم[[1]..

(1) الآية الثالثة: قوله:]فلما آسفونا انتقمنا منهم[[الزخرف: 55].

***]آسفونا[، يعني: أغضبونا وأسخطونا.**

***]فلما[: هنا شرطية، فعل الشرط فيها:]آسفونا[، وجوابه:]انتقمنا منهم[.**

ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام، لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون: إن المراد بالسخط والغضب الانتقام، أو إرادة الانتقام، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات الله يتصف بها هو نفسه، فيقولون: غضبه، أي انتقامه، أو بالإرادة لأنهم يقرون بها، ولا يفسرونه بأنه صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة تليق به.

ونحن نقول لهم: بل السخط والغضب غير الانتقام، والانتقام نتيجة الغضب والسخط، كما نقول: إن الثواب نتيجة الرضى، فالله سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم.

وإذا قالوا: إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب لله عز وجل.

فإننا نجيبهم بما سبق في صفة الرضى، لأن الباب واحد.

ونقول: بل العقل يدل على السخط والغضب، فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب، وليس دليلاً على الرضى، ولا على انتفاء الغضب والسخط.

ونقــــول: هـــذه الآيـــة:]فلمـــا آســـفونا انتقمنـــا منهم[[الزخرف: 55]: ترد عليكم، لأنه جعل الانتقام غير الغضب، لأن الشرط غير المشروط.

مسألة:

بقي أن يقال:]فلما آسفونا[: نحن نعرف أن الأسـف هــو الحــزن والنــدم على شــيء مضــى على النــادم لا يستطيع رفعه، فهل يوصف الله بالحزن والندم؟

الجواب: لا، ونجيب عن الآية بأن الأسف في اللغة له معنيان:

المعنى الأول: الأسف بمعنى الحزن، مثل قـول اللـه تعالى عن يعقوب:]يا أسفى على يوسف وابيضت عينـاه من الحزن[[يوسف: 84].

الثاني: الأسف بمعنى الغضـب، فيقـال: أسـف عليـه باسم، بمعنى: غضب عليه.

والمعــنى الأول: ممتنــع بالنســبة للــه عــز وجــل. والثـاني: مثبت للـه، لأن اللـه تعـالى وصـف بـه نفسـه، فقال:]فلما آسفونا انتقمنا منهم[.

وفي الآية من صفات الله: الغضب، والانتقام.

ومن الناحيــة المســلكية: التحــذير ممــا يغضــب اللــه تعالى.

وقولـــه:]ولكن كـــره اللـــه انبعـــاثهم فثبطهم[(1) ....

(1) (1) الآيــة الرابعــة: قولــه:]ولكن كـره اللـه انبعاثهم فثبطهم[[التوبة: 46].

* يعني بذلك المنافقين الذين لم يخرجوا مع النــبي في الغزوات، لأن الله تعـالى كـره انبعـاثهم، لأن عملهم غير خالص له، والله تعـالى أغـنى الشـركاء عن الشـرك، ولأنهم إذا خرجوا، كانوا كما قال الله تعالى:]ولو خرجوا فيكم مــا زادوكم إلا خبــالاً ولأوضــعوا خلالكم يبغــونكم الفتنة[[التوبـة: 47]، وإذا كـانوا غـير مخلصـين، وكـانوا مفسدين، فإن الله سبحانه وتعالى يكـره الفسـاد ويكـره الشـرك: فــ]كـره اللـه انبعـاثهم فثبطهم[، يعـني: جعـل هممهم فاترة عن الخروج للجهاد.

]وقيل اقعدوا مع القاعدين[[التوبة: 46]: قيل: يحتمل أن الله قال ذلك كوناً. ويحتمل أن بعضهم يقول لبعض: اقعد مع القاعدين، ففلان لمع يخرج، وفلان لم يخرج، ممن عذرهم ز وجل، كالمريض والأعمى والأعرج، ويقولون: إذا قدم النبي اعتذرنا إليه واستغفر لنا وكفانا.

ويمكن أن جمع بين القولين، لأنه إذا قيل لهم ذلك، وقعدوا، فهم ما قعدوا إلا يقول الله عز وجل.

وفي الآية هنا إثبات أن الله عز وجل يكره، وهذا أيضاً ثابت في الكتاب والسنة:

- قال الله تعالى:]وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه.....[إلى قوله:]كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً[[الإسراء: 23-38].

- وكما في هذه الآية التي ذكها المؤلف:]ولكن كره الله انبعاثهم[[التوبة: 46].

- وقال النبي : "إن الله كره لكم قيل وقال"[1].

فالكراهة ثابتة بالكتاب والسنة، أن الله تعالى يكره.

وكراه الله سبحانه وتعالى للشيء تكون للعمل، كما في قوله:]ولكن كره الله انبعاثهم[[التوبة: 46]، وكما في قوله:]كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها[[الإسراء: 38].

وتكون أيضاً للعامل، كما جاء في الحديث: "إن الله تعالى إذا أبغض عبداً، نادى جبريل، إني أبغض فلاناً، فأبغضه"[1].

وقوله:]كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون[[1]...........................

(1) الآية الخامسة: قوله:]كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون[[الصف: 3].

*]كبر[، بمعنى: عظم.

*]مقتاً[: تمييز محول عن الفاعل، والمقت أشد البغض، وفاعل]كبر[بعد أن حول الفاعل إلى تمييز:

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الزكاة، ومسلم/ كتاب الأقضية.

[1] رواه مسلم/ كتاب البر/ باب إذا أحب الله عبداً.

(أن) ومـــا دخلت عليـــه في قولـــه:]أن تقولـــوا مـــا لا تفعلون[.
وهذه الآية تعليل للآية التي قبلها وبيان لعاقبتها:]يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلـون (2) كـبر مقتـا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون[[الصف: 2-3]، فإن هذا من أكبر الأمور أن يقول الإنسان ما لا يفعل.
ووجــه ذلـــك أن يقــال: إذا كنت تقــول الشــيء ولا تفعلها، فأنت بين أمـرين: إمـا كـاذب فيمـا نقـول، ولكن تخوف الناس، فنقول لهم الشـيء وليس بحقيقـة. وإمـا أنك مستكبر عما تقول، تأمر الناس به ولا تفعله، وتنهى الناس عنه وتفعله.
وفي الآية من الصفات: المقت، وأنه يتفاوت.
ومن الناحيـــة المســـلكية: التحـــذير من أن يقـــول الإنسان مالا يفعل.

آيات صفة المجئ والإتيان

ذكر المؤلف رحمه الله تعـالى لإثبـات صـفة المجيء والإتيان آيات أربع.
قوله:]هل ينظرون إلا أن يـأتيهم اللـه في ظلـل من الغمام والملائكة وقضي الأمر[[1].
(1) الآيـة الأول: قولـه:]هـل ينظـرون إلا أن يـأتيهم اللـــه في ظلـــل من الغمـــام والملائكـــة وقضـــي الأمر[[البقرة: 210].
* قولـــه:]هـــل ينظـــرون[:]هل[: اســـتفهام بمعـــنى النفي، يعــني : مــا ينظــرون، وكلمــا وجــدت (إلا) بعــد الاستفهام، فالاستفهام يكون للنفي. هذه قاعـدة، قـال النبي عليه الصلاة والسلام: "هل أنت إلا أصبع دميت"[2]، أي: ما أنت.
* ومعــنى:]ينظـرون[هنـا: ينتظـرون لأنهـا لم تتعـد بـ(إلى)، فلو تعـدت بــ(إلى) لكـان معناهـا النظـر بـالعين غالباً، أما إذا تعدت بنفسها، فهي بمعنى: ينتظرون. أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وذلك يوم القيامة.

([2]) أخرجه البخـاري/ كتـاب الأدب/ بـاب ما يجـوز من الشـعر، ومسـلم/ كتـاب الجهـاد/ بـاب ما لقى النـبي من أذى المشركين والمنافقين.

*]يأتيهم الله في ظلل[: و]في[: هنا بمعنى (مع)، فهي للمصاحبة، وليس للظرفية قطعاً، لأنها لو كانت للظرفية، لكانت الظلل محيطة بالله، ومعلوم أن الله تعالى واسع عليم، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

* فـ]في ظلل[، أي: مع الظلل، فإن الله عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده]تشقق السماء بالغمام[: غمام أبيض، ظلل عظيمة، لمجيء الله تبارك وتعالى.

* وقوله:]في ظلل من الغمام[الغمام، قال العلماء: إن السحاب الأبيض، كما قال تعالى ممتناً على بني إسرائيل:]وظللنا عليكم الغمام[[البقرة: 57]، والسحاب الأبيض يبقي الجوز مستنيراً، بخلاف الأسود والأحمر، فإنه تحصل به الظلمة، وهو أجمل منظراً.

* وقوله:]والملائكة[: الملائكة بالرفع معطوف على لفظ الجلالة الله، يعني: أو تأتيهم الملائكة، وسبق بيان اشتقاق هذه الكلمة، ومن هم الملائكة.

والملائكة تأتي يوم القيامة، لأنها تنزل في الأرض، ينزل أهل السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة وهكذا... إلى السابعة؟ يحيطون بالناس.

وهذا تحذير من هذا اليوم الذي يأتي على هذا الوجه، فهو مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة، يحذر الله به هؤلاء المكذبين.

وقوله:]هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك[[1]

(1) الآية الثانية: قوله:]هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك[[الأنعام: 158].

* نقول في]هل ينظرون[ما قلناه في الآية السابقة، أي: ما ينتظر هؤلاء إلا واحدة من هذه الأحوال:

أولاً:]إلا أن تأتيهم الملائكة[، أي: لقبض أرواحهم، قال الله تعالى:]ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق[[الأنفال: 50].

ثانيــاً:]أو يــأتي ربك[: وهــذه طلــوع الشــمس من مغربها، فسرها بذلك النبي [1]ﷺ.

وإنما ذكر الله هذه الأحوال الثلاث:

لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أرواحهم، لا تقبل منهم التوبـة، لقولـه تعـالى:]وليسـت التوبـة للـذين يعملـون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن[[الإنسان: 18].

وكـذلك أيضـاً إذا طلعت الشـمس من مغربهـا، فـإن التوبـة لا تقبـل، وحينئـذ لا يسـتطيعون خلاصـاً ممـا هم عليه.

وذكـر الحالـة الثالثـة بين الحـالين، لأن وقت الجـزاء وثمـرة العمـل، فلا يسـتطيعون التخلص في تلـك الحـال مما عملوه.

والغرض من هذه الآيـات والـتي قبلهـا تحـذير هـؤلاء المكـــذبين من أن يفـــوتهم الأوان ثم لا يســـتطيعون الخلاص من أعمالهم.

]كلا إذا دكت الأرض دكاً دكا (21) وجـاء ربـك والملـك صفاً صفا[[1]................

(1) الآية الثالثة: قوله:]كلا إذا دكت الأرض دكاً دكـا (21) وجاء ربك والملك صفاً صفا[[الفجر: 21-22].

***]كلا[هنا للتنبيه، مثل (ألا).**

*** وقوله:]إذا دكت الأرض دكاً دكا[: هذا يوم القيامة.**

وأكد هذا الدك لعظمته، لأنها تـدك الجبـال والشـعاب وكل شيء يدك، حتى تكـون الأرض كـالأديم، والأديم هـو الجلد، قال الله تعالى:]فيـذرها قاعـاً صفصـفا (106) لا ترى فيهـا عوجـا ولا أمتا[[طـه: 106-107]. ويحتمـل أن يكون تكرار الدك تأسيساً لا تأكيداً، ويكـون المعـنى: دكـاً بعد دك.

*** قال]وجـاء ربـك والملـك صـفاً صـفا[:]وجـاء ربك[، يعني: يوم القيامة، بعد أن تـدك الأرض وتسـوى ويحشـر الناس يأتي الله للقضاء بين عباده.**

---

[1] رواه البخاري/ كتاب التفسير/ بـاب "لا ينفع نفس إيمانهـا"، ومسـلم/ كتـاب الإيمـان/ بـاب الـزمن الـذي لا يقبل فيه الإيمان.

* وقولـه:]والملك[: (الـ) هنـا للعمـوم، يعـني: وكـل ملك، يعني: الملائكة ينزلون في الأرض.

*]صفاً صفا[، أي: صفاً من وراء صف، كمـا جـاء في الأثر: "تنزل ملائكة السماء الدنيا فيصفون، ومن ورائهم ملائكــة الســماء الثانيــة، ومن ورائهم ملائكــة الســماء الثالثة"[1] هكذا.

]ويوم تشقق السماء بالغمام ونـزل الملائكـة تـنزيلاً[(1)...............................

(1) الآية الرابعة: قوله:]ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً[[الفرقان: 25].

* يعني: اذكر يوم تشقق السماء بالغمام.

* و]تشـقق[: أبلـغ من تنشـق، لأن ظاهرهـا تشـقق شيئاً فشـيئاً، ويخـرج هـذا الغمـام، يثـور ثـوران الـدخان، ينبعث شيئاً فشيئاً.

تشقق السماء بالغمام، مثل ما يقـال: تشـقق الأرض بالنبات، يعني: يخرج الغمـام من السـماء ويثـور متتابعـاً، وذلك لمجيء الله عز وجل للفصـل بين عبـاه، فهـو يـوم رهيب عظيم.

* قولـــه:]ونـــزل الملائكـــة تـــنزيلاً[: يـــنزلون من السماوات شيئاً فشيئاً، تـنزل ملائكـة السـماء الـدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة... وهكذا.

وهذه الآية في سـياقها ليس فيهـا ذكـر مجيء اللـه، لكن فيها الإشارة إلى ذلك، لأن تشـقق السـماء بالغمـام إنما يكون لمجيء الله تعالى، بدليل الآيات السابقة.

هــذه أربــع آيــات ســاقها المؤلــف لإثبــات صــفة من صفات الله، وهي: المجيء والإتيان.

وأهل السنة والجماعة يثبتـون أن اللـه يـأتي بنفسـه هو، لأن الله تعـالى ذكـر ذلـك عن نفسـه، وهـو سـبحانه أعلم بنفســه وبغــيره وأصــدق قيلاً من غــيره وأحســن حديثاً، فكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيـان والإرادة، فالله عز وجل يريد أن يبين لنا الحق وهو أعلم وأصدق وأحسن حديثاً.

لكن يبقى السؤال: هل نعلم كيفية هذا المجيء؟

---

[1] رواه الحاكم (4/614) وقال الذهبي: "إسناده قوي". وابن كثير في "تفسيره" (3/316).

الجواب: لا نعلمه، لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه يجيء، ولم يخبرنـا كيـف يجيء، ولأن الكيفيـة لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشـاهدة النظـير أو الخـبر الصـادق عنهـا، وكل هذا لا يوجد في صفات الله تعالى، ولأنــه إذا جهلت الـذات، جهلت الصـفات، أي: كيفيتهـا، فالـذات موجـودة وحقيقية ونعرفهـا ونعـرف مـا معـنى الـذات ومـا معـنى الذات وما معنى النفس، وكذلك نعرف ما معنى المجيء، لكن كيفية الذات أو النفس وكيفية المجيء غـير معلـوم لنا.

فنؤمن بأن الله يـأتي حقيقـة وعلى كيفيـة تليـق بـه مجهولة لنا.

مخالفو أهل السنة والجماعة والرد عليهم:

وخالف أهل السنة والجماعـة في هـذه الصـفة أهـل التحريـف والتعطيـل، فقـالوا: إن اللـه لا يـأتي، لأنـك إذا أثبت أن الله يأتي، ثبت أنه جسم، والأجسام متماثلة

فنقول: هذه دعوى وقياس باطـل، لأنــه في مقابلـة النص، وكل شيء يعود إلى النص بالإبطال، فهـو باطـل، لقولـه تعـالى:]وإنـا أو إيـاكم لعلى هـدى أو في ضـلال مبين[[سبأ: 24].

فـإذا قـالت: إن هـذا الـذي عـاد النص بالإبطـال هـو الحق، صار النص بـاطلاً ولا بـد، وبطلان النص مسـتحيل. وإن قلت: إن النص هو الحق، صار هذا باطلاً ولابد.

ثم نقول: ما المانع من أن يـأتي اللـه تعـالى بنفسـه على الكيفية التي يريدها؟ يقولون: المـانع أنـك إذا اثبت ذلك، فأنت ممثل.

نقـول: هـذا خطـأ، فإننـا نعلم أن المجيء والإتيـان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق، فالإنسـان النشـيط الـذي يأتي كأنما ينحدر من مرتفع من نشاطه، لكنـه لا يمشـي مرحاً وإن شئت فقل: إنه يمش مرحاً: هل هذا كالإنسان الذي يمشي على عصا ولا ينقل رجلاً من مكانهـا إلا بعـد تعب.

والإتيان يختلف من وجه آخر، فإتيان إنسـان مثلاً من كـبراء البلـد أو من ولاة الأمـور ليس كإتيـان شـخص لا يحتفى به.

ماذا يقول المعطل في قوله تعالى:]وجاء ربك[ونحوها؟

الجواب: يقول: المعنى: جاء أمر ربك، وأتى أمر ربك؟ لأن الله تعالى قال:]أتى أمر الله فلا تستعجلوه[[النحل: 1]، فيجب أن نفسر كل إتيان أضافة الله إلى نفسه بهذه الآية، ونقول: المراد: أتى أمر الله.

فيقال: إن هذا الدليل الذي استدللت به هو دليل عليك وليس لك لو كان الله تعالى يريد إتيان أمره في الآيات الأخرى، فما الذي يمنعه أن يقول: أمره؟ فلما أراد الأمر، عبر بالأمر، ولما لم يرده، لم يعبر به.

وهذا في الواقع دليل عليك، لأن الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول: إنها بينت بهذه الآية. فالآيات الأخرى واضحة، وفي بعضها تقسيم يمنع إرادة مجيء الأمر:]هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي يقول:]يأتي ربك[، أي: أمره في مثل هذا التقسيم؟

فإذا قال قائل: ما تقولون في قوله تعالى:]فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده[[المائدة: 52].

فالجواب: أن المراد بذلك إتيان الفتح أو الأمر، لكن أضاف الله الإتيان به إلا نفسه، لأنه من عنده، وهذا أسلوب معروف في اللغة العربية، فالإتيان إذا قيد بحرف جر مثلاً، فالمراد به ذلك المجرور، وإذا أطلق وأضيف إلى الله بدون قيد، فالمراد به إتيان الله حقيقة.

الآداب المسلكية المستفادة من الإيمان بصفة المجيء والإتيان لله تعالى:

التمرة هي الخوف من هذا المقام وهذا المشهد العظيم الذي يأتي فيه الرب عز وجل للفصل بين عباده وتنزل الملائكة، ولا يبقى أمامك إلا الرب عز وجل والمخلوقات كلها، فإن عملت خيراً، جوزيت به، وإن عملت سوى ذلك، فإنك ستجزى به، كما قال النبي عليها لصلاة والسلام: "إن الإنسان يخلو به الله عز وجل، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار، ولو بشق تمرة"[(1)].

---

(1) رواه البخاري/ كتاب الرقاق/ باب من نوقش الحساب عذب.

فالإيمان يمثل هذه الأشياء العظيمة لا شك أنه يولد للإنسان رهبة وخوفاً من الله سبحانه وتعالى واستقامة على دينه.

صفة الوجه لله سبحانه

وقوله:]ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[،]كل شيء هالك إلا وجهه[(1)......

(1) ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات صفة الوجه لله تعالى آيتين:

الآية الأولى: قوله:]ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[[الرحمن: 27].

وهذه معطوفة على قوله تعالى:]كل من عليها فان (26) ويبقى وجه ربك[[الرحمن: 26-27]، ولهذا قال بعض السلف: ينبغي إذا قرأت:]كل من عليها فان[، أن تصلها بقوله:]ويبقى وجه ربك[، حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق، وذلك للتقابل، هذا فناء وهذا بقاء،]كل من عليها فان (26) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[[الرحمن: 26-27].

* قوله تعالى:]ويبقى وجه ربك[، أي: لا يفنى.

والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه الله عز وجل، كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، وموصوفاً بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: "حجابه النور، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"[1].

(سبحان وجهه)، يعني: بهاءه وعظمته وجلاله ونوره.

(ما انتهى إليه بصره من خلقه): وبصره ينتهي إلى كل شيء، وعليه، فلو كشف هذا الحجاب ـ حجاب النور عن وجهه ـ، لاحترق كل شيء.

لهذا نقول: هذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبداً أن يماثل أوجه المخلوقات.

وبناء على هذا نقول: من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهاً حقيقة، ونأخذه من قوله:]ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[، ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه

---

[1] رواه مسلم/ كتاب الإيمان/ باب قوله عليه والصلاة والسلام: "إن الله لا ينام".

المخلوقين، لقوله تعالى:]ليس كمثله شـيء[[الشـورى: 11]، ونجهــل كيفيــة هــذا الوجــه، لقولــه تعــالى:]ولا يحيطون به علماً[[طه: 110].

فإن حاول أحد أن يتصـور هـذه الكيفيـة بقلبـه أو أن يتحدث عنها بلسانه، قلنا: إنـك مبتـدع ضـال، قائـل على الله مالا تعلم، وقد حرم اللـه علينـا أن نقـول عليـه مـالا نعلم، قال تعالى:]قل إنما حرم ربي الفواحش مـا ظهـر منهـا ومـا بطن والإثم والبغي بغـير الحـق وأن تشـركوا بالله ما لم ينزل بـه سـلطاناً وأن تقولـوا على اللـه مـالا تعلمون[[الأعراف: 33]، وقال تعالى:]ول تقف مـا ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً[[الإسراء: 36].

وهنـا قـال:]ويبقى وجـه ربك[، أضـاف الربوبيـة إلى محمد ، وهذه الربوبية أخص ما يكون من أنواع الربوبية، لأن الربوبية عامة وخاصة، والخاصة خاصة أخص، وخـاص فوق ذلك، كربوبية الله تعالى لرسـله، فالربوبيــة الأخص أفضل بلا شك.

*** وقوله:]ذو[: صفة لوجه، والدليل الرفع، ولو كــانت صفة للرب، لقال ذي الجلال كما قال في نفس السورة:]تبـارك اسـم ربـك ذي الجلال والإكـرام[[الـرحمن: 78]، فلما قال:]ذو الجلال[، علمنا أنه وصف للوجه.**

***]والإكرام[: هي مصـدر من أكـرم، صـالحة للمكـرم والمكرم، فالله سـبحانه وتعـالى مكـرم، وإكرامـه تعـالى القيام بطاعته، ومكـرم لمن يسـتحق الإكـرام من خلقـه بما أعد لهم من الثواب.**

فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمتـه أهـل لأن يكـرم ويثـنى عليـه سـبحانه وتعـالى وإكـرام كـل أحـد بحسـبه، فإكرام الله عز وجل أن تقـدره حـق قـدره، وأن تعظمـه حق تعظيمه، لا لاحتياجه إلى إكرامـك، ولكن ليمن عليـك بالجزاء.

الآيــــة الثانيــــة: قولـــه:]كــــل شــــيء هالـــك إلا وجهه[[القصص: 88].

*** قوله:]كل شيء هالك[، أي: فان، كقولـه:]كـل من عليها فان[[الرحمن: 26].**

* وقوله:]إلا وجهه[: توازي قوله:]ويبقى وجـه ربـك ذو الجلال والإكرام[.
فالمعنى: كـل شـيء فـان وزائـل، إلا وجـه اللـه عـز وجــل، فإنــه بــاق، ولهــذا قــل:]لــه الحكم وإليــه ترجعون[[القصص: 88] فهو الحكم البـاقي الـذي يرجـع إليه الناس ليحكم بينهم.
وقيل في معـنى الآيـة:]كـل شـيء هالـك إلا وجهه[، أي: إلا ما أريد به وجهه. قالوا: لأن سياق الآية يدل على ذلك:]ولا تدع مع الله إلهـاً آخـر لا إلـه إلا هـو كـل شـيء هالك إلا وجهه[[القصـص: 88]، كأنـه يقـول: لا تـدع مـع الله إلهاً آخر فتشرك به، لأن عملك وإشراكك هالـك، أي: ضائع سدى، إلا مـا أخلصـته لوجـه اللـه، فإنـه يبقى، لأن العمل الصالح له ثواب باقى لا يفنى في جنات النعيم.
ولكن المعنى الأول أسد وأقوى.
وعلى طريقة من يقو بجواز استعمال المشـترك في معنييه، نقول:
يمكن أن نحمــل الآيــة على المعنــيين، إذ لا منافــاة بينهما، فتحمل على هذا وهذا، فيقال: كـل شـيء يفـنى إلا وجه اللـه عـز وجـل، وكـل شـيء من الأعمـال يـذهب هباء، إلا ما أريد به وجه الله.
وعلى أي التقــديرين، ففي الآيــة دليــل على ثبــوت الوجه لله عز وجل.
وهــو من الصــفات الذاتيــة الخبريــة الــتي مســماها بالنســبة إلينــا أبعــاض وأجــزاء، ولا نقــول: من الصــفات الذاتية المعنوية، ولو قلنـا بـذلك، لكنـا نوافـق من تأولـه تحريفاً، ولا نقول: إنها بعض من الله، أو: جـزء من اللـه، لأن ذلك يوهم نقصاً لله سبحانه وتعالى.
هذا وقد فسر أهل التحريف وجه الله بثوابه، فقالوا: المراد بالوجه في الآية الثواب، كل شيء يفنى، إلا ثواب الله!
ففسروا الوجه الذي هو صفة كمال، فسـروه بشـيء مخلـوق بـائن عن اللـه قابـل للعـدم والوجـود، فـالثواب حــادث بعـد أن لم يكن، وجـائز أن يرتفـع، لـولا وعداللـه

ببقائـه، لكـان من حيث العقـل جـائزاً أن يرتفـع، أعـني: الثواب!.

فهل تقولون الآن: إن وجه الله الذي وصـف اللـه بـه نفسه من باب الممكن أو من باب الواجب؟

إذا فسروه بالثواب، صار من باب الممكن الذي يجـوز وجوده وعدمه.

وقولهم مردود بما يلي:

أولاً: أنه مخالف لظاهر اللفظ، فإن ظاهر اللفـظ أن هذا وجه خاص، وليس هو الثواب.

ثانياً: أنه مخالف لإجماع السلف، فما من السلف أحد قال: إن المراد بالوجـه الثـواب! وهـذه كتبهم بين أيـدينا مزبورة محفوظـة، أخرجـوا لنـا نصـاً عن الصـحابة أو عن أئمــة التــابعين ومن تبعهم بإحســان أنهم فســروا هــذا التفسير، لن تجدوا إلى ذلك سبيلاً أبداً.

ثالثـاً: هـل يمكن أن يوصـف الثـواب بهـذه الصـفات العظيمة:]ذو الجلال والإكرام[[الرحمن: 27]؟! لا يمكن. لو قلنا مثلاً جزاء المتقين ذو جلال وإكرام! فهذا لا يجوز أبــداً، واللــه تعــالى وصــف هــذا الوجــه بأنــه ذو الجلال والإكرام.

رابعاً: نقول: ما تقولون في قول الرسول : "حجابه النور، لو كشفه، لأحرقت سـبحات وجهـه مـا انتهى إليـه بضره من خلقه"[1]. فهل الثواب له هذا النور الذي يحرق ما انتهى إليه بصر الله من الخلق؟! أبداً، ولا يمكن.

وبهـذا عرفنـا بطلان قـولهم، وأن الـواجب علينـا أن نفسر هذا الوجه بما أراده اللـه بـه، وهـو وجـه قـائم بـه تبارك وتعالى موصوف بالجلال والإكرام.

فإن قلت: هل كل ما جاء من كلمـة (الوجـه) مضـافاً إلى الله يراد به وجه الله الذي هو صفاته؟

فالجواب: هذا هو الأصلى، كما في قوله تعــالى:]ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه[[الأنعام: 52]،ـ]وما لأحد عنـده من نعمـة تجـزى (19) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (20) ولسوف يرضى[[الليل: 19-21]... وما أشبهها من الآيات.

---

(1) تقدم تخريجه ص237

فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلى الله وجه الله عز وجل الذي هو صفة من صفاته، لكن هناك كلمة اختلف المفسرون فيها، وهي قوله: تعالى:]ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله[[البقرة: 115]:]فأينما تولوا[، يعني: إلى أي مكان تولوا وجوهكم عندا لصلاة.]فثم[أي: فهناك وجه الله.

فمنهم من قال: إن الوجه بمعنى الجهة، لقوله تعالى:]ولكل وجهة هو موليها[[البقرة: 148]، فالمراد بالوجه الجهة، أي: فثم جهة الله، أي: فثم الجهة التي يقبل الله صلاتكم إليها.

قالوا: لأنها نزلت في حال السفر، إذا صلى الإنسان النافلة، فإنه يصلي حيث كان وجهه، أو إذا اشتبهت القبلة، فإنه يتحرى ويصلي حيث كان وجهه.

ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقي، أي: إلى أي جهة تتوجهون، فثم وجه الله سبحانه وتعالى، لأن الله محيط بكل شيء، ولأنه ثبت عن النبي أن المصلي إذا قام يصلي، فإن الله قبل وجهه[1]، ولهذا نهى أن يبصق أما وجهه، لأن الله قبل وجهه.

فإذا صليت في مكان لا تدري أن القبلة، واجتهدت وتحريت، وصليت، وصارت القبلة في الواقع خلفك، فالله يكون قبل وجهك، حتى في هذه الحال.

وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية.

والمعنى الأول لا يخالفه في الواقع.

إذا قلنا: فثم جهة الله، وكان هناك دليل، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية في الوجه الثاني، أو كان الدليل ما جاءت به السنة، فإنك إذا توجهت إلى الله في صلاتك، فهي جهة الله التي يقبل الله صلاتك إليها، فثم أيضاً وجه الله حقاً. وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان.

واعلم أن هذا الوجه العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وصفاً، ولا يمكن الإحاطة به تصوراً، بل كل شيء تقدره، فإن الله تعالى

---

(1) رواه البخاري/ كتاب الصلاة/ باب حك البزاق باليد من المسجد، ومسلم/ كتاب المساجد/ باب النهي عن البصاق في المسجد.

فوق ذلك وأعظم، كما قال تعالى:]ولا يحيطون به علما[[طه: 110].

فإن قيل: ما المراد بالوجه في قوله:]كل شيء هالك إلا وجهه[[القصص: 88]؟ إن قلت: المراد بالوجه الذات، فيخشى أن تكون حرفت وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضاً، وقعت في محظور ـ وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون الله حق قدره، حيث قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه ـ فماذا تصنع؟!

فالجواب: إن أردت بقولك: إلا ذاته، يعني: أن الله تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله، فهذا صحيح، ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه.

وإن أردت بقولك: الذات: أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه، فهذا تحريف وغير مقبول.

وعليه فنقول:]إلا وجهه[، أي: إلا ذاته المتصفة بالوجه، وهذا ليس فيه شيء، لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون: إن المراد بالوجه الذات، لأن له وجهاً، فعبر به عن الذات.

إثبات اليدين لله تعالى

وقوله:]ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي[،]وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء[(1)

....

(1) ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات اليدين لله تعالى آيتين:

الآية الأولى: قوله:]ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي[[ص: 75].

*]ما منعك[: الخطاب لإبليس.

* و]ما منعك[: استفهام للتوبيخ، يعني أي شيء منعك أن تسجد.

* وقوله]لما خلقت بيدي[: ولم يقل: لمن خلقت، لأن المراد هنا آدم، باعتبار وصفه الذي لم يشركه أحد فيه، وهو خلق الله إياه بيده، لا باعتبار شخصه.

ولهذا لما أراد إبليس النيل من آدم وخط قدره، قال:]أأسجد لمن خلقت طينا[[الإسراء: 16].

ونحن قد قررنا أنه إذا عبر بــ(مـا) عمـا يعقـل، فإنـه يلاحظ فيه معنى الصفة لا معنى العين والشـخص، ومنـه قوله تعالى:]فانكحوا ما طاب لكم من النسـاء[[النسـاء: 3]، لم يقـل: (من)، لأنـه ليس المـراد عين هـذه المـرأة، ولكن المراد الصفة.

فهنا قـال:]لمـا خلقت[، أي: هـذا الموصـوف العظيم الذي أكرمته بأنني خلقته بيدي، ولم يقصـد: لمن خلقت، أي: لهذا الآدمي بعينه.

*** وقوله:]لما خلقت بيدي[: هي كقول القائل: بـريت بالقلم والقلم آلة البري، وتقول: صنعت هذا بيدي، فاليد هنا آلة الصنع.**

]لما خلقت بيدي[، يعني: أن اللـه عـز وجـل خلـق آدم بيده، وهنا قال:]بيدي[، وهي صيغة تثنية، وحذفت النون من التثنية من أجل الإضـافة، كمـا يحـذف التنـوين، نحن عندما نعرب المثنى وجمع المذكر السالم، نقـول: النـون عوض من التنوين في الاسم المفـرد. والعـوض لـه حكم المعوض، فكما أن التنـوين يحـذف عنـد الإضـافة، فنـون التثنية والجمع تحذف عند الإضافة.

في هـذه الآيـة تـوبيخ إبليس في تركـه السـجود لمـا خلقه الله بيده، وهو آدم عليه الصلاة والسلام.

وفيها: إثبات صفة الخلق:]لما خلقت[.

وفيهـا: إثبـات اليـدين للـه سـبحانه وتعـالى: اليـدين اللـتين بهمـا يفعـل، كـالخلق هنـا. اليـدين اللـتين بهمـا يقبض:]وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعـاً قبضـته يوم القيامة[[الزمر: 67]، وبهما يأخـذ، فـإن اللـه تعـالى يأخذ الصدقة فيربيها كما يربي الإنسان فلوه[1].

وقوله:]لمـا خلقت بيـدي[: فيهـا أيضـاً تشـريف لآدم عليه الصلاة والسلام، حيث خلقه الله تعالى بيده.

قال أهل العلم: وكتب الله التوراة بيده، وغرس جنـة عدن بيده.

فهذه ثلاثة أشياء، كلها كانت بيد الله تعالى.

---

[1] (لما رواه البخاري/ كتاب الزكاة/ باب لا يقبل الله صدقة من غلول"، ومسلم/ كتاب الزكـاة/ بـاب قبـول الصـدقة من الكسب الطيب.

ولعلنا بالمناسبة لا ننسى ما مر من قول النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الله خلق آدم على صورته"[2]، وذكرنا أن أحد الوجهين الصحيحين في تأويلها أن الله خلق آدم على الصورة التي اختارها واعتنى بها، ولهذا أضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، كإضافة الناقة والبيت إلى الله والمساجد إلى الله. والقول الثاني: أنه على صورته حقيقة ولا يلزم من ذلك التماثل.

الآية الثانية: قوله:]وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء[[المائدة: 64].

***]اليهود[: هم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام.**

سموا يهوداً، قيل: لأنهم قالوا:]إن هدنا إليك[[الأعراف: 156]، وبناء على هذا يكون الاسم عربياً، لأن هاد يهود ـ إذا رجع ـ عربي.

وقيل: أن أصله يهوذا، اسم أحد أولاء يعقوب، واليهود من نسبوا إليه، لكن عند التعريب صارت الذال دالاً، فقيل: يهود.

وأياً كان، لا يهمنا أن أصله هذا أو هذا.

ولكننا نعلم أن اليهود هم طائفة من بني إسرائيل، اتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

وهؤلاء اليهود من أشد الناس عتواً ونفوراً، لأن عتو فرعون وتسلطه عليهم جعل ذلك ينطبع في نفوسهم، وصار فيهم العتو على الناس، بل وعلى الخالق عز وجل، فهم يصفون الله تعالى بأوصاف العيوب ــ قبحهم الله، وهم أهلها.

*** يقولون:]يد الله مغلولة[، أي: محبوسة عن الإنفاق، كما قال الله تعالى:]ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك[[الإسراء: 29]، أي: محبوسة عن الإنفاق.**

وقالوا:]إن الله فقير[[آل عمران: 181]!

أما قولهم: إن يد الله مغلولة، فقالوا: لولا أنها مغلولة، لكان الناس كلهم أغنياء، فكونه يجود على زيد ولا يجود على عمرو: هذا هو الغل وعدم الإنفاق!!

---

(2) تقدم تخريجه ص86

وقـالوا: إن اللـه فقـير، لأن الله قـال:]من ذا الـذي يقرض اللـه قرضـاً حسـناً فيضـاعفه له[[البقـرة: 245]، فقالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: يا محمـد! إن ربـك افتقر، صار يستقرض منا. قاتلهم الله!!

وقـالت اليهـود أيضـاً: إن اللـه عـاجز، لأن حين خلـق السماوات والأرض، استراح يوم السـبت، وجعـل العطلـة محل عيد، فصار عيدهم يوم السبت. قاتلهم الله!!

*** هنا يقول اللـه عـز وجـل:]وقـالت اليهـود يـد اللـه مغلولة[:]يد[: أفردوهـا، لأن اليـد الواحـد أقـل عطـاء من اليـدين الثنـتين، ولهـذا جـاء الجـواب بالتثنيـة والبسـط، فقال:]بل يداه مبسوطتان[.**

*** ولمـا وصـفوا اللـه بهـذا العيب، عـاقبهم اللـه بمـا قــالوا، فقــال:]غلت أيــديهم[، أي: منعت عن الإنفــاق، ولهذا كان اليهود أشد الناس جمعاً للمال ومنعـاً للعطـاء، فهم أبخل عباد الله، وأشدهم شحاً في طلب المــال، ولا يمكن أن ينفقوا فلساً، إلا وهم يظنـون أنهم سيكسـبون بدلــه درهمـــاً، ونـــرى نحن الآن لهم جمعيـــات كبـــيرة وعظيمـــة، لكن هم يريـــدون من وراء هـــذه الجمعيـــات والتبرعات أكثر وأكثر، يريدون أن يسيطروا على العالم.**

فـإذا، لا تقـل أيهـا الإنسـان: كيـف نجمـع بين قولـه تعــالى:]غلت أيــديهم[، وبين الواقــع اليــوم بالنســبة لليهود؟! لأن هؤلاء القوم يبذلون ليربحوا أكثر.

***]ولعنوا ما قالوا[، أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله عز وجل، لأن البلاء موكل بالمنطق، فهم لما وصفوا الله بالإمساك، طردوا وأبعدوا عن رحمته، قيل لهم: إذا كـان الله عز وجل كما قلتم لا ينفق، فليمنعكم رحمته حتى لا يعطيكم من جوده، فعوقبوا بأمرين:**

1- بتحويل الوصف الذي عابوا به اللـه سـبحانه إليهم بقوله:]غلت أيديهم[.

2- وبإلزامهم بمقتضى قـولهم، بإبعـادهم عن رحمـة الله، حتى لا يجدوا جود الله وكرمه وفضله.

***]بما قالوا[: الباء هنا للسـببية، وعلامـة البـاء الـتي للسببية: أن يصح أن يليها كلمة (سبب).**

و (ما) هنا يصح أن تكـون مصـدرية، ويصـح أن تكـون موصولة، فإن كانت موصولة، فالعائد محذوف، وتقـديره: بالـذي قـالوه. وإن كـانت مصـدرية، فالفعـل يحـول إلى مصدر، أي: بقولهم.

*** ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم، فقـال:]بـل يداه مبسوطتان[.**

***]بل[: هنا للإضراب الإبطالي.**

وانظر كيف اختلـف التعبـير:]بـل يـداه مبسـوطتان[، لأن المقام مقام تمدح بالكرم، والعطاء باليدين أكـل من العطاء باليد الواحدة.

***]مبسوطتان[: ضد قولهم:]مغلولة[، فيد الله تعالى مبسوطتان واسعتا العطاء:**

كما قال النبي : "يد الله ملأى سحاء (كثيرة العطاء) الليـل والنهـار، أرأيتم مـا أنفـق مـذ خلـق السـماوات والأرض، فإنه لم يغض ما فيه يمينه"[1].

من يحصـى مـا أنفـق اللـه منـذ خلـق السـماوات والأرض؟! لا يحصـيه أحـد! ومـع ذلـك لم يغض مـا في يمينه.

وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: "يا عبـادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قـاموا في صـعيد واحد، فسألوني فأعطيت كـل إنسـان مسـألته، مـا نقص ذلـك ممـا عنـدي إلا كمـا ينقص المخيـط إذا غمس في البحر"[2].

ولننظر إلى المخيط غمس في البحر، فإذا نزعتـه، لا ينقص البحـر شـيئاً أبـداً، ومثـل هـذه الصـيغة يـؤتى بهـا للمبالغة في عدم النقص، لأن عدم نقص البحر في مثـل هذه الصورة أمر معلوم، مسـتحيل أن البحـر ينقص بهـذا، فمستحيل أيضاً أن الله عز وجل ينقص ملكه إذا قام كـل إنسان من الإنس والجن، فقـاوموا فسـألوا اللـه تعـالى، فأعطى كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً.

([1]) رواه البخاري/ كتاب التوحيد/ باب "لما خلقت بيدي"، ومسلم/ كتاب الزكاة/ باب الحث على النفقة.

([2]) رواه مسلم/ كتاب البر/ باب تحريم الظلم.

لا تقـل: "نعم، لا ينقص من ملكـه شـيئاً، لأنـه انتقـل من ملكــه إلى ملكــه"، لأنــه لا يمكن أن يكــون هــذا هــو المراد، لأنه لو كان هذا المراد، لكان الكلام عبثاً ولغواً.

لكن المعـنى: لـو فـرض أن هـذه العطايـا العظيمـة أعطيت على أنهـا خارجـة عن ملـك اللـه، لم ينقص ذلـك من ملكه شيئاً.

ولــو كــان المعــنى هــو الأول، لم يكن فيــه فائــدة، فمعروف أنه لو كان عندك عشـرة ريـالات، أخرجتهـا من الدرج الأيمن إلى الدرج الأيسر، وقـال إنسـان: إن مالـك لم ينقص، لقيل: هذا لغو من القول!

المهم أن المعنى: لو أن هذا الـذي أعطـاه السـائلين خارج عن ملكه، فإنه لا ينقصه سبحانه وتعالى.

وليس إنفـاق اللــه تعـالى لمــا نحصـل من الـدراهم والمتاع، بل كـل مـا بنـا من نعمـة فهـو من اللـه تعـالى، سواء كانت من نعم الـدين أم الـدنيا، فـذرات المطـر من إنفاق الله علينا، وحبات النبات من إنفاق الله.

أفبعد هذا يقال كما قالت اليهود عليهم لعـائن اللــه:]يد الله مغلولة[؟!

لا والله! بل يقال: إن يدي الله عز وجـل مبسـوطتان بالعطاء والنعم التي لا تعد ولا تحصى.

لكن إذا قالوا: لماذا أعطى زيداً ولم يعط عمراً؟

قلنا: لأن الله تعالى له السـلطان المطلـق والحكمـة البالغة، ولهذا قال رداً على شبهتهم:]ينفق كيف يشـاء[، فمن النـاس من يعطيـه كثـيراً، ومنهم من يعطيـه قليلاً، ومنهم من يعطيه وسطاً، تبعاً لما تقتضـيه الحكمـة، على أن هـذا الـذي أعطي قليلاً ليس محرومـاً من فضـل اللـه وعطائه من جهة أخرى، فالله أعطاه صحة وسمعاً وبصراً وعقلاً وغير ذلك من النعم التي لا تحصى، ولكن لطغيان اليهــود وعــدوانهم وأنهم لم يــنزهوا اللــه عن صــفات العيب، قالوا:]يد الله مغلولة[.

فالآيتان السابقتان فيهما إثبات صفة اليدين لله عــز وجل.

ولكن قد يقول قائل: إن للـه أكـثر من يـدين، لقولـه تعالى:]أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً[

[يس: 71]، فأيدينا هنا جمع، فلنأخذ بهذا الجمع، لأننا إذا أخذنا بالجمع، أخذنا بالمثنى وزيادة، فما هو الجواب؟

فالجواب أن يقال: جاءت اليد مفردة ومثناة وجمعاً:

أما اليد التي جاءت بـالإفراد، فـإن المفـرد المضـاف يفيـد العمـوم، فيشـمل كـل مـا ثبت للـه من يـد، ودليـل عموم المفـرد المضـاف قولـه تعـالى:]وإن تعـدوا نعمت الله لا تحصوها[[إبراهيم: 34]، فـ]نعمت[: مفرد مضاف، فهي تشـمل كثـيراً، لقولـه:]لا تحصـوها[، إذاً: فمـا هي واحدة ولا ألف ولا مليون ولا ملايين.

]يد الله[: نقول هـذا المفـرد لا يمنـع التعـدد إذا ثبت، لأن المفرد المضاف يفيد العموم.

أما المثنى والجمع، فنقول: إن الله ليس له إلا يـدان اثنتان، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة.

ففي الكتاب:

في صـــورة ص قـــال:]لمـــا خلقت يـــدي[[ص:57]، والمقام مقام تشـريف، ولـو كـان اللـه خلقـه بـأكثر من يدين، لذكره، لأنه كلما ازدادت الصفة التي بها خلق اللـه هذا الشيء، ازداد تعظيم هذا الشيء.

وأيضـــاً: في ســـورة المائـــدة قـــال:]بـــل يـــداه مبسوطتان[[المائدة: 64]، في الرد على من قـالوا:]يـد الله[، بالإفراد، والمقام مقام يقتضي كثرة النعم، وكلمـا كثرت وسيلة العطاء، كـثر العطـاء، فلـو كـان للـه تعـالى أكثر من اثنتين لذكرهما.

أما السنة فإن الرسول عليـه الصـلاة والسـلام قـال: "يطـوي اللـه تعـالى السـماوات بيمينـه والأرض بيـده الأخرى"[1].

قال : "كلتا يديه يمين"[2].

ولم يذكر أكثر من اثنتين.

وأجمع السلف على أن لله يدين اثنـتين فقـط بـدون زيادة.

---

(1) رواه البخاري/ كتاب التفسير، ومسلم/ كتاب صفات المنافقين.

(2) رواه مسلم/ كتاب الإمارة/ باب "فضيلة الإمام العدل...".

فعنـدنا النص من القـرآن والسـنة والإجمـاع على أن لله تعالى يدين اثنتين، فيكف نجمع بين هذا وبين الجمع:]مما عملت أيدينا[[يس: 71]؟!

فنقول الجمع على أحد الوجهين:

فإمـا أن نقـول بمـا ذهب إليـه بعض العلمـاء، من أن أقل الجمع اثنان، وعليه، فـ]أيدينا[لا تـدل على أكـثر من اثنـتين، يعـني: لا يلـزم أن تـدل على أكـثر من اثـنين، وحينئذ تطابق التثنية:]بل يداه مبسـوطتان[، ولا إشـكال فيه.

فإذا قلت: ما حجة هؤلاء على أن الجمع أقله اثنان؟

فالجواب: احتجـوا بقولـه تعـالى:]إن تتوبـا إلى اللـه فقد صغت قلوبكما[[التحريم: 4]، وهما اثنتان، والقلوب جمع، والمراد به قلبان فقط، لقوله تعالى:]ما جعل الله لرجـل من قلـبين في جوفه[[الأحـزاب: 4]، ولا لامـرأة كذلك.

واحتجوا أيضاً بقول الله تعالى:]فـإن كـان لـه إخـوة فلأمه السدس[[النساء: 11]، فـ]إخوة[جمع، والمـراد بـه اثنان.

واحتجوا أيضاً بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين.

ولكن جمهـور أهـل اللغـة يقولـون: إن أقـل الجمـع ثلاثة، وإن خروج الجمـع إلى الاثـنين في هـذه النصـوص لسبب، وإلا فإن أقل الجمع في الأصل ثلاثة.

وإمــا أن نقــول: إن المــراد بهــذا الجمــع التعظيم، تعظيم هـذه اليـد وليس المـراد أن للـه تعـالى أكـثر من اثنتين.

ثم إن المراد باليد هنا نفس الذات التي لها يـد، وقـد قال الله تعالى:]ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس[[الروم: 41]، أي: بما كسبوا، سواء كان من كســب اليــد أو الرجــل أو اللســان أو غيرهــا من أجــزاء البدن، لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه.

ولهذا نقول: إن الأنعـام الـتي هي الإبـل لم يخلقهـا الله تعـالى بيـده، وفـرق بين قولـه:]ممـا عملت أيـدينا[، وبين قولـه:]لمـا خلقت بيـدي[، فــ:]ممـا عملت أيـدينا[،

كأنه قال: مما عملنا، لأن المراد باليد ذات الله التي لها يد، والمراد بـ]بيدي[: اليدان دون الذات.

وبهذا يزول الإشكال في صفة اليد التي وردت بالإفراد والتثنية والجمع.

فعلم الآن أن الجمع بين المفرد والتثنية سهل، وذلك أن هذا مفرد مضاف فيعم كل منا ثبت لله من يد.

وأما بين التثنية والجمع، فمن وجهين:

أحدهما: أنه لا يراد بالجمع حقيقة معناه ـ وهو الثلاثة فأكثر ـ بل المراد به التعظيم كما قال الله تعالى:]إنا[و]نحن[و]وقلنا[.... وما أشبه ذلك، وهو واحد، لكن يقول هذا للتعظيم.

أو يقال: إن أقل الجمع اثنان، فلا يحصل هنا تعارض.

وأما قوله تعالى:]والسماء بنيناها بأيد[[الذاريات: 47]، فالأيد هنا بمعنى القوة، فهي مصدر آد يئيد، بمعنى: قيد، وليس المراد بالأيد صفة الله، ولهذا ما أضافها الله إلى نفسه، ما قال: بأيدينا! بل قال:]بأيد[، أي: بقوة.

ونظير ذلك قوله تعالى:]يوم يكشف عن ساق[[القلم: 42]، فإن لعلماء السلف في قوله:]عن ساق[: قولين:

القول الأول: أن المراد به الشدة.

والقول الثاني: أن المراد به ساق الله عز وجل.

فمن نظر إلى سياق الآية مع حديث أبي سعيد[1]، قال: إن المراد بالساق هنا ساق الله. ومن نظر إلى الآية بمفردها، قال: المراد بالساق الشدة.

فإذا قال قائل: أنتم تثبتون أن لله تعالى يداً حقيقية، ونحن لا نعلم من الأيدي إلا أيادي المخلوقين، فيلزم من كلامكم تشبيه الخالق بالمخلوق.

فالجواب أن نقول: لا يلزم من إثبات اليد لله أن نمثل الخالق بالمخلوقين، لأن إثبات اليد جاء في القرآن والسنة وإجماع السلف، ونفى مماثلة الخالق للمخلوقين يدل عليه الشرع والعقل والحس:

([1]) رواه البخاري/ كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى: "وجوه يومئذ ناظرة"، ومسلم/ كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية.

- أما الشرع، فقوله تعالى:]ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[[الشورى: 11].
- وأما العقل، فلا يمكن أن يماثل الخالق المخلوق في صفاته، لأن هذا يعد عيباً في الخالق.
- وأما الحس، فكل إنسان يشاهد أيدي المخلوقات متفاوتة ومتباينة من كبير وصغير، وضخم ودقيق.. إلخ، فيلزم من تباين أيدي المخلوقين وتفاوتهم مباينة يد الله تعالى لأيدي المخلوقين وعدم مماثلته لهم سبحانه وتعالى من باب أولى.
هذا، وقد خالف أهل السنة والجماعة في إثبات اليد لله تعالى أهل التعطيل من المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم، وقالوا: لا يمكن أن نثبت لله يداً حقيقية، بل المراد باليد أمر معنوي، وهو القوة!! أو المراد باليد النعمة لأن اليد تطلق في اللغة العربية على القوة وعلى النعمة.

ففي الحديث الصحيح حديث النواس بن سمعان الطويل: "أن الله يوحي إلى عيسى أني أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم"[(1)]، والمعنى: لا قوة لأحد بقتالهم، وهم يأجوج ومأجوج.
وأما اليد بمعنى النعمة، كثير، ومنه قول رسول قريش لأبي بكر: "لولا يد لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك"[(2)]، يعني: نعمة.
وقول المتنبي:
وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المانوية تكذب
والمانوية: فرقة من المجوس الذين يقولون: إن الظلمة تخلق الشر، والنور يخلق الخير. فالمتنبي يقول: إنك تعطي في الليل العطايا الكثيرة التي تدل على أن المانوية تكذب، لأن ليلك يأتي بخير.
فالمراد بيد الله: النعمة، وليس المراد باليد اليد الحقيقية، لأنك لو أثبت لله يداً حقيقية، لزم من ذلك

---
(1) رواه مسلم/ كتاب الفتن/ باب ذكر الدجال.
(2) رواه البخاري/ كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد.

التجسيم أن يكون الله تعالى جسماً، والأجسام متماثلة، وحينئذ تقع فيما نهى الله عنه في قوله:]فلا تضربوا لله الأمثال[[النحل: 74].

ونحن أسعد بالدليل منك أيها المثبت للحقيقة!! نقول: سبحان من تنزه من الأعراض والأبعاض والأغراض!! لا تجد مثل هذه السجعة لا في الكتاب ولا في السنة.

وجوابنا على هذا من عدة وجوه:

أولاً: أن تفسير اليد بالقوة أو النعمة مخالف لظاهر اللفظ، وما كان مخالفاً لظاهر اللفظ، فهو مردود، إلا بدليل.

ثانياً: أنه مخالف لإجماع السلف، حيث إنهم كلهم مجمعون على أن المراد باليد اليد الحقيقية.

فإن قال لك قائل: أين إجماع السلف؟ هات لي كلمة واحدة عن أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي، يقولون: إن المراد بيد الله الحقيقية!.

أقوله له: ائت لي بكلمة واحدة عن أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو غيرهم من الصحابة والأئمة من بعدهم يقولون: إن المراد باليد القوة أو النعمة.

فلا يستطيع أن بذلك.

إذاً، فلو كان عندهم معنى يخالف ظاهر اللفظ، لكانوا يقولون به، ولنقل عنهم، فلما لم يقولون به، علم أنهم أخذوا بظاهر اللفظ وأجمعوا عليه.

وهذه فائدة عظيمة، وهي أنه إذا لم ينقل عن الصحابة ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة، فإنهم لا يقولون بسواه، لأنهم الذين نزل القرآن بلغتهم، وخاطبهم النبي بلغتهم، فلا بد أن يفهموا الكتاب والسنة على ظاهرهما، فإذا لم ينقل عنهم ما يخالفه، كان ذلك قولهم.

ثالثاً: أنه يمتنع غاية الامتناع أن يراد باليد النعم أو القوة في مثل قوله:]لما خلقت بيدي[[ص: 75]، لأنه يستلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط، ونعم الله لا تحصى!! ويستلزم أن القوة قوتان، والقوة بمعنى واحد

لا يتعدد فهذا التركيب يمنع غاية المنـع أن يكـون المـراد باليد القوة أو النعمة.

هب أنـــه قــــد يمكن في قولـــه:]بــــل يـــداه مبسـوطتان[[المائـدة: 64]: أن يـراد بهمـا النعمـة على تأويـــل، لكن لا يمكن أن يـــراد بقولـــه:]لمـــا خلقت بيدي[النعمة أبداً.

أما القوة، فيمتنع أن يكون المراد باليدين القـوة في الآيـتين جميعـاً، في قولـه:]بـل يـداه[وفي قولـه:]لمـا خلقت بيدي[، لأن القوة لا تتعدد.

رابعاً: أنه لو كـان المـراد باليـد القـوة، مـا كـان لآدم فضـل على إبليس، بـل ولا على الحمـير والكلاب، لأنهم كلهم خلقوا بقوة الله، ولو كان المـراد باليـد القـوة، مـا صح الاحتجاج على إبليس، إذ إن إبليس سـيقول: وأنـا يـا رب خلقتني بقوتك، فما فضله علي؟!

خامساً: أن يقال: إن هذه اليد التي أثبتها الله جــاءت على وجوه متنوعة يمتنع أن يـراد بهـا النعمـة أو القـوة، فجـاء فيهـا الأصـابع والقبض والبسـط والكـف واليمين، وكل هذا يمتنع أن يراد بهـا القـوة، لأن القـوة لا توصـف بهذه الأوصاف.

فتبين بهذا أن قـول هـؤلاء المحـرفين الـذين قـالوا: المراد باليد القوة باطل من عدة أوجه.

وقد سبق أن صفات الله عز وجل من الأمور الخبرية الغيبيـة الـتي ليس للعقـل فيهـا مجـال، ومـا كـان هـذا سبيله، فإن الواجب علينا إبقـاؤه على ظـاهره، من غـير أن نتعرض له.

إثبات العينين لله تعالى

وقولـه:]واصـبر لحكم ربـك فإنـك بأعيننا[،]وحملنـاه على ذات ألواح ودسر (13) تجري بأعيينا جزاء لمن كــان كفر[،]وألقيت عليـك محبـة مـني ولتصـنع على عيـني[(1)......

(1) ذكر المؤلف رحمه الله تعالى لإثبات العينين للـه تعالى ثلاث آيات.

الآيـــــة الأولى:]وأصـــــبر لحكم ربـــــك فإنـــــك بأعيننا[[الطور: 48].

*** الخطاب هنا للنبي عليه الصلاة والسلام.**

*** والصبر: بمعنى الحبس، ومنه قوله: قتل صبراً، أي: قتل وقد حبس للقتل.**

فالصبر في اللغة: بمعنى الحبس.

وفي الشرع: قالوا: هو الصبر لأحكام الله، يعني: حبس النفس لأحكام الله.

وأحكام الله عز وجل شرعية وكونية: والشرعية: أوامر ونواه، فالصبر على طاعة الله صبر على الأوامر، والصبر عن معصيته صبر عن النواهي. والكونية: أقدار الله تعالى: فيبصر على أقداره وقضائه.

وهذا معنى قول بعضهم الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

فقوله تعالى:]واصبر لحكم ربك[: يتناول الأقسام الثلاثة:

1- الصبر على طاعة الله.

2- وعن معصية الله.

3- وعلى أقدار الله.

أي: اصبر لحكم ربك الكوني والشعري.

وبهذا نعرف أن التقسيم الذي ذكره العلماء، وقالوا: إن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن مصية الله، وصبر على أقدار الله: داخل في هذه الكلمة:]واصبر لحكم ربك[.

ووجه الدخول: أن الحكم إما كوني وإما شرعي، والشرعي أوامر ونواه. والنبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عز وجل بأوامر، ونهاه عن نواهي، وقدر عليه مقدورات:

فالأوامر مثل:]يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك[[المائدة: 67]،]ادع إلى سبيل ربك[[النحل: 125]، وهذه أوامر عظيمة، يعني: لو قيل لإنسان: اعبد ربك، فإنه يتمكن من العبادة، لكن الدعوة والتبليغ أمر صعب، لأنه يتعب في معاناة الآخرين وجهادهم، فيكون صعباً.

وأما النواهي، فقد نهاه عن الشرك، قال:]ولا تكونن من المشــركين[[الأنعــام: 14]،ـ]لئن أشــركت ليحبطن عملك[[الزمر: 65]... وما أشبه ذلك.

وأمــا الأحكــام القدريــة: فقــد حصــل عليــه أذى من قومــه، أذى قــولي وأذى فعلي، لا يصــبر عليــه إلا أمثــال الرسول عليه الصلاة والسلام.

آذوه بـــالقوة: بالســـخرية، والاســـتهزاء، والتهجين، وتنفير الناس عنه.

وأذوه بالفعل: كان ساجداً تحت الكعبة في آمن بقعة من الأرض، سـاجداً لربـه، فـذهبوا، وأتـوا بسـلى الناقـة، ووضعوه على ظهره وهو ساجد[1]!!

ليس هناك أبلغ من هذه الأذية مع العلم بأنه لو يدخل كافر مشـرك إلى الحـرم، لكـان عنـدهم آمنـاً، لا يؤذونـه فيه، بل يكرمونه ويطعمونه النبيذ ويسقونه ماء زمــزم!! ومحمـد عليـه الصـلاة والسـلام سـجداً للـه يؤذونـه هـذا الأذى!!

كانوا يأتون بالعـذرة والأنتـان والأقـذار يضـعونه عنـد عتبة بابه!!

وخرج إلى أهل الطـائف، ومـاذا صـار؟! صـار الإيـذاء العظيم، صف سفهاؤهم وغلمانهم على جانبي الطريق، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدمـوا عقبـه، فلم يفـق إلا في فرن الثعالب[2].

*** فصبر على حكم الله، ولكنه صبر مؤمن يـؤمن بـأن العاقبة لـه، لأن اللـه قـال لـه:]وأصـبر لحكم ربـك فإنـك بأعيننا[..ـ هذا الاعتناء والحفاوة.... أكرم شيء يكـون بـه الإنسان أن تقول له: أنت بعيني، أنت بقلبي...ـ وما أشبه ذلك.**

أنت بعيني، معنـاه: أنـا ألاحظـك بعيـني. وهـذا تعبـير معــروف عنــد النــاس، يكــون تمــام الحراســة والعنايــة والحفظ بمثل هذا التعبير: أنت بعيني،ـ

---

[1] رواه البخاري/ كتاب مناقب الأنصار/ باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين، ومسلم/ كتاب الجهـاد/ بـاب ما لقي النـبي ﷺ من أذى المشركين.

[2] رواه البخاري/ كتاب بدء الخلق/ باب إذا قال أحدكم "أمين"، ومسـلم/ كتـاب الجهـاد/ بـاب ما لقي النـبي ﷺ في أدى المشركين.

إذاً، قوله:]فإنك بأعيننا[، يعني: فإنك محـروس غايـة الحراسة، محفوظ غاية الحفظ.

]بأعيننا[: أعيننا معك، نحفظك، ونرعاك، ونعتني بك.

في الآية الكريمـة إثبـات العين للـه عـز وجـل، لكنهـا جاءت بصيغة الجمع، لما سنذكر إن شاء الله تعالى.

العين من الصفات الذاتيـة الخبريـة: الذاتيـة: لأنـه لم يزل ولا يزال متصفاً بها، الخبرية: لأن مسـماها بالنسـبة إلينا أجزاء وأبعاض.

فـــالعين منـــا بعض من الوجـــه، والوجـــه بعض من الجسم، لكنها بالنسبة للـه لا يجـوز أن نقـول: إنهـا بعض من الله، لأنه سبق أن هذا اللفـظ لم يـرد، وأنـه يقتضـي التجزئة في الخالق، وأن البعض أو الجزء هو الـذي يجـوز بقاء الكل بفقده، ويجوز أن يفقد، وصفات اللـه لا يجـوز أن تفقد أبداً، بل هي باقية.

وقـد دل الحـديث الصـحيح عن رسـول اللـه أن للـه عينين اثنتين فقط، حين وصف الدجال وقال: "إنه أعور، وإن ربكم ليس بـــأعور"[1]، وفي لفـــظ: "أعـــور العين اليمنى"[2].

وقــد قــال بعض النــاس معــنى (أعــور)، أي: معيب، وليس من عور العين!!

وهذا لا شك أنه تحريف وتجاهل للفظ الصحيح الــذي في البخاري وغيره: "أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية"[3] وهذا واضح.

ولا يقال أيضاً: (أعور) باللغة العربية، إلا لعور العين، أمـا إذا قيـل: (عـور) أو (عـوار)، فربمـا يـراد بـه مطلـق العيب.

وهذا الحديث يدل على أن للـه تعـالى عيـنين اثنـتين فقط.

ووجه الدلالة أنه لو كـان للـه أكـثر من اثنـتين، لكـان البيان به أوضح من البيان بالعور، لأنه لـو كـان للـه أكـثر

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الجهاد/ باب كيف يعرض الإسلام على الصـبي، ومسـلم/ كتـاب الإيمـان، بـاب ذكر المسـيح ابن مريم والمسيح الدجال.

[2] رواه البخاري/ كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى "ولتصنع على عيني"، ومسـلم/ كتـاب الإيمـان/ بـاب ذكر المسـيح ابن مريم والمسيح الدجال.

[3] تقديم تخريجه في الحديث السابق.

من عينين، لقال: إن ربكم له أعين، لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين، صار وضوح أن الدجال ليس برب أبين.

وأيضاً: لو كان الله عز وجل أكثر من عينين، لكان ذلك من كماله، وكان ترك ذكره تفويتاً للثناء على الله، لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام، فلو كان لله أكثر من عينين، لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام، لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال، وهو الزائد على العينين الثنتين.

وذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه "الصواعق المرسلة" حديثاً، لكنه ضعيف لانقطاعه، وهو: "إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن..."[1]: "عيني": هذه تثنية، لكن الحديث ضعيف، واعتمادنا في عقيدتنا هذه على الحديث الصحيح، حديث الدجال، لأنه واضح لمن تأمله.

ولقد ذكر ذلك عثمان بن سعيد الدرامي رحمه الله في "رده على بشر المريسي"، وكذلك أيضاً ذكره ابن خزيمة في "كتاب التوحيد"، وذكر أيضاً إجماع السلف على ذلك أبو الحسن الأشعري رحمه الله وأبو بكر الباقلاني، والأمر في هذا واضح.

فعقيدتنا التي ندين لله بها: أن لله تعالى عينين اثنتين، لا زيادة.

فإن قيل: إن من السلف من فسر قوله تعالى:]بأعيننا[، بقوله: بمرأى منا. فسره بذلك أئمة سلفيون معروفون، وأنتم تقولون: إن التحريف محرم وممتنع، فما الجواب؟

فالجواب: أنهم فسروها باللازم، مع إثبات الأصل، وهي العين، وأهل التحريف يقولون: بمرأى منا، بدون إثبات العين، وأهل السنة والجماعة يقولون:]بأعيننا[: بمرأى منا، ومع إثبات العين.

لكن ذكر العين هنا أشد توكيداً وعناية من ذكر مجرد الرؤية، ولهذا قال:]فإنك بأعيننا[.

قالت المعطلة: أجلبتم علينا بالخيل والرجل في إنكاركم علينا التأويل، وأنتم أولتم فأخرجتم الآية عن

---

[1] ذكره ابن القيم في كتاب "الصواعق" (256)، وقال الألباني في "الضعيفة" (1024): ضعيف جداً.

ظاهرها، فالله يقول:]فإنك بأعيننا[، فخذوا بالظاهر، وإذا أخذتم بالظاهر، كفرتم، وإذا لم تأخذوا بالظاهر، تناقضتم، فمرة تقولون: يجوز التأويل، ومرة تقولون: لا يجوز التأويل، وتسمونه تحريفاً، وهل هذا إلا تحكم بدين الله؟

قلنا: نأخذ بالظاهر، وعلى العين والرأس، وهو طريقتنا، ولا نخالفه.

قالوا: الظاهر من الآية أن محمد بعين الله، وسط العين، كما تقول: زيد بالبيت. زيد بالمسجد، فالباء للظرفية، فيكون زيد داخل البيت وداخل المسجد، فيكون قوله:]بأعيننا[، أي: داخل أعيننا وإذا قلتم بهذا كفرتم، لأنكم جعلتم الله محلاً للخلائق، فأنتم حلولية، وإن لم تقولوا به، تناقضتم؟

قلنا لهم: معاذ الله ثم معاذ الله ثم معاذ الله أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن، وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن، كفرتم، لأن من اعتقد أن ظاهر القرآن كفر وضلال، فهو كافر ضال.

فأنتم توبوا إلى الله من قولكم: إن هذا هو ظاهر اللفظ واسألوا جميع أهل اللغة من الشعراء والخطباء: هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظور إليه بالعين حال في جفن العين؟ اسألوا من شئتم من أهل اللغة أحياء وأمواتاً

فأنت إذا رأيت أساليب اللغة العربية، عرفت أن هذا المعنى الذي ذكروه وألزمونا به لا يرد في اللغة العربية، فضلاً عن أن يكون مضافاً إلى الرب عز وجل، فإضافته إلى الرب كفر منكر، وهو منكر لغة وشرعاً وعقلاً.

فإن قيل: بماذا تفسرون الباء في قوله:]بأعيننا[؟

قلنا: نفسرها بالمصاحبة، إذا قلت: أنت بعين، يعني: أن عيني تصحبك وتنظر إليك، لا تنفك عنك، فالمعنى: أن الله عز وجل بقول لنبيه: أصبر لحكم الله، فإنك محوظ بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين حتى لا ينالك أحد بسوء.

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية، لأنه يقتضي أن يكون رسول الله في عين الله، وهذا محال.

وأيضاً، فإن رسول الله خوطب بذلك وهو في الأرض، فإذا قلتم: إنه كان في عين الله كانت دلالة القرآن كذباً.

وهذا وجه آخر في بطلان دعوى أن ظاهر القرآن أن الرسول في عين الله تعالى.

الآية الثانية: قوله تعالى:]وحملناه على ذات ألواح ودسر (13) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر[[القمر: 13-14].

*]وحملناه[: الضمير يعود على نوح عليه الصلاة والسلام.

* وقوله:]وحملناه على ذات ألواح ودسر[: أي: على سفينة ذات ألواح ودسر، وهذه السفينة كان عليه الصلاة والسلام يصنعها، وكان يمر به قومه، فيسخرون منه، فيقول:]إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون[[هود: 38].

صنعها بأمر الله ورعاية الله وعنايته، وقال الله له:]واصنع الفلك بأعيننا ووحينا[[هود: 37] فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك، ويلهمه كيف يصنعها.

* ووصفها الله هنا في قوله:]ذات ألواح ودسر[:]ذات[: بمعنى: صاحبة. والألواح: الخشب. والدسر: مايربط به الخشب كالمسامير والحبال وما أشبه ذلك، وأكثر المفسرين على أن المراد بها المسامير التي تربط بها الأخشاب.

*]تجري بأعيننا[: هذا الشاهد:]بأعيننا[: أي ذات الألواح والدسر بأعين الله عز وجل. والمراد بالأعين هنا عينان فقط، كما مر ومعنى تجري بها، أي: مصحوبة بنظرنا بأعيننا، فالباء هنا للمصاحبة، تجري على الماء الذي نزل من السماء ونبع من الأرض، لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام دعا ربه]أني مغلوب فانتصر[[القمر: 10]، قال الله تعالى:]ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر[(11) وفجرنا الأرض عيوناً[[القمر: 11-12]، فكانت هذه السفينة تجري بعين الله عز وجل.

قـد يقـول قائـل: لمـاذا لم يقـل: وحملنـاه على السـفينة، أو: حملنـاه على فلـك، بـل قـال:]على ذات ألواح ودسر[؟
والجواب على هذا أن نقول: عدل عن التعبير بالفلك والسفينة إلى التعبير بذات ألواح ودسر، ولوجوه ثلاثة:
الوجـه الأول: مرعـاة للآيـات وفواصـلها، فلـو قـال: حملنا على فلك، لم تتناسب هذه الآية مـع مـا بعـدها ولا ما قبلهـا. ولـو قـال: على سـفينة، كـذلك، لكن من أجـل تناسـب الآيـات في فواصـلها وفي كلماتهـا قـال:]على ذات ألواح ودسر[.
الوجه الثاني: من أجل أن يتعلم الناس كيف يصنعون السفن، وبيان أنها من الألـواح والمسـامير، ولهـذا قـال الله تعالى:]ولقد تركناهـا آيـة فهـل من مـدكر[[القمـر: 15]، فأبقى الله تعالى علمهـا آيـة للخلـق يصـنعون كمـا ألهم الله تعالى نوحاً.
الوجـه الثـالث: الإشـارة إلى قوتهـا، حيث كـانت من ألواح ودسر، والتنكير هنا للتعظيم.
وروعي التركـيز على مادتهـا، ونظـير ذلـك في ذكـر الوصـف دون الموصـوف قولـه تعـالى:]أن اعمـل سابغات[[سـبأ: 11] ولم يقـل: دروعـاً، من أجـل العنايـة بفائدة هذه الـدروع، وهي أن تكـون سـابغة تامـة، فهـذه مثلها.
*** وقوله:]تجـري بأعيننا[، نقـول فيهـا مـا قلنـاه في قوله تعالى:]فإنك بأعيننا[[الطور: 48].**
الآية الثالثة: قوله:]وألقيت عليك محبة مني ولتصـنع على عيني[[طه: 39].
*** الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام.**
*** فقولـه:]وألقيت عليـك محبـة مـني[: اختلـف المفسرون في معناها:**
فمنهم من قال:]وألقيت عليـك محبـة مـني[، يعـني: أني أحببتك.
ومنهم من قـال: ألقيت عليـك محبـة من النـاس، والإلقاء من الله، أي أن: من رآك أحبك، وشـاهد هـذا أن

امرأة فرعون لما رأته أحبته وقالت:]لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً[[القصص: 9].

ولــو قــال قائــل: أيمكنكم أن تحملــوا الآيــة على المعنيين؟ لقلنا: نعم بناء على القاعدة، وهو أن الآيـة إذا كانت تحمل معنيين لا منافاة بينهما، فإنها تحمل عليهما جميعاً، فموسى عليه الصـلاة والسـلام محبـوب من اللـه عـز وجـل، ومحبـوب من النـاس، إذا رآه النـاس، أحبـوه، والواقع أن المعنيين متلازمـان، لأن اللـه تعـالى إذا أحب عبداً، ألقى في قلوب العباد محبته.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قـال: أحبـه الله وحببه إلى خلقه.

* ثم قال:]ولتصنع على عيني[: الصنع: جعل الشـيء على صفة معينـة، كصـنع صـفائح الحديـد قـدوراً، وصـنع الأخشاب أبواباً، وصنع شيء بحسبه، فصناعة البيت: بناء الـبيت، وصـناعة الحديـد: جعلهـا أواني مثلاً أو محركـات، وصـنع الآدمي: معنـاه التربيـة البدنيـة والعقليـة: تربيتـه البدنيـة بالغـذاء، وتربيتـه العقليـة بـالآداب والأخلاق ومـا أشبه ذلك.

وموسى على الصلاة والسـلام حصـل لـه ذلـك، فإنـه ربي على عين الله:

لما التقط آل فرعون، حماه الله عز وجل من قتلهم، مع أنهم كانوا يقتلون أبناء بـني إسـرائيل، فقضـى اللـه تعالى أن هذا الـذي تقتـل النـاس من أجلـه سـتربى في أحضان آل فعون، فالناس يقتلون من أجله، وهـو يـتربى آمناً في أحضانهم. وأنظر إلى هذه القدرة العظيمة

ومن تربيـة اللـه لـه عـرض على المراضـع ـ النسـاء اللاتي يرضعنه ـ، ولكنه ما رضـع من أي واحـدة:]وحرمنـا عليـه المراضـع من قبل[[القصـص: 12]، فمـا رضـع من امرأة قط، وكانت أخته قد انتدبت من قبل أمه، فرأتهم، وقالت:]هل أدلكم على أهـل بيت يكفلونـه لكم وهم لـه ناصـحون[[القصـص: 12]، قــالوا: نعم، نحن نــود هــذا. فقالت: اتبعوني. فتبعوها، قال تعالى:]فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن[[القصـص: 13]، ولم يرضـع من امرأة قط، مع أنه رضـيع لكن هـذا من كمـال قـدرة اللـه

وصدق وعده، لأن الله عز وجل قال لها:]فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين[[القصص: 7].

الأم شفقتها على ابنها لا أحد يتصورها، قيل لها: اجعلي ابنك في صندوق، وألقيه في البحر، وسيأتي إليك.

لولا الإيمان الذي مع هذه المرأة، ما فعلت هذا الشيء تلقي ابنها في البحر لو أن ابنها سقط في تابوته في البحر، لجرته فكيف وهي التي تلقيه؟ لكن لثقتها بالرب عز وجل ووعده ألقته في اليم.

وقوله:]ولتصنع على عيني[، بالإفراد، هل ينافي ما سبق من ذكرها بالجمع؟!

الجواب: لا تنافي، وذلك لأن المفرد المضاف يعم فيشمل كل ما ثبت لله من عين، وحينئذ لا منافاة بين المفرد وبين الجمع أو التثنية.

إذاً، يبقى النظر بين التثنية والجمع، فكيف نجمع بينهما؟!

الجواب أن نقول: إن كان أقل الجمع اثنين، فلا منافاة، لأننا نقول: هذا الجمع دال على اثنتين، فلا ينافيه. وإن كان أقل الجمع ثلاثة، فإن هذا الجمع لا يراد به الثلاثة، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه.

وقد فسر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين، وقالوا:]بأعيننا[: برؤية منا، ولكن لا عين، والعين لا يمكن أن تثبت لله عز وجل أبداً، لأن العين جزء من الجسم، فإذا أثبتنا العين لله، أثبتنا العين لله، أثبتنا تجزئة وجسماً، وهذا شيء ممتنع، فلا يجوز، ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرؤية، يعني: كأنما نراك ولنا عين، والأمر ليس كذلك!!

فنقول لهم: هذا القول خطأ من عدة أوجه:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر اللفظ.

الثاني: أنه مخالف لإجماع السلف.

الثالث: أنه لا دليل عليه، أي: أن المراد بالعين مجرد الرؤية.

الرابع: أننا إذا قلنا بأنها الرؤيـة، وأثبت اللـه لنفسـه عيناً، فلازم ذلك أنه يـرى بتـك العين، وحينئـذ يكـون في الآية دليل على أنها عين حقيقية.

صفة السمع والبصر لله تعالى

وقوله:]قد سمع الله قول الـتي تجادلـك في زوجهـا وتشـتكي إلى اللـه واللـه يسـمع تحاوركمـا كمـا إن اللـه سـميع بصـير[(1)
....

(1) ذكر المؤلف رحمه الله في إثبات صفتي السـمع والبصر آيات سبعاً:

الآية الأولى: قوله تعالى:]قد سـمع اللـه قـول الـتي تجادلـك في زوجهـا وتشـتكي إلى اللـه واللـه يسـمع تحاوركما إن الله سميع بصير[[المجادلة: 1].

*]قد[: للتحقيق.

والمجادلـة: هي الـتي جـاءت إلى النـبي ﷺ تشـتكي زوجها حين ظاهر منها.

والظهار: أن يقول الرجل لزوجتـه: أنت علي كظهـر أمي. أو كلمة نحوها.

وكـان الظهـار في الجاهليـة طلاقـاً بائنـاً، فجـاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ، وتـبين لـه كيـف يطلقهـا هـذا الرجل ذلك الطلاق البائن وهي أم أولاده، وكـانت تحـاور النـبي ﷺ، أي: تراجعـه الكلام فأفتاهـا اللـه عـز وجـل بمـا أفتاها به في الآيات المذكورة.

* والشاهد من هذه الآيات قوله:]قد سمع اللـه قـول الـتي تجادلك[، ففي هـذا إثبـات السـمع للـه سـبحانه وتعالى، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت.

قالت عائشة رضي الله عنها: "تبارك(أو قالت: الحمد لله) الذي وسع سمعه الأصـوات، إني لفي ناحيـة الـبيت، وإني ليخفى على بعض حديثها"(1).

والسـمع المضـاف إلى اللـه عـز وجـل ينقسـم إلى قسمين:

1- سـمع يتعلـق بالمسـموعات، فيكـون معنـاه إدراك الصوت.

---

(1) تقدم تخريجه ص83

2- وسمع بمعنى الاستجابة، فيكون معناه أن الله يجيب من دعاه، لأن الدعاء صوت ينطلق من الداعي، وسمع الله دعاءه، يعني: استجاب دعاءه، وليس المراد سمعه مجرد سماع فقط، لأن هذا لا فائدة منه، بل الفائدة أن يستجيب الله الدعاء.

فالسمع الذي بمعنى إدراك الصوت ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يقصد به التأييد.

والثاني: ما يقصد به التهديد.

والثالث: ما يقصد به بيان إحاطة الله سبحانه وتعالى.

1- أما ما يقصد به التهديد، فكقوله تعالى:]أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم[[الزخرف: 80]، وقوله:]لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء[[آل عمران: 181].

2- وأما ما يقصد به التأييد، فكقوله تعالى لموسى وهارون:]قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى[[طه: 46]، أراد الله عز وجل أن يؤيد موسى وهارون بذكر كونه معهما يسمع ويرى، أي: يسمع ما يقولان وما يقال لهما ويراهما ومن أرسلا إليه، وما يفعلان، وما يفعل بهما.

3- وأما ما يقصد به بيان الإحاطة، فمثل هذه الآية، وهي:]قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله[[المجادلة: 1].

]لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء[[1]]أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون[[2]..

(1) الآية الثانية: قوله:]لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء[[آل عمران: 181].

***]لقد[: جملة مؤكدة باللام، و(قد)، والقسم المقدر، تقديره: والله، فهي مؤكدة بثلاث مؤكدات.**

والذين قالوا:]إن الله فقير ونحن أغنياء[: هم اليهود قاتلهم الله، فهم وصفوا الله بالعيب، قالوا:]إن الله فقير[.

وسبب قولهم هذا: أنه لما نزل قوله تعالى:]من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له[[البقرة: 245]، قالوا للرسول ﷺ: يا محمد! إن ربك افتقر، يسأل القرض منا.

(2) الآية الثالثة: قوله:]أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون[[الزخرف: 80].

*]أم[في مثل هذا التركيب، يقولون: إنها متضمنة معنى (بل)، والهمزة، يعني: بل أيحسبون، ففيها إضراب وفيها استفهام، أي: بل أيحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم.

* والسر: ما يسره الإنسان إلى صاحبه.

والنجوى: ما يناجي به صاحبه ويخاطبه، فهو أعلى من السر.

والنداء: ما يرفع به صوته لصاحبه.

فها هنا ثلاثة أشياء: سر ومناجاة ونداء.

فمثلاً: إذا كان شخص إلى جانب: وساررته، أي: كلمته بكلام لا يسمعه غيره، نسمي هذا مسارة.

وإذا كان الحديث بين القوم يسمعونه كلهم ويتجاذبونه، سمي مناجاة وأما المناداة، فتكون من بعيد لبعيد.

فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصي، ويتناجون بها، فيقول الله عز وجل مهدداً إياهم:]أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى[.

* و]بلى[: حرف إيجاب، يعني: بلى نسمع، وزيادة على ذلك:]ورسلنا لديهم يكتبون[، أي: عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم، ففي هذه الآية إثبات أن الله تعالى يسمع سرهم ونجواهم.

وقوله:]إنني معكما أسمع وأرى[[1]

....

(1) الآية الرابعة: قوله:]إنني معكما أسمع وأرى[[طه: 46].

* الخطاب لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، يقول الله سبحانه وتعالى لهما:]إنني معكما أسمع وأرى[، أي: أسمع ما تقولان، وأسمع ما يقال لكما، وأراكما، وأرى أن من أرسلتما إليه، وأرى ما تفعلان، وأرى ما يفعل بكما.

لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل، فإن كان بالقول، فهو مسموع عند الله، وإن كان بالفعل، فهو مرئي عند الله.

وقوله:]ألم يعلم بأن الله يرى[[1] ....

(1) الآية الخامسة: قوله:]ألم يعلم بأن الله يرى[[العلق: 14].

* الضمير في]ألم يعلم[يعود إلى من يسيء إلى النبي لقوله:]أرأيت الذين ينهى (9) عبداً إذا صلى (10) أريت إن كان على الهدى (11) أو أمر بالتقوى (12) أرأيت إن كذب وتولى (13) ألم يعلم بأن الله يرى[[العلق: 9-14]، وقد ذكر المفسرون أن المراد به أبو جهل[1].

وفي هذه الآية: إثبات صفة الرية لله عز وجل.

والرؤية المضافة إلى الله لها معنيان.

المعنى الأول: العلم.

المعنى الثاني: رؤية المبصرات، يعني: إدراكها بالبصر.

فمن الأول: قوله تعالى عن القيامة:]إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً[[المعارج: 6]، فالرؤية هنا رؤية العلم، لأن اليوم ليس جسماً يرى، وأيضاً هو لم يكن بعد، فمعنى:]ونراه قريباً[، أي: نعلمه قريباً.

*وأما قوله:]ألم يعلم بأن الله يرى[، فهي صالحة لأن تكون بمعنى العلم وبمعنى الرؤية البصرية، وإذا كانت صالحة لهما، ولا منافاة بينهما وجب أن تحمل عليهما جميعاً، فيقال: إن الله يرى، أي: يعلم ما يفعله هذا الرجل وما يقوله، ويراه أيضاً.

---

[1] تفسير ابن كثير جـ4 سورة العلق.

]الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هـو السميع العليم[[1]...............

(1) الآية السادسة: قوله:]الـذي يـراك حين تقـوم (218) وتقلبـك في السـاجدين (219) إنـه هـو السـميع العليم[[الشعراء: 218-220].

* وقبـل هـذه الآيـة قولـه:]وتوكـل على العزيـز الرحيم[[الشعراء: 217].

* والرؤية هنـا رؤيـة البصـر، لأن قولـه:]الـذي يـراك حين تقوم[لا تصح أن تكون بمعـنى العلم، لأن اللـه يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم، وأيضاً لقوله:]وتقلبـك في الساجدين[وهو يؤيد أن المراد بالرؤية هنا رؤية البصر.

* ومعنى الآية: أن الله تعالى يراه حين يقوم للصـلاة وحده وحين يتقلب في الصلاة مـع السـاجدين في صـلاة الجماعة.

*]إنه هو السميع العليم[:]إنه[، أي: الله الـذي يـراك حين تقوم:]هو السميع العليم[.

وفي الآيـة هنـا ضـمير الفصـل]هو[، من فوائـده الحصر، فهـل الحصـر هنـا حقيقي، بمعـنى: أنـه حصـر لا يوجد شيء من المحصور في غير المحصور فيـه، أو هـو إضافي؟

الجواب: هو إضـافي من وجـه حقيقي من وجـه، لأن المراد بـ]السـميع[هنـا: ذو السـمع الكامـل المـدرك لكـل مسموع، وهذا هو الخاص بالله عـز وجـل، والحصـر بهـذا الاعتبـار حقيقي، أمـا مطلـق السـمع، فقـد يكـون من الإنسان، كما في قولـه تعـالى:]إنـا خلقنـا الإنسـان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً[[الإنسان: 2]، فجعل الله تعالى الإنسان سميعاً بصـيراً. وكـذلك]عليم[، فإن الإنسان عليم، كما قال الله تعـالى:]وبشـروه بغلام عليم[[الذاريات: 28]، لكن العلم المطلق ـ أي: الكامـل ـ خـاص باللـه سـبحانه وتعـالى، فالحصـر بهـذا الاعتبـار حقيقي.

وفي هذه الآية الجمع بين السمع والرؤية.

]وقـل اعملـوا فسـيرى اللـه عملكم ورسـوله والمؤمنون[[1].........................

(1) الآية السابعة: قوله:]وقل اعملـوا فسـيرى اللـه عملكم ورسوله والمؤمنون[[التوبة: 105].

*** والـذي قبـل هـذه الآيـة:]خـذ من أمـوالهم صـدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سـكن لهم واللـه سـميع عليم (103) ألم يعلمـوا أن اللـه هـو يقبـل التوبة عن عبـاده ويأخـذ الصـدقات وأن اللـه هـو التـواب الرحيم[[التوبة: 103-104].**

*** في هذه الآية يقول:]فسيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون[.**

قال ابن كثير وغيره: قال مجاهد: هذا وعيـد ــ يعـني من اللــه تعــالى ــ للمخــالفين أوامــره، بــأن أعمــالهم ستعرض عليه وعلى الرسول والمؤمـنين، وهـذا كـائن لا محالة يوم القيامة، وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا.

والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية.

ففي الآية: إثبات الرؤيـة بمعنييهـا: الرؤيـة العلميـة، والرؤية البصرية.

وخلاصة ما سبق من صفتي السمع والرؤية:

أن السمع ينقسم إلى قسمين:

1- سمع بمعنى الاستجابة.

2- وسمع بمعنى إدراك الصوت.

وأن إدراك الصوت ثلاثة أقسام.

وكذلك الرؤية تنقسم إلى قسمين:

1- رؤية بمعنى العلم.

2- ورؤية بمعنى إدراك المبصرات.

وكل ذلك ثابت لله عز وجل.

والرؤية التي بمعنى إدراك المبصرات ثلاثة أقسام:

1- قسـم يقصـد بـه النصـر والتأييـد، كقولـه:]إنـني معكما أسمع وأرى[[طه: 46].

2- وقسم يقصد به الإحاطـة والعلم، مثـل قولـه:]إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصـيراً[[البقـرة: 271].

3- وقسـم يقصـد بـه التهديـد، مثـل قولـه:]قـل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخبـاركم وسـيرى الله عملكم ورسوله[[التوبة: 94].

ما نستفيده من الناحية المسلكية في الإيمان بصفتي السمع والرؤية:

- أما الرؤية، فنستفيد من الإيمان بها الخوف والرجاء: الخوف عند المعصية، لأن الله يرانا. والرجاء عند الطاعة، لأن الله يرانا. ولا شك أنه سيثيبنا على هذا، فتتقوى عزائمنا بطاعة الله، وتضعف إرادتنا لمعصيته.

- وأما السمع، فالأمر فيه ظاهر، لأن الإنسان إذا آمن بسمع الله، استلزم إيمانه كمال مراقبة الله تعالى فيما يقول خوفاً ورجاءً: خوفاً، فلا يقول ما يسمع الله تعالى منه من السوء، ورجاء، فيقول الكلام الذي يرضي الله عز وجل.

صفة المكر والكيد والمحال لله تعالى

وقوله:]وهو شديد المحال[، وقوله :]ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين[، وقوله:]ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون[، وقوله:]إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً[ذكر المؤلف رحمه الله ثلاث صفات متقاربه في أربع آيات: المحال ، والمكر.

الآية الأولى: في المحال ، وهي قوله :]وهو شديد المحال[{سورة الرعد : 13} .

*** أي : شديد الأخذ بالعقوبة. وقيل : إن المحال بمعنى المكر ؛ أي : شديد المكر ، وكأنه على هذا التفسير مأخوذ من الحيلة وهي أن يتخيل بخصمه حتى يتوقع به . وهذا المعنى ظاهر صنيع المؤلف رحمه الله ؛ لأنه ذكرها في سياق آيات المكر والكيد.**

والمكر ؛ قال العلماء في تفسيره: إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم ؛ يعني : أن تفعل أسباباً خفية فتوقع بخصمك وهو لا يحص ولا يدري، ولكنها بالنسبة لك معلومة مدبرة.

والمكر يكون في موضع مدحاً ويكون في ذماً: فإن كان في مقابلة من يمكر؛ فهو مدح؛ لأنه يقتضي أنك أنت أقوى منه. وإن كان في غير ذلك؛ فهو ذم ويسمي خيانة.

ولهذا لم يصف الله نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد؛ كما قال الله تعالى:]ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون[{النمل : 50}ـ ،ـ]ويمكرون ويمكر الله[{الأنفال: 30}، ولا يوصف الله سبحانه وتعالى به على الإطلاق ؛ فلا يقال : إن الله ماكر ! لا على سبيل الخبر ، ولا على سبيل التسمية ؛ ذلك لأن هذا المعنى يكون مدحاً في حال ويكون ذماً في حال ؛ فلا يمكن أن نصف الله به على سبيل الإطلاق.

فأما قوله تعالى :]والله خير الماكرين[{آل عمران: 54} ؛ فهذا كمال ؛ ولهذا لم يقل: أمكر الماكرينبل قال:]والله خير الماكرين[؛ فلا يكون مكره إلا خيراً ، ولهذا يصح أن نصفه بذلك ؛ فنقول: هو خير الماكرين. أو نصفه بصفة المكر في سبيل المقابلة ؛ أي : مقابلة من يمكر به، فنقول: إن الله تعالى ماكر بالماكرين؛ لقوله تعالى:]ويمكرون ويمكر الله[.

الآية الثانية: في المكر ، وهي قوله :]ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين[{سورة آل عمران: 54}.

* هذه نزلت في عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، مكر به اليهود ليقتلوه ، ولكن كان الله تعالى أعظم منهم مكراً ، رفعه الله، وألقى شبهه على أحدهم، على الذي تولى كبره وأراد أن يقتله ، فلما دخل عليه هذا الذي يريد القتل ، وإذا عيسى قد رفع ، فدخل الناس ، فقالوا: أنت عيسى ! قال : لست عيسى ! فقالوا: أنت هو! لأن الله تعالى ألقى عليه شبهه، فقتل هذا الرجل الذي كان يريد أن يقتل عيسى بن مريم؛ فكان مكره عائداً عليه،]ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين[.

الآية الثالثة: في المكر أيضاً ، وهي قوله :]ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون[{النمل: 50} .

هذا في قوم صالح ، كان في المدينة التي كان يدعو الناس فيها إلى الله تسعة رهط-أي: أنفار -]تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله[{النمل: 49} ؛ يعني: لنقتلنه بالليل ،]ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون[{النمل: 49}؛ يعني : أنهم قتلوه بالليل ؛ فما

يشاهدونه . لكن مكروا ومكر الله ! قيل: إنهم لما خرجوا ليقتلوه، لجؤوا إلى غار ينتظرون الليـل ؛ انطبـق عليهم الغار ، فهلكوا، وصالح وأهله لم يمسـهم سـوء ، فيقـول الله :]ومكروا مكراً ومكرنا مكراً[.

***]ومكـــرا[: في الموضــعين منكـــرة للتعظيم ؛ أي : مكروا مكراً عظيماً، ومكرنا مكراً أعظم.**

الآية الرابعة: في الكيد ، وهي قولـه :]إنهم يكيـدون كيداً وأكيد كيداً[{الطارق: 15-16}.

***]إنهم[؛ أي: كفار مكة،]يكيدون[للرسول صـلى اللـه عليه وسلم]كيداً[لا نظير له في التنفير منه ومن دعوته ، ولكن الله تعالى يكيد كيداً أعظم وأشد.**

***]وأكيد كيداً[؛ يعني : كيداً أعظم من كيدهم .**

ومن كيدهم ومكرهم ما ذكره الله في سورة الأنفال :]وإذ يمكـر بـك الـذين كفـروا ليثبتـوك أو يقتلـوك أو يخرجوك[{الأنفال: 30} : ثلاثة آراء.

1- 1-]ليثبتوك[؛ يعني: يحبسوك.
2- 2-]يقتلوك[؛ يعني: يعدموك.
3- 3-]يخرجوك[؛ يعني: يطردوك

وكان رأي القتـل أفضـل الآراء عنـدهم بمشـورة من إبليس ؛ لأن إبليس جـاءهم بصـورة شـيخ نجـدي ، وقـال لهم: انتخبوا عشرة شبان من عشـر قبائـل من قـريش ، وأعطوا كل واحد سيفاً ثم يعمدون إلى محمد صلى اللــه عليه وسلم ، فيقتلونه قتلة رجل واحد ، فيضيع دمـه في القبائـل ؛ فلا تسـتطيع بنـو هاشـم أن تقتـل واحـداً من هـؤلاء الشـبان وحينئـذ يلجـؤون إلى الديـة ، فتسـلمون منه . فقـالوا: هـذا الـرأي!! وأجمعـوا على ذلـك. ولكنهم مكروا مكراً والله تعالى يمكر خيراً منه؛ قال الله تعـالى:]ويمكرون ويمكـر اللـه واللـه خـير المـاكرين[{الأنفـال: 30} ؛ فمـا حصـل لهم الـذي يريـدون ! بـل إن الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام خـرج من بيتـه، يـذر الـتراب على رؤوس العشـرة هـؤلاء، ويقـرأ:]وجعلنـا من بين أيـديهم سـداً ومن خلفهم سـداً فأغشـيناهم فهم لا يبصـرون[[يس: 9]، فكـانوا ينتظـرون الرسـول عليـه

الصلاة والسلام يخرج، فخرج، من بينهم، ولم يشعروا به.

إذاً، صار مكر الله عز وجل أعظم من كرهم، لأنه أنجى رسوله منهم وهاجر.

*قال هنا:]يكيدون كيدا(15) وأكيد كيدا[[الطارق: 15-16]، والتنكير فيها للتعظيم، وكان كيد الله عز وجل أعظم من كيدهم.

وهكذا يكيد الله عز وجل لكل من انتصر لدينه، فإنه يكيد له ويؤيده، قال الله تعالى:]كذلك كدنا ليوسف[[يوسف: 76]، يعني: عملنا عملاً حصل به مقصوده دون أن يشر به أحد.

وهذا من فضل الله عز وجل على المرء، أن يقيه شر خصمه على وجه الكيد والمكر على هذا الخصم الذي أراد الإيقاع به.

فإن قلت: ما هو تعريف المكر والكيد والمحال؟ .

فالجواب: تعريفها عند أهل العلم : التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم ؛ يعني: أن توقع بخصمك بأسباب خفية لا يدري عنها. وهي في محلها صفة كمال يحمد عليها وفي غير محلها صفة نقص يذم عليها.

ويذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بارز عمرو بن ود-والفائدة من المبارزة أنه إذا غلب أحدهما أنكسرت قلوب خصومه-فلما خرج عمرو ؛ صرخ علي : ما خرجت لأبارز رجلين. فالتفت عمرو ، فلما التفت؛ ضربه علي رضي الله عنه على رقبته حتى أطاح برأسه

هذا خداع ، لكنه جائز، ويحمد عليه؛ لأنه في موضعه ؛ فإن هذا الرجل ما خرج ليكرم علي بن أبي طالب ويهنئه، ولكنه خرج ليقتله ؛ فكاد له علي بذلك.

والمكر والكيد والمحال من صفات الله الفعلية التي لا يوصف بها على سبيل الإطلاق ؛ لأنها تكون مدحاً في حال ، وذماً في حال؛ فيوصف بها حين تكون مدحاً ، ولا يوصف بها إذا لم تكن مدحاً ؛ فيقال: الله خير الماكرين، خير الكائدين، أو يقال: الله ماكر بالماكرين، خادع لمن يخادعه.

والاستهزاء من هذا الباب ؛ فلا يصح أن نخبر عن الله بأنــه مســتهزئ على الإطلاق ؛ لأن الاســتهزاء نــوع من اللعب ، وهو منفي عن الله ؛ قال الله تعالى :]وما خلقنا السـموات والأرض ومـا بينهمـا لاعـبين[{الـدخان: 38}، لكن في مقابلة من يستهزئ به يكـون كمـالاً ؛ كمـا قـال تعالى:]وإذا لقوا الذين آمنـوا قـالوا آمنـا وإذا خلـوا إلى شــــــياطينهم قــــــالوا إنـــــا معكم إنمــــــا نحن مستهزئون[{البقـرة: 14} ؛ قـال اللـه:]اللـه يسـتهزئ بهم[{البقرة: 15}.

فأهل السنة والجماعة يثبتون هـذه المعـاني للـه عـز وجل على سبيل الحقيقة.

لكن أهل التحريف يقولون : لا يمكن أن يوصـف بهـا أبـداً ، لكن ذكـر مكـر اللـه ومكـرهم من بـاب المشـاكلة اللفظيــة، والمعــنى مختلــف؛ مثــل:]رضــي اللــه عنهم ورضوا عنه[{المائدة: 119}.

ونحن نقــول لهم: هــذا خلاف ظــاهر النص ، وخلاف إجماع السلف. وقد قلنا سابقاً: إذا قـال قائـل : أئت لنـا بقول لأبي بكر أو عمـر أو عثمـان أو علي يقولـون فيـه: إن المراد بالمكر والاستهزاء والخداع الحقيقة

فنقــول لهم: نعم ؛ هم قــرؤوا القــرآن وآمنــوا بــه ، وكونهم لم ينقلوا هذا المعنى المتبادر إلى معـنى آخـر ؛ يدل على أنهم أقروا به، وأن هذا إجماع، ولهذا يكفينا أن نقول في الإجماع: لم ينقل عن واحد منهم خلاف ظاهر الكلام، وأنــــه فســــر الرضــــى بــــالثواب ، أو الكيــــد بالعقوبة . . . . ونحو ذلـك . وهـذه الشـبهة ربمـا يوردهـا علينـا أحـد من النـاس ؛ يقولـون : أنتم تقولـون : هـذا إجماع السلف؛ أين إجماعهم؟

نقـول: عـدم نقـل مـا يخـالف ظاهرهـا عنهم دليـل الإجماع.

ما نسـتفيده من الناحيـة المسـلكية في إثبـات صـفة المكر والكيد والمحال:

المكر: يستفيد به الإنسان بالنسبة للأمر المسلكي مراقبة الله سبحانه وتعالى، وعدم التحيل على محارمه ، وما أكثر المتحيلين على المحارم فهؤلاء المتحيلون على المحارم، إذا علموا أن الله تعالى خير منهم مكراً، وأسرع منهم مكراً ؛ فإن ذلك يستلزم أن ينتهوا عن المكر .

ربما يفعل الإنسان شيئاً فيما يبدوا للناس أنه جائز لا بأس به، لكنه عند الله ليس بجائز ، فيخاف ، ويحذر.

وهذا له أمثلة كثيرة جداً في البيوع والأنكحة وغيرهما :

مثال ذلك في البيوع: رجل جاء إلى آخر ؛ قال : أقرضني عشرة آلاف درهم . قال : لا أقرضك إلا بأثني عشر ألف وهذا رباً وحرام سيتجنبه لأنه يعرف أنه رباً صريح لكن باع عليه سلعة بأثنى عشر آلفاً مؤجلة إلى سنة بيعاً تاماً وكتبت الوثيقة بينهما، ثم إن البائع أتى إلى المشترى ، وقال: بعنية بعشرة ألاف نقداً . فقال: بعتك إياه . وكتبوا بينهما وثيقة بالبيع فظاهر هذا البيع الصحة، ولكن نقول: هذه حيلة ؛ فإن هذا لما عرف أنه لا يجوز أن يعطيه عشر ألفاً ؛ قال: أبيع السلعة عليه باثني عشر، وأشتريها نقداً بعشرة.

ربما يتسمر الإنسان في هذه المعاملة لأنها أمام الناس معاملة ليس فيها شيئاً لأنها أمام الناس معاملة ليس فيها شيء لكنها عند الله تحيل على محارمه ، وقد يملي الله تعالى لهذا الظالم ، حتى إذا آخذه لم يفلته؛ يعني : يتركه ينمو ماله ويزداد وينمو بهذا الربباء لكن إذا أخذه لم يفلته ؛ وتكون هذه الأشياء خسارة عليه فيما بعد ، وماله إلى الإفلاس ، ومن الكلمات المشهورة على ألسنة الناس : من عاش في الحيلة مات فقيراً.

مثال في الأنكحة: امرأة طلقها زوجها ثلاثاً ؛ فلا تحل له إلا بعد زوج، فجاء صديق له، فتزوجها بشرط أنه متى حللها –يعني: متى جامعها –طلقها ، ولما طلقها ؛ أنت بالعدة ، وتزوجها الأول ؛ فإنها ظاهراً تحل للزوج الأول، لكنها باطناً لا تحل؛ لأن هذه حيلة.

فمـتى علمنـا أن اللـه أسـرع مكـراً ، وأن اللـه خـير الماكرين؛ أو جب لنا ذلك أن نبتعد غاية البعد عن التحيـل على محارم الله .

صفة العفو والمغفرة والرحمة والعزة

وقوله:]إن تبدوا خيراً أو تخفـوه أو تعفـوا عن سـوء فإن الله كان عفواً قديراً[. . .

(1) (1) ذكر المؤلف رحمه الله أربع آيات في صفة العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة:

الآية الأولى: في العفو والمقدرة : قولـه:]إن تبـدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سـوء فـإن اللـه كـان عفـواً قديراً[{النساء: 149}.

يعـني : إن تفعلـوا خـيراً ، فتبـدوه ؛ أي : تظهـروه للناس ،]أو تخفوه [؛ يعني: عن الناس فـإن اللـه تعـالى يعلمه، ولا يخفى عليه شيء.

وفي الآية الثانية:]إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن اللـه كان بكل شيء عليماً[{الأحزاب: 54} ، وهذا أعم يشمل الخير والشر وما ليس بخير ولا شر .

ولكل آية مكانها ومناسبتها لمن تأمل .

وقوله :]أو تعفوا عن سوء[: العفو: هو التجـاوز عن العقوبة؛

فـإذا أسـاء إليكم إنسـان فعفـوت عنـه ؛ فـإن اللـه سـبحانه وتعـالى يعلم ذلـك. ولكن العفـو يشـترك للثنـاء على فاعله أن يكـون مقرونـاً بالإصـلاح ؛ لقولـه تعـالى :]فمن عفـا وأصـلح فـأجره على الله[{الشـورى : 40}ـ ، وذلـك أن العفـو قـد يكـون سـبباً للزيـادة في الطغيـان والعدوان ، وقد يكون سبباً للانتهاء عن ذلك، وقد لا يزيـد المعتدي ولا ينقصه.

1-فإذا كان مسبباً للزيادة في الطغيـان ؛ كـان العفـو هنا مذمومـاً ، وربمـا يكـون ممنوعـاً ؛ مثـل أن نعفـوا عن هـذا المجـرم ، ونعلم - أو يغلب على الظن أنـه يـذهب فيجرم إجراماً أكـبر ؛ فهنـا لا يمـدح العـافي ؛ عنـه ، بـل يذم.

2-وقد يكون العفو سبباً للانتهاء عن العدوان ؛ بحيث يخجل ويقول : هـذا الـذي عفـا عـني لا يمكن أن أعتـدي

عليه مرة أخرى، ولا على أحد غيره. فيخجل أن يكون هو من المعتدين ، وهذا الرجل من العافين ؛ فالعفو محمود ومطلوب وقد يكون واجباً.

3-وقد يكون العفـو لا يـؤثر ازديـاداً ولا نقصـاً ؛ فهـو أفضـــل لقولـــه تعـــالى :]وان تعفـــوا أقـــرب للتقوى[{البقرة : 237} .

وهنا يقول تعالى:]أو تعفوا عن سوء فـإن الله كـان عفواً قـديراً[؛ يعـني: إذا عفـوتم عن السـوء ؛ عفـا اللـه عنكم ، ويؤخـذ هـذا الحكم من الجـواب:]فـإن اللـه كـان عفــواً قــديراً[؛ يعــني : فيعفــو عنكم مــع قدرتــه على الانتقام منكم ، وجمع الله تعالى هنا بين العفو والقدير؛ لأن كمـال العفـو أن يكـون عن قـدرة . أمـا العفـو الـذي يكون عن عجـز ؛ فهـذا لا يمـدح فاعلـه ؛ لأنـه عـاجز عن الأخذ بالثأر . وأما العفو الذي لا يكـون مـع قـدرة ؛ فقـد يمدح لكنه ليس عفواً كاملاً، بل العفو الكامل ما كان عن قدرة.

ولهذا جمع الله تعالي بين هذين الاسمين (العفو) و (التقدير) :

فالعفو: هو المتجاور عن سيئات عبـاده، والغـالب أن العفـو يكـون عن تـرك الواجبـات، و المغفـرة عن فعـل المحرمات.

والقـدير: ذو القـدرة يتمكن بهـا الفاعـل من الفعـل بدون عجز.

وهـذان الاسـمان يتضـمنان صـفتين، وهمـا العفـو، والقدرة.

] وليعفـوا وليصـفحوا آلا تحبـون أن يغفـر اللـه لكم والله غفور رحيم [[1].

(1) (1) الآيــة الثانيــة: في المغفــرة والرحمــة: قوله:] وليعفوا وليصفحوا ألا تحبـون أن يغفـر اللـه لكم والله غفور رحيم [[النور: 22].

• هذه الآية نزلت في أبي بكـر رضـي اللـه عنـه، وذلك أن مسطح بن أثاثه رضي اللـه عنـه كـان ابن خالـة أبي بكر، وكان ممن تكلموا في الإفك.

([1] رواها البخاري/ كتاب التفسير (سورة النور)، ومسلم / كتاب التوبة / باب قصة الإفك.

وقصة الإفك[1]: أن قوماً من المنافقين تكلموا في عرض عائشة رضي الله عنها، وليس والله قصدهم عائشة، لكن قصدهم رسول الله صلي الله عليه وسلم: أن يدنسوا فراشه، وأن يلحقوه العار والعياذ بالله! ولكن الله ولله الحمد فضحهم، وقال:] والذي تولي كبره منهم له عذاب عظيم [[النور: 11].

تكلموا فيها، وكان أكثر من تكلم فيها المنافقون، وتكلم فيها نفر من الصحابة رضي الله عنهم معروفون بالصلاح، ومنهم مسطح بن أثاثة، فلما تكلم فيها، وكان هذا من أكبر القطيعة قطعية الرحم أن يتكلم إنسان في قريبه بما يخدش كرامته، لا سيما وأن ذلك في أم المؤمنين زوجة رسول الله صلي الله عليه وسلم، أقسم أبو بكر إلا ينفق عليه، وكان أبو بكر هو الذي ينفق عليه، فقال الله تعالي:] ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعه أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله [وكل هذه الأوصاف ثابتة في حق مسطح، فهو قريب ومسكين ومهاجر] وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم [[النور: 22]، فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلي والله، نحب أن يغفر الله لنا! فرد عليه النفقة.

هذا هو ما نزلت فيه الآية:

- **أما تفسيرها، فقوله:] وليعفوا وليصفحوا [: اللام لامر الأمر، وسكنت لأنها أتت بعد الواو، ولام الأمر تسكن إذا وقعت بعد الواو كما هنا أو بعد الفاء أو بعد (ثم) : قال الله تعالي:] ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله [[الطلاق: 7] وقال تعالي:]ثم ليقضوا تفثهم [[الحج: 29]، هذا إذا كانت لام أمر، أما إذا كانت لام تعليل، فإنها تبقي مكسورة، لا تسكن ، وإن وليت هذه الحروف.**
- **قوله:]وليعفوا [، يعني: يتجاوزوا عن الأخذ بالذنب.**

---

[1] رواها البخاري/ كتاب التفسير (سور النور)، ومسلم / كتاب التوبة / باب قصة الإفك.

•]وليصفحوا [، يعني: يعرضوا عن هذا الأمـر، ولا يتكلموا فيه، مـأخوذ من صـفحة العنـق، وهي جانبـه، لأن الإنسان إذا أعرض، فالذي يبدو منه صفحة العنق.

والفرق بين العفو والصفح: أن الإنسان قد يعفو ولا يصفح، بل يذكر هذا العدوان وهذه الإساءة، لكنه لا يأخـذ بالندب، فالصفح أبلغ من مجرد العفو.

• وقوله:] ألا تحبون أن يغفـو اللـه لكم [:] ألا [: للعرض، والجواب: بلي نحب ذلك، فإذا كنا نحب أن يغفـر الله لنا، فلتتعرض لأسباب المغفرة.

• ثم قال:]والله غفور رحيم [:] غفور [: هذه إما أن تكـون اسـم فاعـل للمبالغـة، وإمـا أن تكـون صـفة مشبهة، فإذا كانت صفة مشبهة، فهي دالة على الوصف اللازم الثـابت، هـذا هـو مقتضـى الصـفة المشـبهة، وإن كانت اسم فاعـل محـولاً إلي صـيغة التكثـير، كـانت دالـة على وقوع المغفرة من الله بكثرة.

وبعد هذا نقول: إنها جامعة بين الأمرين، فهي صـفة مشـبهة، لأن المغفـرة صـفة دائمـة للـه عـز وجـل، وهي أيضاً فعل يقع بكثرة، فما أكثر مغفرة الله عز وجـل ومـا أعظمها.

• وقوله:] رحيم [: هذه أيضاً اسـم فاعـل محـول إلي صيغة المبالغة، وأصل أسم الفاعـل من رحم: راحم، لكن حول إلي رحيم لكثرة رحمة الله عز وجل وكثرة من يرحمهم الله عز وجل.

واللـه سـبحانه وتعـالي يقـرن بين هـذين الاسـمين، لأنهمـا دالان على معـني متشـابه، ففي المغفـرة زوال المكروب و اثار الذنب، وفي الرحمـة حصـول المطلـوب، كما قال الله تعـالي للجنـة: " أنت رحمـتي أرحم بـك من أشاء" [1].

وقولـــه:] وللـــه العـــزة ولرســـوله والمؤمـــنين [(1)................................

(1) (1) الآية الثالثة: في العزة، وهي قوله:] ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [[المنافقون:8].

---

[1] رواه البخاري/ كتاب التفسير / باب قوله تعالي: " ويقول هل من مزيد" ، ومسـلم/ كتـاب الجنـة/ بـاب النـار يـدخلها الجبارون.

• هذه الآية نزلت في مقابلة قول المنافقين:] لئن رجعنا إلي المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [[المنافقون: 8]، يدون أنهم الأعز، وأن رسول الله والمؤمنين الأذلون، فبين الله تعالي أنه عزة لهم، فضلاً عن أن يكونوا هم الأعزون، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

• ومقتضى قول المنافقين أن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلي آله وسلم والمؤمنين هم الذين يخرجون المنافقين، لأنهم أهل العزة، والمنافقين أهل الذلة، ولهذا كانوا يحسبون كل صيحة عليهم، وذلك لذلهم وهلعهم، وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا، قالوا: آمنا، خوفاً وجبناً، وإذا خلوا إلي شياطينهم ، قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزءون ! وهذا غاية الذل.

أما المؤمنون، فكانوا أعزاء بدينهم، قال الله عنهم في مجادلة أهل الكتاب:] فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [آل عمران:64]، فيعلنونها صريحة، لا يخافون في الله لومه لائم.

• وفي هذه الآية الكريمة إثبات العزة لله سبحانه وتعالي.

وذكر أهل العلم أن العزة تنقسم إلي ثلاثة أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع:

1. 1. فعزة القدر: معناه أن الله تعالي ذو قدر عزيز، يعني: لا نظير له.

2. 2. وعزة القهر: هي عزة الغلبة، يعني: أنه غالب كل شيء، قاهر كل شيء، ومنه قوله تعالي:] فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب [[ص: 23]، يعني: غلبني في الخطاب. فالله سبحانه عزيز له بل هو غالب كل شيء.

3. 3. وعزة الامتناع: وهي أن الله تعالي يمتنع أن يناله سوء أو نقص، فهو مأخوذ من القوة والصلابة، ومنه قولهم: أرض عزاز، يعني قوية شديدة.

هذه معاني العزة التي أثبتها الله تعالي لنفسه، وهي تدل على كمال قهره وسلطانه، وعلي كمال صفاته، وعلي تمام تنزهه عن النقص.

تدل على كمال قهره وسلطانه في عزة القهر.

وعلى تمام صفاته وكمالها وأنه لا مثيل لها في عزة القدر.

وعلى تمام تنزهه عن العيب والنقص في عزة الامتناع.

• قوله:] ولرسوله وللمؤمنين[، يعني: أن الرسول صلى الله عليه وسلم، له عزة، وللمؤمنين أيضاً عزة وغلبة.

• ولكن يجب أن نعلم أن العزة التي أثبتها الله لرسوله وللمؤمنين ليست كعزة الله، فإن عزة الرسول عليه الصلاة والمؤمنين قد يشوبها ذلة، لقوله تعالي:] ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة[[آل عمران: 123]، وقد يغلبون أحياناً لحكمة يريدها الله عز وجل، ففي أحد لم يحصل لهم تمام العزة، لأنهم غلبوا في النهاية لحكم عظيمة، وكذلك في حنين ولوا مدبرين، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم، من أثني عشر ألفاً إلا نحو مئة رجل. هذا أيضاً فقد للعزة، لكنه مؤقت. أما عزة الله عز وجل، فلا يمكن أبداً أن تفقد.

وبهذا عرفنا أن العزة التي أثبتها الله لرسوله وللمؤمنين ليست كالعزة التي أثبتها لنفسه.

وهذا أيضاً يمكن أن يؤخذ من القاعدة العامة، وهي أنه: لا يلزم من اتفاق الاسمين أن يتماثل المسميان، ولا من اتفاق الصفتين أن يتماثل الموصوفان.

وقوله عن إبليس:] فبعزتك لأغوينهم أجمعين [(1) ....

(1) (1) الآية الرابعة: في العزة أيضاً، وهي قوله عن إبليس:] فبعزتك لأغوينهم أجمعين[[ص: 82].

• الباء هنا للقسم، لكنه اختار القسم بالعزة دون غيرها من الصفات لأن المقام مقام مغالبة، فكأنه قال: بعزتك التي تغلب بها من سواك لأغوين هؤلاء وأسطير عليهم يعني: بني آدم حتى يخرجوا من الرشد إلي الغي.

ويستثني من هذا عباد الله المخلصون، فإن إبليس لا يستطيع أن يغويهم، كما قال تعالي:] إن عبادي ليس لك عليهم سلطان [[الحجر: 42].

ففي هاتين الآيتين إثبات العزة لله.

وفي الآية الثالثة إثبات أن الشيطان يقر بصفات الله!

فكيف نجد من بني آدم من ينكر صفات الله أو بعضها، أيكون الشيطان أعلم بالله وأعقل مسلكاً من هؤلاء النفاة؟!

ما نستفيده من الناحية المسلكية:

في العفو والصفح: هو أننا إذا علمنا أن الله عفو، وأنه قدير، أوجب لنا ذلك أن نسأله العفو دائماً، وأن نرجو منه العفو عما حصل منا من التقصير في الواجب.

أما العزة أيضاً: نقول: إذا علمنا أن الله عزيز، فإننا لا يمكن أن نفعل فعلاً نحارب الله فيه.

مثلاً الإنسان المرابي معاملته مع الله المحاربة:] فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله [[البقرة: 279]. إذا علمنا أن الله ذو عزة لا يغلب، فإنه لا يمكننا أن نقدم على محاربة الله عز وجل.

قطع الطريق محاربة:] إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض[[المائدة: 33]، فإذا علمنا أن قطع الطريق محاربة لله، وأن العزة لله، امتنعنا عن العمل، الله هو الغالب.

ويمكن أن نقول فيها فائدة من الناحية المسلكية أيضاً، وهي أن الإنسان المؤمن ينبغي له أن يكون عزيزاً في دينه، بحيث لا يذل أمام أحد من الناس، كائناً من كان، على المؤمنين، فيكون عزيزاً على الكافرين، ذليلاً على المؤمنين.

إثبات الاسم لله تعالي

إثبات الاسم لله تعالي

وقوله:] تبارك اسم ربك ذي الجلال والأكرم[(1) ....

(1) (1) ذكـر المؤلـف رحمـه اللـه آيـة في إثبـات الاسـم للـه تعـالي، وآيـات أخـري كثـيرة في تنزيـه اللـه تعالي ونفي المثيل عنه.

آيــة إثبــات الاســم:] تبــارك اســم ربــك ذي الجلال والإكرام [[الرحمن: 78].

•] تبارك [: قال العلماء: معناها: تعـالي وتعـاظم إن وصف بها الله، كقوله:]فتبارك الله أحسن الخاقلين [[المؤمنين : 14] ، وإن وصف بها اسم اللـه، معناهـا: أن البركة تكون باسم الله، أي أن اسم الله إذا صاحب شيئاً، صارت فيه البركة.

ولهذا جاء في الحديث: " كل أمر ذي بال لا يبـدأ فيـه بـ " بسم الله " فهو أبتر " [1]، أي: ناقص البركة.

بل إن التسمية تفيد حل الشيء الذي يحـرم بـدونها، فإنـه إذا سـمي اللـه على الذبيحـة صـارت حلالاً، وإذا لم يسم صارت حراماً وميتة، وهناك فرق بين الحلال الطيب الطاهر، والميتة النجسة الخبيثة.

وإذا سمي الإنسان على طهارة الحـدث، صـحت، وإذا لم يسم، لم تصح على أحد القولين.

وإذا ســمي الإنســان على طعامــه، لم يأكــل معــه الشيطان، وإن لم يسم، أكل معه.

وإذا سـمي الإنسـان على جماعـه، وقـال: " اللهم ! جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا " [2]، ثم قــدر بينهمــا ولــد، لم يضــره الشــيطان أبــداً، وإن لم يفعــل، فالولد عرضه لضرر الشيطان.

وعليـه، فنقـول: إن] فتبـارك [هنـا ليسـت بمعـني: تعالي وتعاظم، بل يتعين أن يكـون معناهـا: حلت البركـة باسم الله، أي أن أسمه سبب للبركة إذا صحب شيئاً.

* وقولــه:] ذي الجلال والإكــرام [:] ذي [: بمعــني صاحب، وهي

([1] أخرجه الخطيب البغدادي في " الجامع " (2/69) ، و السيوطي في " الجامع الصغير " (2/92) وسئل العلامة الجليل/ محمد العثيمين حفظه الله تعالي عن هذا الحديث فقـال: " هـذا الحـديث اختلف العلمـاء في صـحته فمن أهل العلم من صححه واعتمده كالنووي، ومنهم من ضعفه، ولكن تلقي العلماء له بالقبول ووضـعهم ذلك الحـديث في كتبهم يدل على أن ذلك له أصلاً .. [انتهي من كتاب (العلم) ص 127.

([2] رواه البخاري/ كتاب بدء الخلق/ باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم / كتاب النكاح/ باب ما يسـتحب أن يقوله عند الجماع.

صفة لـ (رب)، لا لـ (اسم)، لو كانت صفة لـ (اسم)، لكانت، ذو .

- **و) الجلال (، بمعني: العظمة.**
- **و)الإكرام (، بمعني: التكريم، وهو صالح لأن يكون الإكرام من الله لمن أطاعه، وممن أطاعه له.**

فـ) الجلال (: عظمته في نفسه،) والإكرام (: عظمته في المؤمنين، فيكرمونه ويكرمهم.

آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه

وقوله:) فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ((1) ....

(1) (1) قوله:) فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ([مريم: 65].

شرع المؤلف رحمه الله بصفات السلبية، أي صفات النفي.

وقد مر علينا فيما سبق أن صفات الله عز وجل ثبوتية وسلبية أي: منفية، لأن الكمال لا يتحقق إلا بالإثبات والنفي، إثبات الكمالات، ونفي النقائض.

- **قوله:) فاعبده واصطبر لعبادته (: الفاء مفرعة على ما سبق، وهو قوله:) رب السموات والأرض وما بينهما ([مريم: 65]، فذكر سبحانه وتعالي الربوبية) رب السموات والأرض وما بينهما (، وفرع على ذلك وجوب عبادته، لأن كل ما من أقر بالربوبية، لزمه الإقرار بالعبودية والألوهية، وإلا، صار متناقضاً.**
- **فقوله:) فاعبده (، أي: تذلل له من محبة وتعظيماً، والعبادة، يراد بها المتعبد به، ويراد بها التعبد الذي هو فعل العبد، كما سبق في المقدمة.**
- **وقوله:) واصطبر (: اصطبر، أصلها في اللغة: اصتبر، فأبدلت التاء طاء لعلة تصريفية. والصبر: حبس النفس. وكلمة (اصطبر) أبلغ من (اصبر)، لأنها تدل على معاناة، فالمعني اصبر، وإن شق عليك ذلك، واثبت القرين لقرينه في القتال.**

• وقولـه:) لعبادتـه (، قيـل: إن اللام بمعـني (علي) ، أي: اصـطبر عليهـا، كمـا قـال تعـالي:) وأمـر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ([طه: 132].

وقيـل: بـل اللام على أصـلها، أي : اصـطبر لهـا ، أي كن مقـابلاً لهـا بالصـبر، كمـا يقابـل القـرين قرينـه في ميدان القتال.

• وقولـه:) هـل تعلم لـه سـميا (: الاسـتفهام للنفي، وإذا كان الاستفهام بمعـني النفي، كـان مشـرباً معني التحدي، يعني: إن كنت صادقاً، فأخبرنا:) هل تعلم له سمياً (؟ (السمي) : الشبيه والنظير.

يعني : هل تعلم لـه مسـامياً أو نظـيراً يسـتحق مثـل اسمه؟

والجواب: لا.

فإذا كان كذلك، فالواجب أن تعبده وحده.

وفيهـا من الصـفات: قولـه:) هـل تعلم لـه سـمياً (، وهي من الصفات السلبية.

فما الـذي تتضـمنه من صـفات الكمـال (لأننـا ذكرنـا فيما سبق أن الصفات السلبية لابد أن تتضمن ثبوتاً) فما هو الثبوت الذي تضمنه النفي هنا؟

الجواب: الكمال المطلق، فيكـون المعـني: هـل تعلم له سمياً لثبوت كماله المطلق الذي لا يساميه أحد فيه؟

وقولـــــه:) ولم يكن لـــــه كفـــــواً أحـــــد ((1)

....

الآيـــة الثانيـــة: قولـــه:) ولم يكن لـــه كفـــواً أحـــد ([الأخلاص: 4] .

• تقدم الكلام عليها، أي: ليس يكافئه أحـد، وهو نكره في سياق النفي فتعم.

• و) كفوا(: فيها ثلاث قراءات: كفـواً، وكفئـاً، وكفواً، فهي بالهمزه ساكنة الفاء ومضـمومتها، وبـالواو مضمومة الفاء لا غير، وبهذا نعفرف خطأ الذين يقرؤون بتسكين الفاء مع الواو (كفوا).

هذه الآية أيضاً فيها نفي الكفء لله عز وجـل، وذلـك لكمال صفاته، فلا أحد يكافئه، لا في علمـه ، ولا سـمعه،

ولا بصره ، ولا قدرته، ولا عزته، ولا حكمته، ولا غير ذلـك من صفاته.

) فلا تجعلــــوا للـــــه أنـــــداداً وأنتم تعلمـــــون ((1)

....

(1) (1) الآية الثالثة: قوله:) فلا تجعلوا لله أنـداداً وأنتم تعلمون([البقرة: 22].

• هذه مفـرع على قولـه:) ياأيهـا النـاس اعبـدوا ربكم الذي خلقكم والذي من قبلكم لعلكم تتقون ، الـذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنـزل من السـماء مـاء فـأخرج بـه من الثمـرات رزقـاً لكم(، وكـل هـذا من توحيد الربوبية، ثم قال:) فلا تجعلوا لله أنداداً([البقرة: 21-22] يعـــني: في الألوهيـــة، لأن أولئــــك القــــوم المخـاطبين لم يجعلـوا للـه أنـداداً في الربوبيـة، إذا، فلا تجعلوا لله أنداداً في الألوهية كما أنكم تقـرون أنـه ليس له أنداداً في الربوبية.

• وقوله:) أنداداً (: جمع ند، وند الشـيء مـا كـان منــاداً (أي مكافئــاً) لــه ومتشــابهاً، ومــا زال النــاس يقولون: هذا ند لهذا، أي : مقابل له ومكافىءله.

• وقولـه:) وأنتم تعلمـون (: الجملـة هنـا حاليـة، وصاحب الحال هي الواو قوله:) فلا تجعلوا (، والمفعول محذوف، يعني: وأنتم تعلمون أنه لا ند له.

الجملة الحالية هنا صـفة كاشـفة، والصـفة الكاشـفة كالتعليل للحكم ، فكأنه قال: لا تجعلوا للـه أنـداداً، لأنكم تعملـون أنـه لابـد لـه، فـإذا كنتم تعلمـون ذلـك، فكيـف تلجعلونه فتخالفون علملكم؟ !

وهذه أيضاً سلبية، وذلـك من قولـه :) لا تجعلـوا للـه أنداداً وأنتم تعلمون (، لأنه لا ند له، لكمال صفاته.

) ومن الناس من يتخذ من دون اللـه أنـداداً يحبـونهم كحب الله ((1) ....

(1) (1) الآية الرابعة: قوله:) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله([البقرة: 165].

***)ومن (: تبعيضية، والميزان لــ (من) التبعيضـية أن يحل محلها: بعض، يعني: وبعض الناس.**

•) من يتخذ من دون الله أنداداً (: يتخذهم أنداداً، يعني: في المحبة، كما فسره بقوله:) يحبونهم كحب الله (، ويجوز أن نقول: إن المراد بالأنداد ما هو أعم من المحبة، يعني: أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، وينذرون لهم كما ينذرون لله، لأنهم يحبونهم كحب الله، يحبون هذه الأنداد كحب الله عز وجل.

وهذا إشراك في المحبة، بحيث تجعل غير الله مثل الله في محبته.

وينطبق ذلك على من أحب رسول الله كحب الله، لأنه يجب أن تحب رسول الله صلي الله عليه وسلم محبة ليست كمحبة الله، لأنك إنما تحب الرسول صلي الله عليه وسلم تبعاً لمحبة الله عز وجل، لا علي أنه مناد لله، فكيف بمن يحبون الرسول صلي الله عليه وسلم أكثر مما يحبون الله؟!

وهنا يجب أن نعرف الفرق بين المحبة مع الله والمحبة لله:

المحبة مع الله: أن تجعل غير الله مثله في محبته أو أكثر. وهذا شرك.

والمحبة في الله أو لله: هي أن تحب الشيء تبعاً لمحبة الله عز وجل.

والذي نستفيده من الناحية المسلكية في هذا الآيات:

أولا: في قوله:) تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام(: إذا علمنا أن الله تعالي موصوف بالجلال، فإن ذلك يستوجب أن نعظمه، وأن نجله.

وإذا علمنا أنه موصوف بالإكرام فإن ذلك يستوجب أن نرجو كرمه وفضله.

وبذلك نعظمه بما يستحقه من التعظيم والتكريم.

ثانياً: قوله:) فاعبده واصطبر لعبادته (، فالفوائد المسلكية في ذلك هو أن يعبد العبد ربه، ويصطبر للعبادة، لا يمل، ولا يتعب، ولا يضجر، بل يصبر عليها صبر القرين لقرينه في المبارزة في الجهاد.

ثالثاً: قوله:) هل تعلم له سمياً (،) ولم يكن له كفواً أحد (،) فلا تجعلوا لله أنداداً(، ففيها تنزيه لله عز وجل،

وأن الإنسان يشعر في قلبه بأن الله تعالي منزه عن كل نقص، وأنه لا مثيل له، ولا ندله، وبهذا يعظمه حق تعظيمه بقدر استطاعته.

رابعاً: قوله:) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً (، فمن فوائدها من الناحية المسلكية: أنه لا يجوز للإنسان أن يتخذ أحداً من الناس محبوباً كمحبة الله، وهذه تسمي المحبة مع الله.

) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ((1) ....

(1) (1) الآية الخامسة: قوله:) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره كبيراً ([الأسراء: 111].

•) وقل (: الخطاب في مثل هذا: إما خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو عام لكل من يصح توجيه الخطاب إليه.

فإن كان خاصاً بالرسول صلي الله عليه وسلم، فهو خاص به بالقصد الأول، وأمته تبع له.

وإن كان عاماً، فهو يشمل الرسول صلي الله عليه وسلم وغيره بالقصد الأول.

•) الحمد الله (: سبق تفسيه هذه الجملة، وأن الحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

• وقوله :) لله (: اللام هنا للاستحقاق والاختصاص:

للاستحقاق، لأن الله تعالي يحمد وهو أهل للحمد.

والاختصاص، لأن الحمد الذي يحمد الله به ليس كالحمد الذي يحمد به غيره، بل هو أكمل وأعظم وأعم وأشمل.

*** وقوله:) الذي لم يتخذ ولدا (: هذا من الصفات السلبية:) لم يتخذ ولداً (لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره، ولأنه لا مثيل له، فلو اتخذ ولداً، لكان الولد مثله، لو كان له ولد، لكان محتاجاً إلي الولد يساعده ويعينه، لو كان له ولد، لكان ناقصاً، لأنه إذا شابهه أحد من خلقه، فهو نقص.**

اليهند قالوا: لله ولد، وهو عزير.

والنصارى قالوا: لله ولد، وهو المسيح.

والمشركون قالوا: لله ولد، وهم الملائكة.

*** وقولــه:]ولم يكن لــه شــريك في الملك[: هــذا معطوف على قوله:]لم يتخذ ولداً[، يعني: والذي لم يكن له شـريك في الملـك، لا في الخلـق، ولا في الملـك، ولا في التدبير.**

كل ما سوى الله، فهو مخلوق لله، مملوك له، يــدبره كما يشاء، ولم يشاركه أحـد في ذلـك، كمـا قـال تعـالى:]قل ادعـوا الـذين عمتم من دون اللـه لا يملكـون مثقـال ذرة في السموات ولا في الأرض[[سبأ: 23] على سبيل التعين،]وما لهم فيهما من شرك[[سبأ: 23] على سبيل الشيوع،]وما له منهم من ظهـير[[سـبأ: 23]، لم يعاونـه أحد في هذه السموات والأرض،]ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له[[ســبأ: 22-23]، وبهــذا تقطعت جميــع الأسباب التي يتعلق بها المشركون في آلهتهم.

فالآلهـة هـذه لا تملـك من السـماوات والأرض شـيئاً معينـاً، وليسـت شـريكة للـه، ولا معينـة، ولا شـفاعة، إلا بإذنه، يقـول:]ولم يكن لـه شـريك في الملك[[الإسـراء: 111].

*** وقولــه:]ولم يكن لــه ولي من الــذل[: لم يكن لــه ولي، لكن قيد بقوله:]من الذل[.**

*** و]من[هنا للتعليل، لأن اللـه تعـالى لـه أوليـاء:]ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (62) الذين آمنوا وكانوا يتقون[[يـونس: 62-63]، وقـال تعـالى في الحــديث القدســي: "من عــادى لي وليــاً، فقــد آذنتــه بالحرب.."[1]، ولكن الـولي المنفي هـو الـولي من الـذل، لأن الله تعالى له العزة جميعاً، فلا يلحقه الذل بوجـه من الوجوه، لكما عزته.**

*** وقوله:]وكبره تكبـيرا[، يعـني: كـبر اللـه عـز وجـل تكبيراً، بلسانك وجنانك: اعتقد في قلبك أن الله أكبر من كــل شــيء، وأن لــه الكبريــاء في الســماوات والأرض، وكذلك بلسانك تكبره، تقولك: الله أكبر!**

([1]) رواه البخاري/ كتاب الرفاق/ باب التواضع.

وكان من هـدي النـبي وأصـحابه أنهم يكـبرون كلمـا علوا نشراً[2]، أي: مرتفعاً، وهذا في السفر، لأن الإنسان إذا علا في مكانه، قد يشـعر في قلبـه أنـه مسـتعل على غيره، فيقول: الله أكبر. من أجل أن يخفف تلـك العليـاء التي شعر بها حين علا وارتفع.

وكانوا إذا هبطـوا، قـالوا: سـبحان اللـه. لأن الـنزول سفول، فيقـول: سـبحان اللـه، أي: أنزهـه عن السـفول الذي أنا الآن فيه.

*** وقوله:]تكبيرا[: هذا مصدر مؤكد، يراد بـه التعظيم، أي: كبره تكبيراً عظيماً.**

والذي نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآية:

أن الإنسان يشعر بكمال غنى اللـه عـز جـل عن كـل أحد، وانفـراده بالملـك، وتمـام عزتـه وسـلطانه، وحينئـذ يعظم الله سبحانه وتعالى بما يستحق أن يعظم به بقـدر استطاعته.

ونستفيد حمـد اللـه تعـالى على تنزهـه عن العيـوب، كما يحمد على صفات الكمال.

]يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملـك ولـــه الحمـــد وهـــو على كـــل شـــيء قـــدير[(1)

..

(1) الآية السادسة: قوله تعـالى:]يسـبح للـه مـا في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمـد وهـو على كل شيء قدير[[التغابن: 1].

***]يسبح[، بمعـنى: يـنزه عن كـل صـفة نقص وعيب، و(سبح) تتعدى بنفسها وتتعدى باللام.**

- أما تعهديها بنفسها، فمثـل قولـه تعـالى:]لتؤمنـوا باللــه ورســوله وتعــزروه وتــوقروه وتســبحوه بكــرة وأصيلا[[الفتح: 9].

- وأمــا تعــديها بــاللام، فهي كثــيرة، فكــل الســور المبدوءة بهذا متعدية باللام.

قال العلماء: وإذا أريد مجرد الفعـل، تعـدت بنفسـها:]وتسبحوه[، أي: تقولوا: سبحان الله!

---

[2] رواه البخاري/ كتاب الجهاد/ باب التسبيح إذا هبط وادياً.

وإذا أريد بيان القصد والإخلاص، تعدت باللام،]يسبح لله[، أي: سبحوا إخلاصاً لله واستحقاقاً.

فاللام هنا تبين كمال الإرادة من الفاعل، وكمال الاستحقاق من المسبح، وهو الله.

* وقوله:]ما في السموات وما في الأرض[: عام يشمل كل شيء.

لكن التسبيح نوعان: تسبيح بلسان المقال، وتسبيح بلسان الحال.

- أما التسبيح بلسان الحال، فهو عام:]وإن من شيء إلا يسبح بحمده[[الإسراء: 44].

- وأما التسبيح بلسان المقال، فهو عام كذلك، لكن يخرج منه الكافر، فإن الكافر لم يسبح الله بلسانه، ولهذا يقول تعالى:]سبحان الله عما يشركون[[الحشر: 23]،]سبحان الله عما يصفون[[الصافات: 159] فهم لم يسبحوا الله تعالى، لأنهم أشركوا به ووصفوه بما لا يليق به.

فالتسبيح بلسان الحال يعني: أن حال كل شيء في السماوات والأرض تدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث وعن النقص، حتى الكافر إذا تأملت حاله، وجتها تدل على تنزه الله تعالى عن النقص والعيب.

وأما التسبيح بلسان المقال، فيعني: أن يقول: سبحان الله.

* وقوله:]له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير[.

هذه الصفات الأخيرة صفات ثبوتية، وسبق ذكر معناها، لكن]يسبح لله[صفة سلبية، لأن معناها، تنزيهه عما لا يليق به.

]تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً[(1)........

(1) الآية السابعة والثامنة: وقوله:]تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (1) الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك

في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً[[الفرقـان: 1-2].
***]تبارك[، بمعنى: تعالى وتعاظم.**
*** و]الذي نزل الفرقان على عبده[: هو الله عز وجل.**
*** وقوله:]الفرقان، يعني به: القرآن، لأنه يفـرق بين الحـــق والباطـــل، وبين المســـلم والكـــافر، وبين الـــبر والفـــاجر، وبين الضـــار والنـــافع، وغـــير ذلـــك ممـــا فيـــه الفرقان، فكله فرقان.**
]على عبده[: محمـد عليـه الصـلاة والسـلام، فوصـفه بالعبودية في مقام التحدث عن تنزل القرآن عليه، وهـذا المقام من أشرف مقامات النبي ﷺ.
ولـه وصـفه اللـه تعـالى بالعبوديـة في مقـام تـنزل القرآن عليه، كما هنا، وكما في قوله:]الحمـد للـه الـذي أنزل على عبده الكتاب[[الكهـف: 1]، ووصـفه بالعبوديـة في مقام الدفاع عنه والتحـدي:]وإن كنتم في ريب ممـا نزلنا على عبدنا [[البقـرة: 23]، ووصـفه بالعبوديـة في مقام تكريمـة بـالمعراج، فقـال :] سـبحان الـذي أسـري بعبده ليلاً من المسجد الحرام [[الأسـراء:1] ، وقـال في سـورة النجم:] فـأوحي إلي عبـده مـا أوحي [[النجم: 10]، مما يدل على أن وصف الإنسان بالعبودية للـه يعـد كمالاً، لأن العبودية لله هي حقيقة الحرية، فمن لم يتعبد له، كان عابداً لغيره.
قال ابن القيم رحم الله.
هوبوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان
و" الرق الذي خلقوا له " : عبادة الله عز وجل .
و " بلوا برق النفس والشيطان " : حيث صاروا أرقاء لنفوسـهم، وأرقـاء للشـيطان، فمـا من إنسـان يفـر من عبودية الله، إلا وقع في عبوديـة هـواه وشـيطانه ، قـال الله تعالي:] أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم [[الجاثية: 23] .
*** قوله:] ليكون للعالمين نذيراً [: اللام هنا للتعليـل، والضـمير في] ليكـون [عائـد على النـبي عليـه الصـلاة والسـلام، لأنـه أقـرب مـذكور، ولأن اللـه تعـالي قـال :)**

لتتذر به([الأعراف: 2]، وقال تعالي:) لأنذركم بــه ومن بلـغ ([الأنعـام : 19] ، فالمنـذر: الرسـول عليـه الصـلاة والسلام.

*** وقوله:) للعالمين (: يشمل الجن والإنس.**

*** وقولــه:) ولم يتخــذ ولــدا لم يكن لــه شــريك في الملك (: سبق معناهما، وهما صفة سلبية.**

***) وخلق كل شىء فقدره تقديراً (: الخلق: الإيجـاد على وجه معين.**

والتقـدير : بمعـني التسـوية أو بمعـني القضـاء في الأزل، والأول أصح، ويدل لذلك قوله تعالي:) الذي خلـق فسـوي ([الأعلي:2]، وبـه تكـون الآيـة على الـترتيب الذكري والمعنوي، وعلى الثاني تكون الآية على الترتيب الذكري.

ونستفيد من هذه الآيات من الناحية المسلكية:

أنه يجب علينا أن نعرف عظمة الله عز وجل، وننزهه عن كل نقص، وإذا علمنا ذلك، ازددنا محبة له وتعظيماً.

ومن آيتي الفرقان نستفيد بيان هذا القرآن العظيم، وأن مرجــع العبــاد، وأن الإنســان إذا أراد أن تتــبين لــه الأمـور، فلـيرجع إلي القـرآن، لأن اللـه سـماه فرقانـاً:) نزل الفرقان على عبده ([الفرقان: 1].

ونسـتفيد أيضـاً من الناحيـة المسـلكية التربويـة: أن تتأكد وتزداد محبتنا لرسول الله صـلي اللـه عليـه وسـلم حيث كان عبد الله، قائماً بإبلاغ الرسالة وإنذار الخلق.

ونستفيد أيضاً: أن النبي عليـه الصـلاة والسـلام آخـر الرسل، فلا نصدق بأي دعوي للنبـوة من بعـده، لقولـه:) للعالمين (، ولو كـان بعـده رسـول، لكـان تنتهي رسـالته بهذا الرسول، ولا كانت للعالمين كلهم.

) ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لــذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعـالي عمـا يشـركون ((1)..

(1) الآية التاسعة والعاشرة: قوله:) ما اتخذ اللـه من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلـق ولعلا

بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالي عما يشركون ([المؤمنون:91-92].

*** ينفي الله تعالي في هذه الآية أن يكون اتخذ ولـداً، أو أن يكون معه إله.**

ويتأكد هذا النفي بدخول) من (في قولـه) من ولـد (، وقوله:) من إلـه (، لأن زيـادة حـرف الجـر في سـياق النفي ونحو تفيد التوكيد.

*** فقوله:) ما اتخذ الله من ولد (، يعني: ما اصـطفي أحداً يكون ولداً له، لا عزير، ولا المسيح، ولا الملائكـة ولا غيرهم، لأنه الغني عما سواه.**

وإذا انتفي اتخاذه الولـد فانتفـاء أن يكـون والـداً من باب أولي.

• وقوله:) من إله (:) إله (، بمعني: مألوه، مثـل: بناء، بمعني: مبـني، وفـراش، بمعـني: مفـروش، فالإلـه بمعني المألوه، أي: المعبود المتذلل له.

يعني: ما كان معه من إله حق، أما الآلهـات الباطلـة، فهي موجودة، لكن لكونها باطلة، كانت كالعدم، فصح أن يقال: ما كان مع الله من إله.

***) إذا (، يعني: لو كان معه إله.**

***) لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض (: لو كان هناك إله آخر يساوي الله عز وجل ، لكان له ملك خاص ولله ملك خاص، يعني: لا نفرد كل واحـد منهم بمـا خلق، قال: هذا خلقي لي، وكذلك الآخر.**

وحينئذ، يريد كـل منهمـا أن يسـيطر على الآخـر كمـا جرت به العـادة، فملـوك الـدنيا كـل واحـد منهم يريـد أن يسيطر على الآخر، وتكون المملكة كلها له، وحينئذ:

إما أن يتمانعا، فيعجز كل واحد منهما عن الآخر، وإذا عجز كل واحد منهما عن الآخـر، مـا صـح أن يكـون واحـد منهما إلهاً، لأن الإله لا يكون عاجزاً.

وإما أن يعلو أحدهما على الآخر، فالعالي هو الإله.

فترجع المسألة إلي أنه لابد أن يكون للعالم إله واحد ، ولا يمكن أن يكـون للعـالم إلهـان أبـداً لأن القضـية لا تخرج من هذين الاحتمالين.

كما أننا أيضاً إذا شاهدنا الكون علوية وسفلية، وجدنا أنه كون يصدر عن مـدبر واحـد، وإلا، لكـان فيـه تنـاقض، فأحـد الإلهين يقـول مثلاً: أنـا أريـد الشـمس تخـرج من المغـرب ! والثـاني يقـول: أريـدها تطلـع من المشـرق! واتفاق الإرادتين بعيـد جـداً، ولا سـيما أن المقـام مقـام سلطة، فكل واحد يريد أن يفرض رأيه.

ومعلوم أننا لا نشـاهد الآن الشـمس تطلـع يومـاً مـع هذا ويوماً مع هذا، أو يوماً تتأخر لأن الثاني منعها ويومـاً تتقدم لأن الأول أمر الثاني بإخراجها، فلا تجد هـذا، نجـد الكون كله واحداً متناسباً متناسقاً، مما يدل دلالة ظاهرة على أن المدبر له واحد، وهو الله عز وجل.

فبين الله سبحانه وتعـالى بـدليل عقلي أنـه لا يمكن التعدد، إذ لو أمكن التعدد، لحصل هذا، لا نفصل كل واحد عن الثاني، وذهب كل إله بما خلق، وحينئذ إمـا أن يعجـز أحدهما عن الآخر، وإما أن يعلو أحدهما الآخر، فـإن كـان الأول، لم يصـلح أي واحـد منهمـا للألوهيـة، وإن كـان الثاني، فالعالي هو الإله، وحينئذ يكون الإله واحداً.

فإن قيل: ألا يمكن أن يصطلحا وينفرد كل واحد بمـا خلق؟

فالجواب: أنـه لـو أمكن ووقـع، لـزم أن يختـل نظـام العالم.

ثم إن اصطلاحهما لا يكون إلا لخوف كل واحد منهمـا من الآخر، وحينئذ لا تصلح الربوبية ولواحد منهما، لعجزه عن مقاومة الآخر.

* ثم قـال تعـالى:]سـبحان اللـه عمـا يصـفون[، أي: تنزيهاً لله عز وجل عما يصفه بـه الملحـدون المشـركون الذي يقولون في الله سبحانه مالا يليق به.

*]عالم الغيب والشهادة[: الغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة: ما شهده الناس.

*]فتعـالى عمـا يشـركون[:]فتعـالى[، يعـني: ترفـع وتقدس.

*]عما يشركون[: عن الأصنام التي جعلوها آلهة مـع الله تعالى.

وفي هــاتين الآيــتين من صــفات النفي: تــنزه اللــه تعالى عن اتخاذ الولـد الـذي وصـفه بـه الكـافرون، وعن الشريك له في الألوهية الذي أشرك به المشركون.

وهذا النفي لكمال غناه وكمال ربوبيته وإلهيته.

ونسـتفيد منهمـا من الناحيـة المسـلكية: أن الإيمـان بذلك يحمل الإنسان على الإخلاص لله عز وجل.

(1) الآيــة الحاديــة عشــرة: قولــه:]فلا تضــربوا للــه الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون[[النحل: 74].

* يعني: لا تجعلوا لله مثلاً، فتقولون: مثل الله كمثـل كذا وكذا أو تجعلوا له شريكاً في العبادة.

* يعـني]إن اللـه يعلم وأنتم لا تعلمـون[، بمعـنى: أنـه سبحانه وتعالى يعلم بأنه ليس له مثل، وقد أخبركم بأنــه لا مثل، وقـد أخـبركم بأنـه لا مثـل لـه، في قولـه:]ليس كمثله شيء[[الشورى: 11]، وقولـه:]ولم يكن لـه كفـواً أحد[[الإخلاص: 4]، وقوله:]هـل تعلم لـه سـمياً[[مـريم: 65]... وما أشبه ذلك، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

يقال: إن هذه الجملة تتضمن الدليل الواضح على أن الله ليس له مثل، وأنها كضرب المثل في امتناع المثــل، لأننــا نحن لا نعلم واللــه يعلم، فــإذا انتفى العلم عنــا، وثبت لله، فـأين المماثلـة؟ هـل يماثـل الجاهـل من كـان عالماً؟

ويــدلك على نقص علمنــا: أن الإنســان لا يعلم مــا يفعله في اليـوم التـالي:]ومـا تـدري نفس مـاذا تكسـب غداً[[لقمان: 34]، وأن الإنسان لا يعلم روحـه الـتي بين جنبيــه:]ويســألونك عن الــروح قــل الــروح من أمــر ربي[[الإسراء: 85].

وما زال الفلاسفة والمتفلسـفة وغـيره يبحثـون عن حقيقة هذه الروح، ولم يصلوا إلى حقيقتها، مع أنها هي مادة الحياة، وهذا يدل على نقصان العلم في المخلــوق، ولهـــذا قـــال تعـــالى:]ومــــا أوتيتم من العلم إلا قليلا[[الإسراء: 85].

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية:]فلا تضربوا للـه الأمثال أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون[[البقرة: 22]؟

الجواب: أنه هناك يخاطب الذين يشركون به في الألوهية فيقول:]فلا تجعلوا لله أندادا[في العبادة والألوهية]وأنتم تعلمون[أنه لا ند له في الربوبية، بدليل قوله:]يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (21) الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون[[البقرة: 21-22]. أما هنا: ففي باب الصفات:]فلا تضربوا لله الأمثال[، فتقولوا: مثلاً: إن يد الله مثل يد كذا! وجه الله مثل وجه كذا! وذات الله مثل الذات الفلانية... وما أشبه هذا، لأن الله تعالى يعلم وأنتم لا تعلمون وقد أخبركم بأنه لا مثيل له.

أو يقال: إن إثبات العلم لهم خاص في باب الربوبية، ونفيه عنهم خاص في باب الألوهية، حيث أشركوا بالله فيها، فنزلوا منزلة الجاهل.

وهذه الآية تتضمن من الكما كمال صفات الله عز وجل، حيث إنه لا مثيل له.

أما الفائدة المسلكية التي تؤخذ من هذه الآية، فهي: كمال تعظيمنا للرب عز وجل، لأننا إذا علمنا أنه لا مثيل له، تعلقنا به رجاءً وخوفاً، وعظمناه، وعلمنا أنه لا يمكن أن يماثله سلطان ولا ملك ولا وزير ولا رئيس، مهما كانت عظمة ملكيتهم ورئاستهم ووزارتهم، لأن الله سبحانه ليس له مثل.

]قل إنما حرم ربي الواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون[(1)

....

(1) الآية الثانية عشرة: قوله:]قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[[الأعراف: 33].

*]قل[: الخطاب للنبي ، أي: قل معلناً للناس.

*]إنما[: أداة حصر، وذلك لقابلة تحريم من حرم ما أحل الله.

*]حرم[، بمعنى: منع، وأصل هذه المادة (ح ر م) تدل على المنع، ومنه حريم البئر: للأرض التي تحميه حوله: لأنه يمنع من التعدي عليه.

*]الفواحش[: جمع فاحشة، وهي الذنب الذي يستفحش، مثل: الزنى واللواط.

والزنى، قال الله فيه:]ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة[[الإسراء: 32].

وفي اللواط، قال لوط لقومه:]أتأتون الفاحشة[[الأعراف: 80].

ومن الزنى أن يتزوج الإنسان امرأة لا تحل له لقرابة أو رضاع أو مصاهرة، قال الله تعالى:]ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا[[النساء: 22]، بل إن هذا أشد من الزنى، لأنه وصفه بثلاثة أوصاف: فاحشة، ومقت، وساء سبيلاً، وفي الزنى وصفه الله بوصفين:]إنه كان فاحشة وساء سبيلاً[[الإسراء: 32].

* وقوله:]ما ظهر منها وما بطن[: قيل: إن المعنى ما ظهر فحشه وما خفي، وقيل: المعنى ما ظهر للناس وما بطن عنهم، باعتبار فعل الفاعل، لا باعتبار العمل، أي: ما أظهره الإنسان للإنسان وما أبطنه.

* قوله:]والإثم والبغي بغير الحق[، يعني: حرم الإثم والبغي بغير الحق.

والإثم: المراد به ما يكون سبباً له من المعاصي.

والبغي: العدوان على الناس، قال الله تعالى:]إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق[[الشورى: 42].

* وفي قوله:]والبغي بغير الحق[: إشارة إلى أن كل بغي فهو بغير حق، وليس المراد أن البغي ينقسم إلى قسمين: بغي بحق، وبغي بغير حق، لأن البغي كله بغير حق.

وعلى هذا، فيكون الوصف هنا من باب الوصف الكاشف، ويسميها العلماء صفة كاشفة، أي: مبينة، وهي التي تكون كالتعليل لموصوفها.

*** قوله:]وأن تشركوا بالله ما لم يـنزل بـه سـلطاناً[: هــذه معطوفــة على مــا ســبق، يعــني: وحــرم ربي أن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: أن تجعلوا له شـريكاً لم يـنزل بـه سـلطاناً، أي حجـة، وسـميت الحجـة سلطاناً، لأنها سلطة للمحتج بها.**

وهذا القيد:]ما لم ينزل به سلطاناً[: نقول فيـه كمـا قلنا في]والبغي بغـير الحق[، أي: أنـه قيـد كاشـف، لأن كل من أشرك بالله، فليس له سلطان بشركه.

*** قوله:]وأن تقولوا على الله ما لا تعملـون[، يعـني: وحرم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، فحرام علينا أن نقول على الله مالا نعلم، سواء كان في ذاته أو أسـمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.**

فهذه خمسة أشياء حرمها الله علينا.

وفيها رد على المرشكين الذين حرمـوا مـالم يحرمـه الله.

إذا قال قائل: أين الصفة السلبية في هذه الآية؟

قلنا: هي]وأن تشركوا بالله ما لم يـنزل بـه سـلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[، فالاثنتان جميعــاً من باب الصفات السلبية:]وأن تشركوا[، يعني: لا تجعلوا لله شـــريكاً لكمالـــه.]وأن تقولـــوا على اللـــه مـــا لا تعلمـون[كـذلك، لكمالـه، فإنـه من تمـام سـلطانه أن لا يقول عليه أحد ما لا يعلم.

الفائدة المسلكية من هذه الآيـة هي: أن تتجنب هـذه الأشياء الخمسة التي صرح الله تعالى بتحريمها.

وقد قال أهل العلم: إن هذه المحرمات الخمسة ممـا أجمعت الشرائع على تحريمها.

ويدخل في القول على الله بغير علم تحريف نصوص الكتاب والسـنة في الصـفات وغيرهـا، فـإن الإنسـان إذا حرف نصوص الصـفات، مثـل أن يقـول: المـراد باليـدين النعمة فقد قال على الله مالا يعلم من وجهين:

الوجه الأول: أنه نفي الظاهر بلا علم.

والثاني: أثبت لله خلافه بغير دليل.

فهو يقول: لم يرد الله كذا، وأراد كذا، فنقول: هـات الدليل على أنه لم يرد، وعلى أنه أراد كذا! فـإن لم تـأت بالدليل فإنك قد قلت على الله ما لا تعلم.

استواء الله على عرشه

وقوله:]الرحمن على العـرش اسـتوى[،]ثم اسـتوى على العـرش[في سـبع مواضـع في سـورة الأعـراف، قولـه:]إن ربكم الله الـذي خلـق السموات والأرض في سـتة أيـام ثم اسـتوى على العـرش[(1)

....

(1) ذكر المؤلف رحمه الله ثبـوت اسـتواء اللـه على عرشه وأنه في سبعة مواضع في القرآن:

الموضع الأول: قولـه في سـورة الأعـراف:]إن ربكم اللـه الـذي خلـق السـموات والأرض في سـتة أيـام ثم استوى على العرش[[الأعراف: 54].

]الله[خبر]إن[.

]خلـق السـموات والأرض[: أوجـدهما من العـدم على وجه الإحكام والإتقان.

*]في سـتة أيـام[: ومـدة هـذه الأيـام كأيامنـا الـتي تعرف، لأن الله سـبحانه وتعـالى ذكرهـا منكـرة، فتحمـل على ما كان معروفاً.

وأول هذه الأيام يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

منها أربعة أيام للأرض، ويومـان للسـماء، كمـا فصـل الله ذلك في سورة فصلت:

]قـل أئنكم لتكفـرون بالـذي خلـق الأرض في يـومين وتجعلـون لـه أنـدادا ذلـك رب العـالمين (9) وجعـل فيهـا رواسي من فوقها وبارك فيهـا وقـدر فيهـا أقواتهـا في أربعـة أيـام سـواء للسـائلين[[فصـلت: 9-10]، فصـارت أربعـة:]ثم اسـتوى إلى السـماء وهي دخـان فقـال لهـا وللأرض ائتيـا طوعـاً أو كرهـا قالتـا أتينـا طـائعين (11) فقضاهن سبع سموات في يومين[[فصلت: 11-12].

* وقوله:]ثم استوى على العرش[:]ثم[: للترتيب.

* و]العرش[: هو ذلك السقف المحيـط بالمخلوقـات، ولا نعلم مادة هذا العرش، لأنه لم يرد عن النبي حـديث

صحيح يبين من أين خلق هذا العرش، لكننا نعلم أنه أكـبر المخلوقات التي نعرفها.

وأصـل العـرش في اللغـة: السـرير الـذي يختص بـه الملك، ومعلوم أن السرير الذي يختص به الملك سـيكون سريراً عظيماً فخماً لا نظير له.

وفي هذه الآية من صفات الله تعـالى عـدة صـفات، لكن المؤلف ساقها لإثبات صـفة واحـدة، وهي الاسـتواء على العرش.

* وأهـل السـنة والجماعـة يؤمنـون بـأن اللـه تعـالى مسـتوى على عرشـه اسـتواء يليـق بجلالـه ولا يماثـل استواء المخلوقين.

فإن سألت: ما معنى الاستواء عندهم؟ فمعناه العلـو والاستقرار.

وقـد ورد عن السـلف في تفسـيره أربعـة معـاني: الأول: علا، والثـاني: ارتفـع، والثـالث: صـعد. والرابـع: استقر.

لكن (علا) و (ارتفـع) و (صـعد) معناهـا واحـد، وأمـا (استقر)، فهو يختلف عنها.

ودليلهم في ذلك: أنها في جميع مواردهـا في اللغـة العربية لم تأت إلا لهذا المعنى إذا كانت متعدية بـ(على):

قال الله تعالى:]فـإذا اسـتويت أنت ومن معـك على الفلك[[المؤمنون: 28].

وقـال تعـالى:]وجعـل لكم من الفلـك والأنعـام مـا تركبون (12) لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه[[الزخرف: 12-13].

* وفسـره أهـل التعطيـل بـأن المـراد بـه الاسـتيلاء، وقالوا: معنى:]ثم استوى على العرش[[الأعـراف: 54]، يعني: ثم استولى عليه.

واستدلوا لتحريفهم هذا بدليل موجب وبدليل سالب:

- أمـا الـدليل المـوجب، فقـالوا: إننـا نسـتدل بقـول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

(بشر): ابن مروان، (استوى)، يعني: استولى على العراق.

قالوا: وهذا بيت بن رجل عربي، ولا يمكن أن يكون المراد به استوى على العراق، يعني علا على العراق! لا سيما أنه في ذلك الوقت لا طائرات يمكن أن يعلو على العراق بها.

أما الدليل السلبي، فقالوا لو أثبتنا أن الله عز وجل مستو على عرشه بالمعنى الذي تقولون، وهو العلو والاستقرار، لزم من ذلك أن يكون محتاجاً إلى العرش، وهذا مستحيل، واستحالة اللازم تدل على إستحالة الملزوم. ولزم من ذلك أن يكون جسماً، لأن استواء شيء على شيء بمعنى علوه عليه يعني أنه جسم. ولزم أن يكون محدوداً، لأن المستوي على الشيء يكون محدودا، وإذا استويت على البعير، فأنت محدود في منطقة معينة محصور بها وعلى محدود أيضاً.

هذه الأشياء الثلاثة التي زعموا أنها تلزم من إثبات أن الاستواء بمعنى العلو والارتفاع.

* والرد عليهم من وجوه:

أولاً: تفسيركم هذا مخالف لتفسير السلف الذي أجمعوا عليه، والدليل على إجماعهم أنه لم ينقل عنهم أنهم قالوا به وخالفوا الظاهر، ولو كانوا يرون خلاف ظاهره، لنقل إلينا، فما منهم أحد قال: إن (استوى) بمعنى (استولى) أبداً.

ثانياً: أنه مخالف لظاهر اللفظ، لأن مادة الاستواء إذا تعدت بـ(على)، فهي بمعنى العلو والاستقرار، هذا ظاهر اللفظ، وهذه مواردها في القرآن وفي كلام العرب.

ثالثاً: أنه يلزم عليه لوازم باطلة:

1- يلزم أن يكون الله عز وجل حين خلق السماوات والأرض ليس مستولياً على عرشه، لأن الله يقول:]خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش[[الأعراف: 54]، و]ثم[تفيد الترتيب، فيلزم أن يكون العرش قبل تمام خلق السماوات والأرض لغير الله.

2- أن الغالب من كلمة (استولى) أنها لا تكون إلا بعد مغالبة! ولا أحد يغالب الله.

أن المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغال

3- من اللوازم الباطلة أنه يصح أن نقول: إن الله استوى على الأرض والشجر والجبال، لأنه مسئول عليها.

وهذه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم.

وأما استدلالهم بالبيت، فنقول:

1- أثبتوا لنا سند هذا البيت وثقة رجاله، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

2- من هذا القائل؟ أفلا يمكن أن يكون قاله بعد تغير اللسان؟ لأنه كل قول يستدل به على اللغة العربية بعد تغير اللغة العربية فإنه ليس بدليل، لأن العربية بدأت تتغير حين اتسعت الفتوح ودخل العجم مع العرب فاختلف اللسان، وهذا فيه احتمال أنه بعد تغير اللسان.

3- أن تفسيركم "استوى بشر على العراق" بـ(استولى) تفسير تعضده القرينة، لأنه من المعتذر أن بشراً يسعد فوق العراق فيستوي عليه كما يستوي على السرير أو على ظهر الدابة فلهذا نلجأ إلى تفسيره بـ(استولى).

هذا نقوله من باب التنزل، وإلا، فعندنا في هذا جواب آخر:

أن نقول: الاستواء في البيت بمعنى العلو، لأن العلو نوعان:

1- علو حسي، كاستوائنا على السرير.

32- وعلو معنوي، بمعنى السيطرة والغلبة.

فيكون معنى "استوى بشر على العراق" يعني: علا علو غلبة وقهر.

وأما قولكم: إنه يلزم من تفسير الاستواء بالعلو أن يكون الله جسماً.

فجوابه: كل شيء يلزم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهوحق، ويجب علينا أن نلتزم به، ولكن الشأن كل

الشأن أن يكون هذا من لازم كلام الله ورسوله، لأنه قد يمنع أن يكون لازماً، فإذا ثبت أنه لازم، فليكن، ولا حرج علينا إذا قلنا به.

ثم نقول: ماذا تعنون بالجسم الممتنع؟

إن أردتم به أنه ليس لله ذات تتصف بالصفات اللازمة لها اللائقة بها، فقولكم باطل، لأن لله ذاتاً حقيقية متصفة بالصفات، وأن له وجهاً ويداً وعيناً وقدماً، وقولوا ما شئتم من اللوازم التي هي لازم حق.

وإن أردتم بالجسم الذي قلتم يمتنع أن يكون الله جسماً:

الجسم المركب من العظام واللحم والدم وما أشبه ذلك، فهذا ممتنع على الله، وليس بلازم من القول بأن استواء الله على العرش علوه عليه.

وأما قولهم: إنه يلزم أن يكون محدوداً.

فجوابه أن نقول بالتفصيل: ماذا تعنون بالحد؟

إن أردتم أن يكون محدوداً، أي: يكون مبايناً للخلق منفصلاً عنهم، كما تكون أرض لزيد وأرض لعمر، فهذه محدودة منفصلة عن هذه، فهذا حق ليس فيه شيء من النقص.

وإن أردتم بكونه محدوداً: أن العرش محيط به، فهذا باطل، وليس بلازم، فإن الله تعالى مستوى على العرش، وإن كان عز وجل أكبر من العرش ومن غير العرش، ولا يلزم أن يكون العرش محيطاً به بل لا يمكن أن يكون محيطاً به، لأن الله سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.

وأما قولهم: يلزم أن يكون محتاجاً إلى العرش.

فنقول: لا يلزم، لأن معنى كونه مستوياً على العرش: أنه فوق العرش، لكنه علو خالص، وليس معناه أن العرش يقله أبداً، فالعرش لا يقله، والسماء لا تقله، وهذا اللازم الذي ادعيتموه ممتنع، لأنه نقص بالنسبة إلى الله عز وجل، وليس بلازم من الاستواء الحقيقي، لأننا لسنا نقول: إن معنى]استوى على العرش[، يعني: أن العرش يقله ويحمله، فالعرش محمول:]ويحمل

عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية[[الحاقة: 17]، وتحمله الملائكة الآن، لكنه ليس حاملاً لله عز وجل، لأن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجاً إليه، ولا مفتقراً إليه، وبهذا تبطل حججهم السلبية.

* وخلاصة ردنا لكالمهم من عدة أوجه:

الأول: أن قولهم هذا مخالف لظاهر النص.

ثانياً: مخالف لإجماع الصحابة وإجماع السلف قاطبة.

ثالثاً: أنه لم يرد في اللغة العربية أن (استوى) بمعنى (استولى)، والبيت الذي احتجوا به على ذلك لا يتم به الاستدلال.

رابعاً: أنه يلزم عليه لوازم باطلة منها:

1- أن يكون العرش قبل خلق السماوات والأرض، ملكاً لغير الله.

2- أن كلمة (استولى) تعطي في الغالب أن هناك مغالبة بين الله وبين غيره، فاستولى عليه وغلبه.

3- أنه يصح أن نقول ـ على زعمكم ـ: أن الله استوى على الأرض والشجر والجبال والإنسان والبعير، لأنه (استولى) على هذه الأشياء، فإذا صح أن نطلق كلمة (استولى) على شيء، صح أن نطلق كلمة (استولى) على شيء، صح أن نطلق (استوى) على ذلك الشيء، لأنهما مترادفان على زعمكم.

فبهذه الأوجه يتبين أن تفسيرهم باطل.

* ولما كان أبو المعالي الجويني ــ عفا الله عنه ـ يقرر مذهب الأشاعرة، وينكر استواء الله على العرش، بل وينكر علو الله بذاته، قال:

"كان الله تعالى ولم يكن شيء غيره، وهو الآن على ما كان عليه". وهو يريد أن ينكر استواء الله على العرش، يعني: كان ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه، إذاً: لم يستو على العرش. فقال له أبو العلاء الهمذاني:

يا أستاذ! دعنا من ذكر العرش والاستواء على العرش ـ يعني: لأن دليله سمعي، ولولا أن الله أخبرنا به ما علمناه ــ أخبرنا عن هذه الضرورة التي تجد في نفوسنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه

ضرورة بطلب العلو. فبهت أبـو المعـالي، وجعـل يضـرب على رأسه: حـيرني الهمـذاني، حـيرني الهمـذاتي!وذلـك لأن هذا دليل فطري لا أحد ينكره.

وقال في سورة يونس عليـه السـلام:]إن ربكم اللـه الذي خلـق السـموات والأرض في سـتة أيـام ثم اسـتوى على العرش[[1]، وقال في سورة الرعد:]الله الـذي رفـع السـموات بغـير عمـد ترونهـا ثم اسـتوى على العـرش[[2]

....

(1) الموضـع الثـاني: في سـورة يـونس، قـال اللـه تعالى:]إن ربكم اللـه الـذي خلـق السـموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش[[يونس: 3].

نقول فيها ما قلنا في الآية الأولى.

(2) الموضـع الثـالث: في سـورة الرعـد قـال اللـه تعالى:]الله الـذي رفـع السـموات بغـير عمـد ترونهـا ثم استوى على العرش[[الرعد: 2] .

•]رفع السموات بغـير عمد[:]بغـير عمد[: هـل يعني: ليس لها عمد مطلقاً؟ أو لها عمد لكنها غير مرئية لنا؟

فيه خلاف بين المفسرين، فمنهم من قال: إن جملة]ترونها[صـفة لــ]عمد[، أي: بغـير عمـد مرئيـة لكم، ولهـا عمد غير مرئية. ومنهم من قال: إن جملة]ترونها[جملـة مستأنفة، معناها: ترونها كذلك بغـير عمـد. وهـذا الأخـير أقـرب، فـإن السـماوات ليس لهـا عمـد مرئيـة ولا غـير مرئية، ولو كان لها عمد، لكـانت مرئيـة في الغـالب، وإن كان الله تعالى قد يحجب عنا بعض المخلوقات الجسـيمة لحكمة يريدها.

* وقولـه:]ثم اسـتوى على العـرش[: هـذا الشـاهد، ويقال في معناها ما سبق.

(1) الموضع الرابـع: في سـورة طـه قـال:]الـرحمن على العرش استوى[[طه: 5].

* قدم]على العرش[وهو معمـول لــ]اسـتوى[لإفـادة الحصر والتخصيص وبيـان أنـه سـبحانه وتعـالى لم يسـتو على شيء سوى العرش.

* وفي ذكر]الرحمن[إشارة إلى أنه مع علوه وعظمته موصوف بالرحمة.

(2) الموضع الخامس: في سورة الفرقان قوله:]ثم استوى على العرش الرحمن[[الفرقان: 59].

*]الرحمن[: فاعل]استوى[.

وقال في سورة آلم السجدة :]الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش[، وقال في سورة الحديد :]هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم أستوى على العرش[.

(1) (1) الموضع السادس : في سورة آلم السجدة قال:]الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش[{السجدة: 4} .

نقول فيها مثل ماقلنا في آيتي الأعراف ويونس ، لكن هنا فيه زيادة:

]وما بينهما[؛ يعني : بين السماء والأرض ، والذي بينهما مخلوقات عظيمة استحقت أن تكون معادلة للسماوات والأرض، والذي بينهما مخلوقات عظيمة استحقت أن تكون معادلة للسماوات والأرض وهذه المخلوقات العظيمة منها ما هو معلوم لنا كالشمس والقمر والنجوم والسحاب ومنها ما هو مجهول إلى الآن.

(2)الموضع السابع: في سورة الحديد قال:]هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش[{الحديد:4}.

فهذه سبعة مواضع؛ كلها يذكر الله تعالى فيها الإستواء معدى بـ]على[.

وبعد؛ فقد قال العلماء : إن أصل هذه المادة (س و ي) تدل على الكمال]الذي خلق فسوى [{الأعلى:2}ـ ؛ أي : أكمل ما خلقه ؛ فأصل السين والواو والياء تدل على الكمال.

ثم هي على أربعة أوجه في اللغة العربية: معداة بـ(إلى) ، ومعداة بـ (على) ، ومقرونة بالواو ، ومجردة:

-فالمعـــــداة بـــــ (على) مثـــــل:]اســــتوى على العرش[{الحديد: 4} ، ومعناها:
علا واستقر
والمعداة بـ (إلى) : مثـل قولـه تعـالى:]ثم اسـتوى إلى السماء فسواهن سبع سموات [
{البقرة : 29} .
فهل معناها كالأولى المعداة بـ(على) ؟
فيها خلاف بين المفسرين:
منهم من قال : إن معناها واحد ، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير رحمه الله ؛ فمعنى]استوى إلى السماء[؛ أي : ارتفع إليها.
ومنهم من قـال: بـل الاسـتواء هنـا بمعـنى القصـد الكامل ؛ فمعـنى: اسـتوى إليهـا؛ أي: قصـد إليهـا قصـداً كاملاً ، وأيدوا تفسيرهم هذا بأنهـا عـديت بمـا يـدل على هذا المعنى ، وهو (إلى) ، وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله ؛ ففسر قوله:]ثم اسـتوى إلى السـماء[؛ أي: قصـد إلى السـماء، وإلا سـتواء هـا هنـا مضـمن معـنى القصـد والإقبال ؛ لأنه عدي بـ(إلى) .أ.هـ كلامه.
والمقرونــــة بــــالواو ؛ كقــــولهم : اســــتوى المــــاء والخشبة ؛ بمعنى : تساوى الماء والخشبة.
والمجــــردة ؛ كقولــــه تعــــالى :]ولمــــا بلــــغ أشــــده واستوى[{القصص:14} ، ومعناها : كمل.
تنبيه:
إذا قلنا: استوى على العرش ؛ بمعنى : علا ؛ فها هنا سؤال ، وهو: إن الله خلـق السـماوات ، ثم اسـتوى على العرش؛ فهل يستلزم أنه قبل ذلك ليس عالياً؟

فالجواب: لا يستلزم ذلك؛ لأن الاستواء على العــرش أخص من مطلق العلـو ؛ لأن الاسـتواء على العـرش علـو خاص به، والعلو شـامل على جميـع المخلوقـات ؛ فعلـوه عز وجل ثابت له أزلاً وابداً ، لم يزل عالياً على كل شيء قبل أن يخلق العرش ، ولا يلـزم من عـدم اسـتوائه على العرش عدم علوه، بل هو عال ، ثم بعد خلـق السـماوات والأرض علا علواً خاصاً على العرش.

فـإن قلت: نفهم من الآيـة الكريمـة أنـه حين خلـق السـماوات والأرض علا علـواً خاصـاً على العـرش . فـإن قلت: نفهم من الآية الكريمـة أنـه حين خلـق السـماوات والأرض ليس مسـتوياً على العـرش ، لكن قبـل خلـق السماوات والأرض ، هل هو مستو على العرش أولاً؟

فالجواب: الله أعلم بذلك.

فإن قلت: هـل اسـتواء اللـه تعـالى على عرشـه من الصفات الفعلية أو الذاتية؟

فـالجواب: أنـه من الصـفات الفعليـة ؛ لأنـه يتعلـق بمشيئته ، وكل صفة تتعلق بمشيئته ؛ فهي من الصـفات الفعلية.

إثبات علو الله على مخلوقاته

وقوله:]يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي[

(1) ذكر المؤلف رحمه الله في إثبـات علـو اللـه على خلقه ست آيات.

الآية الأولى: قوله :]يا عيسى إني متوفيـك ورافعـك إلي[{آل عمران: 55}

الخطاب لعيسى بن مريم الذي خلقـه اللـه من أم بلا أب ، ولهذا ينسب إلى أمه ، فيقال : عيسى بن مريم.

يقول الله :]إني متوفيك[: ذكـر العلمـاء فيهـا ثلاثـة أقوال:

القــول الأول:]متوفيك[؛ بمعــنى قابضــك ، ومنــه قولهم : توفى حقه؛

أي: قبضه.

القول الثاني:]متوفيك[: منيمك ؛ لأن النـوم وفـاة ؛ كما قـال تعـالى:]وهـو الـذي يتوفـاكم بالليـل ويعلم مـا جــرحتم بالنهـــار ثم يبعثـــك فيـــه ليقضـــي أجـــل مسمى[{الأنعام : 60}.

القول الثالث: أنه وفـاة مـوت :]متوفيك[: مميتـك ، ومنـــه قولـــه تعـــالى :]اللـــه يتـــوفى الأنفس حين موتها[{الزمر : 43} .

والقول بأن]متوفيك[متوفيـك بمعـنى مميتـك بعيـد؛ لأن عيســى عليــه الســلام لم يمت، وســينزل في آخــر الزمان ؛ قال الله تعالى:]وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته[{النسـاء: 159} ؛ أي : قبـل مـوت عيسـى على أحــد القــولين، وذلــك إذا نــزل في آخــر الزمــان . وقيل : قبل موت الواحد ؛ يعـني : مـا من أحـد من أهـل الكتاب إلا إذا حضـرته الوفـاة ؛ آمن بعيسـى ، حـتى وإن كان يهودياً . وهذا القول ضعيف.

بقى النظر بين وفاة القبض ووفاة النوم ، فنقـول : إنه يمكن أن يجمع بينهما فيكون قابضـاً لـه حـال نومـه ؛ أي أن الله تعالى ألقى عليه النوم؛ ثم رفعه ، ولا منافاة بين الأمرين.

قوله:]ورافعك إلى[: الشاهد هنـا ؛ فـإن]إلي[تفيـد الغاية ، وقوله:]ورافعك إلي[

يدل على أن المرفوع إليه كان عالياً، وهذا يـدل على علو الله عز وجل.

فلو قال قائل : المراد : رافعك منزلة ؛ كما قال الله تعالى :]وجيها في الـدنيا والآخـرة ومن المقـربين[{آل عمران: 45}.

قلن هـذا لا يسـتقيم ؛ لأن الرفـع هنـا عـدى بحـرف يختص بالرفع الذي هو الفوقية؛ رفع الجسد، وليس رفع المنزلة.

واعلم أن علـو اللـه عـز وجـل ينقسـم إلى قسـمين: علو معنوي ، وعلو ذاتي:

1-أما العلـو المعنـوي ؛ فهـو ثـابت للـه بإجمـاع أهـل القبلة ؛ أي: بالإجماع من أهل البدع وأهـل السـنة؛ كلهم يؤمنون بأن الله تعالى عال علواً معنوياً .

2-وأما العلو الذاتي ؛ فيثبتـه أهـل السـنة ، ولا يثبتـه أهل البدعة ؛ يقولـون : إن اللـه تعـالى ليس عاليـاً علـواً ذاتياً.

فنبدأ أولاً بأدلـة أهـل السـنة على علـو اللـه سـبحانه وتعالى الذاتي فنقول : إن أهل السنة استدلوا على علو

الله تعال علواً ذاتياً بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة :

أولاً : فالكتاب تنوعت دلالته على علو الله ؛ فتارة بذكر العلو، وتارة بذكر الفوقية ، وتارة بذكر نزول الأشياء من عنده، وتارة بذكر صعودها إليه، وتارة بكونه في السماء. . .

(1) فالعلو مثل قوله:]وهو العلي العظيم[{البقرة : 255}،]سبح أسم ربك الأعلى[{الأعلى: 1}.

(2) والفوقية:]وهو القاهر فوق عباده[{الأنعام: 18}،]يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون[{النحل:50} .

(3) ونزول الأشياء منه ؛ مثل قوله:]إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه[{فاطر: 10} ، ومثل قوله :]تعرج الملائكة والروح إليه[{المعارج: 4} .

(4) كونه في السماء ؛ مثل قوله :]أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض[{الملك: 16}.

ثانياً : وأما السنة فقد تواترت عن النبي ، صلى الله عليه وسلم من قوله وفعله وإقراره :

(1) فأما قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

فجاء بذكر العلو والفوقية ، ومنه قوله ، صلى الله عليه وسلم "سبحان ربي الأعلى" [1]، وقوله لما ذكر السماوات ؛ قال: "والله فوق العرش"[2] .

وجاء بذكر أن الله في السماء ؛ مثل قوله ، صلى الله عليه وسلم : "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء"[3].

(2) وأما الفعل ؛ فمثل رفع أصبعه إلى السماء ، وهو يخطب الناس في أكبر جمع ، وذلك في يوم عرفة ، عام حجة الوداع ؛ فإن الصحابة لم يجتمعوا اجتماعاً أكبر من ذلك الجمع؛ إذ إن الذي حج معه بلغ

---

(1) رواه مسلم/ كتاب صلاة المسافرين/ باب استحباب تطويل القراء في صلاة الليل.

(2) رواه ابن خزيمة في كتاب "التوحيد" (1/ 244) ، واللالكائي في "شرح السنة" (659) ، والطبراني في "الكبير" (9/228) ، وقال الهيثمي في "المجمع" (1/86): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

(3) رواه البخاري / كتاب المغازي / باب بعث علي وخالد إلى اليمن ، ومسلم كتاب الزكاة / باب صفة الخوارج.

نحو مئة ألـف ، والـذي مـات عنهم نحـو مئـة وأربعـة وعشرين ألفاً: يعني: عامة المسـلمين حضـروا ذلـك الجمع، فقال عليه الصلاة والسلام : "ألا هل بلغت؟" . قــالوا : نعم . "ألا هــل بلغت؟ ". قــالوا : نعم. "ألا هل بلغت؟ وكان يقول : "اللهم أشـهد" ؛ يشـير إلى السماء بأصبعه ، وينكتها إلى الناس [1]

ومن ذلك رفع يديه إلى السماء في الدعاء.

وهذا إثبات للعلو بالفعل.

(3) وأما التقرير ؛ فإنه في حديث معاوية بن الحكم رضـي اللـه عنـه؛ أنـه أتى بجاريـة يريـد أن يعتقهـا ، فقــال لهــا النــبي ، صــلى الله عليه وســلم : "أين اللــه؟" . قـالت: في السـماء . فقـال : "من أنـا؟" . قالت: رسول الله . قال: "أعتقها ؛ فإنها مؤمنة"[2] . فهذه جارية لم تتعلم ، والغالب على الجواري الجهل ، لا سيما أمـة غـير حـرة ، لا تملـك نفسـها ،تعلم أن ربها في السماء، وضـلال بــني آدم ينكـرون أن اللـه في السماء ، ويقولون : إمـا أنـه لا فـوق العـالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ! أو أنه في كل مكان!!

ثالثاً: وأما دلالة الإجماع؛ فقد أجمـع السـلف على أن الله تعـالى بذاتـه في السـماء ، من عهـد الرسـول عليـه الصلاة والسلام ، إلى يومنا هذا. إن قلت كيف أجمعوا؟

نقـول: إمـرارهم هـذه الآيـات والأحـاديث مـع تكـرار العلو فيها والفوقية ونزول الأشـياء منـه وصعودها إليـه دون أن يأتوا بما يخالفها إجماع منهم على مدلولها.

ولهذا لما قال شـيخ الإسـلام: "إن السـلف مجمعـون على ذلك"؛ قال: "ولم يقل أحد منهم : إن الله ليس في السـماء ، أو : إن اللـه في الأرض ، أو : إن اللـه لا داخـل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل، أو : إنه لا تجـوز الإشارة الحسية إليه".

رابعاً: وأما دلالة العقل؛ فنقول: لا شـك أن اللـه عـز وجل إما أن يكون في العلو أو في السـفل ، وكونـه في

---

(1) رواه مسلم / كتاب الحج/ باب حجة النبي ، صلى الله عليه وسلم .

(2) (2) رواه مسلم / كتاب المساجد / باب تحريم الكلام في الصلاة.

السفل مستحيل؛ لأنه نقص يستلزم أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته فلا يكون له العلو التام والسيطرة التامة والسلطان التام فإذا كان السفل مستحيلاً ؛ كان العلو واجباً.

وهناك تقرير عقلي آخر ، وهو أن نقول : إن العلو صفة كمال باتفاق العقلاء ، وإذا كان صفة كمال ؛ وجب أن يكون ثابتاً لله؛ لأن كل صفة كمال مطلقة؛ فهي ثابتة لله.

وقولنا : "مطلقة": احترازاً من الكمال النسبي ، الذي يكون كمالاً في حال دون حال؛ فالنوم مثلاً نقص، ولكن لمن يحتاج إليه ويستعيد قوته به كمال.

خامساً : وأما دلالة الفطرة: فأمر لا يمكن المنازعة فيها ولا المكابرة ؛ فكل إنسان مفطور على أن الله في السماء ، ولهذا عندما يفجؤك الشيء الذي لا تستطيع دفعه، وإنما تتوجه إلى الله تعالى بدفعه؛ فإن قلبك ينصرف إلى السماء حتى الذين ينكرون علو الذات لا يقدرون أن ينزلوا أيديهم إلى الأرض.

وهذه الفطرة لا يمكن إنكارها. حتى إنهم يقولون : إن بعض المخلوقات العجماء تعرف أن الله في السماء كما في الحديث الذي يروى أن سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وعلى أبيه خرج يستسقي ذات يوم بالناس ، فلما خرج ؛ رأى نملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها نحو السماء، تقول: "اللهم ! إنا خلق من خلقك ، ليس بنا غنى عن سقياك" . فقال: "ارجعوا ؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم". وهذا إلهام فطري.

فالحاصل أن : كون الله في السماء أمر معلوم بالفطرة. ووالله ؛ لولا فساد فطرة هؤلاء المنكرين لذلك ؛ لعلموا أن الله في السماء بدون أن يطالعوا أي كتاب ؛ لأن الأمر الذي تدل عليه الفطرة لا يحتاج إلى مراجعة الكتب.

والذين أنكروا علو الله عز وجل بذاته يقولون : لو كان في العلو بذاته ؛ كان في جهة، وإذا كان في جهة؛ كان محدوداً وجسماً ، وهذا ممتنع ! والجواب عن قولهم : "إنه يلزم أن يكون محدوداً وجسماً، وهذا

ممتنع! والجواب عن قولهم: "إنه يلزم أن يكون محـدوداً وجسماً" ؛ نقول:

أولاً: لا يجـوز إبطـال دلالـة النصـوص بمثـل هـذه التعليلات ، ولو جاز هـذا ؛ لأمكن كـل شـخص لا يريـد مـا يقتضيه النص أن يعلله بمثل هذه العلل العليلة.

فإذا كان اللـه أثبت لنفسـه العلـو ، ورسـوله ، صـلى الله عليه وسلم أثبت له العلو، والسلف الصالح أثبتوا لـه العلـو ؛ فلا يقبـل أن يـأتي شـخص ويقـول : لا يمكن أن يكون علو ذات؛ لأنه لو كان علو ذات ؛ لكان كذا وكذا.

ثانياً : نقول : إن كان مـا ذكـرتم لازمـاً لإثبـات العلـو لزوماً صحيحاً ؛ فلنقـل بـه ؛ لأن لازم كلام اللـه ورسـوله حق ؛ إذ أن الله تعالى يعلم ما يلزم من كلامه. فلو كانت نصـوص العلـو تسـتلزم معـني فاسـداً، لبينـه، ولكنهـا لا تستلزم معني فاسداً.

ثالثاً: ثم نقـول: مـا هـو الحـد والجسـم الـذي أجلبتم علينا بخيلكم ورجلكم فيها.

أتريدون بالحد أن شيئاً من المخلوقات يحيـط باللـه؟ فهذا باطل ومنتف عن الله، وليس بلازم من إثبات العلو لله أو تريـدون بالحـد أن اللـه بـائن من خلقـه غـير حـال فيهم؟ فهذا حق من حيث المعني، ولكن لا نطلـق لفظـه نفياً ولا إثباتاً، لعدم ورود ذلك.

وأما الجسم، فنقول: ماذا تريدون بالجسم؟ أتريـدون أنه جسم مركب من عظم ولحم وجلد ونحـو ذلـك؟ فهـذا باطل ومنتصف عن الله، لأن الله ليس كمثله شيء وهـو السميع البصير. أم تريدون بالجسم ما هـو قـائم بنفسـه متصف بما يليق به؟ فهـذا حـق من حيث المعـني، لكن لا نطلق لفظه نفياً ولا إثباتاً، لما سبق.

وكذلك نقول في الجهة، هل تريـدون أن اللـه تعـالي له جهـة تحيـط بـه؟ فهـذا باطـل، وليس بلازم من إثبـات علوه. أم تريدون جهة علـو لا تحيـط باللـه؟ فهـذا حـق لا يصح نفيه عن الله تعالي.

(1) (بـــــل رفعــــــه اللـــــــه إليـــــــه)

..

(1) (1) الآية الثانية: قوله:) بـل رفعـه اللـه إليـه ([النساء: 158].

•) بل (: للإضراب الإبطالي، لإبطال قـولهم:) إنا قتلنا المسيح عيسي ابن مريم رسول الله وما قتلـوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفـوا فيـه لفي شك منـه مـا لهم بـه من علم إلا اتبـاع الظن ومـا قتلـوه يقينـا ، بـل رفعـه اللـه إليـه وكـان اللـه عزيـزاً حكيمـاً ، ([النساء: 157-158]، فكذبهم الله بقوله:) ومـا قتلـوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه (.

والشاهد قوله:) بل رفعه الله إليه (، فإنه صريح بأن اللـه تعـالي عـال بذاتـه، إذ الرفـع إلي الشـيء يسـتلزم علوه.

) إليه يصعد الكلم الطيب والعمـل الصـالح يرفعـه ((1)، الآية الثالثة: قوله:) إليه يصعد الكلم الطيب والعمـل الصالح يرفعه ([فاطر: 10] .

•) إليه (: إلي الله عز وجل.

•) يصعد الكلم الطيب (: و) الكلم (هنا اسـم جمع، مفرده كلمـة، وجمـع كلمـة كلمـات، والكلم الطيب يشمل كل كلمـة يتقـرب بهـا إلي اللـه، كقـراءة القـرآن والـذكر والعلم والأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، فكل كلمة تقرب إلي اللـه عـز وجـل، فهي كلمـة طيبـة، تصعد إلي اللـه عـز وجـل، وتصـل إليـه، والعمـل الصـالح يرفعه الله إليه أيضاً.

فالكلمات تصعد إلي الله، والعمل الصالح يرفعه الله، وهذا يدل على أن الله عال بذاته، لأن الأشياء تصعد إليـه وترفع.

) يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فـأطلع إلي إلـه موسـي وإني لأظنـه كاذبـاً ((2)..

(1) (2) الآية الرابعة: قوله:) يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلـغ الأسـباب أسـباب السـموات فـأطلع إلي إلـه موسي وإني لأظنه كاذباً ([غافر:36-37].

هامان وزير فرعون، والآمر بالبناء فرعون.

•) صرحاً (، أي بناء عالياً.

•)لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات(، يعني: لعلي أبلغ الطرق التي توصل إلي السماء.

•)فأطلع إلي إله موسي(، يعني: أنظر إليه، وأصل إليه مباشرة، لأن موسي قال له: أن الله في السماء. فموه فرعون على قومه بطلب بناء هذا الصرح العالي ليرقي عليه ثم يقول: لم أجد أحداً، ويحتمل أنه قاله على سبيل التهكم، يقول: إن موسي قال: إلهه في السماء، اجعلونا نرقي لنراه !! تهكماً.

وأيا كان، فقد قال:)وإني لأظنه كاذباً(، للتمويه على قومه، وإلا، فهو يعلم أنه صادق، وقد قال له موسي:)لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ([الإسراء: 102]، فلم يقل: ما علمت! بل أقره على هذا الخبر المؤكد باللام و(قد) والقسم. والله عز وجل يقول في آية أخري:)وجحدوا بها وستيقنتها أنفهسهم ظلماً وعلوا([النمل: 14].

• الشاهد من هذا: أن أمر فرعون ببناء صرح يطلع به على إله موسي يدل على أن موسي صلي الله عليه وسلم قال لفرعون وآله: إن الله في السماء. فيكون علو الله تعال ذاتياً قد جاءت به الشرائع السابقة.

)أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حصاباً فستعلمون كيف نذير((1)........

(1) (1) الآية الخامسة والسادسة: قوله:)أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير([الملك: 16-17].

• والذي في السماء هو الله عز وجل، لكنه كني عن نفسه بهذا، لأن المقام مقام إظهار عظمته، وأنه فوقكم، قادر عليكم، مسيطر عليكم، مهيمن عليكم، لأن العالي له سلطة على من تحته.

•)فإذا هي تمور(، أي: تضطرب.

والجواب: لا تأمن والله! بل نخاف على أنفسنا إذا كثرت معاصينا أن تخسف بنا الأرض.

والانهيارات التي يسمونها الآن: أنهياراً أرضياً، وانهياراً جبلياً .. وما أشبه ذلك هي نفس التي هدد الله بها هنا، لكن يأتون بمثل هذه العبارات ليهونوا الأمر على البسطاء من الناس.

•)أم أمنتم(، يعني بل أأمنتم، و (أم) هنا بمعني (بل) والهمزة.

•)أن يرسل عليكم حاصباً(: الحاصب عذاب من فوق يحصبون به، كما فعل بالذين من قبلهم، كقوم لوط وأصحاب الفيل، والخسف من تحت.

فالله عز وجل هددنا من فوق ومن تحت، قال الله تعالي :)فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذنه الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ([العنكبوت:40]، أربعة أنواع من العذاب.

وهنا ذكر الله نوعين منها: الحاصب والخسف.

والشاهد من هذه الآية هو قوله:)من في السماء(.

والذي هاهنا إشكال، وهو أن (في) للظرفية، فإذا كان الله في السماء، و(في) للظرفيه، فإن الظرف محيط بالمظروف ! أرأيت لو قلت: الماء في الكأس، فالكأس محيط بالماء وأوسع من الماء ! فإذا كان الله يقول:)أأمنتم من في السماء(، فهذا ظاهره أن السماء محيطة بالله، وهذا الظاهر باطل، وإذا كان الظاهر باطلاً، فإننا نعلم علم اليقين أنه غير مراد لله، لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة باطلاً.

فما الجواب على هذا الإشكال؟

قال العلماء: الجواب أن نسلك أحد طريقين:

1- فإما أن نجعل السماء بمعني العلو، والسماء معني العلو وارد في اللغة، بل في القرآن ، قال تعالي:)أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها([الرعد: 17]، والمراد بالسماء العلو، لأن الماء ينزل من السحاب لا من السماء التي هي السقف المحفوظ، والسحاب في العلو بين السماء والأرض، كما قال الله تعالي:)والسحاب المسخر بين السماء والأرض([البقرة: 164].

فيكون معني) من في السماء (، أي: من في العلو.

ولا يوجد إشكال بعد هذا، فهو في العلو. ليس يحاذيه شىء، ولا يكون فوقه شىء.

2- أو نجعل (في) بمعني (علي) ، ونجعـل السـماء هي الســقف المحفــوظ المرفــوع، يعــني: الآجــرام الســماوية، وتــأتي (في) بمعــني (علي) في اللغــة العربيـة، بـل في القـرآن الكـريم، قـال فرعـون لقومـه الســحرة الــذين آمنــوا:)ولأصــلبنكم في جــذوع النخل([طه: 71] ، أي: على جذوع النخل.

فيكــون معــني)من في الســماء (، أي: من على السماء.

ولا إشكال بعد هذا.

فـإن قلت: كيـف تجمـع بين هـذه الآيـة وبين قولـه تعـالي:)وهـو الـذي في السـماء إلـه وفي الأرض إلـه ([الزخرف: 84]، وقوله:)وهو اللـه في السـموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ([الأنعام: 3] ؟ !

فالجواب: أن نقول:

أمـا الآيـة الأولي، فـإن اللـه يقـول:)وهـو الـذي في السـماء إلـه وفي الأرض إلـه (، فـالظرف هنـا لألوهيتـه، يعـني: أن ألوهيتـه ثابتـة في السـماء وفي الأرض، كمـا تقـول: فلان أمـير في المدينـة ومكـة، فهـو نفسـه في واحـدة منهمـا، وفيهمـا جميعـاً بإمارتـه وسـلطته، فاللـه تعالي ألوهيته في السماء وفي الأرض، وأما هو عز وجل ففي السماء.

أمــا الآيــة الثــاني:)وهــو اللــه في الســموات وفي الأرض(فنقول فيها كما قلنا في التي قبلها:) وهو اللـه (، أي: وهــو الإلــه الــذي ألوهيتــه في الســماوات وفي الأرض، أما هو نفسه، ففي السماء. فيكون المعني: هــو المألوه في السماوات المألوه في الأرض، فألوهيتـه في السماوات وفي الأرض.

فتخرج هذه الآية كتخريج التي قبلها.

وقيل المعني:) وهو الله في السـموات (، ثم تقـف، ثم تقـرأ:) وفي الأرض يعلم سـركم وجهـركم (، أي أنـه نفسه في السماوات، ويعلم سركم وجهركم في الأرض،

فليس كونه في السماء مع علوه بمانع من علمه بسركم وجهركم في الأرض.

وهذا المعني فيه شيىء من الضعف، لأنه يقتضي تفكيك الآية وعدم ارتباط بعضها ببعض، والصواب الأول: أن نقول:) وهو الله في السموات وفي الأرض (، يعني أن ألوهيته ثابتة في السماوات وفي الأرض، فتطابق الآية الأخري.

من الفوائد المسلكية في هذه الآيات:

أن الإنسان إذا علم بأن الله تعالي فوق كل شيء، فإنه يعرف مقدار سلطانه وسيطرته على خلقه، وحينئذ يخافه و يعظمه، وإذا خاف الإنسان ربه وعظمه، فإنه يتقيه ويقوم بالواجب ويدع المحرم.

إثبات معية الله لخلقه

(1) (1) شرع المؤلف بسوق أدلة المعية؛ أي: أدلة معية الله تعالى لخلقه، وناسب أن يذكرها بعد العلو ؛ لأنه قد يبدون للإنسان أن هناك تناقضاً بين كونه فوق كل شيء وكونه مع العباد، فكان من المناسب جداً أن يذكر الآيات التي تثبت معية الله للخلق بعد ذكر آيات العلو.

وفي معية الله تعالى لخلقه مباحث:

المبحث الأول في أقسامها :

معية الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة.

والخاصة تنقسم إلى قسمين: مقيدة بشخص ، ومقيدة بوصف.

أما العامة ؛ فهي التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر . ودليلها قوله تعالى:]وهو معكم أين ما كنتم[{الحديد: 4} .

أما الخاصة المقيدة بوصف ؛ فمثل قوله تعالى:]إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[{النحل: 128}.

وأما الخاصة المقيدة بشخص معين؛ فمثل قوله تعالى عن نبيه :]إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا[{التوبة 40، وقال لموسى وهارون :]إنني معكما أسمع وأرى[{طه : 46}.
وهذه أخص من المقيدة بوصف.
فالمعية درجات: عامة مطلقة، وخاصة مقيدة بوصف، وخاصة مقيدة بشخص. فأخص أنواع المعية ما قيد بشخص ، ثم ما قيد بوصف، ثم ما كان عاماً. فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته، والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد.
المبحث الثاني: هل المعية حقيقية أو هي كتابة عن علم الله عز وجل وسمعه وبصره وقدرته وسلطانه وغير ذلك من معاني ربوبيته؟
أكثر عبارات السلف رحمهم الله يقولون : إنها كتابة عن العلم وعن السمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك ، فيجعلون معنى قوله:]وهو معكم[أي: وهو عالم بكم سميع لأقوالكم ، بصير بأعمالكم ، قادر عليكم حاكم بينكم . . . . وهكذا ، فيفسرونها بلازمها.
واختار شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الكتاب وغيره أنها على حقيقتها ، وأن كونه معنا حق على حقيقته ، لكن ليست معيته كمعية الإنسان للإنسان التي يمكن أن يكون الإنسان مع الإنسان في مكانه ؛ لأن معية الله عز وجل ثابتة له وهو في علوه ؛ فهو معنا وهو عال على عرشه فوق كل شيء ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون معنا في الأمكنة التي نحن فيها.
وعلى هذا، فإنه يحتاج إلى الجمع بينها وبين العلو.
والمؤلف عقد لها فصلاً خاصاً سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وأنه لا منافاة بين العلو والمعية، لأن الله

تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فهو علي في دنوه، قريب في علوه.

وضرب شيخ الإسلام رحمه الله لذلك مثلاً بالقمر، قال: إنه يقال: مازلنا نسير والقمر معنا، وهو موضوع في السماء، وهو من أصغر المخلوقات، فكيف لا يكون الخالق عز وجل مع الخلق، الذي الخلق بالنسبة إليه ليسوا بشيء، وهو فوق سماواته؟!

وما قاله رحمه الله فيه دفع حجة بعض أهل التعطيل حيث احتجوا على أهل الصسنة، فقالوا: أنتم تمنعون التأويل، وأنتم تؤولون في المعبة، تقولون: المعية بمعنى العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وما اشبه ذلك.

فنقول: إن المعية حق على حقيقتها، لكنها ليست في المفهوم الذي فهمه الجهمية ونحوهم، بأنه مع الناس في كل مكان وتفسير بعض السلف لها بالعلم ونحوه، بأنه مع الناس في كل مكان وتفسير بعض السلف لها بالعلم ونحوه تفسير باللازم.

*المبحث الثالث: هل المعية من الصفات الذاتية أو منا لصفات الفعلية؟

فيه تفصيل:

-0 - أما المعية العامة، فهي ذاتية، لأن الله لم يزل ولا يزال محيطاً بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته.

- - وأما المعية الخاصة، فهي صفة فعلية، لأنها تابعة لمشيئة الله، وكل صفة مقرونة بسبب هي من الصفات الفعلية، فقد سبق لنا أن الرضى من الصفات الفعلية، لأنه مقرون بسبب، إذا وجد السبب الذي به يرضى الله، وجد الرضى، وكذلك المعية الخاصة إذا وجدت التقوى أو غيرها من أسبابها في شخص، كان الله معه.

*المبحث الرابع في المعية: هل هي حقيقة أو لا؟

ذكرنا ذلك، وأن من السلف من فسرها باللازم، وهو الذي لا يكاد يرى الإنسان سواه. ومنهم من قال: هي على حقيقتها، لكنها معية تليق بالله، خاصة به.

وهذا صريح كلام المؤلف هنا في هذا الكتاب وغيره، لكن تصان عن الظنون الكاذبة، مثل أن يظن أن الله معنا في الأرض ونحو ذلك، فإن هذا باطل مستحيل!

***المبحث الخامس في المعية: هل بينها وبين العلو تناقض؟**

الجواب: لا تناقض بينهما، لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الله جمع بينهما فيما وصف به نفسه، ولو كانا يتناقضان ما صح أن يصف الله بهما نفسه.

الوجه الثاني: أن نقول: ليس بين العلو والمعية تعارض، أصلاً، إذ من الممكن أن يكون الشيء عالياً وهو معك، ومنه ما يقوله العرب: القمر معنا ونحن نسير، والشمس معنا ونحن نسير، والقطب معنا ونحن نسير، مع أن القمر والشمس والقطب كلها في السماء، فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية في المخلوق، فاجتماعهما في الخالق من باب أولى.

أرأيت لو أن إنساناً على جبل عالٍ، وقال للجنود: اذهبوا إلى مكان بعيد في المعركة، وأنا معكم، وهو واضع المنظار على عينيه، ينظر إليهم من بعيد، فصار معهم، لأنه الآن يبصر كأنهم بين يديه، وهو بعيد عنهم، فالأمر ممكن في حق المخلوق، فكيف لا يمكن في حق الخالق؟!

الوجه الثالث: أنه لو تعذر اجتماعهما في حق المخلوق، لم يكن متعذراً في حق الخالق، لأن الله أعظم وأجل، ولا يمكن أن تقاس صفات الخالق بصفات المخلوقين، لظهور التباين بين الخالق والمخلوق.

والرسول يقول في سفره: "اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل"[1]، فجمع بين كونه صاحباً له وخليفة له في أهله، مع أنه بالنسبة للمخلوق غير ممكن، لا يمكن أن يكون شخص ما صاحباً لك في السفر وخليفة لك في أهلك.

---

(1) رواه مسلم/ كتاب الحج/ باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج أو غيره.

وثبت في الحديث الصحيح[2]: أن الله عز وجل يقـول إذا قـال المصـلى:]الحمـد للـه رب العـالمين[: "حمـدني عبدي". كم من مصل يقول:]الحمد لله رب العالمين[؟ لا يحصون، وكم من مصليين، أحدهما يقول:]الحمد لله رب العالمين[، والثـاني يقـول:]إيـاك نعبـد وإيـاك نسـتعين[، وكـل واحـد منهمـا لـه رد، الـذي يقـول:]الحمـد للـه رب العالمين[: يقول الله له: "حمدني عبدي". والـذي يقـول:]إياك نعبد وإياك نستعين[: يقول الله له: "هذا بيني وبين عبدي نصفين".....

إذاً، يمكن أن يكون الله معنـا حقـاً وهـو على عرشـه في السماء حقاً، ولا يفهم أحداً أنهمـا يتعارضـان، إلا من أراد أن يمثـل اللـه بخلقـه، ويجعـل معيـة الخـالق كمعيـة المخلوق.

ونحن بينا إمكان الجمع بين نصـوص العلـو ونصـوص المعية، فإن تـبين ذلـك، وإلا، فـالواجب أن يقـول العبـد: آمنت بالله ورسوله، وصـدقت بمـا قـال اللـه عن نفسـه ورسوله، ولا يقول: كيف يمكن؟! منكراً ذلك!

إذا قال: كيـف يمكن؟! قلنـا: سـؤالك هـذا بدعـة، لم يسأل عنه الصحابة، وهم خير منك، ومسؤولهم أعلم من مسـؤولك وأصـدق وأفصـح وأنصـح، عليـك أن تصـدق، لا تقل: كيف؟ ولا لم؟ ولكن سلم تسليماً.

تنبيه:

تأمـل في الآيـة، تجـد كـل الضـمائر تعـود على اللـه سبحانه وتعالى:]خلق السـموات والأرض في سـتة أيـام ثم استوى[،]يعلم ما يلج في الأرض[، فكذلك ضمير]وهو معكم[، فيجب علينا أن نؤمن بظاهر الآية الكريمة، ونعلم علم اليقين أن هذه المعية لا تقتضي أن يكون الله معنـا في الأرض، بل هو معنا مـع اسـتوائه على العـرش. هـذه المعيـة، إذا آمنـا بهـا، تـوجب لنـا خشـية اللـه عـز وجـل وتقواه، ولهذا جاء في الحديث: "أفضل الإيمـان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت"[1].

([2]) رواه مسلم/ كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

([1]) أخرجه أبو نعيم (6/124)، والهيثمي في "المجمع" (1/60).

أما أهل الحلول، فقالوا: إن الله معنا بذاته في أمكنتنا، إن كنت في المسجد، فالله معك في المسجد والذين في السوق الله معهم فبالسوق!! والذين في الحمامات الله معهم في الحمامات!!

ما نزهوه عن الأقذار والأنتان وأماكن اللهو والرفث!!
المبحث السادس: في شبهة القائلين بأن الله معنا في أكنتنا والرد عليهم:
شبهتهم : يقولون : هذا ظاهر اللفظ :]وهو معكم[؛ لأن كل الضمائر تعود على الله :]هو الذي خلق[،]ثم استوى[،]يعلم[،]وهو معكم[، وإذا كان معنا ؛ فنحن لأنفهم من المعية إلا المخالطة أو المصاحبة في المكان!!
والرد عليهم من وجوه:
أولاً: أن ظاهرها ليس كما ذكرتم؛ إذ لو كان الظاهر كما ذكرتم ؛ لكان في الآية تناقض: أن يكون مستوياً على العرش، وهو مع كل إنسان في أي مكان ! والتناقض في كلام الله تعالى مستحيل .
ثانياً : قولكم : "إن المعية لا تعقل إلا مع المخالطة أو المصاحبة في المكان! هذا ممنوع ؛ فالمعية في اللغة العربية أسم لمطلق المصاحبة، وهي أوسع مدلولاً مما زعمتم ؛ فقد تقتضصي الإختلاط ، وقد تقتضي المصاحبة في المكان، وقد تقتضي مطلق المصاحبة وإن اختلف المكان ؛ هذه ثلاثة أشياء:
1-مثال المعية التي تقتضي المخالطة: أن يقال: اسقوني لبناً مع ماء ؛ أي : مخلوطاً بماء.
2-ومثال المعية التي تقتضي المصاحبة في المكان: قولك: وجدت فلاناً مع فلان يمشيان جميعاً وينزلان جميعاً.
3-ومثال المعية التي تقتضي الإختلاط ولا المشاركة في المكان: أن يقال :
فلان مع جنوده . وإن كان في غرفة القيادة ، لكن يوجههم . فهذا ليس فيه اختلاط ولا مشاركة في مكان.

ويقال: زوجة فلان معه. وإن كانت هي في المشرق وهو في المغرب. فالمعية إذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكما هو ظاهر من شواهد اللغة: مدلولها مطلق المصاحبة، ثم هي بحسب ما تضاف إليه.
فإذا قيل :]إن الله مع الذين اتقوا[
{النحل : 128} ؛ فلا يقتضي ذلك لا اختلاطاً ولا مشاركة في المكان ، بل هي معية لائقة بالله ، ومقتضاها النصر والتأييد.
ثالثاً: نقول: وصفكم الله بهذا ! من أبطل الباطل وأشد التنقص لله عز وجل ، والله عز وجل ذكرها هنا عن نفسه متمدحاً ؛ أنه مع علوه على عرشه ؛ فهو مع الخلق ، وإن كانوا أسفل منه ، فإذا جعلتم الله في الأرض ؛ فهذا نقص. إذا جعلتم الله نفسه معكم في كل مكان ، وأنتم تدخلون الكنيف ؛ هذا أعظم النقص ، ولا تستطيع أن تقوله ولا لملك من ملوك الدنيا: إنك أنت في الكنيف ! لكن كيف تقوله لله عز وجل ؟!
رابعاً : يلزم على قولكم هذا أحد أمرين لا ثالث لهما ، وكلاهما ممتنع : إما أن يكون الله متجزئاً ، كل جزء منه في مكان.
وإما أن يكون متعدداً ؛ يعني : كل إله في جهة ضرورة تعدد الأمكنة.
خامساً: أن نقول : قولكم هذا أيضاً يستلزم أن يكون الله حالاً في الخلق ؛ فكل مكان في الخلق ؛ فالله تعالى فيه، وصار هذا سلماً لقول أهل وحدة الوجود. فأنت ترى أن هذا القول باطل ، ومقتضى هذا القول الكفر.
ولهذا نرى أن من قال: إن الله معنا في الأرض ؛ فهو كافر؛ يستتاب ، ويبين له الحق، فإن رجع، وإلا ؛ وجب قتله.
وهذه آيات المعية:
الآية الأولى: قوله تعالى:]هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم أستوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير[{الحديد: 4} : والشاهد فيها قوله:]وهو معكم

أين ما كنتم[، وهذه من المعية العامة؛ لأنها تقتضي الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وسمعاً وبصراً وغير ذلك من معاني الربوبية.
(1)الآية الثانية: قوله:]ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم[{المجادلة: 7}.
]ما يكون[:]يكون[؛ تامة يعني: ما يوجد.
وقوله :]من نجوى ثلاثة[: قيل: إنها من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، وأصلها : من ثلاثة نجوى ، ومعنى]نجوى[؛ أي: متناجين.
وقوله:]إلا هو رابعهم[ولم يقل : إلا هو ثالثهم ؛ لأنه من غير الجنس ، وإذا كان من غير الجنس ، فإنه يؤتى بالعدد التالي، أما إذا كان من الجنس؛ فإنه يؤتى بنفس العدد، أنظر قوله تعالى عن النصارى :]لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة[{المائدة: 73} ، ولم يقولوا : ثالث أثنين ؛ لأنه من الجنس على زعمهم فعندهم كل الثلاثة آلهة ، فلما كان من الجنس على زعمهم ؛ قالوا فيه : ثالث ثلاثة.
قوله :]ولا خمسة هو سادسهم[ذكر العدد الفردي ثلاثة وخمسة، وسكت عن العدد الزوجي، لكنه داخل في قوله :]ولا أدنى من ذلك[: الأدنى من ثلاثة أثنان ،]ولا أكثر[من خمسة ، ستة فما فوق.
ما من أثنين فأكثر يتناجيان بأي مكان من الأرض ؛ إلا والله عز وجل معهم.
وهذه المعية عامة؛ لأنها تشمل كل أحد: المؤمن ، والكافر، والبر، والفاجر ، ومقتضاها الإحاطة بهم علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وتدبيراً وغير ذلك.
وقوله:]ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة[؛ يعني : أن هذه المعية تقتضي إحصاء ما عملوه ؛ فإذا كان يوم القيامة ؛ نبأهم بما عملوا ؛ يعني: أخبرهم به وحاسبهم عليه ؛ لأن المراد بالإنباء لازمه ، وهو المحاسبة ، لكن إن كانوا مؤمنين ؛ فإن الله تعالى يحصي أعمالهم ، ثم يقول : "سترتها وقوله :]لا تحزن إن الله معنا[

عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم"[1].
وقوله عز وجل :]إن الله بكـل شـيء عليم[: كـل شـيء موجود أو معدوم ، جائز أو واجب أو ممتنع ، كـل شـيء ؛ فالله عليم بـه. وقـد سـبق لنـا الكلام على صـفة العلم ، وأن علم اللـــه يتعلـــق بكـــل شـــيء، حـــتى بـــالواجب والمستحيل والصغير والكبير ، والظاهر والخفي.
(1)الآية الثالثة:]لا تحزن إن الله معنا[{التوبة: 40}.
الخطاب لأبي بكر من النـبي ، صـلى الله عليه وسـلم : ؛ قال الله تعالى:]إلا تنصروه فقد نصـره اللـه إذ همـا في الغـار إذ يقـول لصـاحبه لا تحـزن إن اللـه معنا[{التوبـة: 40}.
أولاً: نصره حين الإخراج و]إذ أخرجه الذين كفروا[.
ثانياً: وعند المكث في الغار]إذ هما في الغار[.
ثالثاً: عند الشدة حينما وقف المشركون على فم الغـار :]إذ يقول لصاحبه لا تحزن[.
فهذه ثلاثة مواقع بين الله تعالى فيها نصره لنبيه ، صلى الله عليه وسلم .
وهذا الثالث حين وقف المشركون عليهم ؛ يقول أبو بكر : "يـــا رســـول اللـــه ! لـــو نظـــر أحـــدهم إلى قدمـــه ؛ لأبصـرنا"[2] ؛ يعـني : إننـا على خطـر ؛ كقـول أصـحاب موسى لما وصلوا إلى البحر :]إنا لمـدركون[{الشـعراء: 61}، وهنا قال
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأبي بكر رضي الله عنه :]لا تحـــزن إن اللـــه معنا[. فطمأنـــه وأدخـــل الأمن في نفسه ، وعلل ذلك بقوله:]إن الله معنا[.
وقولـه :]لا تحـزن[: نهي يشـمل الهم ممـا وقـع ومـا سيقع؛ فهو صالح للماضي والمستقبل.
والحزن: تألم النفس وشدة همها.
]إن الله معنا[: وهذه المعية خاصة، مقيدة بالنبي ، صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وتقتضـي مـع الإحاطـة الـتي هي المعية العامة النصـر والتأييـد. ولهـذا وقفت قـريش

---

[1] تقدم تخريجه ص 210

[2] رواه البخاري / كتاب فضـائل الصـحابة/ بـاب منـاقب المهـاجرين، ومسـلم / كتـاب فضـائل الصـحابة / بـاب من فضائل أبي بكر الصديق.

على الغار ، لوم يبصروهما ! أعمى الله أبصارهم. وأما قول من قال : فجاءت العنكبوت فنسجت على باب الغار ، والحمامة وقعت على باب الغار، فلما جاء المشركون ، وإذا على الغار ، حمامة وعش عنكبوت ، فقالوا: ليس فيه أحد؛ فانصرفوا . فهذا باطل!! الحماية الإلهية والآية البالغة أن يكون الغار مفتوحاً صافياً ؛ ليس فيه مانع حسي ، ومع ذلك لا يرون من فيه، هذه هي الآية!!

أما أن تأتي حمامة وعنكبوت تعشش ؛ فهذا بعيد ، وخلاف قوله: "لو نظر أحدهم إلى قدمه، لأبصرنا".

المهم أن بعض المؤرخين –عفا الله عنهم –يأتون باشياء غريبة شاذة منكرة لا يقبلها العقل ولا يصح بها النقل.

(1) (1) الآية الرابعة: قوله:]إنني معكما أسمع وأرى[{طه: 46}.

هذا الخطاب موجه لموسى وهارون ، لما أمرهما الله عز وجل أن يذهبا إلى فرعون ؛ قال:]إذهبا إلى فرعونإنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى[{طه:43-46}.

فقوله :]أسمع وأرى[: جملة استئنافية لبيان مقتضى هذه المعية الخاصة، وهو السمع والرؤية، وهذا سمع ورؤية خاصان تقتضيان النصر والتأييد والحماية من فرعون الذي قالا عنه:]إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى[.

(1) (1) الآية الخامسة: قوله:]إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون [{النحل: 128}.

هذه جاءت بعد قوله :]وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عرفتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون[{النحل: 126-127}.

عقوبة الجاني بمثل ما عوقب به من باب التقوى ، وأكثر ظلم وعدوان، والعفو إحسان ، ولهذا قال:]إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[.

والمعية هنا خاصة مقيدة بصفة: كل من كان من المتقين المحسنين؛ فالله معه.

وهذا يثمر لنا بالنسبة للحالة المسلكية : الحرص على الإحسان والتقوى ؛ فإن كل إنسان يحب أن يكون الله معه.
(2)الآية السادسة: قوله:]واصبروا إن الله مع الصابرين[{الأنفال:46}.

سبق لنا أن الصبر حبس النفس على طاعة الله ، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن التسخط على أقدار الله ؛ سواء باللسان أو بالقلب أو بالجوارح.
وأفضل أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، ثم عن معصية الله لأن فيهما اختياراً : إن شاء الإنسان فعل المأمور، وإن شاء لم يفعل ، وإن شاء ترك المحرم وإن شاء ما تركه ، ثم على أقدار الله ؛ لن أقدار الله واقعة شئت أم أبيت؛ فإما أن تصبر صبر الكرام وإما أن تسلو سلو البهائم.
والصبر درجة عالية لا تنال إلا بشيء يصبر عليه ، أما من فرشت له الأرض وروداً ، وصار الناس ينظرون إلى مايريد ؛ فإنه لا بد أن يناله شيء من التعب النفس أو البدني الداخلي أو الخارجي.
ولهذا جمع الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بين الشكر والصبر.
فالشكر ؛ كان يقوم حتى تتورم قدماه ، فيقول : "افلا أكون عبداً شكوراً؟" [1]
والصبر : صبر على ما أوذي ، فقد أوذي من قومه ومن غيرهم من اليهود والمنافقين، ومع ذلك؛ فهو صابر.
(1)الآية السابعة : قوله:]كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين[{البقرة:249} .
]كم[: خبرية ، تفيد التكثير ؛ يعني: فئة قليلة غلبت فئة كثيرة عدة مرات، أو فئات قليلة متعددة غلبت فئات كثيرة متعددة، لكن لا بحولهم ولا بقوتهم، بل بإذن الله ، أي: بإرادته وقدرته.
ومن ذلك: أصحاب طالوت غلبوا عدوهم وكانوا كثيرين.

([1] تقدم تخريجه ص .

أصحاب بدر خرجوا لغير قتال، بل لأخذ عير أبي سفيان ، وأبو سفيان لما علم بهم؛ أرسل صارخاً إلى أهل مكة يقول: أنقذوا عيركم، محمد وأصحابه خرجوا إلينا يريدون أخذ العير. فيها أرزاق كثيرة لقريش، فخرجت قريش بأشرافها وأعيانها وخيلائها وبطرها، يظهرون القوة والفخر والعزة ، حتى قال أبو جهل: والله ؛ لا ترجع حتى نقدم بدراً فنقيم فيها ثلاثاً ؛ ننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب ؛ فلا يزالون يهابوننا أبداً.
فالحمد لله ، غنوا عل قتله هو ومن معه!
كان هؤلاء القوم ما بين تسعمائة وألف، كل يوم ينحرون من الإبل تسعاً إلى عشر، والنبي عليه الصلاة والسلام هو أصحابه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ، معهم سبعون بعيراً وفرسان فقط يتعاقبونها ، ومع ذلك قتلوا الصناديد العظماء لقريش حتى جيفوا وانتفخوا من الشمس وسحبوا إلى قليب من قلب بدر خبيثة.
فـ]كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين[؛ لأن الفئة القليلة صبرت،]والله مع الصابرين[؛ صبرت كل أنواع الصبر؛ على طاعة الله ، وعن معصية الله، وعلى ما أصابها من الجهد والتعب والمشقة في تحمل أعباء الجهاد،]والله مع الصابرين[.
انتهت آيات المعية، وسيأتي للمؤلف رحمه الله فصل كامل في تقريزها.
فما هي الثمرات التي نستفيدها بأن الله معنا؟
أولاً: الإيمان بإحاطة الله عز وجل بكل شيء ، وأنه مع علوه فهو مع خلقه، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم أبداً.
ثانياً: أننا إذا علمنا ذلك وآمنا به؛ فإن ذلك يوجب لنا كمال مراقبته بالقيام بطاعته وترك معصيته ؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا ، ولا يجدنا حيث نهانا ، وهذه ثمرة عظيمة لمن آمن بهذه المعية.
إثبات الكلام لله تعالى وأن القرآن من كلامه تعالى
(1)ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على كلام الله تعالى وأن القرآن من كلامه تعالى.

الآية الأولى والثانية: قوله:]ومن أصدق من الله حديثاً[{النساء: 87}]ومن أصدق من الله قيلاً[{النساء: 122}.
]ومن[: اسم استفهام بمعنى النفي ، وإتيان النفي بصيغة الإستفهام أبلغ من إتيان النفي مجرداً ؛ لأنه يكون بالاستفهام مشرباً معنى التحدي؛ كأنه يقول : لا أحد أصدق من الله حديثاً ، وإذا كنت تزعم خلاف ذلك؛ فمن اصدق من الله؟
وقوله:]حديثاً[و]قيلاً[: تمييز لـ]اصدق[.
وإثبات الكلام في هاتين الآيتين يؤخذ من: قوله:]أصدق[؛ لأن الصدق يوصف به الكلام ، وقوله:]حديثاً[لأن الحديث هو الكلام، ومن قوله في الآية الثانية:]قيلاً[؛ يعني : قولاً ، والقول لا يكون إلا باللفظ.
ففيهما إثبات الكلام لله عز وجل، وأن كلامه حق وصدق ، ليس فيه كذب بوجه من الوجوه.
(1)الآية الثالثة: قوله:]وإذ قال الله عيسى ابن مريم[{المائدة: 116}.
قوله :]يا عيسى[: مقول القول، وهي جملة من حروف :]يا عيسى ابن مريم[.
ففي هذا إثبات أن الله يقول : وأن قوله مسموع، فيكون بصوت ، وأن قوله كلمات وجمل ، فيكون بحرف.
ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة : أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء ، كيف شاء، بما شاء ، بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين.
"متى شاء" : باعتبار الزمن.
"بما شاء" :باعتبار الكلام؛ يعني: موضوع الكلام من أمر أو نهي أو غير ذلك.
"كيف شاء" : يعني على الكيفية والصفة التي يريدها سبحانه وتعالى. قلنا: إنه بحرف وصوت لا يشبه أصوات المخلوقين.
الدليل على هذا من الآية الكريمة]وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم[: هذا حروف.
وبصوت؛ لأن عيسى يسمع ما قال.

لا يماثل أصوات المخلوقين ؛ لأن الله قال:]ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[{الشورى: 11}.
(1)الآية الرابعة: قوله:]وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً[{الأنعام: 115} .
]كلمة[؛ بالإفراد، وفي قراءة (كلمات) ؛ بالجمع ، ومعناها واحد؛ لأن]كلمة[مفرد مضاف فيعم.
تمت كلمات الله عز وجل على هذين الوصفين: الصدق والعدل، والذي يوصف بالصدق الخبر، والذي يوصف بالعدل الحكم، ولهذا قال المفسرون : صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.
فكلمات الله عز وجل في الأخبار صدق لا يعتريها الكذب بوجه الوجوه ، وفي الأحكام عدل لا جور فيها بوجه من الوجوه.
هنا وصفت الكلمات بالصدق والعدل . إذا ؛ فهي أقوال ؛ لأن القول هو الذي يقال فيه : كاذب أو صادق.
(2)الآية الخامسة : قوله:]وكلم الله موسى تكليماً[{النساء:164}.
]الله[: فاعل ؛ فالكلام واقع منه.
]تكليماً[: مصدر مؤكد ، والمصدر المؤكد –بكسر الكاف-؛ قال العلماء: إنه ينفي احتمال المجاز. فدل على أنه كلام حقيقي؛ لأن المصدر المؤكد ينفي احتمال المجاز.

أرأيت لو قلت : جاء زيد. فيفهم أنه جاء هو نفسه، ويحتمل أن يكون المعنى جاء خبر زيد، وإن كان خلاف الظاهر ، لكن إذا أكدت فقلت: جاء زيد نفسه. أو : جاء زيد. انتفى أحتمال المجاز.
فكلام الله عز وجل لموسى كلام حقيقي ، بحرف وصوت سمعه ، ولهذا جرت بينهما محاورة ؛ كما في سورة طه وغيرها.]منهم من كلم الله[{البقرة:253}.
]منهم[؛أي: من الرسل
]من كلم الله[: الاسم الكريم]الله[فاعل كلم، ومفعولها محذوف يعود على]من[، والتقدير: كلمه الله.
(2)الآية السابعة: قوله: وقوله:]ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه[.

{الأعراف:143}.
أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته ، وذلك لأن الكلام صار حين المجيئ. ، لا سابقاً عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته. فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس ، وإنه لا يتعلق بمشيئته ، وذلك لأن الكلام صار حين المجيئ، لا سابقاً عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته.
فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس ، وإنه لا يتعلق بمشيئته ؛ كما تقوه الأشاعرة.
وفي هذه الآية إبطال زعم من زعم أن موسى فقط هو الذي كلم الله ، وحرف قوله تعالى:]وكلم الله موسى تكليماً[إلى نصب الأسم الكريم؛ لأنه في هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها.
(3)الآية الثامنة: قوله: وقوله:]وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا[.{مريم:52}.

]وناديناه[: ضمير الفاعل يعود إلى الله ، وضمير المفعول يعود إلى موسى؛ أي: نادى الله موسى.
]نجياً[: حال ، وهو فعيل بمعنى مفعول ؛ أي : مناجي.
والفرق بين المناداة والمناجاة أن المناداة تكون للبعيد ، والمناجاة تكون للقريب وكلاهما كلام.
وكون الله عز وجل يتكلم مناداة ومناجاة داخل في قول السلف: "كيف شاء".
فهذه الآية مما يدل على أن الله يتكلم كيف شاء مناداة كان الكلام أو مناجاة.
(1)الآية التاسعة: قوله:]وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين[{الشعراء:10}.
]وإذ نادى[؛ يعني: واذكر إذ نادى.
والشاهد قوله:]ربك موسى[: فسر النداء بقوله:]أن ائت القوم الظالمين[.
فالنداء يدل على أنه بصوت، و]أن ائت القوم الظالمين[: يدل على أنه بحرف.
(2)الآية العاشرة: قوله:]وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة[{الأعراف:22}.

]وناداهما[: ضمير المفعول يعود على آدم وحواء.
]ألم أنهكما عن تلكما الشجرة[: يقرر أنه نهاهما عن تلكما الشجرة ، وهذا يدل على أن الله كلمهما من قبل، وأن كلام الله بصوت وحرف، ويدل على أنه يتعلق بمشيئته ؛ لقوله:]ألم أنهكما[؛ فإن هذا القول بعد النهي، فيكون متعلقاً بالمشيئة.
(1)الآية الحادية عشرة: قوله:]ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين[{القصص:65}.
يعني : واذكر يوم يناديهم، وذلك يوم القيامة ، والمنادي هو الله عز وجل:]فيقول[.
وفي هذه الآية إثبات الكلام من وجهين: النداء والقول.
وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن الله يتكلم بكلام حقيقي، متى شاء ، بما شاء ، بحرف وصوت مسموع، لا يماثل أصوات المخلوقين.
وهذه هي العقيدة السلفية عقيدة أهل السنة والجماعة.

إثبات أن القرآن كلام الله تعالى

ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله. وهذه المسألة وقع فيها النزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السنة ، وحصل بها شر كثير على أهل ، وممن أوذي في الله في ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة، الذي قال فيه بعض العلماء: "إن الله سبحانه وتعالى حفظ الإسلام (أو قال: نصره) بأبي بكر يوم الردة، وبالإمام أحمد يوم المحنة".
والمحنة: هو أن المأمون عفا الله عنا وعنه أجبر الناس على أن يقولوا بخلق القرآن ، حتى إنه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا ، وأكثر العلماء رأوا أنهم في فسحة من الأمر، وصاروا يتأولون:
إما بأن الحال حال إكراه ، والمكره إذا قال الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإنه معفو عنه.
وإما بتنزيل اللفظ على غير ظاهره؛ يتأولون، فيقولون مثلاً: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور؛ هذه مخلوقة . وهو يتأول أصابعه.

أما الإمام أحمد ومحمد بن نوح [1] رحمهما ؛ فأبيا ذلك، وقالا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق . ورايا أن الإكراه في هذا المقام لا يسوغ لهما أن يقولا خلاف الحق؛ لأن المقام مقام جهاد ، والإكراه يقتضي العفو إذا كانت المسألة شخصية؛ بمعنى أن تكون على الشخص نفسه، أما إذا كانت المسألة شخصية ؛ بمعنى أن تكون على الشخص نفسه ، أما إذا كانت المسألة لحفظ شريعة الله عز وجل.

لو قال الإمام أحمد في ذلك الوقت : إن القرآن مخلوق ، ولو بتأويل أو لدفع الإكراه ؛ لقال الناس كلهم : القرآن مخلوق! وحينئذ يتغير المجتمع الإسلامي من أجل دفع الإكراه، لكنه صمم ، فصارت العاقبة له، ولله الحمد.

المهم أن القول في القرآن جزء من القول في كلام الله على العموم ، لكن لما وقعت فيه المحنة، وصار محك النزاع بين المعتزلة وأهل السنة ؛ صار الناس يفردون القول في القرآن بكلام خاص، والمؤلف رحمه الله من الآن ساق الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله في آيات متعددة.

الآية الأولى : قوله:]وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله[{التوبة:6}.

]أحد[: هذه اسم ، و]وإن[: أداة الشرط ، والأسم إذا ولي أداة الشرط ؛ فقد ولي أداة لا يليها إلا الفعل، فاختلف النحويون في هذا: فقال بعضهم: إنه فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده ، وعليه يكون]أحد[فاعل لفعل محذوف ، والتقدير: وإن استجارك أحد من المشركين؛ فأجره، ومثلها:]إذا السماء انشقت.

القول الثاني: وهو قول الكوفيين وهم في الغالب أسهل من البصريين: أن]أحد[فاعل مقدم، والفعل استجارك مؤخر ، ولا حاجة للتقدير.

---

[1] هو محمد بن نـوح المضـروب: العجلي أحد المشـهورين بالسـنة، أثـنى عليه الإمـام أحمد ابن حنبل وامتحن في مسألة خلق القرآن وأخرج من بغداد ومات في طريق خروجه سنة 218-هـ. أنظر: تذكرة الحفاظ 3-826، وسير أعلام النبلاء 15-34 .

القول الثالث: أن ورود الأسماء بعد أدوات الشرط في القرآن كثيراً يدل على عدم امتناعه، وعلى هذا القول يكون الإسم الواقع بعد أداة الشرط مبتدأ مبتدأ إذا كان مرفوعاً، فيكون]أحد[: مبتدأ ، و]استجارك[: خبر المبتدأ.
والقاعدة عندي أن ما كان أسهل من أقوال النحويين؛ فهو المتبع، حيث لا مانع شرعاً من ذلك.
قوله :]استجارك[؛ أي: طلب جوارك، والجوار: بمعنى العصمة والحماية.
]حتى يسمع[:]حتى[: للغاية ؛ والمعنى: إن أحد استجارك ليسمع كلام الله ؛ فأجره حتى سمع كلام الله ؛ أي: القرآن، وهذا بالاتفاق.

وإنما قال:]فأجره حتى يسمع كلام الله[؛ لأن سماع كلام الله عز وجل مؤثر ولا بد كما قال تعالى:]إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[{ق:37}، وكم من إنسان سمع كلام الله فآمن ، لكن بشرط أن يكون يفهمه تماماً.
وقوله :]كلام الله[: أضاف الكلام إلى نفسه ، فقال:]كلام الله[، فدل هذا على أن القرآن كلام الله، وهو كذلك.
وعقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن ؛ يقولون : إن القرآن كلام الله ، منزل ، غير مخلوق منه بدأ ، وإليه يعود.
قولهم : "منزل": دليلة قوله تعالى:]شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن[{البقرة:185} ، وقوله:]إنا أنزلناه في ليلة القدر[{القدر: 1} ، وقوله:]وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً[{الإسراء: 106}.
وقولهم: "غير مخلوق" : دليله: قوله تعالى:]ألا له الخلق والأمر[{الأعراف:54} ؛ فجعل الخلق شيئاً والأمر شيئاً آخر؛ لأن العطف يقتضي المغايرة ، والقرآن من الأمر؛ بدليل قوله تعالى:]وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه

نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا[{الشورى:52}؛ فإذا كان القرآن أمراً ، وهو قسيم للخلق؛ صار غير مخلوق ؛ لأنه لو كان مخلوقاً؛ ما صح التقسيم. وهذا دليل سمعي.
أما الدليل العقلي؛ فنقول: القرآن كلام الله، والكلام ليس عيناً قائمة بنفسها حتى يكون بائناً من الله، ولو كان عيناً قائمة بنفسها بائنة من الله ؛ لقلنا: إنه مخلوق ، لكن الكلام صفة للمتكلم به، فإذا كان صفة للمتكلم به، وكان من الله؛ كان غير مخلوق؛ لأن صفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة.
وأيضاً ؛ لو كان مخلوقاً ؛ لبطل مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار ؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة. لكانت مجرد أشكال خلقت على هذه الصورة لا دلالة لها على معناها؛ كما يكون شكل النجوم والشمس والقمر ونحوها.
وقولهم: "منه بدأ"؛ أي: هو الذي ابتدأ به، وتكلم به أولاً.
والقرآن أضيف إلى الله وإلى جبريل وإلى محمد ، صلى الله عليه وسلم .
مثال الأول: قول الله عز وجل:]فأجره حتى يسمع كلام الله[{التوبة:6} ، فيكون منه بدأ؛ أي: من الله جل جلاله ، ومنه: حرف جر وضمير قدم على عامله لفائدة الحصر والاختصاص.
ومثال الثاني-إضافته إلى جبريل-: قوله تعالى:]إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين[{التكوير : 19-20} .
ومثال الثالث- إضافته إلى محمد عليه الصلاة والسلام -: قوله:]إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر[{الحاقة: 40-41} ، لكن أضيف إليها لأنهما يبلغانه، لا لأنهما ابتدأاه.
وقولهم: "وإليه يعود" : في معناه وجهان:
الأول: أنه كما جاء في بعض الآثار : يسرى عليه في ليلة ، فيصبح الناس ليس بين أيديهم قرآن ؛ لا في صدورهم ، ولا في مصاحفهم ، يرفعه الله عز وجل[1].

---

[1] أخرجه ابن ماجه/ كتاب الفتن/ باب ذهاب القرآن والعلم.

وهذا-والله أعلم-حينما يعرض عنه الناس إعراضاً كلياً؛ لا يتلونه لفظاً ولا عقيدة ولا عملاً ؛ فإنه يرفع ؛ لأن القرآن أشرف من أن يبقى بين يدي أناس هجروه وأعرضوا عنه فلا يقدرونه قدره، وهذا-والله أعلم-نظير هدم الكعبة في آخر الزمان[2] ؛ حيث يأتي رجل من الحبشة قصير أفحج أسود ، يأتي بجنوده من البحر إلى المسجد الحرام، وينقض على الكعبة حجراً حجراً، كلما نقض حجراً ؛ مده للذي يليه . . . . وهكذا يتمادون الأحجار إلى أن يرموها في البحر، والله عز وجل يمكنهم من ذلك، مع أن أبرهة جاء بخيله ورجله وفيله فصمه الله قبل أن يصل إلى المسجد هيبته وعظمته، ولكن آخر الزمان لن يبعث نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، وإذا أعرض الناس عن تعظيم هذا البيت نهائياً ؛ فإنه يسلط عليه هذا الرجل من الحبشة ؛ فهذا نظير فع القرآن . والله أعلم.

الوجه الثاني: في معنى قولهم : "وإليه يعود" : أنه يعود إلى الله وصفاً ؛ أي أنه لا يوصف به أحد سوى الله فيكون المتكلم بالقرآن هو الله عز وجل، وهو الموصوف به.

ولا مانع أن نقول: إن المعنيين كلاهما صحيح.

هذا كلام أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم.

ويرى المعتزلة أن القرآن مخلوق، وليس كلام الله!

ويستدلون لذلك بقول الله تعالى:]الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل[{الزمر:62} ، والقرآن شيء ، فيدخل في عموم قوله:]كل شيء[، ولأنه ما ثم إلا خالق ومخلوق ، والله خالق ، وما سواه مخلوق.

والجواب من وجهين:

الأول : أن القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة من صفات الله ، وصفات الخالق غير مخلوقة.

الثاني: أن مثل هذا التعبير]كل شيء[عام قد يراد به الخاص ؛ مثل قوله تعالى عن ملكة سبأ :]وأوتيت من

([2]) البخاري/ كتاب الحج/ باب قوله تعالى: "جعل الله الكعبة الحرام . . . " ، ومسلم / كتاب الفتن / باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . ." .

كل شيء[{النمل:23}، وقد خرج شيء كثير لم يدخل في ملكها منه شيء؛ مثل ملك سليمان.
فإن قال قائل: هل هناك فرق كبير بين قولنا : إنه منزل ، وقولنا :إنه مخلوق؟
فالجواب : نعم؛ بينهما فرق كبير، جرت بسببه المحنة الكبرى في عصر الإمام أحمد.
فإذا قلنا : إنه منزل. فهذا ما جاء به القرآن ؛ قال الله تعالى:]تبارك الذي نزل الفرقان على عبده[{الفرقان: 1}.
وإذا قلنا: إنه مخلوق. لزم من ذلك:
أولاً: تكذيب للقرآن ؛ لأن الله يقول:]وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا[{الشورى:52}، فجعله الله تعالى موحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كان مخلوقاً ؛ ما صح أن يكون موحى ؛ فإذا كان وحياً لزم ألا يكون مخلوقاً؛ لأن الله هو الذي تكلم به.
ثانياً: إذا قلنا: إنه مخلوق ؛ فإنه يلزم على ذلك إبطال مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار ؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة ؛ لكانت مجرد شكل خلق على هذه الصورة؛ كما خلقت الشمس على صورتها ، والقمر على صورته، والنجم على صورته. . وهكذا ، ولم تكن أمراً ولا نهياً ولا خبراً ولا استخباراً ؛ فمثلاً : كلمة (قل) (لا تقل) (قال فلان) (هل قال فلان) كلها نقوش على هذه الصورة ، فتبطل دلالتها على الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وتبقى كأنها صور ونقوش لا تفيد شيئاً.
ولهذا قال ابن القيم في "النونية" : "إن هذا القول يبطل به الأمر والنهي؛ لأن الأمر كأنه شيء خلق على هذه الصورة دون أن يعتبر مدلوله، والنهي خلق على هذه الصورة دون أن يعتبر مدلوله ، والنهي خلق على هذه الصورة دون أن يقصد مدلوله، وكذلك الخبر والاستخبار".
ثالثاً: إذا قلنا: إن القرآن مخلوق، وقد أضافه إلى نفسه إضافة خلق؛ صح أن نطلق على كل كلام من البشر وغيرهم أنه كلام الله؛ لأن كل كلام الخلق مخلوق، وبهذا التزم أهل الحلول والاتحاد ؛ حيث يقول قائلهم:

وكل كلام في الوجوه كلامه سواء علينا نثره ونظامه
وهذا اللازم باطل، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم.
فهذه ثلاثة أوجه تبطل القول بأنه مخلوق.
والوجه الرابع : أن نقول: إذا جوزتم أن يكون الكلام- وهو معنى لا

يقوم إلا بمتكلم – مخلوقاً ؛ لزمكم أن تجوزوا أن تكون جميع صفات الله مخلوقة ؛ إذ لا فرق ؛ ؛ فقولوا إذا: سمعه مخلوق ، وبصره مخلوق. . . . وهكذا.
فإن أبيتم إلا أن تقولوا: إن السمع معنى قائم بالسامع لا يسمع منه ولا يرى، بخلاف الكلام ؛ فإنه جائز أن الله يخلق أصواتاً في الهواء فتسمع !! قلنا لكم : لو خلق أصواتاً في الهواء، فسمعت ؛ لكان المسموع وصفاً للهواء ، وهذا أنتم بأنفسكم لا تقولوه ؛ فكيف تعيدون الصفة إلى غير موصوفها ؟!
هذه وجوه أربعة كلها تدل على أن القول بخلق القرآن باطل، ولو لم يكن منه إلى إبطال الأمر والنهي والخبر والاستخبار ؛ لكان ذلك كافياً.
(1)الآية الثانية: قوله:]وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[{البقرة:75}.
هذا في سياق قوله تعالى:]أفتطمعون أن يؤمنوا لكم[؛ يعني: لا تطمعون أن يؤمنوا لكم ؛ أي : اليهود.
]فريق منهم[: طائفة منهم، وهم علماؤهم.
]يسمعون كلام الله[: يحتمل أن يراد به القرآن ، وهو ظاهر صنيع المؤلف، فيكون دليلاً على أن القرآن كلام الله . ويحتمل أن يراد به كلام الله تعالى لموسى حين اختار موسى سبعين رجلاً لميقات الله تعالى، فكلمه الله وهم يسمعون ، فحرفوا كلام الله تعالى من بعدما عقلوه وهم يعلمون. ولم أر الاحتمال الأول لأحد من المفسرين.

أيا كان ؛ ففيه إثبات أن كلام الله بصوت مسموع ، والكلام صفة المتكلم ، وليس شيئاً بائناً منه؛ فوجب أن يكون القرآن كلام الله لا كلام غيره.
]ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[:]يحرفونه[: أي : يغيرون معناه.
وقوله: :]من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[:]يحرفونه[هذا أشد في قبح عملهم وجرأتهم على الله سبحانه وتعالى: أن يحرفوا الشيء من بعد ما عقلوه ووصل إلى عقولهم وهم يعلمون أنهم محرفون له؛ لأن الذي يحرف المعنى عن جهل أهون من الذي يحرفه بعد العقل والعلم.
(1)]يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل[{الفتح:15}.
في هذه الآية إثبات أن القرآن كلام الله؛ لقوله:]يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل[.
والضمير يعود على الأعراب الذين قال الله فيهم:]سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم[{الفتح: 15}؛ فهؤلاء أرادوا أن يبدلوا كلام الله ، فيخرجوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن الله تعالى إنما كتب المغانم لقوم معينين ، للذين غزوا في الحديبية ، وأما من تبعوه لأخذ الغنائم فقط؛ فلا حق لهم فيها.
وفي الآية ايضاً إثبات القول لله تعالى ؛ لقوله :]كذلكم قال الله من قبل[.

(1) الآية الرابعة: قوله:]واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته[{الكهف: 27}.

قوله:]ما أوحي إليك[؛ يعني : القرآن ، والوحي لا يكون إلا قولاً ؛ فهو إذا غير مخلوق.

وقوله:]من كتاب ربك[: أضافه إليه سبحانه وتعالى ؛ لأنه هو الذي تكلم به، أنزله على محمد ، صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل الأمين.
]لا مبدل لكلماته[؛ يعني : لا أحد يبدل كلمات الله ، أما الله عز وجل ؛ فيبدل آية مكان آية ؛ كما قال تعالى:]وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون[{النحل: 101}.
وقوله:]لا بمدل لكلماته[: يشمل الكلمات الكونية والشرعية:
أما الكونية: فلا يستثنى منها شيء ، لا يمكن لأحد أن يبدل كلمات الله الكونية: إذا قضي الله على شخص بالموت؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك. إذا قضى الله تعالى بالفقر؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.
إذا قضى الله تعالى بالفقر؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.
إذا قضى الله تعالى بالجدب؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.
وكل هذه الأمور التي تحدث في الكون ؛ فإنها بقوله ؛ لقوله تعالى:]إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون[{يس:82}.
أما الكلمات الشرعية؛ فإنها قد تبدل من قبل أهل الكفر والنفاق، فيبدلون الكلمات: إما بالمعنى، وإما باللفظ إن استطاعوا، أو بهما.

وفي قوله:]لكلماته[دليل على أن القرآن كلام الله تعالى.
(1)الآية الخامسة: قوله:]إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون[{النمل:76}.
الشاهد قوله:]يقص[، والقصص لا يكون إلا قولاً ؛ فإذا كان القرآن هو الذي يقص ؛ فهو كلام الله ؛ لأن الله تعالى هو الذي قص هذه القصص؛ قال الله سبحانه وتعالى لأن الله تعالى هو الذي يقص؛ فهو كلام الله ؛ لأن الله تعالى هو الذي قص هذه القصص؛ قال الله سبحانه وتعالى:]نحن نقص عليك أحسن القصص بما

أوحينا إليك هذا القرآن[{يوسف:3} ، وحينئذ يكون القرآن كلام الله عز وجل.

إثبات أن القرآن منزل من الله تعالى

(2)ذكر المؤلف رحمه الله الآيات التي فيها أن القرآن منزل من الله تعالى:

الآية الأولى : قوله:]وهذا كتاب أنزلناه مبارك[{الأنعام: 155}.

]وهذا كتاب[؛ أي: مكتوب ؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة ، ومكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

وقوله:]مبارك[؛ أي: ذو بركة.

فهو مبارك ؛ لأنه شفاء لما في الصدور ، إذا قرأه الإنسان بتدبر وتفكر ؛ فإنه يشفي القلب من المرض ، وقد قال الله تعالى:]وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين[{الإسراء:82}.

مبارك في اتباعه ؛ إذ به صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة.

مبارك في اثاره العظيمة ؛ فقد جاهد المسلمون به بلاد الكفر ؛ لأن الله يقول :]وجاهدهم به جهاداً كبيراً[{الفرقان:52}، والمسلمون فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها ، ولو رجعنا إليه ؛ لملكنا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها ، ولو رجعنا إليه ؛ لملكنا مشارق الأرض ومغاربها ؛ كما ملكها أسلافنا ، ونسأل الله ذلك.

مبارك في أن من قرأه ؛ فله بكل حرف عشر حسنات ؛ فكلمة (قال) مثلاً فيها ثلاثون حسنة ، وهذا من بركة القرآن ؛ فنحن نحصل خيرات كثيرة لا تحصى بقراءة آيات وجيزة من كلام الله عز وجل.

والحاصل: أن القرآن كتاب مبارك؛ فكل أنواع البركة حاصلة بهذا القرآن العظيم.

والشاهد في قوله:]أنزلناه[.

وثبوت نزوله من الله دليل على أنه كلامه.

(1)الآية الثانية: قوله:]لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرآيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله[{الحشر:21}.

الجبل من أقسى ما يكون ، والحجارة التي منها تتكون الجبال هي مضرب المثل في القساوة ؛ قال الله تعالى:]ثم قست قلوبكم من بعد فهي كالحجارة أو أشد قسوة[{البقرة: 74}، ولو نزل هذا القرآن على جبل ؛ لرأيت هذا الجبل خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

]خاشعاً[؛ أي: ذليلاً.
ومن شدة خشيته لله يكون]متصدعاً[يتفلق ويتفتق.
وهو ينزل على قلوبنا ، وقلوبنا –إلا أن يشاء الله –تضمر وتقسو لا تتفتح ولا تتقبل.
فالذين آمنوا إذا نزلت عليهم الآيات ؛ زادتهم إيماناً، والذين في قلوبهم مرض ؛ تزيدهم رجساً إلى رجسهم؛ والعياذ بالله!
ومعنى ذلك : أن قلوبهم تتصلب وتقسو أكثر وتزداد رجساً إلى رجسها ، نعوذ بالله من ذلك!
وهذا القرآن لو أنزل على جبل ؛ لتصدع الجبل وخشع ؛ لعظمة ما أنزل عليه من كلام الله.
وفي هذا دليل على أن للجبل إحساساً؛ لأنه يخشع ويتصدع ، والأمر كذلك ، قال النبي ، صلى الله عليه وسلم في أحد: "هذا أحد جبل يحبنا ونحبه"[1] .
وبهذا الحديث نعرف الرد على المثبتين للمجاز في القرآن ، والذي يرفعون دائماً علمهم مستدلين بهذه الآية:]فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض[{الكهف:77}؛ يقول: كيف يريد الجدار؟!
فنقول : يا سبحان الله ! العليم الخبير يقول:]يريد أن ينقض[، وأنت تقول : لا يريد ! أهذا معقول؟
فليس من حقك بعد هذا أن تقول : كيف يريد؟!
وهذا يجعلنا نسأل أنفسنا: هل نحن أوتينا علم كل شيء؟
فنجيب بالقول بأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلاً

---

[1] رواه البخاري/ كتاب نزول النبي ، صلى الله عليه وسلم الحجر، ومسلم / كتاب الحج/ باب أحد جبل يحبنا ونحبه.

فقول من يعلم الغيب والشهادة :]يريد أن ينقض[: لا يسوغ لنا أن نعترض عليه ، فنقول : لا إرادة للجدار ! ولا يريد أن ينقض !
وهذا من مفاسد المجاز ؛ لأنه يلزم منه نفي ما أثبته القرآن.
أليس الله تعالى يقول:]تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم[{الإسراء:44}؛ هل تسبح بلا إرادة ؟!
يقول:]تسبح له[: اللام للتخصيص ؛ إذا ؛ هي مخلصة ، وهل يتصور إخلاص بلا إرادة؟! إذا؛ هي تريد وكل شيء يريد لأن الله يقول:]وإن من شيء إلا يسبح[، واظنه لا يخفى علينا جميعاً أن هذا من صيغ العموم ؛ فـ(إن) : نافية بمعنى (ما) ، و]من شيء[: نكرة في سياق النفي ،]إلا يسبح بحمده[، فيعم كل شيء.
فيا أخي المسلم ! إذا رأيت قلبك لا يتأثر بالقرآن ؛ فاتهم نفسك ؛ لأن الله أخبر أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لتصدع، وقلبك يتلى عليه القرآن ، ولا يتأثر. اسأل الله أن يعينني وإياكم.
(1) الآية الثالثة والرابعة والخامسة : قوله:]وإذ بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[{النحل: 101-103} .
قوله عز وجل]وإذا بدلنا آية مكان آية[: قوله:]بدلنا[؛ أي: جعلنا آية مكان آية ، وهذا إشارة إلى النسخ المذكور في قوله تعالى:]ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها[{البقرة:106}، فالله سبحانه إذا نسخ آية ؛ جعل بدلها آية ، سواء نسخها لفظاً ، أو نسخها حكماً.
وقوله :]والله أعلم بما ينزل[: هذه جمله اعتراضية ، وهي من أحسن ما يكون في هذا الموضع ، والمعنى أن تبديلنا للآية ليس سفهاً وعبثاً ، بل هو صادر عن علم بما

يصلح الخلق، فنبدل آية مكان آية؛ لعلمنا أن ذلك أصلح للخلق وأنفع لهم.
وفيها أيضاً فائدة أخرى، وهي أن هذا التبديل ليس من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام. بل هو من الله ، أنزله بعلمه ، وأبدل آية مكان آية بعلمه، وليس منك أيها الرسول.
قال تعالى:]وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أنت بقرآن غير هذا أو بدله[{يونس : 15} ؛ فماذا كان الجواب؟ كان الجواب بأن أجاب عن شيء من كلامهم وترك شيئاً فقال تعالى] قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي[{يونس:15}، ولم يقل : ولا آتي بقرآن غيره . لماذا؟ لأنه قد يأتي بتبديل من عنده، وإذا كان لا يمكنه تبديله؛ فالإتيان بغيره أولى بالامتناع.
فالمهم : أن الذي يبدل آية مكان آية، سواء لفظها أو حكمها ، هو الله سبحانه.
قوله:]إنما أنت مفتر[: الجملة جواب]وإذا[.
قوله:]إنما أنت[: الخطاب هنا لمحمد ، صلى الله عليه وسلم .
قوله:]مفتر[؛ أي: كذاب ، بالأمس تقول لنا كذا ، واليوم تقول لنا كذا ، هذا كذب، بالأمس تقول لنا كذا، واليوم تقول لنا كذا، هذا كاذب ، إنما أنت مفتر!!
لكن هذا القول الذي يقولونه إزاء إتيانه بآية مكان آية هو قول سفه ، ولو أمعنوا النظر ؛ لعلموا علم اليقين أن الذي يأتي بآية مكان آية هو الله سبحانه، وذلك يدل على صدقه ، صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الكذاب يحذر غاية الحذر أن يأتي بكلام غير كلامه الأول؛ لأنه يخشى أن يطلع على كذبه، فلو كان كاذباً كما يدعون أن ذلك من علامة الكذب؛ ما أتى بشيء يخالف الأول؛ لأنه إذا أتى بشيء يخالف الأول على زعمهم تبين كذبه بل إتيانه بما يخالف الأول دليل على صدقه بلا شك.
ولهذا قال هنا:]بل أكثرهم لا يعلمون[، وهذا إضراب إبطالي؛ معناه: بل لست مفترياً ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، ولو أنهم كانوا من ذوي العلم لعلموا أنه إذا

بدلت آية مكان آية فإنما ذلك دليل على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام.
قوله تعالى :]قل نزله روح القدس من ربك بالحق[:
]روح القدس[: هو جبريل، ووصفه بذلك لطهارته من الخيانة عليه الصلاة والسلام. ولهذا قال في آية أخرى]إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش . مطاع ثم أمين[{التكوير:19-20}.
قوله:]من ربك[قال:]من ربك[، ولم يقل : من رب العالمين؛

إشارة إلى الربوبية الخاصة ؛ ربوبية الله للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهي ربوبية أخص الخاصة.
وقوله:]بالحق[: إما أن يكون وصفاً للنازل أو للمنزول به.
فإن كان وصفاً للنازل؛ فمعناه : أن نزوله حق، وليس بكذب.
وإن كان وصفاً للمنزول به؛ فمعناه: أن ما جاء به فهو حق.
وكلاهما مراد ؛ فهو حق من عند الله ، ونازل بالحق.
قال الله تعالى:]وبالحق أنزلناه وبالحق نزل[{الإسراء: 105}.
فالقرآن حق، وما نزل به حق.
قوله:]وهدى وبشرى للمسلمين[؛ أي : هدى يهتدون به، ومناراً يستنيرون به، وبشارة لهم يستبشرون به.
بشارة ؛ لأن من عمل به، واستسلم له كان ذلك دليلاً على أنه من أهل السعادة، قال الله تعالى :]فأما من أعطى وأتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . [{الليل:5-7}.
ولهذا ينبغي للإنسان أن يفرح إذا رأى من نفسه الخير والثبات عليه والإقبال عليه، يفرح ؛ لأن هذه بشارة له؛ فإن الرسول ، صلى الله عليه وسلم لما حدث أصحابه ؛ قال "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار". قالوا أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: "لا ؛ اعملوا ؛ فكل ميسر لما خلق له"، ثم قرأ : :]فأما

من أعطى وأتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى .وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى[{الليل:5-10}.[1]
فإذا رأيت من نفسك أن الله عز وجل قد من عليك بالهداية ، والتوفيق والعمل الصالح ومحبة الخير وأهل الخير ؛ فأبشر؛ فإن في هذا دليلاً على أنك من أهل اليسرى ، الذين كتبت لهم السعادة.
ولهذا قال هنا:]وهدى وبرى للمسلمين[.
قوله:]ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر[؛ قال:]ولقد نعلم[، ولم يقل : لقد علمنا ؛ لأن قولهم هذا يتجدد ، فكان التعبير بالمضارع أولى من التعبير بالماضي ؛ لأنه لو قال : لقد علمنا ؛ لتبادر إلى ذهن بعض الناس أن المعنى : علمنا أنهم قالوا ذلك سابقاً ، لا أنهم يستمرون عليه.
وسبب نزول هذه الآية أن قريشاً قالت: إن هذا القرآن الذي يأتي به محمد ليس من عند ربه، وإنما هو من شخص يعلمه ويقص عليه من قصص الأولين، ويأتي ليقول لنا: هذا من عند الله ! أعوذ بالله!!
ادعوا أنه كلام البشر! والعجيب أنهم يدعون أنه كلام بشر، ويقال لهم: ائتوا بمثله ، ولا يستطيعون!!
وقد أبطل الله افتراءهم هذا بقوله تعالى:]لسان الذي يلحدون إليه أعجمي[، ومعنى]يلحدون[يميلون ؛ لأن قولهم هذا ميل عن الصواب بعيد عن الحق.
والأعجمي : هو الذي لا يفصح بالكلام ، وإن كان عربياً ، والعجمي بدو همزة هو: المنسوب إلى العجم وإن كان يتكلم العربية.
فلسان هذا الذي يلحدون إليه أعجمي لا يفصح بالكلام العربي.
وأما القرآن ؛ فإن الله قال فيه :]وهذا لسان عربي مبين[. بين في نفسه مبين لغيره.
فالقرآن كلام عربي، وهو أفصح الكلام ، كيف يأتي من هذا الرجل الأعجمي، الذي لسانه لا يفصح بالكلام؟!

---
[1] رواه البخاري/ كتاب التفسير/ باب "فأما من أعطى واتقى" ، ومسلم / كتاب القدر / باب كيفية الخلق الآدمي.

والشاهد هو قوله:]والله أعلم بما ينزل[، وقوله :]قل نزله روح القدس من ربك[، وقوله]وهذا لسان عربي مبين[.
وكل هذه تدل على أن القرآن كلام الله تعالى منزل من عنده.
والمؤلف ترك الآية التي بعدها ؛ لأنه ليس فيها شاهد ، ولكنها مفيدة ؛ فنذكرها : قال تعالى:]إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون[{النحل:104-105}.
ومعنى هذه الآية: أن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولا ينتفعون بآياته، والعياذ بالله ؛ فالهداية مسدودة عليهم.
وهذه الحقيقة فيها فائدة كبيرة، وهي: أن من لم يؤمن بآيات الله لا يهديه الله
ومفهوم المخالفة فيها: أن من آمن بآيات الله؛ هداه الله.
مثال ذلك : أننا نجد من لم يؤمن بالآيات ؛ لم يهتد لبيان وجهها ؛ مثل قول بعضهم : يكف ينزل الله إلى السماء الدنيا وهو في العلو؟!
فنقول: آمن تهتد ! فإذا آمنت بأنه ينزل حقيقة علمت أن هذا ليس بمستحيل: لأنه في جانب الله عز وجل، ولا يماثله شيء.
ونجد من يقول في قوله تعالى:]جدارا يريد أن ينقض فاقامه[{الكهف:77}: كيف يريد الجدار؟
فنقول: آمن بأن الجدار يريد أن يتبين لك أن هذا ليس بغريب.
وهذه قاعدة ينبغي أن تكون أساسية عندك، وهي: آمن تهتد!
والذين لا يومنون بآيات الله لا يهديهم الله، ويبقى القرآن عليهم عمى-والعياذ بالله – ولا يستطيعون الاهتداء به، نسأل الله لنا ولكم الهداية.
ما نستفيده من الناحية المسلكية من هذه الآيات:

نستفيد أننا إذا علمنا أن هذا القرآن تكلم به رب العالمين ؛ أوجب لنا ذلك تعظيم هذا القرآن ، واحترامه ، وامتثال ما جاء فيه من الأوامر ، وترك ما فيه من المنهيات والمحذورات ، وتصديق ما جاء فيه من الأخبار عن الله تعالى وعن مخلوقاته السابقة واللاحقة.

إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

ذكر المؤلف رحمه الله آيات إثبات رؤية الله تعالى.

(1) الآية الأولى : قوله:]وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة[{القيامة:22-23}.

قوله:]وجوه يومئذ[؛ يعني بذلك اليوم الآخر.

قوله:]ناضرة[؛ أي: حسنة، من النضارة ؛ بالضاد ، وهي: الحسن، يدل على ذلك قوله تعالى:]فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً[{الإنسان:11} ؛ أي: حسناً في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم. قوله:]إلى ربها ناظرة[:]ناظرة[؛ بالظاء ، من النظر ، وهنا عدي النظر بـ (إلى) الدالة على الغاية، وهو نظر صادر من الوجوه، والنظر الصادر

من الوجوه يكون بالعين ؛ بخلاف النظر الصادر من القلوب ؛ فإنه يكون بالبصيرة والتدبر والتفكر؛ فهنا صدر النظر من الوجوه إلى الرب عز وجل؛ لقوله:]إلى ربها[.

فنفيد الآية الكريمة: أن هذه الوجوه الناضرة الحسنة تنظر إلى ربها عز وجل، فتزداد حسناً إلى حسنها.

وانظر كيف جعل هذه الوجوه مستعدة متهيئة للنظر إلى وجه الله عز وجل؛ لكونها نضرة حسنة متهيئة للنظر إلى وجه الله.

ففي هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى بالأبصار وهذا هو قول أهل السنة والجماعة.

واستدلوا لذلك بالآيات التي ساقها المؤلف ، واستدلوا أيضاً بالأحاديث المتواترة عن النبي ، صلى الله عليه وسلم والتي نقلها عنه صحابة كثيرون ونقلها عن هؤلاء الصحابة تابعون كثيرون ، ونقلها عن التابعين من تابع التابعين كثيرون. وهكذا.

والنصوص فيها قطعية الثبوت والدلالة ؛ لأنها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم المتواترة.
وأنشدوا في هذا المعنى:
مما تواتر حديث من كذب   ومن بنى لله بيتاً واحتسب
ورؤية شفاعة والحوض   ومسح خفين وهذي بعض

فالمراد بقوله: "ورؤية" رؤية المؤمنين لربهم.
وأهل السنة والجماعة يقولون : إن النظر هنا بالبصر حقيقة.
ولا يلزم منه الإدراك ؛ لأن الله تعالى يقول:]لا تدركه الأبصار[{الأنعام:103} ؛ كما أن العلم بالقلب أيضاً لا يلزم منه الإدراك ؛ قال الله تعالى:]ولا يحيطون به علماً[{طه:110}.
ونحن نعلم ربنا بقلوبنا ، لكن لا ندرك كيفيته وحقيقته ، وفي يوم القيامة نرى ربنا بأبصارنا، ولكن لا تدركه أبصارنا.
(1)الآية الثانية: قوله :]على الأرائك ينظرون[{المطففين:23}.
]الأرائك[: جمع أريكة، وهي السرير الجميل المغطى بما يشبه الناموسية.
]ينظرون[: لم يذكر المنظور إليه، فيكون عاماً لكل ما يتنعمون بالنظر إليه.
وأعظمه وأنعمه النظر إلى الله تعالى ؛ لقوله تعالى:]تعرف في وجوههم نضرة النعيم[{المطففين:24}؛ فسياق الآية يشبه قوله:]وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة[؛ فهم ينظرون إلى كل ما يتنعمون بالنظر إليه.
ومنه النظر إلى قرناء السوء يعذبون في الجحيم ؛ كما قال تعالى:]قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول إنك أنك لمن المصدقين إذا متنا وكنا تراباً وعظماً إنا لمدينون قال[أي : لأصحابه:]هل أنتم مطلعون[:]هل[. للتشويق يطلعون على ماذا ؟! على هذا القري،]فاطلع فرءاه في سواء الجحيم[!! أعوذ بالله! رآه في سوائها أي: في أصلها، وقعرها ، سبحان الله هذا في أعلى

عليين ، وهذا في أسفل سافلين ، وينظر إليه مع بعد المسافة العظيمة!
لكن نظر أهل الجنة ليس كنظر أهل الدنيا، هناك ينظر الإنسان في ملكه في الجنة مسيرة ألفي عام ينظر أقصاه كما ينظر أدناه ، من كمال النعيم؛ لأن الإنسان لو كان نظره كنظره في الدنيا ؛ ما استمتع بنعيم الجنة ؛ لأنه ينظر إلى مدى قريب ، فيخفى عليه شيء كثير منه.
اطلع من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، فرآه في سواء الجحيم، قال يخاطبه:]تالله إن كدت لتردين[؛ وهذا يدل على أنه كان دائماً يحاول أن يضله ، ولهذا قال :]إن كدت[، وهذا يدل على أنه كان دائماً يحاول أن يضله ، ولهذا قال :]إن كدت[؛ يعني: إنك قاربت ، و]وإن[هذه المخففة لا الثقيلة ،]ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين[إلى آخر الآيات {الصافات: 54-58}.
أقول : إن الناس سابقاً يمارون في مثل هذا ؛ كيف يكون في أعلى مكان ويخاطب من ينظر إليه ويكلمه في أسفل مكان ؟!
ولكن ظهرت الآن أشياء من صنع البشر ؛ كالأقمار الصناعية، والهواتف التليفزيونية . . . . وغير ذلك ؛ يرى الإنسان م خلالها من يكلمه وينظر إليه وهو بعيد.
مع أنه لا يمكن أن نقيس ما في الآخرة على ما في الدنيا.
إذاً ؛]ينظرون[: عامة: ينظرون إلى الله، وينظرون مالهم من النعيم، وينظرون ما يحصل لأهل النار من العذاب.
إذا قال قائل: هذا فيه إشكال!! كيف ينظرون إلى أهل النار ينكتون عليهم ويوبخونهم ؟!
فنقول : والله ؛ ما أكثر ما أذاق أهل النار أهل الجنة في الدنيا من العذاب والبلاء والمضايقة ، قال الله تعالى:]إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون[: يضحكون سواء في مجالسهم ، أو معهم ،]وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين[؛

أي: انقلبوا متنعمين بأقوالهم،]وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . . . [! قال الله تعالى:]فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . . . [{المطففين: 29-35} ؛ ينظرون إليهم وهم-والعياذ بالله –في سواء الجحيم. إذاً ؛ يكون هذا من تمام عدل الله عز وجل ؛ بأن جعل هؤلاء الذين كانوا يضايقون في دار الدنيا، جعلهم الآن يفرحون بنعمة الله عليهم، ويوبخون هؤلاء الذين في سواء الجحيم.

(1) الآية الثالثة: قوله:]للذين أحسنوا الحسنى وزيادة[{يونس: 26} .

قوله:]للذين[: خبر مقدم.

و]الحسنى[: مبتدأ مؤخر ، وهي الجنة.

]زيادة[: هي النظر إلى وجه الله. هكذا فسره النبي ، صلى الله عليه وسلم : كما ثبت ذلك في "صحيح مسلم"[(1)] وغيره. ففي هذه الآية دليلة على ثبوت رؤية الله من تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أعلم الناس بمعاني القرآن بلا شك ، وقد فسرها بالنظر إلى وجه الله، وهي زيادة على نعيم الجنة.

إذاً ؛ فهي نعيم ليس من جنس النعيم في الجنة؛ لأن جنس النعيم في الجنة نعيم بدن، أنهار ، وثمار ، وفواكه، وأزواج مطهرة . . . . . وسرور القلب فيها تبع، لكن النظر إلى وجه الله نعيم قلب، لا يرى أهل الجنة نعيماً أفضل منه، نسأل الله أن يجعلنا ممن يراه.

وجاء في القرآن مثل هذا:]إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[[النساء: 58]، ولم يقل: إني آمركم.

*** وقوله: "أن تخرج من ذريتـك بعثـاً إلى النـار"؛ أي: مبعوثاً.**

*** والحديث الآخر؛ قال: "يارب! وما بعث النار؟ قـال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون"[(1)].**

قوله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينـه وبينه ترجمان"[(1)].

---

(1) رواه مسلم/ كتاب الإيمان / باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم.

(1) رواه البخاري/ كتاب الرقاق/ باب قوله تعالى]إن زلزلة الساعة شيء عظيم[، ومسلم/ كتاب الإيمان/ باب قوله "يقول الله لآدم اخرج بعث النار".

(1) هذا الحديث[2] في إثبات الكلام أيضاً:

*** قوله: "ما": نافية.**

*** قوله: "من أحد": مبتدأ؛ دخلت عليه (من) الزائدة للتوكيد؛ يعني: ما منكم من أحد.**

*** قوله: "إلا سيكلمه ربه"؛ يعني: هذه حاله؛ سيكلمه الله عز وجل؛ "ليس بينه وبينه ترجمان"، وذلك يوم القيامة.**

*** والترجمان: هو الذي يكون واسطة بين متكلمين مختلفين في اللغة، ينقل إلى أحدهما كلام الآخر باللغة التي يفهمها.**

ويشترط في المترجم أربعة شروط: الأمانة، وأن يكون عالماً باللغة التي يترجم منها، وباللغة التي يترجم إليها، وبالموضوع الذي يترجمه.

*** وفي هذا الحديث من صفات الله: الكلام، وأنه بصوت مسموع مفهوم.**

"الفوائد المسلكية في الحديث الأول: "يقول الله: يا آدم!": فيه بيان أن الإنسان إذا علم بذلك، فإنه يحذر ويخاف أن يكون من التسع مائة والتسعة والتسعين.

وفي الحديث الثاني: يخاف الإنسان من ذلك الكلام الذي يجري بينه وبين ربه عز وجل أن يفتضح بين يدي الله إذا كلمه تعالى بذنوبه فيقلع عن الذنوب، ويخاف من الله عز وجل.

*** * ***

وفي قوله في رقية المريض: "ربنا الله الذي في السماء؛ تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض؛ كما رحمتك في السماء؛ اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع؛ فيبرأ"[1] حديث حسن رواه أبو داود وغيره...

---

[2] رواه البخاري/ كتاب الرقاق/ باب من نوقش الحساب عذب، ومسلم/ كتاب الزكاة [2016].

(1) هـذا الحـديث[1]: في إثبـات العلـو للـه وصـفات أخرى:

*** قولــه: "في رقيــة المــريض": من بــاب إضــافة المصـدر إلى المفعـول؛ يعـني: في الرقيـة إذا قـرأ على المريض.**

*** قوله: "ربنا اللـه الـذي في السـماء": تقـدم الكلام على قوله: "في السماء" في الآيات.**

*** وقوله: "تقـدس اسـمك"؛ أي: طهـر، والاسـم هنـا مفرد، لكنه مضاف، فيشـمل كـل الأسـماء؛ أي: تقدسـت أسماؤك من كل نقص.**

*** "أمـرك في السـماء والأرض": أمـر اللـه نافـذ في السماء والأرض؛ كما قال تعالى:]يدبر الأمر من السـماء إلى الأرض[[السـجدة: 5]، وقـال:]ألا لـه الخلـق والأمر[[الأعراف: 54].**

*** وقوله: "كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض": الكاف هنا للتعليل، والمراد بها التوسل؛ توسـل إلى الله تعالى بجعل رحمتـه في السـماء أن يجعلهـا في الأرض.**

فإن قلت: أليس رحمة الله في الأرض أيضاً؟

قلنا: هـو يقـرأ على المـريض، والمـريض يحتـاج إلى رحمة خاصة يزول بها مرضه.

*** وقوله: "اغفر لنـا حوبنـا وخطايانـا": الغفـر: سـتر الـذنب والتجـاوز عنـه. والحـوب: كبـائر الإثم. والخطايـا: صغائره. هذا إذا جمع بينهما، أما إذا افترقا؛ فهما بمعنى واحـد؛ يعـني: اغفـر لنـا كبـائر الإثم وصـغائر؛ لأن في المغفرة زوال المكروب وحصول المطلوب، ولأن الذنوب قد تحول بين الإنسان وبين توفيقه؛ فلا يوفق ولا يجـاب دعاؤه.**

*** قوله: "أنت رب الطيبين": هذه ربوبية خاصة، وأمـا الربوبية العامة؛ فهو رب كل شيء، والربوبيـة قـد تكـون خاصة وعامة.**

---

(1) أخرجه الإمام أحمد جـ6 ص20، وأبو داود (3892).

واستمع إلى قول السحرة الـذين آمنـوا:]قـالوا آمنـا بـرب العـالمين (121) رب موسـى وهـارون[[الأعـراف: 121-123]؛ حيث عموا ثم خصوا.

واستمع إلى قولـه تعـالى:]إنمـا أمـرت أن اعبـد رب هذه البلدة الـذي حرمهـا ولهـا كـل شـيء[[النمـل: 91]؛ فـ]رب هذه البلدة[: خاص،]وله كل شيء[عام.

*** والطيبون: هم المؤمنون؛ فكل مؤمن؛ فهـو طيب، وهـذا من بـاب التوسـل بهـذه الربوبيـة الخاصـة، إلى أن يستجيب الله الدعاء ويشفي المريض.**

*** قوله: "أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شـفائك على هذا الوجع" هذا الدعاء وما سبقه من باب التوسل.**

*** "أنزل رحمة من رحمتك": الرحمة نوعان:**

- رحمة هي صفة الله؛ فهذه غير مخلوقة وغير بائنة من الله عز وجـل؛ مثـل قولـه تعـالى:]وربـك الغفـور ذو الرحمة[[الكهف: 58]، ولا يطلب نزولها.

- ورحمـة مخلوقـة، لكنهـا أثـر من آثـار رحمـة اللـه؛ فـأطلق عليهـا الرحمـة؛ مثـل قولـه تعـالى في الحـديث القدسي عن الجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء"[1] ز

*** كذلك الشفاء؛ فالله شاف، ومنه الشـفاء؛ فوصـفه الشفاء، وهو فعل من أفعالـه، وهـو بهـذا المعـنى صـفة من صفاته، وأما باعتبار تعديه إلى المريض؛ فهو مخلوق من مخلوقاته؛ فإن الشفاء زوال المرض.**

*** قوله: "فيبرأ": بفتح الهمـزة منصـوباً؛ لأنـه جـواب الدعاء: أنزل رحمة؛ فيبرأ. أما إذا قـرئ بالضـم مرفوعـاً؛ فإنه مستأنف، ولا يتبـع الحـديث، بـل يوقـف عنـد قولـه: "الوجع"، وتكون "فيبرأ": جملة خبريـة تفيـد أن الإنسـان إذا قـرأ بهـذه الرقيـة؛ فـإن المـريض يـبرأ، ولكن الوجـه الأول أحسن بالنصب.**

وقوله : "ألا تـأمنوني وأنـا أمين من في السـماء"[1] حديث صحيح.................

(1) هذا الحديث[2]: في إثبات العلو أيضاً:

---

[1] سبق تخريجه ص290

[2] رواه البخـاري/ كتـاب المغـازي/ بـاب بعث علي بن أبي طـالب إلى اليمن، ومسلم/ كتاب الزكاة.

* قولـه: "ألا تـأمنوني": فيهـا إشـكال لغـوي، وهـو حذف نون الفعل بدون ناصب ولا جازم!!

والجواب عن هذا: إنه إذا اتصلت نون الوقايـة بفعـل الأفعال الخمسة؛ جاز حذف نون الرفع.

* "ألا تأمنوني" أي: إلا تعتبروني أميناً.

* "وأنا أمين من في السماء": والذي في السماء هو اللـه عـز وجـل، وهـو أمينـه عليـه الصـلاة والسـلام على وحيه، وهو سيد الأمناء عليه الصلاة والسـلام، والرسـول والذي ينزل عليه جبريل هو أيضاً أمين:]إنه لقول رسول كريم (19) ذي قوة عند ذي العرش مكين(20) مطــاع ثم أمين[.

* وهذا الحديث له سبب، وهو أن النبي قسم ذهبية بعث بها علي من اليمن بين أربعة نفر، فقـال لـه رجـل: نحن أحق بهـذا من هـؤلاء. فقـال النـبي : "ألا تـأمنوني وأنا أمين من في السماء".

* "ألا": للعـرض؛ كأنـه يقـول: ائمنـوني؛ فـإني أمين من في السماء!

ويحتمل أن تكـون الهمـزة لاسـتفهام الإنكـار، و(لا): نافية.

* والشاهد قوله: "من في السماء"، ونقول فيها مــا قلناه فيما سبق في الآيات.

وقوله : "والعرش فوق المـاء، واللـه فـوق العـرش وهـو يعلم مـا أنت عليـه"[1] حـديث حسـن رواه أبـو داود وغيره...

(1) هذا الحديث[1] في إثبات العلو أيضاً:

* لما ذكـر النـبي عليـه الصـلاة والسـلام المسـافات التي بين السماوات؛ قال: "والعرش فوق الماء".

ويشــهد لهــذا قولــه تعــالى:]وكــان عرشــه على الماء[[هود: 7].

* قال: "والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه": هـو فـوق العـرش، ومـع ذلـك لا يخفى عليـه شـيء من أحوالنا وأعمالنا، بل قـد قـال اللـه تعـالى:]ولقـد خلقنـا

الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه[[ق:16] يعني: الشيء الذي في ضميرك يعلمه الله؛ مع أنه ما بان لأحد.

* وقوله: "وهو يعلم ما أنتم عليه": يفيد إحاطة علم الله بكل ما نحن عليه.

الفائدة المسلكية في هذا الحديث:

إذا آمنا بهذا الحديث؛ فإننا نستفيد منه فائدة مسلكية، وهي تعظيم الله عز وجل، وأنه في العلو، وأنه يعلم ما نحن عليه، فنقوم بطاعته؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا، ولايجدنا حيث نهانا.

* * *

وقوله للجارية: "أين الله؟" قالت: في السماء. قال: "من أنا؟" قالت أنت رسول الله. قال: "اعتقها فإنها مؤمنة"[1] رواه مسلم..

(1) هذا الحديث: في إثبات العلو أيضاً:

* قوله: "أين الله؟": (أين): يستفهم بها عن المكان.

* "قالت: في السماء"؛ يعني: على السماء، أو: في العلو؛ على حسب الاحتمالين السابقين.

- قال "من أنا؟ قال: أنت رسول الله. قال: "اعتقها فإنها مؤمنة".

وعند أهل التعطيل هي بقولها: "في السماء": إذا أرادت أنه في العلو؛ هي كافرة!! لأنهم يرون أن من أثبت أن الله في جهة؛ فهو كافر؛ إذ يقولون: إن الجهات خالية منه.

واستفهام النبي ب(أين) يدل على أن لله مكاناً.

ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تحيط به الأمكنة؛ لأنه أكبر من كل شيء، وأن ما فوق الكون عدم، ما ثم إلا الله؛ فهو فوق كل شيء.

* وفي قوله: "أعتقها؛ فإنها مؤمنة": دليل على أن عتق الكافر ليس بمشروع، ولهذا لا يجزئ عتقه في الكفارات؛ لأن بقاء الكافر عندك رقيقاً؛ فيه نوع حماية وسلطة وإمرأة وتقريب من الإسلام؛ فإذا أعتقته؛ تحرر؛ وإذا تحرر؛ فيخشى منه أن يرجع إلى بلاد الكفر؛ لأن

أصـل الـرق هـو الكفـر، ويبقى معينـاً للكـافرين على المؤمنين.

*** * ***

وقوله ﷺ: "أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت"[1] حديث حسن...........

(1) هذا الحديث[1]: في إثبات المعية:

*** أفاد الحديث معيـة اللـه عـز وجـل، وقـد سـبق في الآيات أن معية الله لا تسـتلزم أن يكـون في الأرض، بـل يمتنع غاية الامتنـاع أن يكـون في الأرض، لأن العلـو من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها أبداً، بـل هي لازمـة لـه سبحانه وتعالى.**

وسبق أيضاً أنها قسمان.

*** وقول الرسول ﷺ: "أفضـل الإيمـان أن تعلم": يـدل على أن الإيمـان يتفاضـل؛ لأنـك أذا علمت أن اللـه معـك حيثما كنت؛ خفت منه عز وجل وعظمته.**

لو كنت في حجرة مظلمة ليس فيها أحد؛ فـاعلم أن اللـه معـك، لافي الحجـرة؛ لكنـه سـبحانه وتعـالى معـك؛ لإحاطته بك علماً وقدرة وسلطاناً وغير ذلـك من معـاني ربوبيته.

---

(1) سبق تخريجه ص 345

فصل
في موقف أهل السنة والجماعة
من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم

ومن أصـول أهـل السـنة والجماعـة [(1)]-سـلامة قلـوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلي الله عليـه وسـلم [(2)]

....

(1) (1) أي اسس عقيدتهم.

(2) (2) قولـه : " سـلامة قلـوبهم وألسـنهم لأصـحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم":

ولم يقـل: وأفعـالهم، لأن الأفعـال متعـذرة بعـد مـوت الصحابة، حتي لـو فـرض أن أحـداً نبش قبـورهم وأخـرج جثثهم، فإن ذلك لا يؤذيهم ولا يضـرهم، لكن الـذي يمكن أن يكـون بعـد مـوت الصـحابة نحـوهم هـو مـا يكـون في القلب وما ينطق به اللسان.

- فمن أصول أهل السنة والجماعـة سـلامة قلـوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلي الله عليـه وسـلم، سـلامة القلب من البغض والغـل والحقـد والكراهـة، وسلامة ألسنتهم من كل قول لا يليق بهم.

فقلـوبهم سـالمة من ذلـك، مملـوءة بـالحب والتقـدير والتعظيم لأصحاب رسـول اللـه صـلي اللـه عليـه وسـلم على ما يليق بهم.

- فهم يحبون أصحاب النبي صلي اللـه عليـه وسـلم، ويفضلونهم على جميع الخلـق، لأن محبتهم من محبـة رسول الله صلي الله عليه وسلم، ومحبـة رسـول اللـه صلي الله عليه وسلم، من محبة الله، وألسـنتهم أيضـاً سالمة من السب والشتم واللعن والتفسـيق والتكفـير وما أشبه ذلك مما يأتي به أهل البدع، فإذا سـلمت من هذا، ملئت من الثنـاء عليهم والترضـي عنهم والـترحم والاستغفار وغير ذلك. وذلك للأمور التالية:

أولاً: أنهم خير القرون في جميع الأمم، كما صـرح بـذلك رسول الله صلي الله عليه وسلم حين قال: " خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم "[(1)].

([1]) رواه البخاري / كتاب فضائل الصحابة، ومسلم /كتاب فضائل الصحابة.

ثانياً: أنهم هو الواسطة بين رسول الله صلي الله عليه وسلم وبين أمته، فمنهم تلقت الأمة عنه الشريعة.
ثالثاً: ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة.
رابعاً: أنهم نشروا الفضائل بين هذه الأمة من الصدق والنصح والأخلاق والآداب التي لا توجد عند غيرهم، ولا يعرف هذا من كان يقرأ عنهم من وراء جدر، بل لا يعرف هذا إلا من عاش في تاريخهم وعرف مناقبهم وفضائلهم وإيثارهم لله ولرسول صلي الله عليه وسلم.

- فنحن نشهد الله عز وجل على محبة هؤلاء الصحابة، ونثني عليهم بألسنتنا بما يستحقون، ونبرأ من طريقين ضالين: طريق الروافض الذين يسبون الصحابة ويغلون في آل البيت، ومن طريق النواصب الذين يبغضون آل البيت، وتري أن لأل البيت إذا كانوا صحابة ثلاثة حقوقة: حق الصحابة، وحق الإيمان، وحق القرابة من رسول الله صلي الله عليه وسلم.
- وقوله: " لأصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم" : سبق أن أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم كل من اجتمع به مؤمناً به ومات على ذلك، وسمي صاحباً، لأنه إذا اجتمع بالرسول صلي الله عليه وسلم مؤمناً به، فقد التزم اتباعه، وهذا من خصائص صحبة الرسول صلي الله عليه وسلم، أما غير الرسول، فلا يكون الشخص صاحباً له حتي يلازمه ملازمة طويلة يستحق أن يكون بها صاحباً.

كما وصفهم الله به في قوله تعالي :) والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنمك رءوف رحيم([1]....

(1) (1) * استدل المؤلف رحمه الله لموقف أهل السنة بقوله: " كما وصفهم الله به في قوله تعالي:) والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ([الحشر: 10]".

- **هذه الآية بعد آيـتين سـابقتين همـا قولـه تعـالي:) للفقـــراء المهـــاجرين الـــذين أخرجـــوا من ديـــارهم وأمـوالهم يبتغـون فضـلاً من اللـه ورضـواناً وينصـرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ([الحشر: 8]، وعلي رأس هؤلاء المهاجرين أبـو بكـر وعمـر وعثمـان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.**
- **ففي قوله :) يبتغـون فضـلاً من اللـه ورضـواناً (: إخلاص النية، وفي قوله:) وينصرون اللـه ورسـوله (: تحقيق العمل، وقوله:) أولئك هم الصادقون (، أي: لم يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة، ولكن عن صدق نية.**
- **ثم قال في الأنصار:) والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبـــون من هـــاجر إليهم ولا يجـــدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسـهم ولـو كـــان بهم خصاصة([الحشـــر : 9] ، فوصـــفهم اللـــه بأوصاف ثلاث:) يحبون من هاجر إليهم (،) ولا يجدون في صـــدورهم حاجـــة ممـــا أوتـــوا (،) ويـــؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(.**
- **ثم قال تعالي بعد ذلك:) والذين جـاءوا من بعـدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمـان ... (الآيـة، وهم التـابعون لهم بإحسـان وتـابعوهم إلي يـــوم القيامـــة، فقـــد أثنـــوا عليهم بـــالأخوة، وبـــأنهم سبقوهم بالإيمان، وسألوا الله أن يجعـل في قلـوبهم غلاً لهم، فكـــل من خـــالف في ذلـــك وقـــدح فيهم ولم يعـرف لهم حقهم، فليس من هـؤلاء الـذين قـال اللـه عنهم:)والذين جاءا من بعدهم يقولون ربنـا أغفـر لنـا ولإخواننا .. (.**
- **ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن قوم يسبون الصـحابة، قـالت: لا تعجبـون ! هـؤلاء قـوم انقطعت أعمـالهم بمـوتهم، فـأحب اللـه أن يجـري أجـرهم بعـد موتهم!!**
- **وقوله:) ولا تجعـل في قلوبنـا غلا للـذين آمنـوا (، ولم يقـل: للـذين سـبقونا بالإيمـان، ليشـمل هـؤلاء السابقين وغيرهم إلي يوم القيامة.**

•) ربنـا إنـك رءوف رحيم(: ولرأفتـك ورحمتـك نسألك المغفرة لنا ولإخواننا الذين سبقون بالإيمان.

(1) (1) * " طاعة " : معطوف على قولـه: " سـلامة " ، أي : من أصـول أهـل السـنة والجماعـة: طاعـة النـبي صلي الله عليه وسلم ... إلخ.

(2) (2) * السب: هو القدح والعيب، فإن كان في غيبة الإنسان، فهو غيبة.

أصحابي[1] فو الـذي نفسـي بيـده [2]لـو أن أحـدكم أنفـق مثل أحـد [3] ذهبـاً مـا بلـغ مـد [4] أحـدهم ولا نصـيفه " [5]

....

(1) (1) * أي: الذين صحبوه، وصحبه النـبي صـلي اللـه عليه وسـلم لا شـك أنهـا تختلـف: صـحبه قديمـة قبـل الفتح، وصحبة متأخرة بعد الفتح.

والرسول عليـه الصـلاة والسـلام كـان يخـاطب خالـد بن الوليـد حين يصـل بينـه وبين عبـد الـرحمن بن عـوف مـا حصل ما المشاجرة في بني جذيمة، فقـال النـبي صـلي الله عليه وسـلم لخالـد: " لا تسـبوا أصـحابي" ، والعـبرة بعموم اللفظ.

ولا شـك أن عبـد الـرحمن بن عـوف وأمثالـه أفضـل من خالـد بن الوليـد رضـي اللـه عنـه من حيث سـبقهم إلي الإسلام، لهذا قال: " لا تسـبوا أصـحابي"، يخـاطب خالـد بن الوليد وأمثاله.

وإذا كان هذا بالنسبة لخالد بن الوليد وأمثاله، فمـا بالـك بالنسبة لمن بعدهم.

(2) (2) * أقسـم النـبي عليـه الصـلاة والسـلام، وهـو الصادق البار بدون قسم : " لو أن أحـدكم أنفـق مثـل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" [1].

(3) (3) * " أحـد " : جبـل عظيم كبـير معـروف في المدينة.

(4) (4) * المد: ربع الصاع.

(5) (5) * " ولا نصـيفه " ، أي نصـفه. قـال بعضـهم: م الطعام ، لأن الذي يقدر بالمد والنصـيف هـو الطعـام،

---

[1] رواه البخاري/ كتاب فضائل الصحابة، ومسـلم/ كتـاب فضـائل الصـحابة/ بـاب تحريم سب الصحابة.

أما الذهب فيوزن، وقال بعضهم: من الذهب ، بقرينة السياق، لأنه قال: " لو أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" ، يعني : من الذهب.

وعلي كل حال ، فإن قلنا : من الطعام، فمن الطعام، وإن قلنا: من الذهب، فليكن من الذهب، ونسبة المد أو نصف المد من الذهب إلي جيل أحد من الذهب لا شيء.

- **فالصحابة رضي الله عنهم إذا أنفق الإنسان مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، والإنفاق واحد، والمنفق واحد، والمنفق عليه واحد، وكلهم بشر، لكن لا يستوي البشر بعضهم مع بعض، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لهم من الفضائل والمناقب والإخلاص والاتباع ما ليس لغيرهم، فإخلاصهم العظيم، واتباعهم الشديد، كانوا أفضل من غيرهم فيما ينفقون.**
- **وهذا النهي يقتضي التحريم، فلا يحل لأحد أن يسب الصحابة على العموم، ولا أن يسب واحداً منهم على الخصوص، فإن سبهم على العموم ، كان كافراً، بل لا شك في كفر من شك في كفره ، أما إن سبهم على سبيل الخصوص، فينظر في الباعث لذلك، فقد يسبهم من أجل أشياء خلقية أو دينية، ولكل واحد من ذلك حكمه.**

***

ويقبلون [1] ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم[2]..........

(1) (1) أي: أهل السنة.

(2) (2) قوله : " ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائهم ومراتبهم":

الفضائل: جمع فضيلة، وهو ما يفضل به المرء غيره ويعد منقبة له.

- **والمراتب: الدرجات، لأن الصحابة درجات ومراتب، كما سيذكرهم المؤلف رحمه الله.**
- **فما جاء من فضائل الصحابة ومراتبهم، فإن أهل السنة والجماعة يقبلون ذلك:**

فمثلاً ما جاء عنهم من كثرة صلاة أو صدقة أو صيام أو حج أو جهاد أو غير ذلك من الفضائل.

ويقبلـون مثلاً مـا جـاء في أبي بكـر رضـي اللـه عنـه أن النبي صلي الله عليه وسلم حث على الصدقة، فجاء أبــو بكر بجميع ماله [1]، وهذه فضيلة.
ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة من أن أبـا بكـر رضـي الله عنه كان وحده صاحب رسـول اللـه صـلي اللـه عليـه وسلم في هجرته في الغار.
ويقبلون ما جاء به النص من قول الرسول عليـه الصـلاة والســلام في أبي بكــر: " إن من أمن النــاس على في ماله وصحبته أبو بك " [2].
وكذلك ما جاء في عمر وفي عثمان وفي على رضي الله عنهم ومـا جـاء في غـيرهم من الصـحابة من الفضـائل، يقبلون هذا كله.
وكذلك المراتب، فيقبلون ما جاء في مراتبهم ، فالخلفاء الراشدين هم القمة في هذه الأمة في المرتبة، وأعلاهم مرتبة أبو بكر، ثم عمر ثم عثمـان ثم علي، كمـا سـيذكره المؤلف.
(1) (1) * دليل ذلك قول تعـالي :) لا يسـتوي منكم من أنفـق من قبـل الفتح وقاتـل أولئـك أعظم درجـة من الذين الـذين أنفقـوا وقـاتلوا وكلا وعـد اللـه الحسـني ([الحديد: 10].
فالذين أنفقـوا وقـاتلوا قبـل صـلح الحديبيـة أفضـل من الذين أنفقوا من بعد وقـاتلوا، وكـان صـلح الحديبيـة في السـنة السادسـة من الهجـرة في ذي ا لقعـدة، فالـذين أسـلموا قبـل ذلـك، وأنفقـوا وقـاتلوا أفضـل من الـذين أنفقوا من بعد وقاتلوا.
• فإذا قال قائل: كيف نعرف ذلك؟
فالجواب: أن ذلك يعرف بتاريخ إسلامهم، كأن نرجـع إلي " الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجـر أو " الاسـتيعاب في معرفـة الأصـحاب" لابن عبـد الـبر أو غـير ذل ك من الكتب المؤلف في الصحابة رضي اللـه عنهم، ويعـرف أ، هذا أسلم من قبل أو أسلم من بعد.

---

[1] رواه أبو داود (1678) ، والترمذي (3675) ، وقال: " حديث حسن صحيح" .
[2] رواه البخاري/ كتبا مناقب الأنصـار / بـاب هجـرة النبي صـلي الله عليه وسـلم وأصحابة إلي المدينة، ومسلم / كتاب فضائل الصحابة.

• وقول المؤلف: " وهو صلح الحديبية " :

- هذا أحد القولين في الآي، وهو الصحيح، ودليله قصة خالد مع عبد الرحمن بن عوف، وقول البراء بن عازب: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. رواه البخاري[1].

- وقيل: المراد فتح مكة، وهو قول كثير من المفسرين أو أكثرهم.

(1) (1) المهاجرون: هم الذين هاجروا إلي المدينة في عهد النبي صلي الله عليه وسلم قبل فتح مكة.

(2) (2) الأنصار: هم الذين هاجر إليهم النبي صلي الله عليه وسلم في المدينة.

• وأهل السنة يقدمون المهاجرين على الأنصار لأن المهاجرين جمعوا بين الهجرة والنصرة، والأنصار أتوا بالنصر فقط.

- فالمهاجرون تركوا أهلهم وأموالهم، وتركوا أوطانهم، وخرجوا إلي أرض هم فيها غرباء، كل ذلك هجرة إلي الله ورسوله، ونصرة لله ورسوله.

- والأنصار أتاهم النبي صلي الله عليه وسلم في بلادهم، ونصروا صلي الله عليه وسلم ، ولا شك أنهم منعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم.

ودليل تقديم المهاجرين: قوله تعالي:) والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين ابتعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ([التوبة : 100]، فقدم المهاجرين على الأنصار، وقوله:) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار([التوبة: 117]، فقدم المهاجرين، وقوله في الفىء:) للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ...([الحشر: 8]، ثم قال:) والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ([الحشر: 9].

(1) (1) * أهل بدر مرتبتهم أعلي من مراتب الصحابة.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب المغازي / باب غزوة الحديبية.

- وبدر مكان معروف، كانت فيه الغـزوة المشـهورة، وكـانت في السـنة الثانيـة من الهجـرة في رمضـان ، وسمي الله تعالي يومها يوم الفرقان.
- وسببها أن النبي صلي الله عليه وسلم سمع أن أبا سفيان قدم بعير من الشـام إلي مكـة، فنـدب أصـحابه من أجـل هـذه العـير فقـط، فانتـدب منهم ثلاث مئـة وبضـعة عشـر رجلاً، معهم سـبعون بعـيراً وفرسـان وخرجوا من المدينة لا يريدون قتالاً، لكن الله عز وجل بحكمته جمع بينهم وبين عدوهم.
- فلما سـمع أبـو سـفيان بـذلك، وأن الرسـول عليـه الصلاة والسلام خـرج إليـه لتلقي العـير، أخـذ بسـاحل البحـر، وأرسـل صـارخاً إلي أهـل مكـة يسـتنجدهم ، فانتـدب أهـل مكـة لـذلك، وخرجـوا بأشـراف همـه وكبرائهم وزعمائهم، خرجـوا على الوصـف الـذي ذكـر الله عز وجل: ﴿ بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سـبيل الله ﴾ [الأنفال: 47].
- وفي أثنـاء ذلـك جـاءهم الخـبر أن أبـا سـفيان نجـا باعير، فتأمروا بينهم في الرجوع، لكن أبا جهـل قـال: واللـه، لا نرجـع حـتي نقـدم بـدراً، فنقيم فيهـا ننحـر الجـزور، ونسـقي الخمـور، وتضـرب علينـا القيـان، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً.
- وهـذا الكلام يـدل على الفخـر والخيلاء والاعـتزاز بالنفس، ولكن وللـه الحمـد كـان الأمـر علي عكس مـا يقـول، سـمعت العـرب بهـزيمتهم النكـراء فهـانوا في نفوس العرب.

قدموا بدراً، والتقت الطائفتـان، وأوحي اللـه تعـالي إلي الملائكـة: ﴿ إني معكم فثبتـوا الـذين آمنـوا سـألقي في قلـوب الـذين كفـروا الـرعب فاضـربوا فـوق الأعنـاق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الـه ورسـوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شـديد العقـاب، ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ [الأنفال: 12-14] .
حصل اللقاء بين الطائفتين، وكانت الهزيمة- ولله الحمد – على المشركين، والنصـر المـبين للمؤمـنين، انتصـروا، وأسـروا منهم سـبعن رجلاً، وقتلـوا سـبعين رجلاً، منهم

أربعة وعشرون رجلاً من كبرائهم وصـناديدهم ، سـحبوا، فألقوا في قليب من قلب بدر خبيثة قبيحة.

- **ثم إن النبي صلي الله عليه وسلم بعد أنتهاء الحرب بثلاثـــة أيـــام ركب ناقتـــه، ووقـــف عليهم يـــدعوهم بأســـمائهم وأســـماء آبـــائهم: " يـــا فلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنـا قـد وجـدنا مـا وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم مـا وعـدكم ربكم حقـاً " . فقـالوا: يـا رسـول اللـه! مـا تكلم من أجسـاد لا أرواح لها؟ فقال: " والذي نفسي بيـده، مـا أنتم بأسـمع لمـا أقول منهم "[1]، والنبي عليـه الصـلاة والسـلام وقـف عليهم توبيخاً وتقريعاً وتندياً ، وهم قد وجدوا مــا وعــد اللــه حقــاً، قــال اللــه تعــالي:) ذلكم فــذوقوه وأن للكافرين عذاب النـار ([الأنفـال:14] ، فوجـدوا النـار من حين مــاتوا وعرفــوا أن الرســول حــق ، ولكن أني لهم التناوش من مكان بعيد.**
- **فأهل بدر الذين جعل الله علي أيـدهم هـذا النصـر المبين والفرقـان الـذي هـاب العـرب بـه رسـول اللـه صـلي اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه ، وكـان لهم منزلـة عظيمـة بعـد هـذا النصـر، اطـل اللـه عليهم، وقـال: " أعملوا ما شـئتم، فقـد غفـرت لكم"[2]، فكـل مـا يقـع منهم من ذنوب، فإنه مغفور، لهم، بسبب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة التي جعلها الله تعالي على أيديهم.**
- **وفي هذا الحديث دليل على أن ما يقع منهم من الكبائر مهما عظم، فهو مغفور لهم.**

- **إما أنهم لا يمكن أن يكفروا بعد ذلك.**
- **وإما أنهم إن قـدر أن أحـدهم كفـر، فسـيوفق للتوبة والرجوع وإلي الإسلام.**

وإيا كـان، ففيـه بشـارة عظيمـة لهم، ولم نعلم أن أحـداً منهم كفر بعد ذلك.

(1) (1) * أصحاب الشجرة هم أصحاب بيعة الرضوان[1].

---

[1] رواه البخاري/ كتاب المغازي / باب قتل أبي جهل.

[2] رواه البخاري/ كتاب الجهاد/ باب الجاسوس. ومسلم (2949).

[1] رواه البخاري/ كتـاب المغـازي/ بـاب غـزوة الحديبيـة، ومسـلم/ كتـاب فضـائل الصحابة.

- وسبب هذه البيعة أن النبي صلي الله عليه وسلم خرج من المدينة إلي مكة يريد العمرة، ومعه أصحابه والهدي، وكانوا نحو ألف وأربع مئة رجل، لا يريدون إلا العمرة، فلما بلغوا الحديبية، وهي مكان قرب مكة، في طريق جدة الآن، بعضها من الحل وبعضها من الحرم، وعلم بذلك المشركون ، منعوا رسول الله صلي الله عليه وسلم وأصحابه، لأنهم يزعمون أنهم أهل البيت وحماة البيت، ﴿ وما كانوا أولياءه إن إولياءه إلا المتقون﴾ [الأنفال: 34]، وجرت بينهم وبينهم مفاوضات.
- وأري الله تعالي من آياته في هذه الغزوة ما يدل على أن الأولي تنازل الرسول صلي الله عليه وسلم وأصحابه لما يترتب على ذلك من الخير والمصلحة، فإن ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام بركت وأبت أن تسير، حتي قالوا: " خلأت القصواء" ، يعني: حرنت وأبت المسير. فقال النبي صلي الله عليه وسلم مدافعاً عنها: " والله ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل". ثم قال : " والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله ، إلا أعطيتهم إياها" [2] .

وجري التفاوض، وأسل النبي صلي الله عليه وسلم عثمان بن عفان، لأن له رهطاً بمكة يحمونه، أرسله إلي أهل مكة، يدعوهم إلي الإسلام، ويخبرهم أن النبي صلي الله عليه وسلم إنما جاء معتمراً للبيت، فشاع الخبر بأن عثمان قد قتل، وكبر ذلك على المسلمين، فدعا النبي صلي الله عليه وسلم إلي البيعة، يبايع أصحابه على أن يقاتلوا أهل مكة الذين قتلوا رسول الله صلي الله عليه وسلم وكانت الرسل لا تقتل، فبايع الصحابة رضي الله عنهم النبي صلي الله عليه وسلم على أن يقاتلوا ولا يفروا إلي الموت. وكان النبي صلي الله عليه وسلم تحت شجرة يبايع الناس، يمد يده فيبايعونه على هذا البيعة المباركة التي قال الله عنها: ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ﴾ [الفتح: 10]،

---

[2] رواه البخاري/ كتاب الشروط / باب الشرط في الجهاد.

وكان عثمان رضي الله عنه غائباً، فبايع النبي صلي اللــه عليه وسلم بيده عن يد عثمان، وقال بيده اليمني: " هذه يد عثمان".
ثم تبين أن عثمان لم يقتل، وصارت الرسل تأتي وتــروح بين رسول الله صـلي اللـه عليـه وسـلم وقـريش، حـتي انتهي الأمر على الصلح الذي صـار فتحـاً مبينـاً للرسـول عليه الصلاة والسلام.

- هؤلاء الذين بايعوا قال الله عنهم:) لقد رضي الله عن المؤمنين إذا يبايعونك تحت الشـجرة فعلم مـا في قلوبهم فـأنزل السـكينة عليهم وأثـابهم فتحـاً قريبـاً ، ومغــانم كثــيرة يأخــذونها وكــان اللــه عزيــزا حكيمــاً ([الفتح 18-19].
- وكان من جملة المبايعين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

فوصفهم الله تعالي بالإيمان، وهذه شهادة من اللـه عـز وجل بأن كل من بايع تحت الشجرة، فهو مـؤمن مرضـي عنه، والنبي عليه الصلاة والسلام قـال: " لا يـدخل النـار أحد بايع تحت الشجرة"، فالرضي ثابت بالقرآن، وانتفــاء دخول النار ثبت بالسنة.

- وقوله النبي صلي الله عليه وسلم: " لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة "، قد يقول قائـل: كيـف نجمـع بينه وبين قوله تعالي:) وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ([مريم:71]؟

فالجمع من أحد وجهين:
الأول: أن يقــال: إن المفســرين اختلفــوا في المــراد بالورود، فقـال بعضـهم: هـو المـرور على الصـراط، لأن هذا نوع ورود بلا شك، كما في قولـه تعـالي:) ولمـا ورد ما ء مدين وجد عليه أمة من الناس يسـقون([القصـص: 23]، ومعلوم أنه لم يـنزل وسـط المـاء، بـل كـان حولـه وقريباً منه، وبناء على هذا، لا إشكال ولا تعارض أصلاً.
والوجــه الثــاني: أن من المفســرين من يقــول: المــراد بــالورود الـدخول، وأنـه مـا من إنسـان إلا ويـدخل النـار، وبناء على هذا القول، فيحمل قوله: " لا يدخل النار أحـد بايع تحت الشجرة". لا يدخلها دخول عذاب وإهانة ، وإنما

يدخلها تنفيذاً للقسم:) وإن منكم إلا واردها(، أو يقال: إن هذا من باب العام المخصوص بأهل بيعة الرضوان.

- **وقوله: " الشجرة ": الشجرة هذه شجرة سدر، وقيل: شجرة سمر، ولا طائل تحت هذا الخلاف، كانت ذات ظل، فجلس النبي صلي الله عليه وسلم تحتها يبايع الناس، وكانت موجودة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رضي الله عنه وأول خلافه عمر، فلما قيل له: إن الناس يختلفون إليها – أي: يأتونها – يصلون عندها، أمر رضي الله عنه بقطعها، فقطعت.**

قال في " الفتح " [1]: " وجدته عند ابن سعد بإسناد صحيح، لكن في " صحيح البخاري" [2] عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: رجعنا من العام المقبل يعني: بعد صلح الحديبية فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله. وهكذا قال المسيب والد سعيد: فلما خرجنا من العام المقبل، نسيناها، فلم نقدر عليها".

وهذا لا ينافي ما ذكره ابن حجر عن ابن سعد، لأن نسيانها لا يستلزم عدمها ولا عدم تذكرها بعد والله أعلم.

وهذه من حسنات عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأننا نظن أن هذه الشجرة لو كانت باقية إلي الآن، لعبدت من دون الله.

(1) (1) أي أهل السنة والجماعة.

- **والشهادة بالجنة نوعان: شهادة معلقة بوصف، وشهادة معلقة بالشخص.**

- **أما المعلقة بالوصف، فأن نشهد لكل مؤمن أنه في الجنة، وكل متق أنه في الجنة، بدون تعيين شخص أو أشخاص.**

وهذه شهادة عامة، يجب علينا أن نشهد بها، لأن الله تعالي أخبر به، فقال تعالي:) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقا

---

[1] " فتح الباري " (7/448).

[2] رواه البخاري/ كتاب المغازي/ باب غزوة الحديبية.

وهـو العزيـز الحكيم ﴿ [لقمـان 8-9]، وقـال: ﴿ وسـارعوا إلي مغفـرة من ربكم وجنـة عرضـها السـموات والأرض أعدت للمتقين ﴿ [آل عمران: 133].

- - وأمـا الشـهادة المعلقـة بشـخص معين، فـأن نشهد لفلان أو لعدد معين أنهم في الجنة.

وهذه شهادة خاصة، فنشهد لمن شهد له الرسول صـلي اللـه عليـه وسـلم، سـواء شـهد لشـخص معين واحـد أو لأشخاص معينين.

(1) (1) * مثال ذلك ما ذكره المؤلف بقوله: " كالعشـرة "، يعني بهم: العشـرة المبشـرين بالجنـة، لقبـوا بهـذا الاسم لأن النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم جمعهم في حديث واحـد وهم: الخلفـاء الأربعـة: أبـو بكـر، وعمـر، وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة ابن عبيد الله، والزبير بن العـوام، وأبـو عبيـدة عـامر ابن الجـراح، وانظـر تراجمهم في المطولات.

وقـد جمـع السـتة الزائـدة عن الخلفـاء الأربعـة في بيت واحد، فاحفظه:

سعيد وسعد وابن عوف وطلحة وعامر فهر والزبير الممدوح

هؤلاء بشـرهم النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم في نسـق واحد، فقال: " أبو بكـر في الجنـة، وعمـر في الجنـة ..."[1]، ولهـذا لقبـوا بهـذا القلب، فيجب أن نشـهد أنهم في الجنة لشهادة النبي صلي الله عليه وسلم بذلك.

(2) (2) ثابت بن قيس رضي الله عنه أحد خطباء النـبي صلي الله عليه وسلم، كان جهوري الصوت، فلما نـزل قوله تعالي: ﴿ يا أيها الـذين آمنـوا لا ترفعـوا أصـواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضـكم لبعض أن تحبـــط أعمـــالكم وأنتم لا تشـــعرون ﴿ [الحجرات:2]، خـاف أن يكـون عملـه وهـو لا يشـعر، فاحتفي في بيته، ففقده النبي عليه الصلاة والسلام، فبعث إليـه رجلاً يسـأله عن اختفائـه فقـال: إن اللـه أنزل قوله: ﴿ يا أيهـا الـذين آمنـوا لا ترفعـوا أصـواتكم

([1]) وراه أحمد (1/187، 188 ، 189)، وأبو داود (4649) ، والترمذي (3748)

فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)، وأنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلي الله عليه وسلم حبط عملي، أنا من أهل النار !! فأتي الرجل إلي النبي صلي الله عليه وسلم فأخبره بما قال ثابت، فقال النبي صلي الله عليه وسلم: " اذهب إليه، فقل له إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة " [1]، فبشره النبي صلي الله عليه وسلم بالجنة.

وغيرهم من الصحابة (1) ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر ثم عمر(2)

....

(1) (1) مثل أمهات المؤمنين، لأنهن في درجة الرسول صلي الله عليه وسلم، ومنهم بلال، وعبد الله بن سلام، وعكاشة بن محصن، وسعد بن معاذ، رضي الله عنهم.

(2) (2) * التواتر: خبر يفيد العلم اليقيني، وهو الذي نقله طائفة لا يمكن تواطؤهم على الكذب.

- **ففي " صحيح البخاري " [2] وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلي الله عليه وسلم، فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان.**
- **وفي " صحيح البخاري" [3] أيضاً آن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول: عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.**

([1] رواه البخاري/ كتاب المناقب، ومسلم/ كتاب الإيمان/ باب مخافة المؤمن أن يحيط عمله.

([2] رواه البخاري/ كتاب فضائل الصحابة/ باب فضل أبي بكر بعد النبي صلي الله عليه وسلم.

([3] رواه البخاري/ كتاب فضائل الصحابة.

فـإذا كـان على رضـي اللـه عنـه يقـول وهـو في زمن خلافته: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، فقد اندحضت حجة الرافضة الذين فضلوه عليهما.

• قوله: " وغيره "، يعني: غـير علي من الصـحابة والتابعين.

• وهذا متفق عليه بين الأئمة.

- وقـال الإمـام مالـك: مـا رأيت أحـداً يشـك في تقديمهما.

- وقال الشافعي: لم يختلف الصحابة والتابعون في تقديم أبي بكر وعمر.

ومن خــرج عن هــذا الإجمــاع، فقــد اتبــع غــير ســبيل المؤمنين.

ويثلثون بعثمان (1) ويربعون بعلي (2) رضي اللــه عنهم كمـا دلت عليـه الآثـار وكمـا أجمـع الصـحابة على تقـديم عثمان في البيعة(3) ....

(1) (1) * " يثلثون " ، يعني: أهل السنة، يجعلون عثمان هو الثالث.

(2) (2) * " ويربعــون " بعلي " أي: يجعلــون عليــاً هــو الرابع.

• وعلي هذا، فأفضل هذه الأمة هؤلاء الأربعة: أبو بكر ، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

(1) (3) * استدل المؤلف لهذا الترتيب بدليلين:

الأول: قوله: " كما دلت عليـه الآثـار " : وقـد سـبق ذكـر شيء منها.

والثاني: قوله: " وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمــان في البيعة " :

فصار في تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما آثــار نقلية، وفيه أيضاً دليل عقلي، وهو إجمـاع الصـحابة على تقــديم عثمــان في البيعــة، فــإن إجمــاعهم على ذلــك يستلزم أن عثمان أفضل من علي، وهو كذلك، لأن حكمة الله عز وجل تأبي أن يولي على خير القرون رجلاً وفيــه من هو أفضل منـه، كمـا جـاء في الأثـر: " كمـا تكونـون يولي عليكم، فخـير القـرون لا يـولي اللـه عليهم إلا من هو خيرهم.

مـع أن بعض أهـل السـنة كـانوا قـد اختلفـوا في عثمـان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسـكتوا أو ربعـوا بعلي (1)، وقدم قوماً علياً (2)، وقوم توقفوا (3).

(1) (1) فيقولـون: أبـو بكـر، ثم عمـر، ثم عثمـان، ويسكتون، أو يقولون: ثم علي.

(2) (2) فقالوا: أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمـان. وهذا رأي من آراء أهل السنة.

(3) (3) فقـالوا: أبـو بكـر، ثم عمـر. وتوقفـوا أيهمـا أفضل: عثمان أو علي؟ وهذا غير الرأي الأول.

- فالآراء أربعة:

- الرأي المشهور: أبو بكر، ثم عمـر، ثم عثمـان، ثم علي.
- الرأي الثاني: أبو بكر، ثم عمـر، ثم عثمـان، ثم السكوت.
- الرأي الثـالث: أبـو بكـر، ثم عمـر، ثم علي، ثم عثمان.
- الرأي الرابع: أبـو بكـر، ثم عمـر، ثم نتوقـف أيهمـا أفضل: عثمان أو على، فهم يقولون: لا نقول: عثمـان أفضل، ولا علي أفضل، لكن لا نـري أحـداً يتقـدم على عثمان وعلي في الفضيلة بعد أبي بكر وعمر.

لكن استقر أمر أهل السـنة على تقـديم عثمـان (1) وإن كانت هذه المسـألة – مسـألة عثمـان وعلي – ليسـت من الأصـول الـتي يضـلل المخـالف فيهـا عنـد جمهـور أهـل السـنة (2) ولكن المسـألة الـتي يضـلل فيهـا مسـألة الخلافة(3) وذلـك أنهم يؤمنـون أن الخليفـة بعـد رسـول الله صلي الله عليه وسلم: أبو بكر، ثم عمـر، ثم عثمـان، ثم على (4) ومن طعن في خلافة أحد من هـؤلاء الأئمـة فهو أضل من حمار أهله(5)...................

(1) (1) هذا الذي استقر عليه أمر أهل السـنة، فقـالوا: أفضـل هـذه الأمـة بعـد نبيهـا: أبـو بكـر، ثم عمـر، ثم عثمـان، ثم علي، علي تـرتيبهم في الخلافـة. وهـو الصواب، كما سبق دليله.

(2) (2) * يعني: المفاضلة بين عثمان وعلي رضي اللـه عنهما ليست من أصول أهل السنة الـتي يضـلل فيهـا المخالف، فمن قـال: إن عليـاً أفضـل من عثمـان، فلا نقـول: إنـه ضـال، بـل نقـول: هـذا رأي من آراء أهـل السنة، ولا نقول فيه شيئاً.

(3) (3) * فيجب أن نقول: الخليفة بعـد نبينـا في أمتـه أبـو بكـر، ثم عمـر ثم عثمـان، ثم علي . ومن قـال إن الخلافة لعلي دون هؤلاء الثلاثة، فهو ضال، ومن قال: إنها لعلي بعد أبي بكر وعمر، فهو ضـال، لأنـه مخـالف لإجماع الصحابة رضي الله عنهم.

(4) (4) وهذا مـا أجمـع عليـه أهـل السـنة في مسـألة الخلافة.

(5) (5) * الــذي يطعن في خلافــة أحــد من هــؤلاء، ويقول: إنه لا يسـتحق الخلافـة! أو: إنـه ممن سـبقه ! فهو أضل من حمار أهله.

وعبر المؤلف بهذا التعبير، لأنه تعبير الإمام أحمـد رحمـه الله، ولا شك أنه أضل من حمار أهله، وإنما ذكر الحمــار، لأنه أبلـد الحيوانـات على الإطلاق، فهـو أقـل الحيوانـات فهماً، فالطعن في خلافـة أحـد من هـؤلاء أو في ترتيبـه طعن الصحابة جميعاً.

- فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسـول اللـه صلي الله عليه وسلم أبو بكر، ثم عمـر، ثم عثمـان، ثم علي، وأنهم في أحقيــة الخلافــة على هــذا الــترتيب، حتي لا نقول: إن هناك ظلماً في الخلافـة، كمـا ادعتـه الرافضــة حين زعمــوا أن أبــا بكــر وعمــر وعثمــان والصــحابة كلهم ظلمــة، لأنهم ظلمــوا على بن أبي طالب، حيث اغتصبوا الخلافة منه.
- أما من بعدهم، فإننا لا نستطيع أن نقـول: إن كـل خليفة استخلفه الله على النـاس، فهـو أحـق بالخلافـة من غيره ، لأن من بعدهم ليسوا في خير القرون، بــل حصــل فيهم من الظلم والانحــراف والفســوق مــا اسـتحقوا بـه أن يـولي عليهم من ليس أحـق بالخلافـة منهم، كمــا قــال اللــه تعــالي: ﴿ وكــذلك نــولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ [الإنعام : 129].

- واعلم أن الـترتيب في الأفضـلية على مـا سـبق لا يعني أن من فضل غيره، فإنه يفضـله في كـل شـىء، بل قد يكون للمفضول فضـيلة لم يشـاركه فيهـا أحـد، وتميز أحد هؤلاء الأربعة أو غـيرهم بمـيزة يفضـل بهـا غيره لا يدل على الأفضـلية المطلقـة، فيجب التفريـق بين الإطلاق والتقييد.

ويحبون أهل بيت رسول الله صلي اللـه عليـه وسـلم(1)

....

(1)* أي: ومن أصول أهل السـنة والجماعـة أنهم يحبـون آل بيت رسـول اللـه صـلي اللـه عليـه وسـلم، يحبـون لأمـرين: للإيمـان، وللقرابـة من رسـول اللـه صـلي اللـه عليه وسلم، ولا يكرهونهم أبداً.

ولكن لا يقولون كما قال الرافضة: كل من أحب أبـا بكـر وعمـر، فقـد أبغض عليـاً، وعلى هـذا فلا يمكن أن تحب علياً حتي نبغض أبا بكر وعمر، وكأ، أبا بكـر وعمـر أعـداء لعلي بن أبي طالب مع أنه تـواتر النقـل عن علي رضـي الله عنه أنه كان يثني عليها على المنبر.

فنحن نقول: إننا نشـهد اللـه على محبـة آل بيت رسـول الله صلي الله عليـه وسـلم وقرابتـه، نحبهم لمحبـة اللـه ورسوله.

- ومن أهـل بيت أزواجـه بنص القـرآن، قـال اللـه تعـالي:) يـا أيهـا النـبي قـل لأزواجـك إن كنتن تـردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تـردن اللـه ورسـوله والـدار الآخـرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجـراً عظيمـاً ، يـا نسـاء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على اللـه يسـيرا، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مـرتين وأعتـدنا لها رزقا كريما، يا نساء النبي لستن كأحـد من النسـاء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الـذي في قلبـه مـرض وقلن قـولاً معروفـاً ، وقـرن في بيـوتكن ولا تـبرجن تـبرج الجاهليـة الأولي وأقمن الصـلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطـيراً ( ] الأحـزاب، 28-

33]، فأهل البيت هنا يدخل فيها أزواج الرسـول عليـه الصلاة والسلام بلا ريب.

- وكـذلك يـدخل فيـه قرابتـه، فاطمـة وعلي والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبـد المطلب وأبنائه.

- فنحن نحيبهم لقرابتهم من رسول اللـه صـلي الله عليه وسلم، ولا يمانهم بالله.

فـإن كفـروا ، فإننـا لا نحبهم، ولـو كـانوا من أقـارب الرسول عليـه الصلاة والسـلام، فـأبو لهب عم الرسـول عليـه الصلاة والسـلام لا يجـوز أن نحبـه بـأي حـال من الأحوال، بل يجب أن نكرهه لكفره ولإيذائه النـبي صـلي الله عليه وسلم ، وكذلك أبو طالب، يجب علينا أن نكرهه لكفره، لكن نحب أفعاله التي أسداها إلي الرسـول عليـه الصلاة والسلام من الحماية والذب عنه.

ويتولونهم (1) ويحفظون فيهم وصية رسول اللـه صـلي الله عليه وسلم (2) حيث قال يـوم غـديرخم : " أذكـركم الله في أهل بيتي " (3)..

(1) (1) أي: يجعلونهم من أوليائهم، والولي: يطلق على عدة معان، يطلق على الصـديق، والقـريب، والمتـولي للأمر، وغير ذلك من المـوالاة والنصـرة، وهنـا يشـمل النصرة والصداقة والمحبة.

(2) (2) أي: عهده الذي عهد به إلي أمته.

(3) (3) هـو اليـوم الثـامن عشـر من ذي الحجـة. وهـذا الغـدير ينسـب إلي رجـل يسـمي (خم)، وهـو في الطريق الذي بين مكـة والمدينـة، قـريب من الجحفـة، نـزل الرسـول عليـه الصلاة والسـلام فيـه مـنزلاً في رجوعـه من حجـة الـوداع، وخطب النـاس، وقـال: " أذكركم الله في أهـل بيـتي"[1] ، ثلاثـاً، يعـني: اذكـروا الله، اذكروا خوفه وانتقامه إن أضعتم حـق آل الـبيت، واذكروا رحمته وثوابه إن قمتم في حقهم.

وقال أيضاً (1) للعباس عمـه وقـد اشـتكي إليـه أن بعض قريش يجفو (2) بني هاشم (3) فقال: " والـذي نفسـي

---

[1] رواه مسـلم / كتـاب فضـائل الصـحابة / بـاب من فضـائل على بن أبي طـالب رضي الله عنه.

بيـــده لا يؤمنـــون حـــتي يحبـــوكم للـــه ولقرابـــتي "(4) ....

(1) (1) * " أيضاً ": مصدر آض يـئيض، أي: رجـع، وهـو مصدر لفعل محذوف، والمعني: عوداً على ما سبق.

(2) (2) " يجفو " يترفع ويكره.

(3) (3) * " هاشم " : هو جد أبي الرسـول صـلي اللـه عليه وسلم .

(4) (4) أقسم صلي الله عليه وسلم أنهم يؤمنون، أي : لا يتم إيمـــانهم، حـــتي يحبـــوكم للـــه، وهـــذا المحبـــة يشاركهم فيها غيرهم من المؤمنين، لأن الواجب على كـــل إنســـان أن يحب كـــل مـــؤمن للـــه، لكن قـــال: " ولقرابتي " : فهذا حب زائد على المحبـة للـه، ويختص به آل البيت قرابة النبي عليه الصلاة والسلام.

- **وفي قول العبـاس: " إن بعض قـريش يجفـو بـني هاشم " : دليل على أن جفـاء آل الـبيت كـان موجـوداً منـذ حيـاة النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم، وذلـك لأن الحسد من طبائع البشر، إلا من عصمه الله عـز وجـل، فكانوا يحسدون آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام على مأمن الله عليهم من قرابة النبي صلي الله عليـه وسلم ، فيجفونهم ولا يقومون بحقهم.**
- **فعقيدة أهل السنة والجماعة بالنسـبة لأل الـبيت: أنهم يحبـــونهم ويتولـــونهم، ويحفظـــون فيهم وصـــية لرسول صـلي اللـه عليـه وسـلم في التـذكير بهم، ولا ينزلونهم فوق منزلتهم، بل يتبرؤون ممن يغلـو فيهم، حتي يوصلوهم إلي حد الألوهية، كما فعل عبد اللـه بن أبي طالب حين قال له: آنت الله ! والقصة مشهورة.**

وقـال صـلي اللـه عليـه وسـلم : " إن اللـه اصـطفي بن إسماعيل(1) ، واصطفي من بني إسماعيل كنانــة (2)ـ ، واصطفي من كنانــة قريشــاً (3)، واصـطفي من قـريش هاشم (4) ، واصطفاني من بـني هاشم* ويتولـون أزواج رسول الله صلي الله عليه وسـلم أمهـات المؤمـنين (5) ويؤمنـــــــون بـــــــأنهن أزواجـــــــه في الآخـــــــرة(6) ....

* رواه مسلم / كتاب الفضائل/ باب فضل نسب النبي صلي الله عليه وسلم.

(1)* " إسماعيل ": هو ابن إبـراهيم الخليـل، وهـو الـذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وقصة في سورة الصافات.
(2)* " كنانة " : هو الأب الرابع عشر الرسول الله صــلي الله عليه وسلم وعلى أله وسلم.
(3)* " قـريش " : هـو الأب الحـادي عشـر لرسـول اللـه صلي الله عليه وسلم، وهو فهر بن مالـك، وقيـل : الأب الثالث عشر، وهو النضر بن كنانة.
(4) * " هاشم " هو الأب الثالث لرسول اللـه صـلي اللـه عليه وسلم.
(5) قوله: " أمهات المؤمنين " : هذه صـفة لــ " أزواج " فـأزواج النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم أمهـات لنـا في الإكـرام والاحـترام والصـلة، قـال تعـالي :) النـبي أولي بالمؤمنين من أنفسـهم وأزواجـه أمهـاتهم ([الأحـزاب: 6]، فنحن نتولاهن بالنصرة والدفاع عنهن واعتقـاد أنهن أفضل أزواج أهـل الأرض، لأنهن زوجـات الرسـول صـلي الله عليه وسلم.
وهـذا دليـل على أن بـني هاشـم مصـطفون عنـد اللـه مختارون من خلقه.
لأحاديث وردت في ذلك، ولقوله تعالي:) الذين يحملـون العـرش ومن حولـه يسـبحون بحمـد ربهم ويؤمنـون بـه ويستغفرون للذين آمنـوا ربنـا وسـعت كـل شـيء رحمـة وعلما فـاغفر للـذين تـابوا واتبعـوا سـبيلك وقهم عـذاب الجحيم ، ربنـا وأدخلهم جنـات عـدن الـتي وعـدتهم ومن صـلح من آبـائهم وأزواجهم وذريـاتهم إنـك أنت العزيـز الحكيم ([غـــافر: 7-8] فقـــال:)وأزوجهم(، فـــأثبت الزوجية لهن بعد دخول الجنة، وهـذا يـدل على أن زوجـة الإنسان في الدنيا تكون زوجته في الآخرة إذا كـانت من أهل الجنة.

(1) (1) " خصوصاً " : مصدر محذوف العامـل، أي: أخص خصوصاً.
(2) (2) * " خديجة بنت خويلد" : تزوجها النبي صلي اللـه عليه وسلم أول ما تزوج، وكان عمـره حينـذاك خمسـاً وعشـرين سـنة، وعمرهـا أربعين سـنة، وكـانت امـرأة

عاقلة، وانتفع بها صلي الله عليه وسلم انتفاعاً كثيراً، لأنها امرأة ذات عقل وذكاء، ولم يتزوج عليها أحداً.

- **فكانت كما قال المؤلف: " أم أكثر أولاده ": البنين والبنات ، ولم يقـل المؤلـف: أم أولاده، لأن من أولاده من ليس منهـا، وهـو إبــراهيم، فإنــه كـان من ماريــة القبطية.**
- **وأولاده الـذين من خديجـة هم ابنـان وأربـع بنـات: القاسـم، ثم عبـد اللـه، ويقـال لـه: الطيب، والطـاهر. وأما البنات، فهن: زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمــة، ثم رقية. وأكبر أولاده القاسم، وأكبر بناته زينب.**

(1) (3) لا شك أنها أول من آمن به، لأن النبي صلي اللـه عليه وسلم لما جاءها وأخبرها بما رأي في غار حــراء، قالت: كلا، والله لا يخزيك الله أبداً. وآمنت به، وذهبت به إلي ورقة بن نوفل، وقصت عليه الخبر، وقـال لـه: إن هـذا النـاموس الـذي كـان يـنزل على موسـي [1]. "الناموس " أي: صاحب السر. فآمن به ورقة.

ولهـذا نقـول: أول من آمن بـه من النسـاء خديجـة، ومن الرجال ورقة بن نوفل.

وعاضده علي أمره (1) وكان لها منه المنزلة العاليـة (2) والصديقة بنت الصـديق رضـي اللـه عنهـا(3) الـتي قـال فيها النبي صلي الله عليه وسلم : " فضـل عائشــة على النســـاء كفضـــل الثريـــد على ســـائر الطعـــام" (4)

....

(1) (1) أي: ســاعده، ومن تــدبر الســيرة، وجــد لأم المؤمنين خديجة رضي اللـه عنهـا من معاضـدة النـبي صلي الله عليه وسلم ما لم يحصل لغيرها من نسائه.

(2) (2) قوله: " وكان لها منه المنزلة العالية" : حتي إنه كـان يـذكرها بعـد موتهـا صـلوات اللـه وسـلامه عليـه، ويرسل بالشيء إلي صديقاتها، ويقـول: " إنهـا كـانت وكانت وكان لي منها ولد" [1]، فكان يثني عليها، وهـذا يدل على معظم منزلتها عند الرسول صلي اللـه عليـه وسلم.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب بدء الوحي، ومسلم / كتاب الإيمان / باب بدء الوحي.

[1] رواه البخاري / كتاب مناقب الأنصار.

(3) (3) أما كونها صديقة، فلكمال تصديقها لرسول الله صلي الله عليه وسلم، وكمال صدقها في معاملته، وصبرها على ما حصل من الأذي في قصة الإفك، ويدلك على صدقها وصدق إيمانها بالله أنه لما نزلت براءتها، قال: إني لا أحمد غير الله. وهذا يدل على كمال إيمانها وصدقها.

وأما كونها بنت الصديق، فكذلك أيضاً، فإن أباها رضي الله عنه هو الصديق في هذه الأمة، بل صديق الأمم كلها، لأن هذه الأمة أفضل الأمم، فإذا كان صديق هذه الأمة، فهو صديق غيرها من الأمم.

(4) (4) قوله: " على النساء ": ظاهره العموم، أي: على جميع النساء.

وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء، أي من أزواجه اللاتي على قيد الحياة، فلا تدخل في ذلك خديجة.

لكن ظاهر الحديث العموم، لأن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: " كمال من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر أفضل النساء مطلقاً.

ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب، لأن فاطمة بلا شك أشرف من عائشة نسباً.

وأما منزلة، فإن عائشة رضي الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء.

وظاهر كلام المؤلف رحمه الله أن هاتين الزوجين رضي الله عنهما في منزلة واحدة، لأنه قال: " خصوصاً خديجة ... والصديقة " ، ولم يقل : ثم الصديقة.

والعلماء اختلفوا في هذه المسألة:

فقال بعض العلماء: خديجة أفضل، لأن لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها.

وقال بعض العلماء: بل عائشة أفضل، لهذا الحديث، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها.

وفصل بعض أهل العلم، فقال: إن لكل منهما مزية لم تلحقها الأخري فيها، ففي أول الرسالة لا شك أن

المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة، ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذلك، وبعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة مالم يحصل لخديجة، فلا يصح أن تفضل إحداهما على الأخري تفضيلاً مطلقاً، بل نقول: هذه أفضل من وجه، وهذه أفضل من وجه، ونكون قد سلكنا مسلك العدل، فلم نهدر ما لهذه من المزية، ولا ما لهذه من المزية، وعند التفصيل يحصل التحصيل. وهما وبقية أزواج الرسول في الجنة معاً.

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهمم(1).............

(1) (1) الروافض: طائفة غلاوة في علي بن أبي طالب وآل البيت، وهم من أضل أهل البدع، وأشدهم كرهاً للصحابة رضي الله عنهم، ومن أراد معرفة ما هم عليه من الضلال، فليقرأ في كتبهم وفي كتب من رد عليهم.

وسموا روافض لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عندما سألوه عن أبي بكر وعمر، فأثني عليهما وقال: هما وزيرا جدي.

أما النواصب، فهم الذين ينصبون العداء لأل البيت، ويقدحون فيهم، ويسبونهم، فهم على النقيض من الروافض.

فالروافض اعتدوا على الصحابة بالقلوب والألسن.

- ففي القلوب يبغضون الصحابة ويكرهونهم، إلا من جعلوهم وسيلة لنيل مآربهم وغلوا فيهم، وهم آل البيت.
- وفي الألسن يسبونهم فيلعنونهم ويقولون : إنهم ظلمة ويقولون : إنهم ارتدوا بعد النبي صلي الله عليه وسلم إلا قليلاً، إلي غير ذلك من الأشياء المعروفة في كتبهم.

وفي الحقيقة إن سب الصحابة رضي الله عنهم ليس جرحاً في الصحابة رضي اله عنهم فقط بل هو قدح في الصحابة وفي النبي صلي الله عليه وسلم وفي شريعة الله وفي ذات الله عز وجل:

_ أما كونه قدحاً في الصحابة، فواضح.

- - وأما كونه قدحاً في رسول الله صلي الله عليه وسلم، فحيث كان أصحابه وأمناؤه وخلفاؤه على أمته من شرار الخلق، وفيه قدح في رسول الله صلي الله عليه وسلم من وجه آخر، وهو تكذيبه فيما أخبر به من فضائلهم ومناقبهم.
- - وأما كونه قدحاً في شريعة الله، فلأن الواسطة بيننا وبين رسول الله صلي الله عليه وسلم في نقل الشريعة هم الصحابة، فإذا سقطت عدالتهم، لم يبق ثقة فيما نقلوه من الشريعة.
- - وأما كونه قدحاً في الله سبحانه، فحيث بعث نبيه صلي الله عليه وسلم في شرار الخلق، واختارهم لصحبته وحمل شريعته ونقلها لأمتهه.
- - فانظر ماذا يترتب من الطوام الكبري على سب الصحابة رضي الله عنهم.
- - ونحن نتبرأ من طريقة هؤلاء الروافض الذين يسبون الصحابة ويبغضونهم، ونعتقد أن محبتهم فرض، وأن الكف عن مساوئهم فرض، وقلوبنا ولله الحمد مملؤة من محبتهم، لما كانوا عليه من الإيمان والتقوي ونشر العلم ونصرة النبي صلي الله عليه وسلم.

ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل (1) ....

(1) (1) يعني: يتبرأ أهل السنة والجماعة من طريقة النواصب.

وهؤلاء على عكس الروافض، الذين يغلون في آل البيت حتي يخرجوهم عن طور البشرية إلي طور العصمة والولاية.

ويمسكون عما شجر بين الصحابة (1) ....

أما النواصب، فقابلوا البدعة، فلما رأوا الرافضة يغلون في آل البيت، قالوا: إذا، نبغض آل البيت ونسبهم، مقابلة لهؤلاء في الغلو في محبتهم والثناء عليهم،

ودائماً يكـون الوسـط هـو خـير الأمـور، ومقابلـة البدعـة ببدعة لا تزيد البدعة إلا قوة.
(1) (1) يعني: عما وقع بينهم من النزاع.

- **فالصحابة رضي الله عنهم وقعت بينهم بعد مقتـل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزاعات، واشـتد الأمـر بعد مقتل عثمان، فوقـع بينهم مـا وقـع، ممـا أدي إلي القتال.**

وهذه القضايا مشـهورة، وقـد وقعت بلا شـك عن تأويـل واجتهــاد كـــل منهم يظن أنـــه على حـــق، ولا يمكن أن نقول: إن عائشة والزبير بن العوام قاتلا علياً رضي اللـه عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطـل، وأن عليـا على حق.
واعتقــادهم أنهم على حــق لا يســتلزم أن يكونــوا قــد أصابوا الحق.
ولكن إذا كــانوا مخطــئين، ونحن نعلم أنهم لن يقــدموا على هذا الأمر إلا عن اجتهاد، فإنه ثبت عن النـبي صـلي الله عليه وسلم أنه: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجـران، وإذا حكم فاجتهـد ثم أخطـأ، فلـه أجـر " [1]، فنقول: هم مخطئون مجتهدون، فلهم أجر واحد.

- **فهذا الذي حصل موقفنـا نحن منـه لـه جهتـان: الجهـة الأولي: الحكم على الفاعـل. والجهـة الثانيـة: موقفنا من الفاعل.**

أما الحكم على الفاعل، فقد سبق، وأن ما ندين الله به أن ما جري بينهم، فهو صـادر عن اجتهـاد، والاجتهـاد إذا وقع فيه الخطأ، فصاحبه معذور مغفور له.

- **وأما موقفنا من الفاعل، فالواجب علينـا الإمسـاك عما شجر بينهم لماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالاً للسب والشــتم والوقيعــة فيهم والبغضــاء بيننــا، ونحن في فعلنا هذا إما آثمون وإما سالمون ولسنا غانمين أبدا.**
- **فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نسكت عما جري بين الصحابة وأن لا نطالع الأخبار أو التـأريخ في هـذه الأمور، إلا المراجعة للضرورة.**

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الاعتصام، ومسلم / كتاب الأقضية.

(1) (1) قسم المؤلف الآثار المروية في مساويهم ثلاثة أقسام:
القسم الأول: ما هو كذب محض لم يقع منهم، وهذا يوجد كثيراً فيما يرويه النواصب في آل البيت وما يرويه الروافض في غير آل البيت.
القسم الثاني: شيء له أصل، ولكن زيد فيه ونقص وغير عن وجهه.
وهذان القسمان كلاهما يجب رده.
القسم الثالث: ما هو صحيح، فماذا نقول فيه؟ بينه المؤلف بقوله:

- **" والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون " .**
- **والمجتهد إن أصاب، فله أجران، وإن أخطأ،فله أجر واحد، لقول النبي صلي الله عليه وآله وسلم : " إذا حكم الحاكم، فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر" [1].**
- **فما جري بين معاوية وعلى رضي الله عنهما صادر عن اجتهاد وتأويل.**

لكن لا شك أن عليا أقرب إلي الصواب فيه من معاوية، بل قد نكاد نجزم بصوابه، إلا إن معاوية كان مجتهداً.

- **ويدل على أن عليا أقرب إلي الصواب أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: ويح عمارا تقتله الفئة الباغية" [2]، فكان الذي قتله أصحاب معاوية، وبهذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة علي الإمام، لكنهم متأولون، والصواب مع علي إما قطعناً وإما ظناً.**

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره(1) ....
(1) (1) وهناك قسم رابع: وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل: فبينه المؤلف بقوله:

---

(1) تقدم تخرجه ص 617.

(2) رواه البخاري/ كتاب الصلاة/ باب التعاون في بناء المسجد. ومسلم / كتاب الفتن.

- **" وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره.**
- **لا يعتقدون ذلك، لقوله صلي الله عليه وسلم : " كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" [3] .**

ولكن الواحد منهم قد يفعل شيئاً من الكبائر، كما حصل من مسطح بن أثاثه وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش في قصة الإفك[1]، ولكن هذا الذي حصل تطهروا منه بإقامة الحد عليهم.

بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة (1) ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر (2) ....

(1) (1) يعني: كغيرهم من البشر، لكن يمتازون عن غيرهم بما قال المؤلف رحمه الله: " ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر".

(2) (2) هذا من الأسباب التي يمحو الله بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التي لم يلحقهم فيها أحد، فهم نصروا النبي عليه الصلاة والسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة الله، فهذه توجب مغفرة ما صدر منهم، ولو كان من أعظم الذنوب، إذا لم يصل إلي الكفر.

- **ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة حين أرسل إلي قريش يخبرهم عن مسير النبي صلي الله عليه وسلم إليهم، حتي أطلع الله نبيه على ذلك، فلم يصلهم الخبر، فاستأذن عمر النبي صلي الله عليه وسلم أن يضرب عنق حطب، فقال النبي صلي الله عليه وسلم: " إنه شهد بدراً، وما يدريك ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: أعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم"[1].**

---

[3] رواه الإمام أحمد في " المسند " (3/198) ، والترمذي (2499).

[1] حديث الإفك، رواه البخاري/ كتاب التفسير، ومسلم/ كتاب التوبة/ باب في حديث الإفك.

[1] سبق تخريجه ص 597.

حتي أنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفـر لمن بعـدهم، لأن لهم من الحسنات التي تمحو السـيئات مـا ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله صلي الله عليه وسلم : أنهم خير القرون، وأن المد من أحـدهم إذا تصـدق بـه، كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم(1)، ثم إن كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منــه (2)، أو أتي بحسـنات تمحـوه (3) . أو غفـر لـه بفضـل سـابقته(4) ....

(1) (1) وذلك في قوله صلي اللـه عليـه وسـلم: " خـبر النـاس قـرني " [2]، وفي قولـه: " لا تسـبوا أصـحابي، فلو الذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحـد ذهبـاً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" [3].

(2) (2) يعني: وإذا تاب منه، ارتفع عنـه وبالـه ومعرتـه، لقوله تعالي:) والذين لا يدعون مع اللـه إلهـا آخـر ولا يقتلـون النفس الـتي حـرم اللـه إلا بـالحق ولا يزنـون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً، ... (إلي قوله:) إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صـاحاً فأولئـك يبـدل اللـه سـيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ([الفرقان: 68-70]، ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له ، فلا يؤثر عليه.

(3) (3) لقوله تعالي :) إن الحسنات يـذهبن السـيئات ([هود: 114].

(4) (4) لقوله تعـالي في الحـديث القدسـي في أهـل بدر: " اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم " .

أو بشفاعة محمد صلي الله عليه وسلم الـذين هم أحـق الناس بشفاعته (1) أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه (2) فإذا كان هذا في الـذنوب المحققـة، فكيـف بـالأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا، فلهم أجـران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور(3). ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضـهم قليـل نـزر مغمـور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم (4)...

([2] سبق تخريجه ص 588.

([3] سبق تخريجه ص 591.

(1) (1) وقد سبق أن النبي صلي الله عليه وسلم يشفع في أمته، والصحابة رضي اللـه عنهم أحـق النـاس في ذلك.

(2) (2) فإن البلاء في الدنيا يكفر الله بـه السـيئات، كمـا أخبر بذلك النبي صلي الله عليه وسلم في قوله: " ما من مسلم يصـيبه أذي من مـرض فمـا سـواه، إلا حـط الله به سيئاته، كما تحط الشـجرة ورقهـا" صـلي اللـه عليه وسلم، والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة.

(3) (3) سبق دليله، فتكون هذه من باب أولي آلا تكـون سبباً للقدح فيهم والعيب.

- فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القـدح في الصحابة، وهي قسمان:

الأول: خاص بهم، وهو مالهم من السوابق والفضائل.

والثاني: عام، وهى التوبة، والحسنات الماحية، وشـفاعة النبي صلي الله عليه وسلم ، والبلاء.

(1) (4) القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل جداً نـزر أقل القليـل، ولهـذا قـال: " مغمـور في جنب فضـائل القوم ومحاسنهم " .

- ولا شك أنه حصل من بعضهم سرقة وشـرب خمـر وقذف وزني بإحصان وزني بغير إحصان، لكن كل هذه الأشـــياء تكـــون مغمـــورة في جنب فضـــائل القـــوم ومحاسنهم، وبعضها أقيم فيه الحدود، فيكون كفارة.

من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجـرة، والنصرة، والعلم النـافع، والعمـل الصـالح(1) ومن نظـر في سيرة القوم بعلم وبصـيرة، ومـا من اللـه عليهم بـه من الفضائل، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعـد الأنبيـاء(2)

....

(1) (1) فكل هـذه منـاقب وفضـائل معلومـة مشـهورة، تغمر كل ما جاء من مساوئ القـوم المحققـة، فكيـف بالمساوئ غير المحققة أو التي كانوا فيهـا مجتهـدين متأولين.

(2) (2) هذا بالإضافة إلي ما ثبت عن النـبي صـلي اللـه عليه وعلي آله وسلم من قوله: " خـير النـاس قـرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلـونهم " أخرجـه البخـاري

ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما [1].

وعلي هذا تثبت خيرتهم على غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر في أجوالهم.

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف في محاسن القوم وما أعطاهم الله من الفضائل، علمت يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، فهم خير من الحواريين أصحاب عيسي، خير من النقباء أصحاب موسي، وخير من الذين آمنوا من نوح ومع هود وغيرهم، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة رضي الله عنهم، والأمر في هذا ظاهر معلوم، لقوله تعالي:

) كنتم خير أمةة أخرجت للناس ([آل عمران: 110] ، وخبرنا الصحابة، ولأن النبي صلي الله عليه وسلم خير الخلق ، فأصحابة خير الأصحاب بلا شك .

هذا عند أهل السنة والجماعة ، أما عند الرافضة، فهم شر الخلق ، إلا من استثنوا منهم.

(1) (1) أي: ما وجد ولا يوجد مثلهم ، لقوله عليه الصلاة والسلام: " خير الناس قرني " فلا يوجد على الإطلاق مثلهم رضي الله عنهم لا سابقاً ولا لاحقاً.

(2) (2) أما كون هذه الأمة خير الأمم، فلقوله تعالي:) كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ([ال عمران: 110] وقوله:) وكذلك جلعناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ([البقرة: 143]، ولأن النبي صلي الله عليه وسلم خير الرسل، فلا جرم أن تكون أمته خير الأمم.

وأما كون الصحابة صفوة قرون الأمة، فلقوله صلي الله عليه وسلم: " خير الناس قرني" [1]، وفي لفظ : " خير أمتي قرني " [2]، والمراد بقرنه: الصحابة، وبالذين يلونهم: التابعون، وبالذين يلونهم: تابعوا التابعين.

---

[1] تقدم تخريجه ص 588.

[1] تقديم تخريجه ص 588.

[2] رواه البخاري/ كتاب فضائل الصحابة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن، وهم وسطه، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتي إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك وجمهور تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية" أ هـ.

وكان أخر الصحابة موتاً أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مئة من الهجرة، وقيل: مئة وعشر.

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " [1]: " واتفقوا على أن أخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلي حدود العشرين ومئتين".

فصل
في كرامة الأولياء

ومن أصول أهل السنة والجماعة: التصديق بكرامات الأولياء (1) ....

(1) (1) كرامات الأولياء مسألة هامة ينبغي أن يعرف الحق فيها من الباطل، هل هي حقيقة ثابتة، أو هي من باب التخيلات؟

فبين المؤلف رحمه الله قول أهل السنة فيها بقوله:

- **" ومن أصول أهل السنة والجماعة : التصديق بكرامات الأولياء".**
- **فمن هم الأولياء؟**

والجواب: أن الله بينهم بقوله: ﴿ إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يونس: 62،63].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " من كان مؤمناً تقياً، كان الله ولياً " .

ليست الولاية بالدعوي والتمني، الولاية إنما هي بالإيمان والتقوي، فلو رأينا رجلاً يقول: إنه ولي ولكنه غير متق لله تعالي، فقوله مردود عليه.

---

[1] فتح الباري: (6/7) .

- أما الكرامات، فهي جمع كرامة، والكرامة أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالي علي يد ولي، تأييداً له، أو إعانة، أو تثبيتاً، أو نصراً للدين.
  - فالرجل الذي أحيا الله تعالي له فرسه، وهو صلة بن أشيم، بعد أن ماتت، حتي وصل إلي أهله، فلما وصل إلي أهله ، قال لابنه : ألق السرج عن الفرس، فإنها عربة! فلما ألقي السرج عنها، سقطتت ميتة. فهذه كرامة لهذا الرجل إعانة له.
  - أما التي لنصرة الإسلام، فمثل الذي جري للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في عبور ماء البحر، وكما جري لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عبور نهر دجلة، وقصتها مشهورة في التاريخ.

فالكرامة أمر خارق للعادة.

أما ما كان على وفق العادة، فليس بكرامة.

- وهذا الأمر إنما يجربه الله علي يد ولي، احترازاً من أمور السحر والشعوذة، فإنها أمور خارقة للعادة، لكنها تجري على يد غير أولياء الله، بل على يد أعداء الله، فلا تكون هذه كرامة.
- وقد كثرت هذه الكرامات التي تدعي أنها كرامات في هؤلاء المشعوذين الذين يصدون عن سبيل الله ، فالواجب الحذر منهم ومن تلاعبهم بعقول الناس وأفكارهم.
- فالكرامة ثابتة بالقرآن والسنة، والواقع سابقاً ولاحقاً.
  - فمن الكرامات الثابتة بالقرآن والسنة لمن سبق قصة أصحاب الكهف، الذين عاشوا في قوم مشركين، وهم قد آمنوا بالله، وخافوا أن يغلبوا على آمرهم، فخرجوا من القرية مهاجرين إلي الله عز وجل، فيسر الله لهم غاراً في جبل، وجه هذا الغار إلي الشمال، فلا تدخل الشمس عليهم فتفسد أبدانهم ولا يحرمون منها، إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وهم في فجوه منه، وبقوا في هذا الكهف ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً، وهم نائمون، يقلبهم الله ذات اليمن وذات الشمال،

في الصـــيف وفي الشـــتاء، لم يـــزعجهم الحـــر، ولم يـؤلمهم الـبرد، مـا جـاعوا ومـا عطشـوا ومـا ملـوا من النوم. فهذه كرامة بلا شك، بقوا هكذا حتي بعثهم الله وقد زال الشرك عن هذه القرية، فسلموا منه.

- ومن ذلك قصة مريم رضي الله عنها، أكرمهـا اللـه حيث أجاءها المخاض إلي جذع النخلة، وأمرهـا اللـه أن تهز بجذعها لتتساقط عليها رطباً جنياً.
- ومن ذلك قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثة، كرامة له، ليتبين له قدرة الله تعـالي، ويـزداد ثباتاً في إيمانه.
- أما في السنة ، فالكرامات كثـيرة، وراجـع (كتـاب الإنبيـاء، بـاب مـا ذكـر عن بن إسـرائيل) في " صـحيح البخاري"، وكتاب " الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- وأما شهادة الواقع بثبوت الكرامـات، فظـاهر، يعلم به المرء في عصره، إما بالمشاهدة، وإما بالأخبار الصادقة.

فمذهب أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء.

- وهناك مـذهب مخـالف لمـذهب أهـل السـنة، وهـو مـــذهب المعتزلـــة ومن تبعهم، حيث إنهم ينكـــرون الكرامات، ويقولون: إنـك لـو أثبت الكرامـات، لا شـتبه السـاحر بـالولي بـالنبي، لأن كـل واحـد منهم يـأتي بخارق.

فيقـال: لا يمكن الالتبـاس، لأن الكرامـة على يـد ولي، والـولي لا يمكن أن يـدعي النبـوة، ولـو ادعاهـا، لم يكن ولياً. آية النبي تكـون على يـد نـبي، والشـعوذة والسـحر على يد عدو بعيد من ولاية الله، وتكون بفعله باسـتعانته بالشـياطين، فينالهـا بكسـبه، بخلاف الكرامـة، فهي من الله تعالي، لا يطلبها الولي يكسبه.

- قال العلماء: كل كرامة لولي، في آية للنـبي الـذي اتبعه، لأن الكرامة شهادة من الله عز وجـل أن طريـق هذا الولي طريق صحيح.

وعلي هذا، ما جري من الكرامات للأولياء من هـذه الأمـة فإنها آيات لرسول الله صلي الله عليه وسلم .

- ولهذا قال بعض العلماء: ما من آية لنبي من الأنبياء السابقين، إلا ولرسول الله صلي الله عليه وسلم مثلها.
- - فأورد عليهم أن الرسول صلي الله عليه وسلم لم يلق في النار فيخرج حياً، كما حصل ذلك لإبراهيم.

فأجيب بأنه جري ذلك لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، كما ذكره المؤرخون عن أبي مسلم الخولاني، وإذا أكرم أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بجنس هذا لأمر الخارق للعادة، دل ذلك على أن دين النبي صلي الله عليه وسلم حق ، لأنه مؤيد بجنس هذه الآية التي حصلت لإبراهيم.

وأورد عليهم أن البحر لم يفلق للنبي صلي الله عليه وسلم، وقد فلق لموسي!

فأجيب بأنه حصل لهذه الأمة فيما يتعلق في البحر شىء أعظم مما حصل لموسي، وهو المشي على الماء، كما في قصة العلاء بن الحضرمي، حيث مشوا على ظهر الماء، وهذا أعظم مما حصل لموسي، مشي على أرض يابسة.

وأورد عليهم أن من آيات عيسي إحياء الموتي، ولم يقع ذلك لرسول الله صلي الله عليه وسلم.

فأجيب بأنه حصل وقع لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، كما في قصة الرجل الذي مات حماره في أثناء الطريق، فدعا الله تعالي أن يحييه، فأحياه الله تعالي.

وأورد عليهم إبراء الأكمة والأبرص.

فأجيب بأنه حصل من النبي صلي الله عليه وسلم أن قتادة بن النعمان لما جرح في أحد، ندرت عينه حتي صارت على خده، فجاء النبي صلي الله عليه وسلم، فأخذها بيده، ووضعها في مكانها، فصارت أحسن عينيه. فهذه من أعظم الآيات.

فالآيات التي كانت للأنبياء السابقين كان م ن جنسها للنبي صلي الله عليه وسلم أو لأمته، ومن أراد المزيد من ذلك، فليرجع إلي كتاب " البداية والنهاية في التاريخ" لابن كثير.

تنبيه:

الكرامـات، قلنـا: إنهـا تكـون تأييـدا أو تثبيتـاً إو إعانـة للشـخص أو نصـراً للحـق، ولهـذا كـانت الكرامـات في التابعين أكثر منها في الصحابة، لأن الصحابة عنـدهم من التثبيت والتأييد والنصـر مـا يسـتغنون بـه عن الكرامـات فإن الرسول صلي الله عليه وسـلم كـان بين أظهـرهم، وأما التابعون، فإنهم دون ذلك، ولـذلك كـثرت الكرامـات في زمنهم تأييداً لهم وتثبيتاً ونصراً للحق الذي هم عليه. ومـــا يجـــري على أيـــديهم من خـــوارق العـــادات (1) ....

" خوارق ": جمع خارق.

- **و " العادات ": جمع عادة.**

والمراد بـ " خوارق العادات" : ما يأتي على خلاف العادة الكونية.

- **وهذه الكرامات لها أربع دلالات:**

أولاً: بيان كمـال قـدره اللـه عـز وجـل، حيث حصـل هـذا الخارق للعادة بأمر الله.

ثانياً: تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي الـتي تفعـل، لأنـه لو كانت الطبيعة هي الـتي تفعـل، لكـانت الطبيعـة على نسق واحد لا يتغير، فـإذا تغـيرت العـادات والطبيعـة، دل على أن للكون مدبراً وخالقاً.

ثالثا: أنها آية للنبي المتبوع كما أسلفنا قريباً.

رابعاً: أن فيها تثبيتاً وكرامة لهذا الولي.

(1) (1) يعني : أن الكرامة تنقسم إلي قسمي: قسـم يتعلـق بـالعلوم والمكاشـفات، وقسـم آخـر يتعلـق بالقدرة والتأثيرت.

- **أما العلوم، فأن يحصل للإنسان من العلوم مـا لا يحصل لغيره.**
- **وأما المكاشفات، فـأن يظهـر لـه من الأشـياء التي يكشف له عنها ما لا يحصل لغيره.**
- **مثال الأول – العلوم : ما ذكر عن أبي بكـر: أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته الحمل، أعلمه الله أنه أنثي [1].**

---

[1] الإصابة في تمييز الصحابة (4/261).

- - ومثال الثاني- المكاشفات - : ما حصل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث كان يخطب الناس يوم الجمعة على المنبر، فسمعوه يقول: يا سارية ! الجبل ! فتعجبوا من هذا الكلام، ثم سألوه عن ذلك ؟

فقال : إنه كشف له عن سارية بن زنيم وهو أحد قواده في العراق ، وأنه محصور من عدوه، فوجهه إلي الجبل، وقال له: يا سارية ! الجبل! فسمع سارية صوت عمر، وانحاز إلي الجبل، وتحصن به[1].

هذه من أمور المكاشفات، لأنه أمر واقع، لكنه بعيد.

- - أما القدرة والتأثيرات، فمثل ما وقع لمرين من هزما لجذع النخل وتساقط الرطب عليها، ومثل ما وقع للذي عنده علم من الكتاب، حيث قال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن يريد إليك طرفك.

كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة (1) وهي موجودة فيها إلي يوم القيامة (2) ....

(1) (1) الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم، ومنها قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة [2]، وموجودة في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم، كقصة أسيد بن حضير [3]، وتكثير الطعام عند بعض الصحابة[4]، وموجودة في التابعين، مثل قصة صلة بن أشيم الذي أحيا الله له فرسه.

يقول شيخ الإسلام في كتاب " الفرقان " : " وهذا باب واسع، قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع، وأما ما نعرفه نحن عياناً ونعرفه في هذا الزمان، فكثير".

(2) (2) الدليل على أنها موجودة إلي يوم القيامة: سمعي وعقلي:

---

[1] البداية والنهاية (7/131).

[2] البخاري/ كتاب الأنبياء/ باب حدث الغار، ومسلم/ كتاب الذكر والدعاء.

[3] البخاري/ كتاب فضائل القرآن، ومسلم / كتاب صلاة المسافرين.

[4] البخاري/ كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم/ كتاب الأشربة.

- أما السمعي، فإن الرسول صلي الله عليه وسلم أخبر في قصة الدجال أنه يدعو رجلاً من الناس من الشباب، يأتي، ويقول له: كذبت ! إنما أنت المسيح الدجال الذي أخبرنا عنك رسول الله صلي الله عليه وسلم، فيأتي الدجال، فيقتله قطعتين، فيجعل واحدة هنا وواحدة هنا رمية الغرض (يعني: بعيد ما بينهما) ، ويمشي بينهما، ثم يدعوه، فيقوم يتهلل، ثم يدعوه ليقر له بالعبودية، فيقول الرجل: ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم ! فيريد الدجال أن يقتله، فلا يسلط عليه [1].

فهذه أي: عدم تمكن الدجال من قتل ذلك الشاب من الكرامات بلا شك.

- وأما العقلي، فيقال: ما دام سبب الكرامة هي الولاية، فالولاية لا تزال موجودة إلي قيام الساعة[2].

فصل
في طريقة أهل السنة العملية

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار الرسول صلي الله عليه وسلم(1).............

(1) (1) لما فرغ المؤلف مما يريد ذكره من طريقة أهل السنة العقدية، شرع في ذكر طريقتهم العملية.

- قوله: " اتباع الآثار" : لا اتباع إلا بعلم ، إذاً، فهم حريصون على طلب العلم، ليعرفوا آثار الرسول صلي الله عليه وسلم ثم يتبعونها آثار الرسول صلي الله عليه وسلم في العقيدة والعبادة والأخلاق والدعوة إلي الله تعالي، يدعون عباد الله إلي شريعة الله في كل مناسبة، وكلما اقتضت الحكمة أن يدعوا إلي الله، دعوا إلي الله، ولكنهم لا يخبطون خبط عشواء، وإنما يدعون بالحكمة، يتبعون آثار الرسول عليه الصلاة والسلام في الأخلاق الحميدة في معاملة الناس باللطف واللين، وتنزيل كل إنسان منزلته، يتبعونه أيضاً في أخلاقه مع أهله، فتجدهم يحرصون على أن

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الفتن/ باب لا يدخل الدجال المدينة. ومسلم/ كتاب الفتن/ باب في صفة الدجال.

[2] انظر جـ 7 ص 135 من هذا الكتاب.

يكونوا أحسن الناس لأهليهم، لأ، النبي صلي الله عليه وسلم يقول: " خيركم لأهله، وأنا خيرم لأهلي "[1].
ونحن لا نستطيع أن نحصر آثار الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن نقول على سبيل الإجمال في العقيدة والعبادة والخلق والدعوة: في العبادة لا يتشددون ولا يتهاونون ويتبعون ما هو أفضل.
وربما يشتغلون عن العبادة بمعاملة الخلق للمصلحة، كما كان الرسول يأتيه الوفود يشغلونه عن الصلاة، فيقضيها فيما بعد.
باطناً وظاهراً (1) ....
(1) (1) قوله: " باطناً وظاهراً " : الظهور والبطون أمر نسبي: ظاهراً فيما يظهر للناس ، وباطناً فيما يسرونه بأنفسهم. ظاهراً في الأعمال الظاهرة، وباطناً في أعمال القلوب.........
فمثلاً، التوكل والخف والرجاء والإنابة والمحبة وما أشبه ذلك، هذا من أعمال القلوب، يقومون بها على الوجه المطلوب، والصلاة فيها القيام والقعود والركوع والسجود والصدقة والحج، والصيام، وهذه من أعمال الجوارح، فهي ظاهرة.
- **ثم أعلم أن آثار الرسول صلي الله عليه وسلم تنقسم إلي ثلاثة أقسام أو أكثر:**

أولاً: ما فعله على سبيل التعبد، فهذا لا شك أننا مأمورون باتباعه، لقوله تعالي:﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنه ﴾ [الأحزاب: 21]، فكل شىء لا يظهر فيه أنه فعله تأثراً بعادة أو بمقتضي جبلة وفطرة أو حصل اتفاقاً، فإنه علي سبيل التعبد، ونحن مأمورون به.
ثانياً : ما فعله اتفاقاً ، فهذا لا يشرع لنا التأسي فيه، لأنه غير مقصود ، كما لو قال قائل : ينبغي أن يكون قدومنا إلي مكة في الحج في اليوم الرابع من ذي الحجة ! لأن الرسول صلي الله عليه وسلم قدم مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة [1].

---

[1] رواه الترمذي (3895) ، والدارمي (2177) ، وابن ماجه (1977) .
[1] كما رواه الإمام أحمد في " المسند " (3/366).

فنقول: هذا غـير مشـروع، لأن قدومـه صـلي اللـه عليـه وسلم في هذا اليوم وقع اتفاقاً.
ولو قائـل قـال: ينبغي إذا دفعنـا من عرفـة ووصـلنا إلي الشعب الذي نزل فيـه صـلي اللـه عليـه وسـلم وبـال أن ننزل ونبول ونتوضأ وضوء خفيفاً كما فعـل النـبي صـلي الله عليه وسلم ! فنقول: هذا لا يشرع.
وكـذلك غيرهـا من الأمـور الـتي وقعت اتفاقـاً، فإنـه لا يشرع التأسي فيـه بـذلك ، لأنـه صـلي اللـه عليـه وسـلم فعله لا علي سبيل القصد للتعبد، والتأسي به تعبد.
ثالثاً: ما فعله بمقتضي العادة، فهـل يشـرع لنـا التأسـي به؟
الجـواب: نعم، ينبغي لنـا أن نتأسـي بـه، لكن بجنسـه لا بنوعه.
وهذه المسألة قل من يتفطن لها من الناس، يظنون أن التأسي به فيما هو علي سبيل العادة بـالنوع، ثم ينفـون التأسي به في ذلك.
ونحن نقول: نتأسي به، لكن باعتبـار الجنس، بمعـني أن نفعل ما تقتضيه العـادة الـتي كـان عليهـا النـاس، إلا أن يمنع ذلك مانع شرعي.
رابعاً: ما فعله بمقتضي الجبلة، فهـذا ليس من العبـادات قطعاً، لكن قد يكون عبادة من وجه، بأن يكون فعله على صفة معينة عبـادة: كـالنوم، فإنـه بمقتضـي الجبلـة، لكن يسن أن يكون فعله على صفة معينة عبادة: كالنوم، فإنه بمقتضي الجبلة، لكن يسن أن يكون على اليمين، والأكل والشرب جبلة وطبيعـة، ولكن قـد يكـون عبـادة من جهـة أخري، إذا قصد به الإنسان امتثال أمر الله والتنعم بنعمه والقوة على عبادته وحفظ البدن، ثم إن صفة أيضاً تكون عبادة كالأكل باليمين، والبسملة عنـد البـداءة، والحمدلـة عند الانتهاء.
وهنا نسأل: هل اتخاذ الشعر عادة أو عبادة؟
يري بعض العلماء أنه عبـادة، وأنـه يسـن للإنسـان اتخـاذ الشعر.
ويـري آخـرون أن هـذا من الأمـور العاديـة، بـدليل قـول الرسول صلي الله عليه وسلم الـذي رآه قـد حلـق بعض

رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك، وقال: " احلقوا كله أو ذورا كلـه " [1]**، وهـذا يـدل على أن اتخـاذ الشـعر ليس بعبادة، وإلا، لقال: أبقه، ولا تحلق منه شيئاً!**

وهذه المسـألة ينبغي التثبت فيهـا، ولا يحكم على شـيء بأنه عبادة، إلا بدليل، لأن الأصل في العبـادات المنـع، إلا ما قام الدليل على مشروعيته.

وأتبـــاع (1) ســـبيل الســـابقين (2) الأولين (3) من المهاجرين(4) والأنصار(5) ....

(1) (1) أي: ومن طريقة أهل السنة اتباع ... الخ، فهي معطوفة على " اتباع الآثار".

(2) (2) يعني: إلي الأعمال الصالحة.

(3) (3) يعني: من هذه الأمة.

(4) (4) المهاجرون: من هاجروا إلي المدينة.

(5) (5) الأنصار: أهل المدينة في عهد النبي صلي الله عليه وسلم.

- **وإنمـا كـان اتبـاع سـبيلهم من منهج أهـل السـنة والجماعـــة، لأنهم أقـــرب إلي الصـــواب والحـــق ممن بعدهم، وكلما بعـد النـاس عن عهـد النبـوة، بعـدوا من الحق، وكلما قـرب النـاس من عهـد النبـوة، قربـوا من الحق، وكلما كان الإنسـان أحـرص على معرفـة سـيرة النبي صلي الله عليه وسلم وخلفائـه الراشـدين، كـان أقرب إلي الحق.**

ولهذا تري اختلاف الأمة بعد زمن الصحابة والتابعين أكثر انتشاراً وأشمل لجميع الأمـور، لكن الخلاف في عهـدهم كان محصوراً.

فمن طريقة أهل السنة والجماعة أن ينظروا في سـبيل السـابقين الأولين من المهـاجرين والأنصـار، فيتبعوهـا، لأن اتباعهـا يـؤدي إلي محبتهم، مـع كـونهم أقـرب إلي الصواب والحق، خلافاً لمن زهد في هذه الطريقة، وصار يقـول: هم رجـال ونحن رجـال ! ونحن رجـال! لا يبـالي بخلافهم!! وكـأن قـول أبي بكـر وعمـر وعثمـان وعلي كقـول فلان وفلان من أواخـر هـذه الأمـة !! وهـذا خطـأ وضلال، فالصـحابة أقـرب إلي الصـواب، وقـولهم مقـدم

---

[1] رواه مسلم / كتاب اللباس / باب كراهة القزع.

على قول غيرهم من أجل ما عندهم من الإيمان والعلم، وما عندهم من الفهم السليم التقوي والأمانة، ومـا لهم من صحبة الرسول صلي الله عليه وسلم.
واتباع(1) وصية (2) رسول الله صـلي اللـه عليـه وسـلم حيث قـال: " عليكم بسـنتي وسـنة الخلفـاء الراشـدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليهـا بالنواجـذ(3) ......
(1) (1) " اتباع " : معطوف على " اتباع الآثار ".
(2) (2) " الوصية " العهد إلي غيره بأمر هام.
(3) (3) معـــني: " عليكم بســنتي ... " إلخ: الحث على التمسك بها، وأكد هذا بقوله: " وعضوا عليها بالنواجذ " ، وهي أقصي الأضراس، مبالغة في التمسك بها.
- **والسنة: هي الطريقة ظاهراً وباطناً.**
- **والخلفاء الراشدين: هم الذين خلفوا النبي صلي الله عليه وسلم في أمته علماً وعملاً ودعوة.**
- **وأول من يـدخل في هـذا الوصـف وأولي من يـدخل فيـه: الخلفـاء الأربعـة أبـو بكـر وعمـر وعثمـان وعلي.**
- **ثم يأتي رجل في هذا العصر، ليس عنـده من العلم شـيء، ويقـول: أذان الجمعـة الأول بدعـة، لأنـه ليس معروفـاً على عهـد الرسـول صـلي اللـه عليـه وسـلم، ويجب أن نقتصر على الأذان الثاني فقط !**

فنقول له: إن سنة عثمان رضي الله عنه سنة متبعـة إذا لم تخالف سنة رسول الله صـلي اللـه عليـه وسـلم، ولم يقم أحـد من الصـحابة الـذين هم أعلم منـك وأغـير على دين اللـــه بمعارضـــته، وهـــو من الخلفـــاء الراشـــدين المهديين، الذين أمر رسول الله صلي اللـه عليـه وسـلم باتباعهم.
ثم إن عثمان رضي الله عنـه أعتمـد على أصـل، وهـو أن بلالاً يؤذن قبل الفجـر في عهـد النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم، لا لصـلاة الفجـر، ولكن لـيرجع القـائم ويوقـظ النائم، كما قال ذلك رسول الله صلي اللـه عليـه وسـلم، فـأمر عثمـان بـالأذان الأول يـوم الجمعـة [1]، لا لحضـور

---
[1] أخرجه البخاري/ كتاب الجمعة / باب الآذان يوم الجمعة.

الإمام، ولكن لحضور الناس، لأن المدينة كبرت واتسعت واحتاج الناس أن يعلموا بقرب الجمعة قبل حضور الإمام، من أجل أن يكون حضورهم قبل حضور الإمام.

- **فأهل السنة والجماع يتبعون ما أوصي به النبي صلي الله عليه وعلي آله وسلم من الحث علي التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، إلا إذا خالف كلام رسول الله صلي الله عليه وسلم ونعتذر عن هذا الصحابي، ونقول: هذا من باب الاجتهاد المعذور فيه.**

وإياكم (1) ومحدثات الأمور (2) ....

(1) (1) إياكم للتحذير، أي : أحذركم.

(2) (2) " والأمور ": بمعني : الشؤون، والمراد بها أمور الدين، أما أمور الدنيا، فلا تدخل في هذا الحديث، لأن الأصل في أمور الدنيا الحل، فما

ابتدع منها، فهو حلال، إلا أن يدل الدليل على تحريمه. لكن أمور الدين الأصل فيها الحظر، فما ابتدع منها، فهو حرام بدعة، إلا بدليل من الكتاب والسنة على مشروعيته.

فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " (1) ....

(1) (1) قال النبي عليه الصلاة السلام: " فإن كل بدعة ضلالة " [1]**: الجملة مفرعة على الجملة التحذيرية، فيكون المراد بها هنا توكيد التحذير وبيان حكم البدعة.**

هذا كلام عام مسور بأقوي لفظ دال على العموم، وهو لفظ (كل) ، فهو تعميم محكم صدر من الرسول صلي الله عليه وسلم، والرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بشريعة الله، وأنصح الخلق لعباد الله، وأفصح الخلق بياناً، وأصدقهم خبراً، فاجتمعت في حقه أربعة

---

(1) رواه الإمام أحمد (4-126)، وأبو داود (4607)، والترمذي (2676) ، وابن ماجه (43).

أمور: علم ونصح وفصاحة وصدق، نطق بقوله: " كل بدعة ضلالة " .
فعلي هذا: كل من تعبد لله بعقيدة أو قول أو فعل لم يكن من شريعة الله، فهو مبتدع.
فالجهمية يتعبدون بعقيدتهم، ويعتقدون أنهم منزهون لله، والمعتزلة كذلك. والأشاعرة يتعبدون بما هم عليه من عقيدة باطلة.
- والذين أحدثوا أذكاراً معينة يتعبدون لله بذلك، ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا.
- والذين أحدثوا أفعالاً يتعبدون لله بها ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا.
كل هذه الأصناف الثلاثة الذين ابتدعوا في العقيدة أو في الأقوال أو في الأفعال، كل بدعة من بدعهم، فهي ضلالة، ووصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بالضلالة، لأنها مركب، ولأنها أنحراف عن الحق.
• والبدعة تستلزم محاذير فاسدة:
فأولاً: تستلزم تكذيب قول الله تعالي:) اليوم أكملت لكم دينكم ([المائدة:3]، لأنه إذا جاء ببدعة جديدة يعتبرها ديناً، فمقتضاه أن الدين لم يكمل.
ثانياً: تستلزم القدح في الشريعة، وأنها ناقصة، فأكملها هذا المبتدع.
ثالثاً : تستلزم القدح في المسلمين الذين لم يأتوا بها، فكل من سبق هذه البدع من الناس دينهم ناقص! وهذا خطير !!
رابعاً:ما لوزام هذه البدعة أن الغالب أن من اشتغل ببدعة، انشغل عن سنة، كما قال بعض السلف: " ما أحدث قوم بدعة، إلا هدموا مثلها من السنة".
خامساً: أن هذه البدع توجب تفرق الأمة، لأن هؤلاء المبتدعة يعتقدون أنهم أصحاب الحق، ومن سواهم علي ضلال!! وأهل الحق يقولون: أنتم الذين على ضلال ! فتتفرق قلوبهم.
فهذه مفاسد عظيمة، كلها تترتب علي البدعة من حيث هي بدعة، مع أنه يتصل بهذه البدعة سفه في العقل وخلل في الدين.

- وبهذا نعرف أن من قسم البدعة إلي ثلاثة أقسام أو خمسة أو ستة، فقد أخطأ، وخطؤه من أحد وجهين:
- - إما أن لا ينطبق شرعاً وصف البدعة على ما سماه بدعة.
- - وإما أن لا يكون حسناً كما زعم.

فالنبي صلي الله عليه وسلم قال: " كل بدعة ضلالة" ، فقال: " كل "، فما الذي يخرجنا من هذا السور العظيم حتي نقسم البدع إلي أقسام؟

- فإن قلت: ما تقول في قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين خرج إلي الناس وهم يصلون بإمامهم في رمضان، فقال: نعمت البدعة هذه[1]. فأثني عليها، وسماها بدعة؟ !

فالجواب أن نقول: ننظر إلي هذه البدعة التي ذكرها، هل ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية أو لا.

فإذا نظرنا لم يخرج وجدنا أنه لا ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية، فقد ثبت أن النبي صلي الله عليه وسلم صلي بأصحابه في رمضان ثلاث ليال، ثم تركه خوفاً من أن تفرض عليهم[2]، فثبت أصل المشروعية، وانتفي أن تكن بدعة شرعية، ولا يمكن أن نقول: إنها بدعة، والرسول صلي الله عليه وسلم قد صلاها.

وإنما سماها عمر رضي الله عنه بدعة، لأن الناس تركوها، وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد، بل أوزاعاً، الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط، فلما جمعهم علي إمام واحد، صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولاً من هذا التفرق.

فإنه خرج رضي الله عنه ذات ليلة، فقال: لو أني جمعت الناس على إمام واحد، لكان أحسن، فأمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس بإحدي عشرة ركعة، فقاما للناس بإحدي عشرة ركعة، فخرج ذات ليلة والناس يصلون بإمامهم، فقال: نعمت البدعة هذه.

---

(1) رواه البخاري/ كتاب صلاة التراويح/ باب فضل من قام رمضان.

(2) البخاري/ كتاب التهجد، ومسلم/ كتاب صلاة المسافرين.

إذاً، هي بدعة نسبية، باعتبار أنها تـركت ثم أنشـئت مـرة أخري.
فهذا وجه تسميتها ببدعة.
وأما أنها بدعة شرعية، ويثني عليها عمر، فكلاً.
وبهذا نعرف أن كلام رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يعارضه كلام عمر رضي الله عنه.

- **فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قول الرسـول صلي اللـه عليـه وسـلم: " من سـن في الإسـلام سـنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلي يـوم القيامـة "[1]، فأثبت أن الإنسان يسن سنة حسن في الإسلام؟**

فنقول: كلام الرسول صلي الله عليه وسلم يصدق بعضه بعضـاً، ولا يتنـاقض، فيريـد بالسـنة الحسـنة السـنة المشروع، ويكون المراد بسنها المبادرة إلي فعلها.
يعرف هذا ببيان سبب الحديث، وهو أن النبي صـلي اللـه عليه وسلم قاله حين جاء أحد الأنصار بصرة (يعـني: من الدراهم)، ووضعها بين يدي النبي صلي الله عليه وسـلم حين دعـا أصـحابه أن يتـبرعوا للرهـط الـذين قـدموا من مضر مجتابي النمار، وهم من كبـار العـرب، فتمعـر وجـه النبي صلي الله عليـه وسـلم لمـا رأي من حـالهم، فـدعا إلي التـبرع لهم، فجـاء هـذا الرجـل أول مـا جـاء بهـذه الصرة، فقال : " من سن في الإسلام سنة حسـنة ، فلـه أجرها وأجر من عمل بها إلي يوم القيامة " .
أو يقال: المراد بالسنة الحسنة ما أحـدث ليكـون وسـيلة إلي ما ثبتت مشروعيته، كتصنيف الكتب وبنـاء المـدارس ونحو ذلك.
وبهذا نعرف أن كلام الرسول صـلي اللـه عليـه وسـلم لا ينـاقض بعضـه بعضـاً، بـل هـو متفـق، لأنـه عليـه الصـلاة والسلام لا ينطق عن الهوي.
ويعلمـــــون أن أصـــــدق الكلام كلام اللـــــه (1)

....
(1) (1) هذا علمنا واعتقادنا، وأن ليس في كلام الله من كذب، بل هو أصدق الكلام، فـإذا أخـبر اللـه عن شـيء بأنه كائن، فهو كائن، وإذا أخبر عن شيء بأنه سيكون،

---
[1] رواه مسلم/ كتاب الزكاة/ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.

فإنه سيكون، وإذا أخبر عن شيء بأن صفته كذا وكذا، فإن صفته كذا وكذا، فلا يمكن أن يتغير الأمر عما أخبر الله به، ومن ظن التغير، فإنما ظنه خطأ، لقصوره أو تقصيره.

مثال ذلك لو قال قائل: إن الله عز وجل أخبر أن الأرض قد سطحت، قال:) وإلي الأرض كيف سطحت ([الغاشية: 20]، ونحن نشاهد أن الأرض مكورة، فكيف يكون خبره خلاف الواقع؟

فجوابه أن الآية لا تخالف الواقع، ولكن فهمه خاطىء إما لقصوره أو تقصيره، فالأرض مكورة مسطحة، وذلك لأنها مستديرة، ولكن لكبر حجمها لا تظهر استدارتها إلا في مساحة واسعة تكون بها مسطحة، وحينئذ يكون الخطأ في فهمه، حيث ظن أن كونها قد سطحت مخالف لكونها كروية.

فإذا كنا نؤمن أن أصدق الكلام كلام الله، ، فلازم ذلك أنه يجب علينا أن نصدق بكل ما أخبر به كتابه، سواء كان ذلك عن نفسه أو عن مخلوقاته.

وخير الهدي هدي محمد صلي الله عليه وسلم (1)

....

(1) (1) " الهدي " : هو الطريق التي كان عليها السالك.

والطرق شتي، لكن خيرها طريق النبي صلي الله عليه وسلم، فنحن نعلم ذلك ونؤمن به، نعلم أن خير الهدي هدي محمد صلي الله عليه وسلم في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وأن هدي محمد صلي الله عليه وسلم ليس بقاصر، لا في حسنه وتمامه وانتظامه موافقته لمصالح الخلق، ولا في أحكام الحوداث التي لم تزل ولا تزال تقع إلي يم القيامة، فإن هدي محمد صلي الله عليه وسلم كامل تام، فهو خير الهدي، أهدي من شريعة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وجميع الهدي.

فإذا كنا نعتقد ذلك، فو الله ، لا نبغي به دليلاً.

• وبناء على هذه العقيدة لا نعارض قول رسول الله صلي الله عليه وسلم بقول أحد من الناس، كائناً من

كان، حتي لو جاءنـا قـول لأبي بكـر، وهـو خـير الأمـة، وقول لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، أخذنا بقول رسول الله صلي الله عليه وسلم.

- **وأهل السنة والجماعـة بنـوا هـذا الاعتقـاد على الكتاب والسنة.**

- **قال الله تعالي:) ومن أصدق من الله حديثاً ([النساء: 87].**

- **وقـال النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم وهـو يخطب الناس على المنبر: " خـير الحـديث كتـاب اللـه ، وخـير الهدي هدي محمد صلي الله عليه وسلم "[1].**

ولهذا تجد الذين اختلفـوا في الهـدي وخـالفوا فيـه: إمـا مقصرين عن شريعة الرسـول صـلي اللـه عليـه وسـلم ، وإمـا غـالين فيهـا، بين متشـددين وبين متهـاونين، بين مفرط ومفرط، وهدي الرسول صـلي اللـه عليـه وسـلم يكون بين هذا وهذا.

ويؤثرون (1) كلام الله غيره من كلام أصـناف النـاس(2) ويقـدمون هـدي محمـد صـلي اللـه عليـه وسـلم(3) علي هدي كل أحد(4).

(1) (1) أي: يقدمون.

(2) (2) أي يقدمون كلام الله على كلام غيره من سائر أصناف الناس في الخبر والحكم، فأخبـار اللـه عنـدهم مقدمة على خبر كل أحد.

***فإذا جاءتنا أخبار عن أمم مضت وصـار القـرآن يكـذبها، فإننا نكذبها.**

مثـال ذلـك: اشـتهر عنـد كثـير من المـؤرخين أن إدريس قبل نوح، وهذا كذب، لأن القرآن يكذبه، كما قال تعـالي:) إنا إوحينا إليك كما أوحينـا إلي نـوح والنبـيين من بعـده ([النسـاء: 163]، وإدريس من النبـيين، كمـا قـال اللـه تعالي:) واذكر في الكتـاب إدريس إنـه كـان صـديقاً نبيـاً ([مـريم: 56] إلي أن قـال:) أولئـك الـذين أنعم اللـه عليهم من النبـيين من ذريـة آدم وممن حملنـا مـع نـوح ([مـريم: 58]، وقـال تعـالي:) ولقـد أرسـلنا نوحـاً

---

[1] رواه مسلم / كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة.

وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب([الحديد: 26] فلا نبي قبل نوح إلا آدم فقط.

(3) (3) أي: طريقته وسننته التي عليها.

(4) (4) في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والأحوال وفي كل شيء، لقوله تعالي:) وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله([الأنعام: 153]، وقوله:) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم([آل عمران: 31].

ولهذا(1) سموا أهل الكتاب والسنة (2) وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة في الاجتماع وضدها الفرقة (3) وإن كان لفظ الجماعة قد صار أسماً لنفس القوم المجتمعين(4).....

(1) (1) قوله: " ولهذا " : اللام في قول: " ولهذا " للتعليل، أي: ومن أجل إيثارهم كلام الله وتقديم هدي رسول الله صلي الله عليه وسلم .

(2) (2) لتصديقهما والتزامهما وإيثارهما على غيرها. ومن خالف الكتاب والسنة، وادعي أنه من أهل الكتاب والسنة، فهو كاذب، لأن من كان من أهل شيء لابد أن يلزمه ويلتزم به.

(3) (3) الجماعة اسم مصدر يجتمع اجتماعاً وجماعة، فالجماعة هي الاجتماع، فمعني أهل الجماعة أهل الاجتماع، لأنهم مجتمعون على السنة، متالفون فيها، لا يضلل بعضهم بعضاً، ولا يبدع بعضهم بعضاً، بخلاف أهل البدع.

(4) (4) هذا استعمال ثان، حيث صار لفظ (الجماعة) عرفاً: اسماً للقوم المجتمعين.

- **وعلي ما قرره المؤلف تكون (الجماعة) في قولنا: " أهل السنة والجماعة " : معطوفة على (السنة)، ولهذا عبر المؤلف بقوله: " سموا أهل الجماعة" ، ولم يقل: سموا جماعة، فكيف يكونون أهل الجماعة وهم جماعة؟**

نقول: الجماعـة في الأصـل: الاجتمـاع، فأهـل الجماعـة، يعني: أهل الاجتماع، لكن نقل اسم الجماعـة إلي القـوم المجتمعين نقلاً عرفياً.
والإجماع هو الأصل الثالث الـذي يعتمـد عليـه في العلم والدين (1) ....
(1) (1) * يعني بـه الـدليل الثـالث، لأن الأدلـة أصـول الأحكام، حيث تبني عليها.
- والأصـل الأول: هـو الكتـاب، والثـاني: السـنة، والإجمـاع هـو: الأصـل الثـالث، ولهـذا يسـمون: أهـل الكتاب والسنة والجماعة.
- فهذه ثلاثة أصول يعتمد عليها في العلم والدين، وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع.
أما الكتاب والسنة، فأصلان ذاتيان، وأما الإجماع، فأصـل مبني على غيره، إذ لا إجماع إلا بكتاب أو سنة.
- أما كون الكتاب والسنة يرجع إليه، فأدلته كثيرة، منها:
- - قوله تعالي:) فإن تنـازعتم في شـيء فـردوه إلي اللــه والرســول ([النســاء: 59]. وقولــه تعــالي:) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول([المائدة: 92].
- - وقولـه تعـالي:) ومـا آتـاكم الرسـول فخـذوه ومـا نهاكم عنه فـانتهوا ([الحشـر: 7] قوله تعـالي:) مـع يطع الرسول فقد أطاع الله ([النساء: 80].
ومن أنكر أن تكون السنة أصلاً في الدليل، فقـد أنكـر أن يكون القرآن أصلاً.
ولا شك عندنا في أن من قال: إن السـنة لا يرجـع إليهـا في الأحكام الشرعية، أنه كـافر مرتـد عن الإسـلام، لأنـه مكذب ومنكر للقرآن، فالقرآن في غير مـا موضـع جعـل السنة أصلاً يرجع إليه.
- وأما الدليل على أن الإجماع أصل، فيقال:
أولاً: هل الإجماع موجود أو غير موجود؟
قال بعض العلماء: لا إجماع موجود، إلا على ما فيـه نص، وحينئذ، يستغني بالنص عن الإجماع.

فمثلاً، لو قال قائل: العلماء مجمعـون على أن الصـلوات المفروضــة خمس، فهـذا صـحيح، لكن ثبــوت فرضــيتها بالنص.
ومجمعون على تحـريم الـزني، فهـذا صـحيح، لكن ثبـوت تحريمه بالنص.
ومجمعون على تحريم نكاح ذوات المحارم فهـذا صـحيح، لكن ثبوت تحريمه بالنص.
ولهذا قال الإمام أحمد: من ادعي الإجمـاع، فهـو كـاذب، وما يدريه؟ لعلهم اختلفوا.

- **والمعروف عن عامة العلماء أن الإجماع موجود، وأن كونه دليلاً ثابت بالقرآن والسنة:**

- **فمن ذلك قولـه تعـالي:) فـإن تنـازعتم في شـىء فردوه إلي الله والرسول([النساء: 59]، فإن قولـه:) إن تنازعتم في شيء فردوه (: يدل على أن ما أجمعنا عليه لا يجب رده إلي الكتاب والسنة، اكتفاء بالإجمـاع! وهذا الاستدلال فيه شيء!!**
- **ومن ذلك قوله:) ومن يشاقق الرسول من بعد مـا تبين له الهدي ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولي ونصله جهنم وساءت مصـيراً([النسـاء: 115]، فقـال) ويتبع غير سبيل المؤمنين(.**
- **واستدلوا أيضاً بحديث: " لا تجتمـع أمـتي على ضلالة " [1].**
- **وهذا الحديث حسنه بعضـهم وضـعفه آخـرون، لكن قد نقول: إن هذا، وإن كان ضعيف السـند، لكن يشـهد لمتنه ما سبق من النص القرآني.**

فجمهور الأمة على أن الإجمـاع دليـل مسـتقل، وأننـا إذا وجدنا مسألة فيها إجماع، أثبتناها بهذا الإجماع.
وكأن المؤلف رحمه الله يريد من هـذه الجملـة إثبـات أن إجماع أهل السنة حجة.
وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلـق بالـدين (1) والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليـه السـلف الصـالح،

---

(1) رواه الترمذي(3/207)، وابن ماجه (2/1303).

إذا بعـــــدهم كـــــثر الاختلاف وانتشـــــرت الأمـــــة (2)
....

(1) (1) " الأصــول الثلاثــة" : هي الكتــاب والســنة والإجماع.

- يعني: أن أهل السنة والجماعة يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من قول أو عمل، باطن أو ظـاهر، لا يعرفـون أنـه حـق، إلا إذا وزنـوه بالكتـاب والسنة والإجماع، فإن وجد لـه دليـل منهـا، فهـو حـق، وإن كان على خلافه، فهو باطل.

(1) (2) يعني أن الإجماع الذي يمكن ضبطه والإحاطـة بـه هو ما كان عليه السلف الصـالح وهم القـرون الثلاثـة، الصحابة والتابعون وتابعوهم.

- ثم علـل المؤلـف ذلـك بقولـه: " إذ بعـدهم كـثر الاختلاف وكثرت الأمة " يعني: أنه كثر الاختلاف ككثرة الأهواء، لأن الناس تفرقوا طوائـف، ولم يكونـوا كلهم يريـدون الحـق، فـاختلفت الآراء، وتنـوعت الأقـوال، " وانتشـرت الأمـة ": فصـارت الإحاطـة بهم من أصـعب الأمور.

فشيخ الإسلام رحمه الله كأنه يقـول: من ادعي الإجمـاع بعد السلف الصـالح، وهم القـرون الثلاثـة، فإنـه لا يصـح دعواه الإجماع، لأن الإجماع الـذي ينضـبط مـا كـان عليـه السلف الصالح، وهل يمكن أن يوجد إجماع بعـد الخلاف؟ فنقول: لا إجماع مع وجود خلاف سـابق ولا عـبرة بخلاف بعد تحقق الاجماع.

فصل
في منهج أهل السنة والجماعة
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من الخصال

فصل

ثم هم (1) مـع هـذه الأصـول(2) يـأمرون بـالمعروف(3) وينهــون عن المنكــر(4) على مــا توجبــه الشــريعة (5)
....

(1) (1) أي: أهل السنة والجماعة.

(2) (2) " من هذه الأصول" : السابقة التي ذكرها قبل هذا، وهو اتبـاع آثـار الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، واتبـاع الخلفـاء الراشـدين وإيثـارهم كلام اللـه وكلام رسوله على غيره واتباع إجمـاع المسـلمين، مـع هـذه الأصول: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

(3) (3) " المعروف" : كـل مـا أمـر بـه الشـرع ، فهم يأمرون به.

(4) (4) " المنكـر " : كـل مـا نهي عن الشـرع، فهم ينهون عنه.

لأن هذا هو ما أمر الله بـه في قولـه:) ولتكن منكم أمـة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ([آل عمران: 104].

وكـذلك قـال النـبي عليـه الصـلاة والسـلام: " لتـأمرون بـالمعروف، ولتنهـون عن المنكـر، ولتأخـذن على يـد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً "[1].

فهم يـأمرون بـالمعروف، وينهـون عن المنكـر، ولا يتأخرون عن ذلك.

(5) (5) ولكن يشـترط للأمـر بـالمعروف، والنهي عن المنكر أن يكونا على ما توجبه الشريعة وتقتضيه.

• ولذلك شروط:

الشرط الأول: أن يكون عالماً بحكم الشرع فيما يأمر بـه أو ينهي عنه، فلا يأمر إلا بما علم أن الشرع أمـر بـه: ولا ينهي إلا عمـا علم أن الشـرع نهي عنـه، ولا يعتمـد في ذلك على ذوق ولا عادة.

لقوله تعالي لرسوله صـلي اللـه عليـه وسـلم :) فـاحكم بينهم بمـا أنـزل اللـه ولا تتبـع أهـواءهم عمـا جـاءك من الحق ([المائدة: 48].

وقولـه:) ولا تقـف مـا ليس بـه علم أن السـمع والبصـر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ([الأسراء: 36].

وقوله:) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكـذب هـذا حلال وهذا حرام لتفـتروا على اللـه الكـذب إن الـذين يفـترون على الله الكذب لا يفلحون ([النحل: 116].

---

[1] رواه أبو داود (4336) ، وابن ماجه (4006).

فلو رأي شخصاً يفعل شيئاً الأصل فيه الحل، فإنه لا يحل له أن ينهاه عنه حتي يعلم أنه حرام أو منهي عنه.

- **ولو رأي شخصاً ترك شيئاً يظنه الرائي عبادة، فإنه لا يحل له أن يأمره بالتعبد به حتي يعلم أن الشرع أمر به.**
- **الشرط الثاني: أن يعلم بحال المأمور: هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهي أم لا؟ فلو رأي شخصاً يشك هل هو مكلف أم لا، لم يأمره بما لا يؤمر به مثله حتي يستفصل.**

الشرط الثالث: أن يكون عالماً بحال المأمور حال تكليفه، هل قال بالفعل أم لا؟

- **فلو رأي شخصاً دخل المسجد ثم جلس، وشك هل صلي ركعتين، فلا ينكر عليه، ولا يأمره بهما، حتي يستفصل.**

ودليل ذلك أن النبي صلي الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة، فدخل رجل، فجلس، فقال له النبي صلي الله عليه وعلي آله وسلم: " أصليت ؟ " .

قال: لا قال: " قم فصل ركعتين وتجوز فيها" [1].

- **ولقد نقل لي أنه بعض الناس يقول: يحرم أن يسجل القرآن بأشرطه، لأن ذلك إهانة للقرآن على زعمه ! فينهي الناس أن يسجلوا القرآن على هذه الأشرطة، لظنه أنه منكر!!**

فنقول له : إن المنكر أن تنهاهم عن شيء لم تعلم أنه منكر!! فلابد أن تعلم أن هذا منكر في دين الله.

وهذا في غير العبادات، أما العبادات، فإننا لو رأينا رجلاً يتعبد بعبادة، لم يعلم أنها مما أمر الله به، فإننا ننهاه، لأن الأصل في العبادات المنع.

الشرط الرابع: أن يكون قادراً على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا ضرر يلحقه، فإن لحقه ضرر، لم يجب عليه، لكن إن صبر وقام به، فهو أفضل، لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة،

---

(1) رواه البخاري/ كتاب الجمعة / باب من جاء والإمام يخطب، ومسلم / كتاب الجمعة/ باب التحية والإمام يخطب.

لقوله تعالي: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن: 16]، وقوله: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة: 286]. فـإذا خـاف إذا أمـر شخصـاً بمعـروف أن يقتلـه، فإنـه لا يلزمه أن يأمره، لأنه لا يستطيع ذلك، بل قد يحـرم عليـه حينئذ. وقال بعض العلماء: بل يجب عليـه الأمـر والصـبر، وإن تضرر بذلك مالم يصـل إلي حـد القتـل. لكن القـول الأول أولي، لأن هذا الأمر إذا لحقه الضرر بحبس ونحوه، فإن غيره قد يترك الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر خوفـاً ممـا حصـل، حـتي في حـال لا يخشـي منهـا ذلـك الضرر.

وهذا ما لم يصل الأمر إلي حد يكون الأمر حد يكون الأمر بالمعروف من جنس الجهاد، كما لو أمر بسـنة ونهي عن بدعة، ولو سكت ، لاستطال أهل البدعة على أهل البدعة على أهـل السـنة، ففي هـذه الحـال يجب إظهـار السـنة وبيان البدعة، لأنه من الجهـاد في سـبيل اللـه، ولا يعـذر من تعين عليه بالخوف على نفسه.

الشـرط الخـامس: أن لا يـترتب على الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر مفسـدة أعظم من السـكوت، فـإن ترتب عليها ذلك، فإنه لا يلزمه، بـل لا يجـوز لـه أن يـأمر بالمعروف أو ينهي عن المنكر.

ولهذا قال العلماء: إن إنكار ينتج منه إحدي أحوال أربعة: إمـا أن يـزول المنكـر، أو يتحـول إلي أخـف منـه، أو إلي مثله، أو إلي أعظم منه.

- أما الحالة الأولي والثانية، فالإنكار واجب.
- أما في الثالثة، فهي في محل نظر.
- وأمـا في الرابعـة، فلا يجـوز الإنكـار، لأن المقصود بإنكار المنكر إزالته أو تخفيفه.
- مثال ذلك: إذا إراد أن يأمر شخصـاً بفعـل إحسـان، لكن يستلزم فعل هذا الإحسان ألا يصلي مع الجماعـة، فهنا لا يجوز الأمر بهذا المعروف، لأنه يؤدي إلي تـرك واجب من أجل فعل مستحب.

وكذلك في المنكر لو كان إذا نهي عن هذا المنكر، تحول الفاعل له إلي فعل منكر أعظم، فإنه في هـذه الحـال لا

يجوز أن ينهي عن هـذا المنكـر دفعـاً لأعلي المفسـدتين بأدناهما.
ويدل لهـذا قولـه تعـالي:) ولا تسـبوا الـذين يـدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكـل أمـة عملهم ثم إلي ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملــون ([الأنعام: 108] فإن سب آلهة المشـركين، لا شـك أنـه أمر مطلوب، لكن لما كان يترتب عليه أمر محظور أعظم من المصـلحة الـتي تكـون بسـب آلهـة المشـركين، وهـو سبهم لله تعالي عدواً بغير علم، نهي الله عن سب آلهــة المشركين في هذه الحال.
ولو وجدنا رجلاً يشرب الخمر، وشرب الخمـر منكـر، فلـو نهيناه عن شربه، لذهب يسـرق أمـوال النـاس ويسـتحل أعراضهم، فهنـا لا ننهـاه عن شـرب الخمـر، لأنـه يـترتب عليه مفسدة أعظم.
الشرط السادس: إن يكون هذا الآمر أو الناهي قائماً بما يــأمر بــه منتهيــاً عمــا ينهي عنــه، وهــذا على رأي بعض العلماء، فإن كان غير قائم بذلك، فإنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر، لأن الله تعالي قال لبني إسـرائيل:) أتـأمرون النـاس بـالبر وتنسـون أنفسـكم وأنتم تتلـون الكتاب أفلا تعقلون ([البقرة: 44]، فإذا كان هذا الرجل لا يصلي، فلا يأمر غيره بالصلاة، وإن كان يشرب الخمـر، فلا ينهي غيره عنها، ولهذا قال الشاعر:
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
فهم استدلوا بالأثر والنظر.
ولكن الجمهـور علي خلاف ذلـك ، وقـالوا: يجب أن يـأمر بــالمعروف، وإن كــان لا يأتيــه، وينهي عن المنكــر، وإن كان يأتيه، وإنمـا وبخ اللـه تعـالي بـني إسـرائيل، لا على أمرهم بالبر، ولكن علي جمعهم بين الأمر بالبر ونســيان النفس.
وهــذا القــول هــو الصــحيح، فنقــول: أنت الآن مــأمور بأمرين: الأول: فعل البر، والثاني: الأمر بالبر. منهي عن أمــرين: الأول: فعــل المنكــر، والثــاني: تــرك النهي عن

فعلـه. فلا تجمـع بين تـرك المـأمورين وفعـل المنهـيين، فإن ترك أحدهما لا يستلزم سقوط الآخر.

فهـذه سـتة شـروط ، منهـا أربعـة للجـواز، وهي الأول والثـاني والثـالث والخـامس، على تفصـيل فيـه، واثنـان للوجوب، وهما الرابع والسادس.

- **ولا يشترط أن لا يكون من أصول الآمر أو النـاهي كأبيه أو أمه أو جده أو جدته، بـل ربمـا نقـول: إن هـذا يتأكد أكثر، لأن من بـر الوالـدين أن ينهاهمـا عن فعـل المعاصي ويأمرهما بفعل الطاعـات قـد يقـول: أنـا إذا نهيت أبي، غضب علي، وهجرني، فماذا أصنع؟**

نقول: اصبر على هذا الذي ينالـك بغضـب أبيـك وهجـره، والعاقبة للمتقين، وأتبع ملة إبراهيم عليه السـلام، حيث عاتب أبـاه على الشـرك، فقـال:) يـا أبت لم تعبـد مـا لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنـك شـيئاً (إلي أن قـال:) يـا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للـرحمن عصـياً ، يا أبت إني أخـاف أن يمسـك عـذاب من الـرحمن فتكـون للشيطان وليا ، قال(، أيك أبوه :)أراغب أنت عن آلهـتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ([مـريم: 42-46]. وقال إبـراهيم أيضـاً لأبيـه آزر:) أتتخـذ أصـناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ([الأنعام: 74].

ويـرون إقامـة الحج، والجهـاد، والجمـع، والأعيـاد، مـع الأمراء، أبراراً كانوا أو فجاراً (1)....

(1) (1) الأبرار: جمع بر، وهو كثير الطاعـة، والفجـار: جمع فاجر وهو العاصي كثير المعصية.

- **فأهل السنة رحمهم اللـه يخـالفون أهـل البـدع تمامـاً، فـيرون إقامـة الحج مـع الأمـير، وإن كـان من أفسق عباد الله.**
- **وكان الناس فيما سـبق يجعلـون على الحج أمـيراً، كما جعل النبي صلي اللـه عليـه وسـلم أبـا بكـر أمـيراً على الحج في العــام التاســع من الهجــرة، ومــا زال الناس على ذلك، يجعلون للحجـة أمـيراً قائـداً يـدفعون ويقفون بوقوفه، وهذا هـو المشـروع، لأن المسـلمين يحتاجون إلي إمام يقتـدون بـه، أمـا كـون كـل إنسـان على رأسه، فإنه يحصل به فوضي واختلاف.**

فهم يـرون إقامـة الحج من الأمـراء، وإن كـانوا فسـاقاً، حتي وإن كانوا يشربون الخمر في الحج، لا يقولون: هذا إمام فاجر، لا نقبـل إمامتـه، لأنهم يـرون أن طاعـة ولي الأمر واجبة، وإن كان فاسقاً، بشرط أن لا يخرجه فسقه إلي الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان، فهذا لا طاعة له، ويجب أن يزال عن تولي أمور المسلمين، لكن الفجور الذي دون الكفر مهما بلـغ، فـإن الولايـة لا تـزال به، بل هي ثابتة، والطاعـة لـولي الأمـر واجبـة في غـير المعصية.

خلافاً للخوارج، الذين يرون أنـه لا طاعـة للإمـام والأمـير إذا كان عاصياً، لأن من قاعـدتهم: أن الكبـيرة تخـرج من الملة.

وخلافاً للرافضة الذين يقولـون: إنـه إمـام إلا المعصـوم، وإن الأمة الإسـلامية منـذ غـاب من يزعمـون أنـه الإمـام المنتظر، ليست على إمام، ولا تبعا لإمام، بل هي تمـوت ميتة جاهلية من ذلك الوقت إلي اليوم، ويقولـون: إنـه لا إمام إلا الإمام المعصـوم، ولا حج ولا جهـاد مـع أي أمـير كان، لأن الإمام لم يأت بعد.

- لكن أهل السنة والجماعة يقولون: نحن نري إقامة الحج مع الأمراء سـواء كـانوا أبـراراً أو فجـاراً، وكـذلك إقامـة الجهـاد مـع الأمـير، وكـذلك إقامـة الجهـاد مـع الأمير، ولو كان فساقاً، ويقيمـون الجهـاد مـع أمـير لا يصلي معهم الجماعة، بل يصلي في رحلة.

فأهل السنة والجماعة لـديهم بعـد نظـر، لأن المخالفـات في هـذه الأمـور معصـية للـه ورسـوله، وتجـر إلي فتن عظيمة.

فمـا الـذي فتح بـاب الفتن والقتـال بين المسـلمين والاختلاف في الأراء إلا الخروج على الأئمة؟!

فيري أهل السنة والجماعة وجـوب إقامـة الحج والجهـاد مع الأمراء، وإن كانوا فجاراً.

- ولكن هذا لا يعني أن أهل السنة والجماعة لا يرون أن فعل الأمـير منكـر، بـل يـرون أنـه منكـر، وأن فعـل الأمير للمنكر قد يكون أشد من فعل عامة النـاس، لأن

فعل الأمير للمنكر يلزم منه زيادة على إثمه محـذوران عظيمان:
الأول: اقتداء الناس به وتهاونهم بهذا المنكر.
والثـاني: أن الأمـير إذا فعـل المنكـر سـيقل في نفسـه تغييره على الرعية أو تغيير مثله أو مقاربه.

- **لكن أهل السنة والجماعة يقولـون: حـتي مـع هـذا الأمر المستلزم لهـذين المحـذورين أو لغيرهمـا، فإنـه يجب علينا طاعة ولاة الأمور، وإن كانوا عصـاة، فنقيم معهم الحج والجهاد، وكذلك الجمع، نقيمها مع الأمراء، ولو كانوا فجاراً.**

فـالأمير إذا كـان يشـرب الخمـر مثلاً، ويظلم النـاس بأموالهم، نصلي خلفه الجمعـة، وتصـح الصـلاة، حـتي إن أهل السنة والجماعـة يـرون صـحة الجمعـة خلـف الأمـير المبتـدع إذا لم تصـل بدعتـه إلي الكفـر، لأنهم يـرون أن الاختلاف عليه في مثـل هـذه الأمـور شـر، ولكن لا يليـق بالأمير الذي له إمامة الجمعة أن يفعل هذه المنكرات.
وكذلك أيضاً إقامة الأعياد مع الأمراء الـذي يصـلون بهم، أبراراً كانوا أو فجاراً.

- **وبهذه الطريق الهادئة يتبين أن الدين الإسلامي وسط بين الغالي في والجافي عنه.**
- **فقـد يقـول قائـل: كيـف نصـلي خلـف هـؤلاء ونتابعهم في الحج والجهاد والجمع والأعياد؟ !**

فنقول: لأنهم أئمتنا، ندين لهم بالسمع والطاعة: امتثالاً لأمـر اللـه بقولـه: ﴿ يـا أيهـا الـذين آمنـوا أطيعـوا اللـه وأطيعـوا الرسـول وأولي الأمـر منكم ﴾ [النسـاء: 59]. ولأمر النبي صلي الله عليه وسلم بقوله: " إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها". قالوا: فما تأمرنا يا رسـول الله ؟ قال: " أدوا إليهم حقهم، وسـلوا اللـه حقكم "[1].
وحقهم: طاعتهم في غير معصية الله.
وعن وائل بن حجر، قال: سـأل سـلمة بن يزيـد الجعفي رسول الله صلي الله عليه وعلى آلـه وسـلم، فقـال: يـا بـني اللـه! أرأيت إن قـامت علينـا أمـراء يسـألونا حقهم

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الفتن، ومسلم/ كتـاب الإمـارة / بـاب وجـوب الوفـاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول.

ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ قال: " اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم "[2].

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: بايعنا رسول الله صلي الله عليه وعلي آله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله. قال: " إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان "[3].

ولأننا لو تخلفنا عن متابعتهم، لشققنا عصا الطاعة الذين يترتب على شقه أمور عظيمة، ومصائب جسيمة.

- **والأمور التي فيها تأويل واختلاف بين العلماء إذا ارتكبها ولاة الأمور، لا يحل لنا منابذتهم ومخالفتهم، لكن يجب علينا مناصحتهم بقدر المستطاع فيما خالفوا فيه، مما لا يسوغ فيه الاجتهاد، وأما ما يسوغ فيه الأجتهاد، فنبحث معهم فيه بحث تقدير واحترام، لنبين لهم الحق، لا على سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس، وأما منابذتهم وعدم طاعتهم، فليس من طريق أهل السنة والجماعة.**

ويحافظون على الجماعات (1)، ويدينون بالنصيحة للأمة (2) ....

(1) (1) أي: يحافظ أهل السنة والجماعة على الجماعات، أي: علي إقامة الجماعة في الصلوات الخمس، يحافظون عليها محافظة تامة، بحيث إذا سمعوا النداء، أجابوا وصلوا مع المسلمين، فمن لم يحافظ على الصلوات الخمس، فقد فاته من صفات أهل السنة والجماعة ما فاته من هذه الجماعات.

- **وربما يدخل في الجماعات الاجتماع على الرأي وعدم النزاع فيه، فإن هذا ما أوصي به النبي صلي الله عليه وعلي آله وسلم معاذ بن جبل وأبا موسي حين بعثهما إلي اليمن، فقال: " يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا، ولا تختلفا "[1].**

---

[2] رواه مسلم / كتاب الإمارة.

[3] رواه البخاري / كتاب الفتن / باب " سترون بعدي أمور تنكرونها... " ، ومسلم / كتاب الحدود.

(1) (2) " يدينون " ، أي: يتعبدون لله عز وجل بالنصيحة للأمة، ويعتقدون ذلك ديناً.

- **والنصح للأمة قد يكون الحامل عليه غير التعبد لله، فقد يكون الحامل عليه الغيرة، وقد يكون الحامل عليه الخوف من العقوبات، وقد يكون الحامل عليه أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة التي يريد بها نفع المسلمين.. إلي غير ذلك من الأسباب.**
- **لكن هؤلاء ينصحون للأمة طاعة لله تعالي وتديناً له، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث تميم بن أوس الداري: " الدين النصيحة، الدين النصيحة " . قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال: " لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم "** [1]**.**

- **فالنصيحة لله صدق الطلب في الوصول إليه.**
- **والنصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام صدق الاتباع له، ويستلزم ذلك الذود عن دين الله عز وجل، الذي جاء به رسول صلي الله عليه وسلم، ولهذا قال " ولكتابه " .**
- **فينصح للقرآن ببيان أنه كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق، وأنه يجب تصديق خبره وامتثال أحكامه، وهو كذلك يعتقده في نفسه.**
- **" وأئمة المسلمين " كل من ولاه الله أمراً من أمور المسلمين، فهو إمام في ذلك الأمر، فهناك إمام عام كرئيس الدولة، وهناك إمام خاص، كالأمير والوزير والمدير والرئيس وأئمة المساجد وغيرهم.**
- **وعامتهم، يعني: عامة المسلمين، وهم التابعون للأئمة.**
- **ومن أعظم أئمة المسلمين العلماء، والنصيحة لعلماء المسلمين هي نشر محاسنهم، والكف عن مساوئهم، والحرص على إصابتهم الصواب، بحيث يرشدهم إذا أخطؤوا، ويبين لهم أخطأ على وجه لا**

---

(1) رواه البخاري/ كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسي ومعاذ إلي اليمن، ومسلم/ كتاب الجهاد.

(1) رواه مسلم / كتاب الإيمان.

يخـدش كـرامتهم، ولا يحـط من قـدرهم، لن تخطئـة العلماء على وجـه يحـط من قـدرهم ضـرر على عمـوم الإسـلام، لأن العامـة إذا رأوا العلمـاء يضـلل بعضـهم بعضاً سقطوا من أعينهم وقالوا: كل هؤلاء راد مـردود عليه. فلا ندري من الصواب معه! فلا يأخذون بقول أي واحد منهم، لكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضاً، وصار كـل واحـد يرشـد أخـاه سـراً إذا أخطـأ، ويعلن للنـاس القول الصحيح ، فـإن هـذا من أعظم النصـيحة لعلمـاء المسلمين.

- **وقول المؤلف: " للأمة" : يشمل الأئمة والعامة، فأهل السنة والجماعة يدينون بالنصحية للأمـة، أئمتهم وعامتهم.**

وكان مما يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام أصـحابه: " والنصح لكل مسلم" [1].

فإذا قال قائل: ما هو ميزان النصيحة للأمة؟

- **فـالميزان هـو مـا أشـار إلي النـبي عليـه الصـلاة والسلام بقوله: " لا يؤمن أحدكم حـتي يحب لأخيـه مـا يحب لنفسـه" [2]، فـإذا عـاملت النـاس هـذه المعاملـة، فهذا هو تمام النصيحة.**

فقبـل أن تعامـل صـاحبك بنـوع من المعاملـة فكـر، هـل ترضي أن يعاملك شـخص بهـا؟ فـإن كنت لا ترضـي، فلا تعامله!!

ويعتقدون معني قوله صلي الله عليه وسلم : " المـؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضـه بعضـاً " وشـبك بين أصابعه صلي الله عليه وسلم (1) ....

(1) (1) * شبه النبي صلي اللـه عليـه وعلي آلـه وسـلم المؤمن لأخيه المؤمن بالبنيان الذي يشد بعضه بعضـاً، حـتي يكـون بنـاء محكمـاً متماسـكاً يشـد بعضـه بعضـاً ويقوي به، ثم قرب هذا وأكده، فشبك بين أصابعه.

فالأصـابع المتفرقـة فيهـا ضـعف، فـإذا اشـتبكت، قـوي بعضـها بعضـاً، فـالمؤمن للمـؤمن كالبنيـان يشـد بعضـه

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الإيمان / باب (الدين النصيحة) ، ومسلم / كتاب الإيمـان .

[2] البخاري/ كتاب الإيمان، ومسلم / كتاب الإيمان.

بعضاً، فالبنيان يمسك بعضه بعضاً، كذلك المؤمن مع أخيه إذا صار في أخيه نقص، فإن هذا يكمله، فهو مرآة أخيه إذا وجد فيه النقص كمله، إذا احتاج أخوه ساعده، إذا مرض أخوه عاده ... وهكذا في كل الأحوال. فأهل السنة والجماعة يعتقدون هذا المعني ويطبقونه عملاً.

وقوله (1) صلي الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم (2) وتراحمهم (3) وتعاطفهم (4) كمثل الجسد، إذا اشتكي منه عضو، تداعي له سائر الجسد بالحمي والسهر"(5).........

(1) (1) " قوله " : هنا معطوف على " قوله " في الحديث السابق.

(2) (2) أي: مودة بعضهم بعضاً.

(3) (3) أي: رحمة بعضهم بعضاً.

(4) (4) أي: عطف بعضهم على بعض.

(5) (5) أي: أنهم يشتركون في الآمال والآلام، فيرحم بعضهم بعضاً، فإذا احتاج، أزال حاجته، ويعطف بعضهم على بعض باللين والرفق وغير ذلك... ويود بعضهم بعضاً، حتي إن الواحد منهم إذا رأي في قلبه بغضاء لأحد من إخوانه المسلمين، حاول أن يزيله وأن يذكر من محاسنه ما يوجب زوال هذه البغضاء.

فالجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو، ولو من أصغر الأعضاء، تداعي له سائر الجسد، فإذا أوجعك أصبعك الخنصر الذي هو من أصغر الأعضاء، فإن الجسد كله يتألم، إذا أوجعتك الأذن، تألم الجسد كله، وإذا أوجعتك العين، تألم الجسد كله، وغير ذلك،

فهذا المثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام مثل مصور للمعني ومقرب له غاية التقريب.

ويأمرون (1) بالصبر عند البلاء (2) ....

(1) (1) " يأمرون ": قد يقال: إن هذه الكلمة تشمل أمر نفوسهم، لقوله تعالي:) وما أبري نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ([يوسف:53]، فهم يأمرون حتي أنفسهم.

(2) (2) الصبر: هو تحمل البلاء، وحبس النفس عن التسخط بالقلب أو اللسان أو الجوارح.

والبلاء: المصيبة، قال الله تعالي: ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجـوع ونقص من الأمـوال والأنفس والثمـرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنـا للـه وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة-155] .

فالصـبر يكـون عنـد البلاء، وأفضـله وأعلاه الصـبر عنـد الصدمة الأولي، وهذا عنوان الصـبر الحقيقي، كمـا قالـه النبي صلي الله عليه وسـلم للمـرأة الـتي مـر بهـا وهي تبكي عند قبر، فقال لها: " اتقي اللـه واصـبري، قـالت: إليك عني فإنكم لم تصـب بمصـيبتي ولم تعرفـه، فقيـل لها: إنه النبي صلي الله عليه وسـلم فـأتت النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم فلم تجـد عنـده بـوابين، فقـالت: لم أعرفك، فقال: " إنما الصبر عند الصدمة الأولي" [(1)]، أمـا بعد أن تبرد الصدمة، فإن الصبر يكون سهلاً، ولا ينال بـه كمال الصبر.

- **فأهل السنة والجماعة يـأمرون بالصـبر عنـد البلاء، وما من إنسان إلا يبتلي إما في نفسه وإمـا في أهلـه، وإما في ماله، وإما في صحبه، وإما في بلده، وإما في المسلمين عامة. ويكون ذلـك إمـا في الـدنيا وإمـا في الدين، والمصيبة في الـدين أعظم بكثـير من المصـيبة في الدنيا.**
- **فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء في الأمرين:**

- **- فأمــا الصــبر على بلاء الــدنيا، فــأن يتحمــل المصيبة كما سبق.**
- **- وأما الصبر على بلاء الـدين، فـأن يثبت على دينـه، ولا يتزعزع عنه، ولا يكن كمن قال الله تعـالي فيهم: ﴿ ومن الناس من يقـول آمنـا باللـه فـإذا أوذي في اللـه جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ [العنكبوت : 10].**

والشــكر عنــد الرخــاء (1) والرضــا بمــر القضــاء(2)

....

(1) (1) الرخـاء: سـعة في العيش، والأمن في الـوطن، فيأمرون عند ذلك بالشكر.

---

(1) رواه البخاري/ كتاب الجنائز باب زيارة القبور، ومسلم/ كتاب الجنائز.

- وأيهما أشق الصبر على البلاء، أو الشكر عند الرخاء؟

اختلف العلماء في ذلك، فقال بعضهم: إن الصبر على البلاء أشق، وقال آخرون: الشكر عند الرخاء أشق.

والصواب: أن لكل واحد آفته ومشقته، لأن الله عز وجل قال:) ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ([هود: 9-10].

لكن كل منهما قد يهونه بعض التفكير: فالمصاب إذا فكر وقال إن جزعي لا يرد المصيبة ولا يرفعها، فإما أن أصبر صبر الكرام، وإما أن أسلو سلو البهائم، فهان عليه الصبر، وكذلك الذي في رخاء ورغد.

- لكن أهل السنة والجماعة يأمرون بهذا وهذا، بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء.

(1) (2) الرضي أعلي من الصبر ومر القضاء: هو ما يلائم طبيعة الإنسان، ولهذا عبر عنه بـ "المر".

- فإذا قضي الله قضاء لا يلائم طبيعة البشر، وتأذي به، سمي ذلك مر القضاء، فهو ليس لذيذاً ولا حلواً، بل هو مر، فهم يأمرون بالرضي بمر القضاء.
- واعلم أن مر القضاء لنا فيه نظران:

النظر الأول: باعتباره فعلاً واقعاً من الله.

والنظر الثاني: باعتباره مفعولاً له.

فباعتبار كونه فعلاً من الله يجب علينا أن نرضي به، ألا نعترض على ربنا به، لأن هذا من تمام الرضي بالله رباً.

وأما باعتباره مفعولاً له، فهذا يسن الرضي به، ويجب الصبر عليه.

- فالمرض باعتبار كون الله قدره الرضي به واجب، وباعتبار المرض نفسه يسن الرضي به ، وأما الصبر عليه، فهو واجب، والشكر عليه مستحب.
- ولهذا نقول: المصابون لهم تجاه المصائب أربعة مقامات: المقام الأول: السخط، والثاني: الصبر، والثالث: الرضي، والرابع: الشكر.

فأما السخط، فحرام بل هـو من كبـائر الـذنوب، مثـل أن يلطم خـده، أو ينتـف شـعره، أو يشـق ثوبـه، أو يقـول: واثبوراه! أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذلك مما يدل على السخط، قال النبي صلي اللـه عليـه وسـلم: " ليس منـا من شـق الجيـوب ولطم الخـدود ودعـا بـدعوي الجاهلية"[1].

الثاني: الصبر: بأن يحبس نفسه قلباً ولساناً وجوارح عن التسخط، فهذا واجب.

الثـالث: الرضـي: والفـرق بينـه وبين الصـبر: أن الصـابر يتجـرع المـر، لكن لا يسـتطيع أن يتسـخط، إلا أن هـذا الشيء في نفسه. صعب ومر، ويتمثل بقول الشاعر:

والصبر مثل أسمه مر مذاقته   لكن عواقبه أحلي من العسل

لكن الراضي لا يذوق هذا مراً، بل هو مطمئن، وكان هـذا الشيء الذي أصابه لا شيء.

وجمهـور العلمـاء علي أن الرضـي بالمقضـي مسـتحب، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الصحيح.

الرابع: الشـكر: وهـو أن يقـول بلسـانه وحالـه: " الحمـد لله"، ويري أن هذه المصيبة نعمة، لكن، هذا المقـام، قـد يقول قائل: كيف يكون؟ !

فنقول: يكون لمن وقفه الله تعالي:

فأولاً: لأنه إذا علم أن هذه المصـيبة كفـارة للـذنب، وأن العقوبة على الذنب في الدنيا أهـون من تـأخير العقوبـة في الآخرة، صارت هذه المصيبة عنـده نعمـة يشـكر اللـه عليها.

وثانيـاً: أن هـذه المصـيبة إذا صـبر عليهـا، أثيب، لقولـه تعـالي:) إنمـا يـوفي الصـابرون أجـرهم بغـير حسـاب ([الزمر: 10].

فيشكر الله على هذه المصيبة الموجبة للأجر.

وثالثـا: أن الصـبر من المقامـات العاليـة عنـد أربـاب السلوك، لا ينال إلا بوجود أسبابه، فيشكر الله علي نيـل هذا المقام.

([1]) رواه البخاري/ كتاب الجنائز/ باب ما ينهي من الويل، ومسلم/ كتاب الإيمان.

- ويـذكر أن بعض العابـدات أصـيبت في أصـبعها، فشكرت الله، فقيـل لهـا في ذلـك، فقـالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.
- فأهـل السـنة والجماعـة رحمهم اللـه يـأمرون بالصبر على البلاء، والشكر عند الرخـاء، والرضـي بمـر القضاء.

تتمة:

القضاء يطلق لى معنيين:

أحدهما: حكم الله تعالي الذي هو قضاءه ووصـفه، فهـذا يجب الرضي به بكل حال، سواء كان قضاء دينياً أم قضاء كونياً، لأنه حكم الله تعالي، ومن تمام الرضي بربوبيته.

فمثال القضاء الديني قضاؤه بالوجوب والتحريم والحـل، ومنـه قولـه تعـالي:) وقضـي ربـك آلا تعبـدوا إلا إيـاه ([الأسراء: 23].

ومثال القضاء الكوني: قضاؤه بالرخـاء والشـدة والغـني والفقر والصلاح والفساد والحيـاة والمـوت، ومنـه قولـه تعالي:) فلمـا قضـينا عليـه المـوت ([سـبأ: 14]، ومنـه قولـه تعـالي:)وقضـينا إلي بـني إسـرائيل في الكتـاب لتفسـدن في الأرض مـرتين ولتعلن علـوا كبـيراً ([الأسراء: 4].

المعني الثاني: المقضي، وهو نوعان:

الأول: المقضي شرعاً، فيجب الرضي به وقبوله، فيفعل المأمور به، ويترك المنهي عنه، ويتمتع بالحلال.

والنوع الثاني: المقضي كوناً.

فـإن كـان من فعـل اللـه، كـالفقر والمـرض والجـدب والهلاك ونحـو ذلـك، فقـد تقـدم أن الرضـي بـه سـنة، لا واجب، على القول الصحيح.

- وإن كـان من فعـل العبـد، جـرت فيـه الأحكـام الخمسـة، فالرضـي بـالواجب، وبالمنـدوب منـدوب، وبالمباح مباح، وبالمكروه مكروه، وبالحرام حرام.

ويـدعون إلي مكـارم الأخلاق (1) ومحاسـن الأعمـال (2) ويعتقدون معني قوله صـلي اللـه عليـه وسـلم: " أكمـل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً " (3) ....

(1) (1) أي: أطايبها، والكرم من كل شىء هو الطيب منه بحسب ذلك الشـيء، ومنـه قـول الرسـول صـلي اللـه عليه وسلم لمعاذ: " إيـاك وكـرائم أمـوالهم "[1]، حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن.

- **والأخلاق: جمـع خلـق، وهـو الصـورة الباطنـة في الإنسان، يعني: السجايا والطبائع، فهم يدعون إلي أن يكون الإنسان سريرته كريمة، فيجب الكرم والشـجاعة والتحمل من الناس والصـبر، وأن يلاقي النـاس بوجـه طلـق وصـدر منشـرح ونفس مطمئنـة، كـل هـذه من مكارم الأخلاق.**

(1) (2) " محاسـن الأعمـال " هي ممـا يتعلـق بـالجوارح، ويشمل الأعمال التعبدية والأعمال غير التعبدية، مثـل الـبيع والشـراء والإجـارة، حيث يـدعون النـاس إلي الصدق والنصح في الأعمال كلهـا، وإلي تجنب الكـذب والخيانـة، وإذا كـانوا يـدعون النـاس إلي ذلـك، فهم بفعله أولي.

(2) (3) هذا الحديث[2] ينبغي أن يكون دائماً نصب عيني المؤمن، فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم من الله ومع عباد الله.

- أمـا حسـن الخلـق مـع اللـه، فـأن تتلقي أوامـره بالقبول والإذعـان والانشـراح وعـدم الملـل والضـجر، وأن تتلقي أحكامه الكونية بالصبر والرضي ومـا أشـبه ذلك.

- أما حسن الخلـق مـع الخلـق، فقيـل: هـو بـذل الندي، وكف الأذي، وطلاقة الوجه.

بذل الندي، يعني: الكرم، وليس خاصاً بالمال، بل بالمـال والجاه والنفس، وكل هذا من بذل الندي.

وطلاقة الوجه ضده العبوس.

وكذلك كف الأذي بأن لا يؤذي أحداً لا بالقول ولا بالفعل.

ويندبون (1) إلي أن تصل من قطعك (2) ....

(1) (1) أي: يدعون.

---

(1) رواه البخاري/ كتاب المغازي، ومسلم/ كتاب الإيمان.

(2) رواه أحمد / (2/ 250)، والترمذي (2612)، وأبو داود (4682) .

(2) (2) " أن تصل من قطعك " : من الأقارب ممن يجب تجب صلتهم عليك، إذا قطعوك، فصلهم، لا تقل: من وصلني، وصلته! فإن هذا ليس بصلة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: " ليس الواصل بالمكافىء، إنما الواصل من إذا قطعت رحمه، وصلتها" [1]، فالواصل هو الذي إذا قطعت رحمه، وصلها.

وسأل النبي صلي الله عليه وسلم رجل، فقال: يا رسول الله! إن لي أقارب، أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون على! فقال النبي صلي الله عليه وسلم: " إن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم الملل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك" [2].

" تسفهم المل" ، أي : كأنما تضع التراب أو الرماد الحار في أفواههم.

- **فأهل السنة والجماعة يندبون إلي أن تصل من قطعك، وأن تصل من وصلك بالأولي، لأن من وصلك وهو قريب، صار له حقان: حق القرابة، وحق المكافأة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: " من صنع إليكم معروفاً، فكافئوه " [1].**

وتعطي من حرمك (1) وتعفو عمن ظلمك (2) ....

(1) (1) أي: من منعك، ولا تقل: منعني، فلا أعطيه.

(2) (2) أي: من أنتقصك حقك: إما بالعدوان، وإما بعدم القيام بالواجب.

- **والظلم يدور على أمرين: اعتداء وجحود: إما أن يعتدي عليك بالضرب وأخذ المال وهتك العرض، وإما أن يجحدك فيمنعك حقك.**

وكمال الإنسان أن يعفو عم ظلمه.

- **ولكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام.**

أولاً: رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته، فإن من عفا وأصلح، فأجره على الله.

---

(1) رواه البخاري/ كتاب الإدب/ باب ليس الواصل بالمكافىء.

(2) رواه البخاري (2558) / كتاب البر والصلة.

ثانياً: لإصلاح الود بينك وبين صاحبك، لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة، استمرت الإساءة بينكما، وإذا قابلت إساءته بإحسان، عاد إلي الإحسان إليك، وخجل، قال الله تعالي:) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ([فصلت:34].

فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة، لكن بشرط أن يكون العفو إصلاحاً، فإن تضمن العفو إساءة، فإنهم لا يندبون إلي ذلك لأن الله اشترط فقال:) فمن عفا وأصلح ([الشوري: 40]، أي: كان في عفو إصلاح، أما من كان في عفوه إساءة، أو كان سبباً للاساءة، فهنا نقول: لا تعف ! مثل أن يعفو عن مجرم، ويكون عفوه هذا سبباً لا ستمرار هذا المجرم في إجرامه، فترك العفو هنا أفضل، وربما يجب ترك العفو حينئذ.

(1) (1) وذلك لعظم حقهما.

- ولم يجعل الله لأحد حقاً يلي حقه وحق رسوله إلا للوالدين، فقال:) واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ([النساء: 36].

وحق الرسول في ضمن الأمر بعبادة الله، لأنه لا تتحقق العبادة حتي يقوم بحق الرسول عليه الصلاة والسلام، بمحبته واتباع سبيله، ولهذا داخلاً في قوله:) واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً (، وكيف يعبد الله إلا من طريق الرسول صلي الله عليه وسلم ، وإذا عبد الله على مقتضي شريعة الرسول، فقد أدي حقه.

ثم يلي حق الوالدين، فالوالدان تعباً على الولد، ولا سيما الأم، قال الله تعالي:) ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ([الأحقاف:15]، وفي آية أخري:) ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمة وهنا على على وهن([لقمان: 14]، والأم تتعب في الحمل، وعند الوضع، وبعد الوضع، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له.

ولهذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر، حتي من الأب.

قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: قال في الرابعة: " ثم أبوك "[1].
والأب أيضاً يتعب في أولاده، ويضجر بضجرهم، ويفرح لفرحهم، ويسعي بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشتهم، يضرب الفيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده.
فكل من الأم والأب له حق، مهما عملت من العمل، لن تقضي حقهما، ولهذا قال الله عز وجل:) وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ([الإسراء: 24]، فحقهم سابق، حيث ربياك صغيراً حين لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً، فواجبها البر.

- **والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس، ولهذا قدمه النبي صلي الله عليه وسلم على الجهاد في سبيل الله، كما في حديث ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله! أي العمل أحب إلي الله ؟ قال: " الصلاة على وقتها " . قلت: ثم أي؟ قال: " بر الوالدين" . قلت : ثم أي؟ قال: " الجهاد في سبيل الله " [2].**
- **والوالدان هما الأب والأم، أما الجد والجدة، فلهما بر، لكنه لا يساوي بر الأم والأب، لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة، فكان برهما واجباً من باب الصلة لكن هما أحق الأقارب بالصلة، أما البر، فإنه للأم والأب.**
- **لكن، ما معني البر؟**

البر: إيصال الخير بقدر ما تستطيع، وكف الشر.
إيصال الخير بالمال، إيصال الخير بالخدمة، إيصال الخير بإدخال السرور عليهما، من طلاقة الوجه، وحسن المقال والفعال، وبكل ما فيه راحتهما.

- **ولهذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم على الأولاد، إذا لم يحصل على الولد ضرر، فإن كان**

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الأدب/ باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ومسلم / كتاب البر والصلة.
[2] رواه البخاري/ كتاب الأدب / باب البر والصلة، ومسلم / كتاب الإيمان.

عليه ضرر، لم يجب عليه خدمتهما، اللهم إلا عند الضرورة.

ولهذا نقول: إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه، أما ما فيه ضرر عليه، سواء كان ضرراً دينياً، كأن يأمراه بترك واجب أو فعل محرم، فإنه لا طاعة لهما في ذلك، أو كان ضرراً بدنيا، فلا يجب عليه طاعتهما. أما المال، فيجب عليه أن يبرهما ببذله، ولو كثر إذا لم يكن عليه ضرر، ولم تتعلق به حاجته، والأب خاصة له أن يأخذ من مال ولده ما شاء، ما لم يضر.

- وإذا تأملنا في أحوال الناس اليوم، وجنا كثيراً منهم لا يبر بوالديه، بل هو عاق، تجده يحسن إلي أصحابه، ولا يمل الجلوس معهم، لكن لو يجلس إلي أبيه أو أمه ساعة من نهار، لوجدته متململاً، كأنما هو على الجمر، فهذا ليس ببار، بل البار من ينشرح صدره لأمه وأبيه ويخدمهما على أهداب عينيه، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل ما يستطيع.

وكما قالت العامة:" البر أسلاف " ، فإن البر مع كونه يحصل به البار على ثواب عظيم في الآخرة، فإنه يجازي به في الدنيا. فالبر والعقوق كما يقول العوام: " أسلاف "، أقرض، تستوف، إن قدمت البر، برك أولادك، وإن قدمت العقوق، عقك أولادتك..

وهنا حكايات كثيرة في أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده، وكذلك العقوق فيه حكايات تدل على أن الإنسان عقه أولاده كما عق هو آباءه.

فأهل السنة والجماعة يأمرون ببر الوالدين.

(1) (1) وكذلك يأمرون بصلة الأرحام.

- ففرق بين الوالدين والأقارب الآخرين، الأقارب لهم الصلة، والوالدان لهما البر، والبر أعلي من الصلة، لأن البر كثرة الخيرو الإحسان ، لكن الصلة آلا يقطع، ولهذا يقال في تارك البر: إنه عاق، ويقال فيمن لم يصل: إنه قاطع، فصلة الأرحام واجبة، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة، قال الله تعالي:) فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله

فأصـمهم وأعمي أبصـارهم ﴿ [محمـد: 22-23]، وقـال النبي عليه الصلاة والسـلام: " لا يـدخل الجنـة قـاطع"[1]، أي: قاطع رحم.

- **والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة.**

وكل ما أتي ولم يحدد بالشرع كالحرز
فبالعرف احدد

وعلي هـذا، يرجـع إلي العـرف فيهـا، فمـا سـماه النـاس صلة، فهو صلة، وما سماه قطيعـة، فهـو قطيعـة، وهـذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم.

- إذا كـان النـاس في حالـة فقـر، وأنت غـني، وأقاربك فقراء، فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك.

- وإذا كان الناس أغنياء، وكلهم في خير، فيمكن أن يعد الذهاب إليهم في الصباح أو المساء صلة.

- **وفي زماننـا هـذه الصـلة بين النـاس قليلـة، وذلـك لانشغال النـاس في حـوائجهم، وانشـغال بعضـهم عن بعض، والصــلة التامــة أن تبحث عن حــالهم، وكيــف أولادهم، وتــري مشــاكلهم، ولكن هــذه من الأســف مفقـودة، كمـا أن الـبر التـام مفقـود عنـد كثـير من الناس.**

(1) (1) أي: ويـأمرون، يعـني: أهـل السـنة والجماعـة بحسن الجوار مع الجيران، والجـيران هم الأقـارب في المنزل، أدناهم أولاهم بالإحسان والإكـرام: قـال اللـه تعالي: ﴾ وبالوالـدين إحسـانا وبـذي القـربي واليتـامي والمســاكين والجــار ذي القــربي والجــار الجنب ﴿ [النسـاء: 36]، فأوصـي اللـه بالإحسـان إلي الجـار القريب والجار البعيد.

وقال النبي صلي الله عليه وسلم " من كان يـؤمن باللـه واليوم الآخر، فليكرم جاره " [1].

وقــال: " إذا طبخت مرقــة، فــأكثر من ماءهــا، وتعاهــد جيرانك" .

---

[1] البخاري/ كتاب الأدب/ باب فضل صلة الرحم، ومسلم / كتاب البر والصلة.

[1] رواه البخاري/ كتاب الأدب / باب حق الضيف، ومسلم / كتاب الإيمان.

وقال: " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتي ظننت أنه سيورثه " [1].
وقال: " والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه" [2]. إلي غير ذلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه.

- **والجار إن كان مسلماً قريباً، كان له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار.**

وإن كان قريباً جاراً ، فله حقان: حق القرابة، وحق الجوار.
وإن كان مسلما غير قريب وهو جار، فله حقان: حق الإسلام، وحق الجوار.
وإن كان جاراً كافراً بعيداً، فله حق واحد، وهو حق الجوار.

- **فأهل السنة والجماعة يأمرون بحسن الجوار مطلقاً، أيا كان الجار ومن كان أقرب، فهو أولي.**
- **ومن المؤسف أن بعض الناس اليوم يسيئون إلي الجار أكثر مما يسيئون إلي غيره، فتجده يعتدي على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه.**

وقد ذكر الفقهاء رحمهم الله في آخر باب الصلح في الفقه شيئاً من أحكام الجوار، فليرجع إليه.
والإحسان (1) إلي اليتامي (2) والمساكين(3) ....
(1) كذلك يأمرون، أي: أهل السنة والجماعة بالإحسان إلي هؤلاء الأصناف الثلاثة.
(2) اليتامي: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه.
وقد أمر الله تعالي بالإحسان إلي اليتامي، وكذلك النبي صلي الله عليه وسلم حث عليه في عدة أحاديث.
ووجه ذلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه، فهو في حاجة إلي العناية والرفق.
والإحسان إلي اليتامي يكون بحسب الحال.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الأدب/ باب الوصاة بالجار، ومسلم/ كتاب البر والصلة.
[2] رواه البخاري/ كتاب الإدب/ باب إثم من لا يأمن من جاره بوائقه.

(3) والمساكن: هم الفقراء، وهو هنا شامل للمسكين والفقير.
فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع في آيات متعـددة من القرآن، وجعل لهم حقوقاً خاصة في الفىء وغيره.
ووجـه الإحسـان إليهم أن الفقـر أسـكنهم وأضـعفهم وكسـر قلـوبهم، فكـان من محاسـن الإسـلام أن نحسـن إليهم جبراً لما حصل لهم من النقص والانكسار.
والإحسان إلي المساكين يكون بحسب الحال: فـإذا كـان محتاجاً إلي طعام، فالإحسان إليه بأن تطعمـه، وإذا كـان محتاجـاً إلي كسـوة، فالإحسـان إليـه بـأن تكسـوه، وإلي اعتبار بأن توليه اعتباراً، فإذا دخـل المجلس، تـرحب بـه، وتقدمه لأجل، أن ترفع من معنويته.
فمن أجل هـذا النقض الـذي قـدره اللـه عـز وجـل عليـه بحكمته أمرنا عز وجل أن نحسن إليهم.
وابن السـبيل (1) والرفـق بـالمملوك (2) ....
(1) ابن السبيل، وهو المسافر، وهو هنا المسافر الـذي انقطــع بــه الســفر، أو لم ينقطــع، بخلاف الزكـاة لأن المسافر غريب، والغريب مستوحش، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه، فإن هذا مما يأمر به الشرع.
فـإذا نـزل ابن سـبيل بـك ضـيفاً، فمن إكرامـه أن تكـرم ضيافته.
لكن قال بعض العلمـاء: إنـه لا يجب إكرامـه بضـايفته إلا في القري دون الأمصار!
ونحن نقول: بل هي واجبة في القـري والأمصـار، إلا أن يكون هناك سـبب، كضـيق الـبيت مثلاً، أو أسـباب أخـري تمنع أن تضيف هذا الرجل، لكن على كـل حـال ينبغي إذا تعذر أن تحسن الرد.
(2) يعني: أن أهـل السـنة والجماعـة يـأمرون بـالرفق بالمملوك.
- **وهذا يشمل المملوك الآدمي والبهيم:**
- **فـالرفق بـالمملوك الآدمي أن تطعمـه إذا طعمت، وتكسوه إذا اكتسبت، ولا تكلفه ما لا يطيق.**

- والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت ما تركب أو تحلب أو تقتني، يختلف بحسب ما تحتاج إليـه، ففي الشتاء تجعلهـا في الأمـاكن الدافئـة إذا كـانت تتحمـل الـبرد، وفي الصـيف في الأمـاكن البـاردة إذا كـانت لا تتحمـل الحـر، ويـؤتي لهـا بالطعـام وبالشـراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي، وإذا كانت مما تحمل، فلا تحمل ما لا تطيق.
- وهـذا يـدل على كمـال الشـرع، وأنـه لم ينس حـتي البهـائم، وعلي شـمولية طريقـة أهـل السـنة والجماعة.

وينهـون عن الفخـر والخيلاء والبغي، والاسـتطالة على الخلق بحق أو بغير حق (1)......

(1) الفخر بالقول، والخيلاء بالفعـل، والبغي العـدوان، والاستطالة الترفع والاستعلاء.

فينهـون عن الفخـر: أن يتفـاخر الإنسـان على غـيره بقوله، فيقول: أنا العالم ! أنا الغني! أنا الشجاع!

وإن زاد على ذلـك أن يسـتطيل على الآخـرين ويقـول: ماذا أنتم عنـدي؟ فيكـون هـذا فيـه بغي واسـتطالة على الخلق.

والخيلاء تكون بالأفعال، يتخايـل في مشـيته وفي وجهـه وفي رفـع رأسـه ورقبتـه إذا مشـي، كأنـه وصـل إلي السماء، والله عز وجل وبخ من كان هـذا فعلـه، وقـال: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ [الإسراء: 37].

فأهل السـنة والجماعـة ينهـون عن هـذا، ويقولـون: كن متواضعاً في القول وفي الفعل، حتي في القـول، لاتثن على نفسك بصفاتك الحميدة، إلا حيث دعت الضـرورة أو الحاجة إلي ذلك، كقول ابن مسعود رضي الله عنه: " لـو أعلم أحداً هو أعلم مني بكتاب الله تبلغـه الإبـل، لـركبت إليه"[1]، فإنه رضي الله عنه قصد بذلك أمرين:

الأول: حث الناس على تعلم كتاب الله تعالي.

والثاني: دعوتهم للتلقي عنه.

---

[1] رواه مسلم/ كتاب فضائل الصحابة.

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفي عليهم خصاله أبداً، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس، سقط من أعينهم، فاحذر هذا الأمر.

- والبغي: العدوان على الغير، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول صلي الله عليه وسلم في قوله: " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام "[1].

قالبغي على الخلق بالأموال والدماء والأعراض.

- في الأموال، مثل أن يدعي ما ليس لهن أو ينكر ما كان عليه، أو يأخذ ما ليس له، فهذا بغي على الأموال.
- وفي الدماء: القتل فما دونه، يعتدي على الإنسان بالجرح والقتل.
- وفي الأعراض: يحتمل أن يراد بها الأعراض، يعني: السمعة، فيعتدي علي بالغيبة التي يشوه بها سمعته، ويحتمل أن يراد بها الزني وما دونه، والكل محرم، فأهل السنة والجماعة ينهون عن الاعتداء على الأموال والدماء والأعراض.

- وكذلك الاستطالة على الخلق، يعني الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق.

فالاستعلاء على الخلق ينهي عنه أهل السنة والجماعة، سواء كان بحق أو بغير حق، والاستعلاء هو أن الإنسان يترفع علي غيره.

وحقيقة الأمر أن من شكر نعمة الله عليك أن الله إذا ما عليك بفضل على غيرك من مال أو جاه أو سيادة أو علم أو غير ذلك، فإنه ينبغي أن تزداد تواضعاً، حتي تضيف إلي الحسن حسني، لأن الذي يتواضع في موضع الرفعة هو المتواضع حقيقة.

- ومعني قوله: " بحق " أي: حتي لو كان له الحق في بيان أنه عال مترفع، فإن أهل السنة والجماعة ينهون عن الاستعلاء والترفع.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الحج / باب الخطية أيام مني، ومسلم / كتاب القسامة.

أو يقال: إن معني قوله: " الاستطالة بحق " : أن يكون أصل استطالته حقاً، بأن يكون قد اعتدي عليه إنسان، فيعتدي عليه أكثر.
فأهل السنة والجماعة رحمهم الله ينهون عن الاستطالة والاستعلاء على الخلق، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق.
ويأمرون بمعالي الأخلاق (1) وينهون عن سفاسفها (2) وكل ما يقولونه (3) ويفعلونه (4) من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة. وطرقتهم هي دين الإسلام، الذي بعث الله به محمداً صلي الله عليه وسلم (5).
(1) أي: ما كان عالياً منها، كالصدق والعفاف وأداء الأمانة ونحو ذلك.
(2) أي: رديئها، كالكذب والخيانة والفواحش ونحو ذلك.
(3) أي: أهل السنة والجماعة.
(4) من هذا وغيره.
(5) وهذه حال بنبغي أن يتتبه لها، وهو أننا كل ما نقول وكل ما نفعله نشعر حال قوله أو فعله أننا نتبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، مع الإخلاص لله، لتكون أقوالنا وأفعالنا كلها عبادات لله عز وجل، ولهذا يقال: إن عبادات الغافلين عادات، وعادات المنتبهين عبادات.
فالإنسان الموفق يمكن أن يحول العادات إلي عبادات، والإنسان الغافل يجعل عباداته عادات.
فليحرص المؤمن على أن يجعل أقواله وأفعاله كلها تبعاً لكتاب الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم، ينال بذلك الأجر، ويحصل به كمال الإيمان والإنابة إلي الله عز وجل.
لكن لما أخبر النبي صلي الله عليه وسلم أن أمته (1) ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة (2)..........................
(1) " أن أمته "، يعني: أمة الإجابة، لا أمة الدعوة، لأن أمة الدعوة يدخل فيها اليهود والنصاري، وهم مفترقون، فاليهود إحدي وسبعون فرقة، والنصاري على اثنتين وسبعين فرقة، وهذه الأمة على ثلاث وسبعين، كلها

تنسب نفسها إلي الإسلام واتباع رسول الله صلي الله عليه وسلم.

(2) قوله: " كلها في النار إلا واحدة " [1]: لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإنما المعني أن عملها مما تستحق به دخول النار.

- **وهذه الثلاث والسبعون فرقة، هل وقعت الآن وتمت أو هي في المنظور؟**

أكثر الذين تكلموا على هذا الحديث قالوا: إنها وقعت وأنتهت، وصاروا يقسمون أهل البدع إلي خمسة أصول رئيسية، ثم هذه الخمسة الأصول يفرعون عنها فرقاً، حتي أوصلوها إلي أثنتين وسبعين فرقة، وأبقوا فرقة واحدة، وهي أهل السنة والجماعة.

وقال بعض العلماء: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أبهم هذه الفرق، ولا حاجة أن نتكلم فنقسم البدع الموجودة الآن إلي خمسة أصول، ثم نقسم هذه الأصول إلي فروع، حتي يتم العدد، حتي إننا نجعل الفرع أحياناً فرقة تامة من أجل مخالفتها في فرع واحد، فإن هذا لا يعد فرقة مستقلة.

فالأولي: أن نقول : إن هذه الفرق غير معلومة لنا، ولكننا نقول: بلا شك أنها فرق خرجت عن الصراط المستقيم، منها ما خرج فأبعد، ومنها ما خرج خروجاً متوسطاً، ومنها ما خرج خروجاً قريباً، ونلزم بحصرها، لأنه ربما يخرج فرق تنتسب للأمة الإسلامية غير التي عدها العلماء، كما هو الواقع، فقد خرج فرق تنتسب إلي الإسلام من غير الفرق التي كانت قد عدت في عهد العلماء السابقين.

وعلي كل حال، فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن أمته أمة الإجابة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها ضالة، وفي النار، إلا واحدة، وهي:

وهي الجماعة(1)، وفي ا لحديث عنه صلي الله عليه وسلم أنه قال: " هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي " (2) صار (3) المتمسكون بالإسلام المحض

---

[1] رواه الإمام أحمد جـ 4 ص 102، وأبو داود [4597].

الخــالص عن الشــوب هم أهــل الســنة والجماعــة (4) ....

(1) " الجماعة "، يعني: الـتي اجتمعت على الحـق ولم تتفرق فيه.

(2) الذين كانوا على ما كـان عليـه الرسـول صـلي اللـه عليه وسـلم وأصـحابه هم الجماعـة الـذين اجتمعـوا على شريعته، وهم الذين امتثلوا ما وصي الله به:) أن أقيموا الــدين ولا تتفرقــوا فيــه ([الشــوري: 13]، فهم لم يتفرقوا، بل كانوا جماعة واحدة.

(3) جملة " صار " جواب الشرط قوله: " لكن لما " .

(4) فإذا سئلنا: من أهل السنة والجماعة؟

فنقـول: هم المتمسـكون بالإسـلام المحض الخـالص عن الشوب.

- **وهذا التعريف من شيخ الإسلام ابن تيميه يقتضــي أن الأشــاعرة والماتريديــة ونحــوهم ليســوا من أهــل السنة والجماعة، لأن تمسكهم مشوب بما أدخلـوا فيـه من البدع.**

وهذا هو الصحيح، أنه لا يعد الأشـاعرة والماتريديـة فيمـا ذهبـوا إليـه في أسـماء اللـه وصـفاته من أهـل السـنة والجماعة.

وكيـف يعـدون من أهـل السـنة والجماعـة في ذلـك مـع مخالفتهم لأهل السنة والجماعة؟!

لأنـه يقـال: إمـا إن يكـون الحـق فيمـا ذهب إليـه هـؤلاء الأشاعرة والماتريدية، أو الحق فيمـا ذهب إليـه السـلف. ومن المعلــوم أن الحــق فيمــا ذهب إليــه الســلف، لأن الســلف هنـا هم الصـحابة والتـابعون وأئمـة الهـدي من بعدهم، فإذا كان الحق فيمـا ذهب إليـه السـلف، وهـؤلاء يخالفونهم، صاروا ليسوا من أهـل السـنة والجماعـة في ذلك.

وفيهم الصديقون (1) ....

(1) قوله: " وفيهم " ، أي في أهل السنة.

(2) " الصـديقون " : جمـع صـديق، من الصـدق، وهـذه الصيغة للمبالغة، وهو الذي جاء بالصدق وصـدق بـه، كمـا قال تعالي:) والـذي جـاء بالصـدق وصـدق بـه أولئـك هم

المتقون﴾ [الزمر: 33]، فهو صادق في قصده، وصادق في قوله، وصادق في فعله.

- **أما صدقه في قصده، فعنده تمام الإخلاص لله عز وجل، وتمام المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، قد جرد الإخلاص والمتابعة، فلم يجعل لغير الله تعالي شركاً في العمل، ولم يجعل لغير سنة الرسول صلي الله عليه وسلم اتباعاً في عمله، فلا شرك عنده ولا ابتداع.**
- **صادق في قوله، لا يقول إلا صدقاً، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: " عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلي البر، وإن البر يهدي إلي الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحري الصدق حتي يكتب عند الله بمعني: أن فعله لا يخالف قوله، فإذا قال، فعل، وبهذا يخرج عن مشابهة المنافقين الذين يقولون صديقاً " [1].**
- **صادق في فعله، ما لا يفعلون.**
- **وأيضاً يصدق بما قامت البينة على صدقه، فليس عنده رد الحق، ولا احتقار للخلق.**

- **ولهذا كان أبو بكر أول من سمي الصديق من هذه الأمة، لأنه لما أسري بالنبي عليه الصلاة والسلام، وجعل يتكلم أنه أسري به إلي بيت المقدس وعرج به إلي السماء، صار الكفار يضحكون به ويكذبونه ويقولون: كيف تذهب يا محمد في ليلة وتصل في ليلة إلي ما وصلت إليه في السماء ونحن إذا ذهبنا إلي الشام نبقي شهر آلم نصله وشهر الرجوع؟! فاتخذوا من هذا سلماً ليكذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، ولما وصلوا إلي أبي بكر، وقالوا: إن صاحبك يحدث ويقول كذا وكذا ! قال: إن كان قال ذلك، فقد صدق. فمن ذلك اليوم سمي الصديق، وهو أفضل الصديقين من هذه الأمة وغيرها.**

(1) " الشهداء " جمع شهيد، بمعني: شاهد.

---

[1] رواه البخاري/ كتاب الأدب/ ومسلم / كتاب البر والصلة.

فمن هم الشهداء؟

- قيل: هم العلماء، لأن العالم يشهد بشرع الله، ويشهد على عباد الله بأنها قامت عليهم الحجة، ولهذا يعد العالم مبلغاً عن الله عز وجل ورسوله محمد صلي الله عليه وسلم، فيكون شاهداً بالحق على الخلق.
- وقيل: إن الشهيد من قتل في سبيل الله.
- والصحيح أن الآية عامة لهذا وهذا.

وفيهم الصالحون (1) ومنهم أعلام (2) الهدي (3) ومصابيح (4) الدجي(5) أولوا المناقب المأثورة (6) والفضائل المذكورة(7) ....

(1) الصالح ضد الفاسد، وهو الذي قام بحق الله وحق عباده، وهو غير المصلح، فالإصلاح وصف زائد على الصلاح، فليس كل صالح مصلحاً، فإن من الصالحين من همه هم نفسه، ولا يهتم بغيره، وتمام الصلاح بالإصلاح.

(2) الأعلام: جمع علم، وهو في الأصل الجبل، قال الله تعالي: ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ [الشوري: 32]، يعني: الجبال، وسمي الجبل علماً، لأنه يهتدي به ويستدل به.

(3) " أعلام الهدي " : الذين يستدل الناس بهم ويهتدون بهديهم، وهم العلماء الربانيون، فإنهم هم الهداة، وهم مصابيح الدجي.

(4) المصابيح: جمع مصباح، وهو يستصبح به للإضاءة.

(5) الدجي: جمع دجية، وهي الظلمة، أي: هم مصابيح الظلم، يستضيء بهم الناس، ويمشون على نورهم.

(6) " المناقب ": جمع منقبة، وهي المرتبة، أي: ما يبلغه الإنسان من الشرف والسؤدد.

(7) " الفضائل "، جمع فضيلة، وهي الخصال الفاضلة، التي يتصف بها الإنسان من العلم والعبادة من العلم والعبادة والزهد والكرم وغير ذلك، فالفضائل سلم للمناقب.

وفيهم الأبدال (1) وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم (2) وهم الطائفة المنصورة(3).......................

(1) " الأبــدال " : جمــع بــدل ، وهم الــذين تمــيزوا عن غيرهم بالعلم العبادة، وسموا أبدلاً: إما لأنهم كلمـا مـات منهم أحداً، خلفـه بدلـه، أو أنهم كـانوا يبـدلون سـيئاتهم حسنات، أو أنهم كانوا أسوة حسنة كانوا يبـدلون أعمـال الناس الخاطئة صابئة، أو لهذا كله وغيره.

(2) الإمام: هو القدوة، وفي أهل السنة والجماعة أئمـة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم، مثل: الإمـام أحمد، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وسفيان الثوري، والأوزراعي، وغـــــيرهم من الأئمـــــة المشـــــهورين المعـروفين، كشـيخ الإسـلام ابن تيميـة، وشـيخ الإسـلام محمد بن عبد الوهاب.

- وقوله: " أئمة الدين" : خـرج بـه أئمـة الضـلال من أهل البدع، فهؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة، بل هم على خلاف أهل السنة والجماعة، وهم، وإن سـموا أئمة، فإن من الأئمـة أئمـة يـدعون إلي النـار، كمـا قلا تعـالي عن آل فرعـون:) وجعلنـاهم أئمـة يـدعون إلي النار ويوم القيامة لا ينصرون ([القصص:41].

(3) يعني: أهل السنة والجماعة هم الطائفـة المنصـورة الـتي نصـرها اللـه عـز وجـل، لأنهم داخلـون في قولـه تعالي:) إنا لننصر رسلنا والذين آمنـوا في الحيـاة الـدنيا ويــوم يقــوم الآشــهاد([غــافر: 51]، فهم منصــورون، والعاقبة لهم.

منصـوراً ومنصـوراً عليـه، إذاً، فلابـد من مغالبـة، ولابد من محنة، ولكن، كما قال ابن القيم رحمه الله:

الحق منصور وممتحن فلا تعجب فهذي سنة الرحمن

فلا يلحقك العجز والكسل إذا رأيت أن الأمور لم تتم لــك بأول مرة، بل اصبر وكرر مرة بعد أخري، واصبر على مـا يقــال فيــك من اســتهزاء وســخرية، لأن أعــداء الــدين كثيرون.

لا يثني عزمك أن تري نفسك وحيداً في الميـدان، فـأنت الجماعة وإن كنت واحداً، ما دمت على الحـق، ولهـذا ثـق بأنك منصور إما في الدنيا وإما في الأخرة.

- ثم إن النصر ليس نصر الإنسان يشخصه، بل النصر الحقيقي أن ينصر الله تعالي ما تـدعو إليـه من الحـق، أمـا إذا أصـيب الإنسـان بـذل في الـدنيا، فـإن ذلـك لا ينافي النصر أبداً، فالنبي عليـه الصـلاة والسـلام أوذي إيــذاء عظيمــاً، لكن في النهايــة انتصــر علي من آذاه، ودخل منصوراً مؤزراً ظافراً بعد أن خرج منها خائفاً.

(1) (1) هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم [1] بنحو ما ساقه المؤلف عن عـدد من الصـحابة عن النـبي صـلي الله عليه وسلم.

- قولــه: " لا تــزال " : هــذا من أفعــال الاســتمرار، وأفعال الاستمرار أربعة، وهي: فتيء، وانفك، وبــرح ، وزال إذا دخل عليها النفي أو شبهه.
- فقوله : " لا تزال طائفة من أمتي على الحق" ، يعني: تستمر على الحق.
- وهذه الطائفـة غـير محصـورة بعـدد ولا بمكـان ولا بزمان، يمكن أن تكون بمكان تنصر فيه في شــىء من أمور الدين، وفي مكان آخر تنصـر فيـه طائفـة أخـري، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقياً منصوراً مظفراً.
- وقولــه: " لا يضــرهم"، ولم يقــل: لا يــؤذيهم، لأن الأذيــة قــد تحصــل، لكن لا تضــر، وفــرق بين الضــرر والأذي، ولهذا قال الله تعالي في الحديث القدســي: " يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني " [1]، وقــال سبحانه وتعالي:) إن الذين يؤذون الله ورسـوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة([الأحزاب: 57]، وفي الحــديث القدسي: " يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنــا الــدهر" [2]، فــأثبت الأذي ونفي الضــرر، وهــذا ممكن، ألا تــري الرجل يتأذي برائحة البصل ونحوه، ولا يتضرر بها.
- وفي قوله: " حتي تقوم الساعة ": إشكال، لأنه قد ثبت في الصحيح أنها " لا تقوم السـاعة حـتي لا يقـال في الأرض: اللــه، اللــه" [3]، أي: حــتي يمحي الإســلام

---

[1] رواه البخاري/ لكامل الأعتصام، مسلم / كتاب الإمارة.

[1] رواه مسلم/ كتاب البر والصلة.

[2] رواه البخاري/ كتاب التوحيد، ومسلم / كتاب الألفاظ.

[3] رواه مسلم / كتاب الإيمان

كله، ولا يبقي من يعبد الله أبداً، فكيف قال هنا: " حتي تقوم الساعة" ؟!
وأجاب عنه العلماء بأحد جوابين:
فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب، والله أعلم، وصلي الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً(1).
1- إما أن يكون المراد حتي قرب قيام الساعة، والشيء قد يعب به عما قرب منه إذا كان قريباً جداً، وكأن هؤلاء المنصورون إذا ماتوا ، فإن الساعة تكون قريبة جداً.
2- أو يقال: إن المراد بالساعة ساعتهم.
ولكن القول الأول أصح، لأنه إذا قال: " حتي تقوم الساعة " ، فقد تقوم ساعاتهم قبل الساعة العامة بأزمنة طويلة، وظاهر الحديث أن هذا النصر سيمتد إلي آخر الدنيا، فالصواب أن المراد بذلك إلي قرب قيام الساعة. والله أعلم.
(1) (1) بهذا الدعاء الجليل ختم المؤلف رحمه الله هذه الرسالة القليلة اللفظ الكثيرة المعني، وهي تعتبر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة وفيها فوائد عظيمة، ينبغي لطالب العلم أن يحفظها.
- **والحمد لله رب العالمين على الإتمام، ونسأل الله أن يتم ذلك بالقبول والثواب، وصلي الله وسلم علي نبينا محمد وعلي آله وصحبه وسلم أجمعين.**

قمت بمراجعة الكتاب وإضافة ما تدعو الضرورة إليه وحذف ما لا يحتاج إليه في يوم الجمعة السابع عشر من شعبان سنة 1414هـ
وقمت بمراجعته مع المضاف مساء يوم الخميس السابع والعشرين
من صفر سنة 1415هـ